الإشراف الفني   زهير الحمو

أوراق ومذكرات

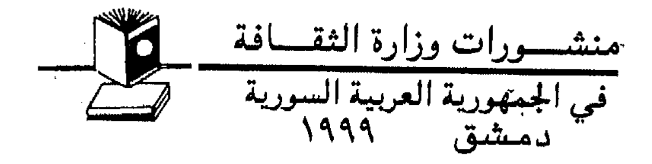
فخري البارودي

١٨٨٧ - ١٩٦٦

خمسون عاماً من حياة الوطن

القسم الأول

إعداد وتحقيق : د. دعد الحكيم
مديرة مركز الوثائق التاريخية



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٩

أوراق ومذكرات فخري البارودي ١٨٨٧ - ١٩٦٦ :
خمسون عاماً من حياة الوطن/ اعداد وتحقيق دعد الحكيم . -
دمشق : وزارة الثقافة، ١٩٩٩ . - ٢ج : صور؛ ٢٤سم .

١- ٢ر٩٢٣ : البارودي ، فخري ب ٢- العنوان
٣- البارودي ٤- الحكيم مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ١٦٥٩ / ٩ / ١٩٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

كان فخري البارودي مالئ الدنيا، وشاغل الناس طوال خمسين عاماً من حياته التي كانت في حقيقة الأمر، حياة وطنه العربي الكبير من المحيط إلى الخليج بكل آلامه وآماله وطموحاته.

لقد قدر له أن يمضي عمره وهو يقترح وينصح ويخطط ويحذّر وينظم ويراسل ويخطب ويسجن وينفى، حتى أصبح بحق البطل الشعبي المحبوب على امتداد الأرض العربية. كان فيلسوفاً وزعيماً وشاعراً وكاتباً وموسيقياً ومنظراً سياسياً ومصلحاً اجتماعياً، وكانت داره في حي القنوات بدمشق، مثل كرمة ابن هانئ في القاهرة، مجمع الساسة والأدباء والشعراء والظرفاء والضيوف وأصحاب الحاجات، كانت بمثابة دار الندوة، تهوي إليها أفئدة العرب في الأيام العصيبة التي عصفت بهم، فكانوا يجدون فيها الأمن والأمان والابتسامة الدائمة والكرم العربي الأصيل.

وكان يحذّر من أخطار الصهيونية والاستسلام للعدو أو الوثوق به وبوعوده، ويدعو العرب إلى حمل السلاح والاستعداد للقتال في كل

وقت، ويدعو إلى الوحدة والتضامن والإخاء والانضباط ونبذ الخلافات والأنانية والعنصرية والاستهتار والفوضى والطائفية والعصبية.

ولكن صرخاته، لم تجد لها آذاناً مصغية، وكانت كارثة فلسطين وما تلاها وانصراف رفاق الأمس عنه وتجاهل كل آرائه وأفكاره، كان ذلك كله أكبر من أن يحتمله، فانزوى في داره يقاوم فعل الناس وفعل السنين حتى طواه الموت تحت جناحه وهو وحيد بائس حزين، وطوى معه داره وذكرياتها ومعالمها.

واليوم، لا يكاد يعرفه في دمشق ربع من كانوا يعرفونه يوم وفاته، وخوفاً من أن تسدل الأيام ستائر النسيان عليه، كما فعلت بغيره، فقد رأيت أن أنشر أوراقه ومذكراته[1] المحفوظة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق والتي تشمل سبعة مجلدات من الرقم ٧٩ إلى الرقم ٨٦ من القسم الخاص.

وقد تصفحت هذه المجلدات فوجدتها تحوي كميات هائلة من الأوراق المتناثرة التي لا رابط بينها، فهي تشمل رسائل وقرارات ومذكرات وإيصالات بعضها كامل ومعظمها ناقص، وقد كتبت بخطوط مختلفة واعتراها الحذف والشطب والإضافة، بل إن فيها رسائل ليست للبارودي أصلاً. وانما هي موجهة له من أصدقائه الكثيرين، وفيها الكثير من الغث والقليل من السمين، فعمدت إلى هذه الأوراق

(١)- من الغريب أن صديقه الحميم خير الدين الزركلي لم يذكره بحرف واحد في كتابه الأعلام وكأنه كان يعجل بنسيانه.

وراجعتها واحدة واحدة وانتقيت منها ما يصلح للنشر، وجمعتها إلى مذكراته المطبوعة فنقحتها وجعلت لكل وثيقة عنواناً، وأزلت الاستطراد والانقطاع والتكرار وأدرجتها بحسب التسلسل الزمني وعرّفت بالهامش بأهم الأحداث والرجال التي وردت. وزودت هذه الأوراق بمجموعة من الصور التاريخية للرجال الذين ذكرهم البارودي، ولفرق القمصان الحديدية التي شكلها، ولاحتفالات شعبنا الأولى بعيد الجلاء، وعسى أن أكون بهذا العمل المتواضع قد وفيت هذا الرجل العظيم بعض ما قدمه لوطنه وأمته، وعرفت هذا الجيل والأجيال القادمة بواحد من الأبطال الذين خطوا بدمائهم وعرقهم تاريخ أمتهم.

ولا يسعني إلا تقديم الشكر الجزيل إلى السيدة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة، التي شجعتني على هذا العمل القومي وساعدت على ظهوره إلى حيز الوجود.

كما ويسعدني أيضاً توجيه الشكر للأستاذ أكرم حسن العلبي الذي ساعدني في مراجعة الوثائق والتعليق عليها.

وفوق كل ذي علم عليم.

دمشق في ١٠ حزيران ١٩٩٨

دعد الحكيم


To: www.al-mostafa.com

البارودي في سطور

- هو محمد فخري بن محمود البارودي

- ولد في دمـــــشق يوم الرابع من رجب سنة ١٣٠٤هـ/ ٣٠آذار سنة ١٨٨٧م، كما ذكر في مذكراته[١].

- تلقى علومه الابتدائية في الكتاتيب والمدارس الخاصة وتخرَّج من المدرسة العازارية.

- التحق بثانوية «مكتب عنبر سنة ١٩٠٢» وتخرَّج منه سنة ١٩٠٨م.

- حارب مع العثمانيين في الحرب العالمية الأولى برتبة ملازم.

- أسِر في الحرب، وسجن في سجن قصر النيل بالقاهرة، وأطلق سراحه سنة ١٩١٧م.

- التحق بجيش الأمير فيصل وصار مرافقاً له برتبة ملازم أول.

- حارب الفرنسيين بلسانه وقلمه وسلاحه، فاعتقلوه عدَّة مرات.

- كان سجنه سنة ١٩٣٦م سبباً في إضراب الستّين يوماً في دمشق.

---

(١) في المصادر التي تحدثت عنه روايات متباينة عن ولادته، ذُكر فيها أنه ولد سنة ١٨٨٤م و١٨٨٦ و١٨٨٨ و١٨٨٩، وهذه حال المشاهير.

– انتسب إلى حزب الكتلة الوطنية التي تزعّمها بعد إبراهيم هنانو كلّ من سعد الله الجابري وهاشم الأتاسي وجميل مردم بك وشكري القوتلي.

– انتخب نائباً عن دمشق على مدى عشرين عاماً بدءاً من سنة١٩٢٨م.

– اعتزل العمل السياسي سنة١٩٤٨ واكتفى بالعمل الشعبي.

– تزوج سنة١٩٢١، وتوفيت زوجته سنة١٩٥٤، ولم ينجب أولاداً.

والدته السيدة نظيرة كيلارأميني وله أختان هما:

– إيثار

– وسنية

– مرض في أوائل سنة١٩٦٦م، فنقل إلى مشفى المواساة حيث توفي يوم الاثنين الثاني من أيار سنة١٩٦٦م، ودفن في مقابر أسرته في الباب الصغير عن عمر يناهز الثمانين، رحمهُ الله تعالى.

وقد أوصى أن تكتب على قبره هذه الأبيات التي يراها الآن زائرة في قبر الأسرة بجوار «مخفر الشيخ حسن» من الجنوب تماماً

قفوا أيها الزوار قبري هنيهة   وقولوا سلاماً أيها الميت الحر
وطوفوا حيال القبر صحبي وفكروا   بموت أكيد ثم يتبعه حشر
تروا أن كأس الموت حق على الورى   وكل له يوم، وإن ألّف العمر

فخري البارودي[١]

(١) هذه المعلومات وعدد من الصور زودنا بها الأستاذ وليد الطباع ابن عمة المرحوم فخير البارودي.

مؤلفاته وأعماله

١ – ديوان شعر بعنوان: تاريخ يتكلم. دمشق ١٩٦٠ ، ١٩٣ صفحة

٢ – ديوان شعر بعنوان: قلب يحترق. دمشق ١٩٦٢ ، ١٤٢ صفحة

٣– المذكرات: صدرت في جزأين. ١٩٥١ و١٩٥٢ ، ٢٤٩ صفحة

٤– مذكرة الشرطي . دمشق ١٩٤٢ ، ٤٧ صفحة

٥– كارثة فلسطين . دمشق ١٩٥٠ ، ٦١ صفحة

٦ – كتاب الطبيخ ، لمحمد حسان البغدادي. تحقيق. ١٩٦٤ ، ١١٢ صفحة

٧– فصل الخطاب بين السفور والحجاب. دمشق١٩٢٤ ، ١٦ صفحة

٨– المعجم الموسيقي. ويقع في تسعة مجلدات مكتوبة بالآلة الكاتبة ، وتقع في نحو ثلاثة آلاف صفحة. وهو موجود في مكتبة الأسد تحت الرقم ١١٦٠٤ عام.

٩ – المعجم الشامي: محاولة لوضع معجم للكلمات العامية الشامية ، موجود في مجمع اللغة العربية بدمشق.

١٠ - عشرات المقالات التاريخية والسياسية والعلمية والاجتماعية نشرت في جريدة صديقة محمد كرد علي (المقتبس)، كما نشرت في جريدة الأيام والعاصمة والقبس...

١١ - جريدة «حط بالخرج» أسسّها في دمشق سنة ١٩٠٩هـ، وكان يكتب فيها تحت اسم مستعار.

١٢ - أوراقهُ المحفوظة في السجلاَّت الخاصَّة في مركز الوثائق التاريخية.

١٣ - وقد ألّفت السيدة «نهال بهجت صدقي» من بيروت كتاباً شاملاً عنه سنة ١٩٧٢م، وهو الكتاب الوحيد، فيما نعلم.

العناوين الرئيسة في المذكرات

١ – رحلته إلى أوربا سنة ١٩١١م

٢– العرب والأتراك ١٩١١

٣– مسألة البلقان ١٩١١

٤ – الامتيازات الأجنبيَّة ١٩١١

٥– عباية ١٩١١

٦– حمام العرس ١٩١٢

٧– مؤتمر باريس ١٩١٣

٨– معتقلو الفرنسيين ١٩٢٥

٩ – تأبين عبد المحسن الكاظمي ١٩٣٥

١٠ – الدعاية التركية ضد سورية ١٩٣٧

١١ – المبارزة ١٩٣٧

١٢ – رسالة إلى مكرم عبيد ١٩٣٧

١٣- رسائل إلى الكتلة الوطنية ١٩٣٧

١٤- الدعايات الشيوعية ١٩٣٧

١٥- المكتب القومي العربي ١٩٣٧

١٦- رسالة إلى حسني تللو ١٩٣٩ -١٩٤١

١٧- رسالة إلى ويغاند ١٩٤٠

١٨- رسالة إلى الانكليز ١٩٤٠

١٩- ملحمة ٢٩ أيار ١٩٤٥

٢٠- ملحمة قرية الضمير ٨حزيران ١٩٤٥

٢١- رسائله إلى :

- فوزي سلو

- أديب الشيشكلي

- اللواء محمد نجيب

- الرئيس جمال عبد الناصر

وموضوعات كثيرة أخرى

لطفي الحفار فوزي البكري سعد الله الجابري عادل العظمة فخري البارودي وقنصل العراق والدكتور أحمد قدري

بسم الله الرحمن الرحيم

طلب إليّ كثير من الإخوان أن أنشر مذكراتي. ولما لم تكن لدي مذكرات يومية مدونة، فقد اعتذرت. ولما ألحوا، عدت إلى ما دونته، وإلى ذاكرتي أستمد منها الوحي.

ليس المهم في كتابة المذكرات سرد الحوادث التي تمر بالإنسان، بل بيان أثرها في حياته. والواقع أن المذكرات التي تُعنى بالتوجيه الخفي هي التي تنال شأناً. فسرد حوادث البطولة هو توجيه خفي نحو البطولة. وذكر آلام الوطن وبيان ما مر به من محن، هو توجيه غير مباشر لتقديس الوطن والدفاع عنه.

وأهم ما في المذكرات هو وصف حياة الكاتب وروحه وبيئته، ليجد فيها القارئ صورة واضحة للكاتب وللمجتمع، فيحسّ وهو يقرؤها أنّ الكاتب حي إلى جانبه، يحدثه ويقص عليه أخباره فيكون شاهد عيان خالداً، يساعد المؤرخ على إيضاح الحقائق.

ويجب أيضاً ألا تفقد المذكرات روح الحكاية، وأن يحس القارئ أنه يقرأ فيها قصة حياة، وحياة وطن في فترة معينة لا أن يشعر أنه أمام كتاب معلومات جاف. فالمعلومات تفقد رونقها إذا لم تكن مطبوعة بطابع الكاتب، ممزوجة بعاطفته وخفقات قلبه.

على هذا أقدم إلى القراء هذه المذكرات، كتبتها بكل صدق وأمانة، وعملت بقول الحكيم القائل: «إذا اختصم أخي مع الحق فأنا مع الحق».

فخري البارودي

القسم الأول
مذكَّراتُ البَارودي





طفولتي الأولى

ظاهِر العُمر الزّيداني: جَدُّنا[1]

في صباح أحد أيّام الخريف من سنة ١١٨٩ هجرية/ ١٧٧٥ ميلادية، طرق شاب غريب باب دار آل الشويكي، في محلة «الشويكة» اليوم، وكانت في ذلك الزمن قرية في ضاحية دمشق القريبة. ففتح الباب، وخرج منه كهل استقبل الطارق ببشاشة.

كان الطارق فتى في ريعان الشباب، ثيابه رثة ملطخة. فحيّا صاحب الدار، وسأله: أهذه دار الشيخ عبد الحليم الشويكي؟

فأجابه: نعم هذه داره، فماذا تريد؟

قال: لي حديث طويل أريد أن أقصه عليك!

أدخله الرجل إلى الغرفة الأولى من الدار، المعدة للضيوف، ورحب به. وما أن استقر به المقام حتى طلب شيئاً يأكله، قائلاً إنه لم يذق طعاماً منذ يومين. فسارع صاحب الدار وجلب ما وجد من حواضر البيت، فأقبل الضيف يلتهم الطعام التهاماً لشدة جوعه.

حدّق صاحب البيت، سعيد بن عبد الحليم الشويكي، بالضيف الشاب،

(١) بداية الجزء الأول المطبوع سنة ١٩٥١م.

فتمثل فيه ملامح صديق قديم لجده عبد الغفار الشويكي، يدعى الشيخ ظاهر العمر[1].

فقد كان ظاهر العمر كهذا الشاب، أبيض البشرة، واسع العينين، صغير الفم، رقيق الشفتين، طويل الحاجبين، مدوَّر الأنف، طويل الذراعين، خفيف الشعر أسودَهُ.

وكان ظاهر العمر يتردد على بيت عبد الغفار قديماً. فلما توفي عبد الغفار، استدعى ظاهر نجله الشيخ عبد الحليم إلى عكا، فسافر إليها بين ١٧٣٢ و١٧٣٥. وكان عبد الحليم فقيهاً شاعراً، ففوض إليه ظاهر أمر الفتوى في عكا والبلاد الخاضعة لحكمه، واختاره مربياً لأولاده، يدرسهم الآداب والفقه.

ظل سعيد يتفرس في وجه ضيفه وهو يأكل، ويسائل نفسه، أيكون هذا الشاب من أنسباء ظاهر العمر؟ لقد سمع سعيد أخيراً أن الحرب وقعت بين ظاهر العمر والعثمانيين، وأن حاكم مصر «أبا الذهب» جرَّد جيشاً وزحف به على عكا، ففر ظاهر العمر أمامه. ترى هل فرَّ هذا الشاب، هو الآخر، من عكا، وجاء ينشد ملاذاً في دار الشويكي؟

لم يكن سعيد مخطئاً في حدسه، إذ ما انتهى الضيف من الأكل حتى قال: رأيتك تحدق بي كثيراً، فهل تريد أن تعرف من أنا؟

فأجاب سعيد: نعم... يخيل إليَّ أنك من آل الظاهر، أليس كذلك يا ضيف الخير؟

قال: أصبت، أنا محمد بن أحمد بن ظاهر العمر. وقد تركت قريبكم الشيخ

---

(١) ظاهر بن عمر بن أبي زيدان، وُلد في صفد سنة ١٦٩٥م، وخلف أباه عليها، ثم شمل نفوذه معظم فلسطين وشرقي الأردن، فأرسلت إليه الدولة العثمانية أسطولاً لمحاربته في عقر داره: عكّا، فعاجله أحد رجاله، وقتله غيلة سنة ١٧٧٥م.

عبد الحليم الشويكي[1] في بلاد بشارة، وأظنه التجأ إلى بيت علي الصغير وشيخ المقاولة».

فنهض سعيد وعانقه قائلاً: أنا ابن الشيخ عبد الحليم!

راح الضيف يسرد حكايته، فقال ما خلاصته: بعد احتلال عكا، هربت مع جدي الظاهر، وبقيت معه حتى مقتله على يد أحمد آغا الدنكزلي. وكان والدك الشيخ عبد الحليم معنا[2]، فتركته في بلاد بشارة، ولجأت هناك إلى بيت علي الصغير، وفي نيتي السفر إلى دمشق. وقد آووني وأطعموني، ثم دلّوني على الطريق إلى دمشق. ومنذ خمسة أيام وأنا أسعى من قرية إلى قرية، حتى وصلت صباح اليوم إلى هنا.

ولما لم يكن لنا في دمشق من أصدقاء غير آل الشويكي، فقد بحثت عنهم، فدلّوني على داركم، وأحمد الله أني حظيت بك. إني أريد الاختفاء في مكان لا تصل إليه يد الدولة، لأكون أميناً على حياتي حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. فأشر عليَّ بما أفعل.

فطمأنه سعيد وهدّأ من روعه قائلاً: أنت بعد اليوم منا، فلا بأس عليك. قم واسترح، وغداً نرى ما يكون!

في صباح اليوم التالي اصطحبه سعيد إلى الحمّام، واستبدل له بأسماله، ثياباً شامية. وبعد أيام أخذه إلى رئيس مصنع بارود (الأوجاق- أليكيجري) الانكشارية، وكان صديقاً له. فقدم إليه محمداً، زاعماً أنه نسيبه، وطلب له عملاً

---

(١) عبد الحليم بن عبد الله، علاّمة فاضل. تلقى العلوم في مصر، وأقام بعكّا، وله شعرٌ حسن، وكانت وفاته فيها سنة١١٨٥ هـ/ سنة١٧٧١م سلك الدرر٢/ ٢٥٤. والشويكي، نسبة إلى الشويكة، قرية قرب طولكرم بفلسطين.

(٢) توفي الشيخ عبد الحليم الشويكي في عكا سنة١٧٧١م / سنة١١٨٥هـ، أي قبل وفاة ظاهر العمر بأربع سنوات. انظر ترجمته في سلك الدرر للمرادي ج٢/ صفحة ٢٥٤

في المصنع. فقبله الرئيس حالاً وسلَّمه إلى «الأسطه» أي رئيس العَمَلَة، ليعلّمه الصنعة، ومنذ ذلك الحين، تحوّل اسمه من محمد الظاهر إلى محمد البارودي.

وبعد زمن أتقن محمد الصنعة، وأصبح رئيساً للمصنع، وأحرز رتبة الآغوية. ولم يمض على دخوله دمشق بضع سنوات حتى تزوج ورزق عدة أولاد. وقد لاقى حتفه بحادثة انفجار في المصنع، فقذفه الانفجار من محلة السنجقدار إلى أمام دائرة المشيرية في الساحة العسكرية (وهي قصر العدل اليوم)، فتكسَّرت أضلاعه، ولم يسلم غير رأسه. وقد بقي حياً ثلاثة أيام ينازع الموت. وفي اليوم الثالث عاد ولده حسن من الحج، فمات قرير العين برؤيته.

يتضح مما ذكرت، أن جدي الأول، محمد بن أحمد بن ظاهر العمر، الذي تلقب بالبارودي، دخل دمشق سنة ١٧٧٥م. وعلى هذا الأساس أكون أنا: فخري ابن محمود بن محمد حسن بن محمد بن حسن بن محمد الظاهر (الملقب بالبارودي) بن أحمد بن ظاهر العمر.

أما نسبي من جهة والدتي، فأنا فخري بن نظيرة ابنة أمين بن سليمان العَلَمي، المعروف بالكيلار أميني[1]، وأصله من القدس.

ولم أذكر نسبي هذا على سبيل التفاخر، بل لتسجيل الواقع، ورحم الله الشاعر القائل:

قالوا: ابنُ مَنْ أنتَ يا هذا؟ فقلتُ لهمْ ... إني امرؤٌ جدّهُ الأعلى أبو البشرِ
قالوا: وهل نال مجداً؟ قلتُ: واعجبي ... أتسألوني مجداً ليسَ من ثمري

ولدتُ في الساعة الرابعة من صباح يوم الخميس، الواقع في ٥ رجب سنة ١٣٠٤هـ[2]، في دارنا في حي القنوات بدمشق.

وكان جدي محمد حسن البارودي قد سافر يومئذ إلى بيروت في طريقه إلى

---

(١) أمين المخازن.

(٢) يوافق ٣٠آذار ١٨٨٧م

الآستانة، ونزل فيها ضيفاً على صديقه فخري بك، والد الداماد أحمد نامي[1]، فأبرق كاتب دائرتنا يوسف أفندي الكاتب إلى جدي يبشره بولادتي. فأجابه جدي مباركاً، تاركاً لوالدي الخيار في أن يسميني إما «محمد فخر الدين» أو «واصل». فاختار والدي الاسم الأول. ومع الزمن حذف الناس منه اسم محمد، ثم ما لبثوا أن لقبوني بـ«فخري» وحذفوا «الدين». وهكذا استقر اسمي نهائياً على «فخري» وحده، وما زال كذلك إلى اليوم.

أولاد الذوات

نشأت في محيط «ارستقراطي» بالنسبة لذلك الزمن. كان آل البكري أخوال والدي، وأبناء العظم أبناء عمة والدتي، وآل العلمي أولاد عمها، وآل العابد والركابي وشيخ الأرض والشيخ فضلي والحسيبي وغيرهم من أصهارنا. ونظراً لكثرة التزاوج بين الأسر الدمشقية، كانت أسر كثيرة تمتُّ إلينا بالنسب.

ولما كنت وحيداً لوالدي، ولم يكن في هذا الفرع من آل البارودي ولد ذكر سواي، فقد ربيت بالدلع والدلال، على أيادي الأهل وأكتاف الحشم. ولولا لطف الله، وانتسابي في شبابي لحلقة الناهضين من تلامذة الشيخ ظاهر الجزائري[2] رئيس الأحرار في القرن التاسع عشر، لكنت اليوم في عداد الموتى الأحياء.

كان ذلك المحيط محيط نفاق وجهل. وكل من أراد التقرب من الأغنياء لقضاء حاجة -حتى ولو كان منتسباً إلى الإمام علي كرَّم الله وجهه، أو إلى أحد الصحابة الكرام رضي الله عنهم- يغدق عليهم المديح والثناء جزافاً، فيصدقونه، وتنتفخ رؤوسهم بغرور دائم. ولا أبالغ إذا قلت إن أكثرهم كانوا ينظرون إلى الناس نظرتهم إلى العبيد والخدم.

ومازلت أذكر كيف كان هذا التأليه ينعكس في أحاديث الناس، فقد كنا

---

(١) كان صهراً للسلطان عبد الحميد، وهو شركسيّ، فرضته فرنسة في نيسان سنة ١٩٢٦ رئيساً للدولة السورية، ثم أقالته بعد عامين، وحاول الحصول على عرش سورية، لكنّ الشعب رفضه فانزوى في بيروت حتى وفاته. وهو رئيس المحافل الماسونية في سورية ولبنان.

(٢) ظاهر بن عبد الله الجزائري، علامة الشام ومؤسس المكتبة الظاهرية بدمشق. له مؤلفات عديدة. توفي في دمشق سنة ١٩٢٠م عن ٦٨ عاماً.

نسمع الخدم والمزارعين والباعة يذكرون أمامنا آباءنا وأجدادنا بهذه اللهجة: رحم الله جدك، ما كان أبهى طلعته، وما أكرمه، وما أعظم جاهه. كان عندما يمرُّ في المحلة، ينهض الناس إجلالاً له، ويفتحون له الطريق. . . إلخ.

وهكذا كانوا يحسبون سلام الباشا أو البك نعمة من الله. وفي وسط هذا المحيط نشأت. وإني أحمد الله أنه يسَّر لجدي إحضار مربٍّ لي، خلّصني من أيدي الخدم الجهلاء. ذلك أن السلطان عبد الحميد لما تولى الملك بعد خلع السلطان مراد[1]، طرد حاشية السلطان المخلوع، فتفرق أفرادها في أنحاء المملكة ينشدون عملاً. وجاء بعضهم إلى دمشق، فاستخدم جدي منهم مصطفى آغا رئيس طباخي السراي (أشجي باشي)، والخصي خير الدين آغا (حرم آغاسي).

وقد اختار خير الدين مربِّياً لي، فكان لا يفارقني لحظة، ويسهر على تربيتي، ويمنع الأهل والأصدقاء من مداعبتي بكلمات نابية.

وكان ذوات تلك الأيام، ومعظمهم من أصحاب المزارع الأغنياء، يكثرون من اقتناء الخدم. فلكل ذات في داره «وكيل خرج» يشرف على مصروف الدار، وكاتب للمحاسبة، وقهوجي، وحوذي، وندل (سفرجي)، وسائس. وكانت بيوت «الأكابر» تعج بالخدم من سود وبيض، خاصةً بالمماليك المنتمين إلى الشركس والكرج. وكانوا يقتنون أيضاً الجواري على اختلاف ألوانهنّ، ويستولدون الإماء. ومنهم من كان يعترف بولده، ومنهم من يحرمه إكراماً لزوجاته وأولاده.

وكان جميع الخدم تقريباً أُميّين جهلة، خصوصاً أن الذوات كانوا يبحثون عن أرخص الخدم أجراً، ليوفروا بعض دريهمات في الشهر. على أن بعضهم كانوا يحسنون معاملة الخدم، فيستبقونهم في بيوتهم حيث يتزوجون ويصبحون كأفراد العائلة.

---

(١) كان ذلك سنة١٨٧٦م.

ومما يؤسف له أن تربية الأولاد كانت في أيدي الخدم الجهلة، وما تزال كذلك إلى اليوم. وإنه لمن المؤلم أن حكوماتنا العربية لم تعرْ هذا الموضوع الأهمية المناسبة حتى الآن، فلم تفتح مدارس لإعداد مربيات الأطفال والخدم.

الخجا نفّوس(١)

كان في دمشق نساء يعلّمن القرآن الكريم دون سواه، فأرسلتني والدتي إلى دار إحداهن «الخجا نفّوس»، في محلة التعديل في القنوات.

كانت دارها صغيرة، فيها غرفة متّسعة، يجلس فيها الأولاد. منهم من يأتي بطراحة، ومنهم من يأتي بجلد شاة. ولا يزيد عمر أكبرهم عن السابعة. يجلسون من الصباح إلى المساء في هذه الغرفة الرطبة. وإذا تكلم أحدهم أو لعب أكل «الفلقة». وكانت الخجا نفوس كسيحة، لديها عُصي كثيرة مختلفة الطول لضرب الأطفال، فلا يفوتها طفل قريب أو بعيد.

وكانت كبيرات البنات يقمن بخدمة الدار من كنس وشطف وجلي. أما الصبيان فمنهم من يشتري حوائج الخجا، ومنهم من ترسله لجلب «الزوّادات» من دور أولاد الأغنياء. أما أنا فنظراً لرشاقتي وخفتي ونباهتي -على رأيها- فقد سلمتني معالجة بعض مشاكل الأولاد.

وكان من تلامذة الخجا المرحوم منير الدالاتي (أبو عصام). وكان لا يحسن إخراج الحروف صحيحة لصغره، فأقرأتْه الخجا يوماً حرف الذال، فلفظه كالزاي، ولما كررت له الحرف ولم يضبطه، غضبت وأحضرت خيطاً رفيعاً من «المصيص»

---

(١) وصف البارودي طفولته شعراً، كما وصف الخجا نفوس فقال:

أمّا الخجا فكبيرة وكسيحةٌ ... و(كهينة) شرٌّ من الآفاتِ
وجهٌ قبيحٌ ما رأيتُ نظيره ... بين العجائز في جميع حياتي
ودرستُ عاماً عندها بتمامه ... حتّى ختمتُ، وكرّرتُ ختماتي
لكنْ أُقِرُّ بفضلها وبأنني ... أصبحت أقرأ أصعب الآياتِ

تاريخ يتكلم صفحة٤٣

وعقدت به لسانه عقاباً له. ولم يمض عشر دقائق حتى ضبَّ اللسان على الخيط وتورَّم، وازرقَّ وجه الطفل. ولما رأت أخته «أفاكت» ذلك ركضت عائدة إلى بيتها، فرأت والدها المرحوم أحمد الدالاتي أمام الباب فأخبرته بما جرى، فأسرع مع جاره على الساطي الطبيب الشهير، إلى دار الخجا.

وحاول الساطي قطع الخيط، فلم يتمكن من إدخال مقصه الرفيع، لأن اللسان كان قد غطى الخيط. وكانت حالة الطفل تزداد سوءاً، وقد جحظت عيناه وكادت روحه تزهق، لولا أن الله وفَّق، وتمكن الساطي من إدخال ميل رفيع بين اللحم والخيط، فرفع طرفاً من الخيط وقطعه بالمقص، فنجا الطفل.

وعلى الأثر شتم الوالد الخجا شتماً قبيحاً، وأنَّبها تأنيباً عنيفاً، وأخذ ولديه وذهب بهما. ولم يعودا بعد ذلك إلى الخجا.

وكنتُ أمازح منيراً بعد أن كبر، ودخلنا المدرسة الإعدادية، وكان طويل اللسان، فأقول له: «ليت الخجا قطعت لسانك يا مفزور»، فيغرق في الضحك!

الختمة

من المعلوم أن أولاد المسلمين كانوا يحتفلون بإكمال قراءة القرآن الكريم في الكتّاب أو الخجا بختمه. وكان للختمة احتفال خاص. وهكذا أقاموا لي مهرجاناً يوم ختمت القرآن، فخرج الطلاب جميعاً من دار الخجا نفّوس إلى دارنا في موكب مشى فيه الطلاب بصفّ مزدوج، ينشدون الأناشيد المدرسية، وكان عمري ست سنوات آنذاك. ومن الأناشيد التي أنشدوها:

سلامْ سلامْ　　　سلامْ سلامْ
سلامْ عليكمْ　　　كثير السلامْ

ومنها:

بلبلُ الإقبال غرَّدْ　　　وبشيرُ السعد قالْ:
ظهر الهادي محمدْ　　　شمسُ أفلاكِ الكَمالْ

ولما وصل الموكب إلى دارنا وقف والدي وجدي لأمي، وجمع غفير من أخوال والدي ووالدتي مع بعض أصدقاء والدي في باحة دارنا «البراني» الخارجية الخاصة بالرجال، وتناول أحدهم المقرا –ويسمّونه كرسي المصحف– من على رأس حامله، فوضعه على حافة حوض الماء (البحرة)، والمصحف فوق الكرسي، ووقفت أمامه وأنا مرتدٍ ثياباً مزركشة بالفضة صنعت خصيصاً ليوم الختمة، وعلى رأسي طربوش زيّنوه بالماس واللؤلؤ. ثم رفع الطربوش وكيل خرج دائرتنا أمين آغا أبو كامل، وأبدل به طربوشاً جديداً بدون حُلي، وبدأت قراءة الفاتحة، ثم قرأت من أول سورة البقرة، حتى وصلت إلى الآية الكريمة: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وأما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون. إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم﴾.

ولما وصلت إلى هنا، خطف أكبر الأولاد طربوشي وركض به إلى والدي وأعطاه إياه مباركاً له بالختمة. فأعطاه والدي ديناراً ذهبياً «حلواناً» له مع الطربوش، وفرق على كل من الأولاد ريالاً مجيدياً.

الختان

ما تزال حفلات الختان التي تقام اليوم في أحياء دمشق النائية، كما كانت قبل خمسين سنة: يقام الاحتفال في دار صاحب الختان، ويحضره تلامذة الخجا أو الكتّاب الذي يتعلم فيه المختون، كما يجري في مهرجان الختمة.

وبمناسبة ختاني، أقاموا لي مهرجاناً فخماً، وزيَّن أهلي رأسي بالماس والجواهر، وأركبوني حصاناً سارت أمامه صفوف الطلاب بالأناشيد السابقة (سلام سلام سلام سلام)، فطاف الموكب سوق الحميدية وسوق الطويل، ثم عدنا إلى دارنا.

وبعد أن أكل المدعوون ورفقائي وتلامذة الخجا الحلويات، أدخلوني إلى غرفة خاصة، فأمسكني رجل قوي العضلات، بينما أجرى لي الجراح علي الساطي

عملية الختان . وكانت العادة أن يجريها المزين (الحلاّق) لا الطبيب . وما زلت أذكر أن جرحي لم يشف بسهولة ، فتعذبت ثلاثة أشهر . وقد وعدَتْ والدتي أن تقيم لي «سيراناً» كبيراً عند شفائي وبرَّت بوعدها .

الكتّاب[١]

الكتّاب هو شبه مدرسة أهلية ، يتعلم فيها الصغار مبادئ القراءة والكتابة والحساب عند شيخ يتناول أجره أسبوعياً . وكانت الأجرة تسمى «خميسية» لأنَّ الأولاد كانوا يأتون بالمرتّب يوم الخميس ، وكان يتراوح بين القرش والبشلك[٢] في الأسبوع . وكثيراً ما كان الوالد ينقل الولد من كتاب إلى كتاب ، ليقتصد نصف قرش . وكان الأغنياء يعطون المعلم زيادة عن الخميسية رغيفاً من الخبز .

والكتاب عبارة عن غرفة رطبة يجلس الأولاد فيها على الأرض فوق الحصير ، وأمام كل طفل صندوق صغير يضع فيه «صبّرته[٣]» وأدواته . وكان أكثر الشيوخ من أشباه المتعلمين ، ممّن أغلقت في وجوههم أبواب الرزق ، فتسلّطوا على هذه الصنعة للارتزاق .

والواقع أن الكتاتيب كانت زرائب لحبس الأطفال في النهار ، حتى ترتاح أمهاتهم منهم . وكان الشيخ يستخدم الأطفال كما يريد ، فمنهم من يكنس ، ومنهم من يشطف ، ومنهم من يقوم بخدمة ساقي الشاي للشيخ وضيوفه .

وبعد الختمة والختان ، أرسلني أهلي إلى كتّاب «الشابكلية[٤]» في محلة القنوات . وقد وقع الاختيار عليه لأنه قريب من دارنا ، فلا يبعد عنهاأكثر من ستين متراً .

---

(١) وقال في وصف الكتاب :

ونُقلتُ للكتّابِ وهو زريبةٌ   أيضاً شبيه زرائب (الخجوات)

(٢) البشلك يساوي ثلاثة غروش وسبع بارات ونصف ، والقرش يساوي أربعين بارة ، كما ذكر البارودي في رحلة العودة من أوربا ، التالية .

(٣) الصبّرة : اسم الرسالة التي كان يقرأ فيها التلميذُ مبادئ القراءة .

(٤) كلمة محرفة عن الشاذبكيّة نسبة إلى مدرسة شاذي بك الموجُودة إلى اليوم .

كان الكتّاب عبارة عن غرفة عفنة، أشبه بالسجن منه بالمدرسة، وكان شيخه الشيخ عثمان المصري طاعناً في السن، يتجاوز عمره الثمانين. وكنت أجلس إلى جانب النافذة، أتطلع منها إلى الخارج، ولا أفهم كلمة مما أسمع.

هكذا لم أتعلم عند الشيخ عثمان كلمة واحدة تزيد عما قرأته عند الخجا نفّوس. فنقلني والدي إلى كتّاب «القبة»، عند مدخل الدرويشية في القنوات. وكان شيخه فظاً قاسياً، ومع ذلك تعلمت عنده شيئاً من مبادئ الكتابة والحساب.

وبعد بضعة أشهر استعار والي سورية ناظم باشا[1] دارنا في القنوات، وتعهّد بأن يُسلّمنا إياها بعد بضعة أشهر ريثما يجد داراً مناسبة له. وعلى الأثر انتقلت عائلتي إلى بلدة دوما، حيث تملك داراً واسعة. وبدلاً من أن يعيد إلينا الوالي دارنا في دمشق بعد بضعة أشهر، ظل فيها سبع سنوات.

أما أنا فقد نقلني والدي مع العائلة من كتّاب دمشق، إلى كتّاب الشيخ عرابي في دوما، وهو واقع في داخل جامع «أبي الرهج». وكان الشيخ عرابي شرساً، لا يعرف وجهُه الضحك، وكانت غرفة الكتاب لا ترى الشمس أبداً، فساءت حالتي الصحية من التردد عليه، وعندئذ نقلني والدي إلى كتّاب الشيخ أحمد مجيد في جامع الريّس، في الحارة الشرقية. وكان هذا الشيخ حسن الخط والخلق، فعلّمني في مدة قصيرة الحساب والقراءة والخط، ثم أدخلني في طريقته، وهي الطريقة الرشيدية. وكان هو شيخ هذه الطريقة في دوما. وهي إحدى الطرق الصوفية.

وبقيتُ في هذا الكتّاب إلى أن تركنا دوما وعدت مع أسرتي إلى دمشق، حيث استأجر والدي داراً في السنجقدار لأن الوالي لم يشأ أن يترك دارنا في دمشق. وعندئذ دخلت المدرسة العازرية، مما سيرد تفصيله.

---

(١) حُسين ناظم باشا، أشهر ولاة دمشق في العصر العثماني، بنى حيّ المهاجرين وأدخل مياه الفيجة إلى دمشق، كما أدخل التيار الكهربائي وحافلات الترام، وبنى مشفى دمشق الوطني (الغرباء) وساهم في مدّ الخط الحديدي الحجازي وغير ذلك، ومات في أواخر العشرينات غريباً وحيداً معدماً. . .

عندما كنت في دوما، وقعت لي حادثة لا بأس من سردها، لتصوير جانب من حياة ذلك المحيط. ففي ذلك الحين (السنة ١٣١٣هجرية) قدم من مصر إلى دمشق الشيخ محمد الدندراوي، شيخ مشايخ الطريقة الرشيدية[١]. ثم جاء إلى دوما لزيارتها، وحلَّ في بيت آل الريِّس، حيث أقيم له استقبال عظيم. ومازلت أذكر كيف أنه مدَّ رجله أمام جميع الناس، ولم ينهض لأحد من زائريه، حتى ولا للقائمقام.

وفي المساء، بعد الطعام، أقيمت حفلة «ذكر»، ثم راح الناس يُقبّلون يده، ويمرّون بها على وجُوههم ورؤوسهم. ولما وصلني الدور، قبَّلت يده. وكنت يومئذ في السابعة[٢] من عمري، فقدمني إليه الشيخ أحمد مجيد، وعرفني بأنني «النجل الوحيد للحسيب النسيب، الوجيه النبيه» إلى آخر المعزوفة المعروفة. فدعا لي الشيخ بالتوفيق والفتح.

وهنا عصفت بي النخوة، فدعوت الشيخ إلى «سيران» غداً في «المزرعة»، وهي دوحة غنية بالمياه والأشجار، فقبل دعوتي وهو يقول: بارك الله! بارك الله!

بعد انتهاء الحفلة نصف الليل، عدت إلى البيت فأيقظتُ والدتي، وطلبت إليها أن تعطيني المطمورة التي أَجمعُ فيها خرجيَّتي، حتى أشتري ثلاث أواق لحماً، نعمل بها «صفيحة» للشيخ الدندراوي في المزرعة!

وما إن سمعت والدتي الخبر وأدركت أنني دعوتُ فعلاً الشيخ الكبير إلى «سيران» حتى طار صوابها، فأيقظتْ والدي وأبلغتْه الحكاية، فما كان منه إلا أن ارتدى ملابسه، واستدعى الخدم، وأوفد الرسل إلى أملاكه في قرى الجرباء

(١) الطريقة الرشيدية، هي فرع من الشاذلية المغربية المعروفة باليوسفية، انفصلت عنها في القرن الماضي، ولها اليوم أتباع ومريدون في غوطة دمشق.
(٢) الصحيح: التاسعة لأنه سبق له أن ذكر أنه ولد سنة ١٣٠٤هـ.

والريحان والعبارة لاستقدام الذبائح، كما أرسل آخرين إلى المزرعة لإعداد المكان للسيران. وعند الصباح توافدت علينا الخيول والبغال والحمير لتنقل الضيوف. وأرسل والدي عربته الخاصة لنقل الشيخ الدندراوي، فكانت حفلة عامرة بكل معنى الكلمة.

عدنا في المساء إلى البيت منهوكي القوى، وأنا أفكر في الدعوة التي كنت أظن -على صغر سني- أنّ ثلاث أواق من اللحمة تكفي لها. وفي الصباح التالي استدعاني والدي، فأدركت ما ينتظرني، فهربت إلى الحوش واختبأت في زريبة البقر، ورفضت الذهاب إليه. وعندئذ جاء بنفسه يناديني من خارج «البايكة»، فلم أجد بداً من الخروج، ووقفت أمامه مطرقاً، وإذا به يقول: إيه، هل انبسطت أمس يا حبيبي؟

فلم أجبه، فقال: لا تخف، تقدم!

وتقدمت منه، وإذا به يصفعني صفعة على وجهي، كادت تخلع رأسي، ففررتُ من أمامه وهو يقول: سوّد الله وجهك . . . كنت تريد أن تسوّد وجهي بدعوتك . . . خذ هذا الدرس عبرة لك في المستقبل!

هذه الصفعة كانت أقوى صفعة «أكلتها» من والدي في حياتي، وكانت سبب انصرافي عن الطريقة الرشيدية، بل عن جميع الطرق. وبعد مدة قليلة عادت أسرتنا من دوما إلى دمشق، وانطوت بذلك تلك الصفحة في حياتي.

في المدرسة العازرية

بعد عودتنا من دوما إلى دمشق، أرسلني والدي إلى المدرسة العازرية[1]، تلميذاً داخلياً، لكي أتعلم اللغة الفرنسيَّة، وذلك سنة ١٨٩٧ -١٨٩٨، وقد شعرت حالاً بالفرق الكبير بينها وبين الكتاتيب التي تعاقبتُ عليها، فهذا معهدٌ

(١) من أقدم المدارس التبشيرية في دمشق، أُسِّست سنة ١٧٧٥م، وكان فيها في تلك الفترة ثمانية معلمين و١٦٠ تلميذاً، وقامت إلى جانبها مدرسة البنات التي كانت تضم (٥٠٠) تلميذة. الإدارة العثمانية في سورية -عبد العزيز عوض، صفحة ٢٦٥

علمي بكل معنى الكلمة، لازرائب للأطفال. والحمدُ لله على أن وزارات المعارف حاربت تلك الكتاتيب، وقيّدت فتح المدارس الأهلية بشروط علمية وصحية.

ولا أذكر سوى اليسير عن أيامي في تلك المدرسة، ومن ذلك حادث وقع مع ابن خال والدي فوزي البكري. كان فوزي في الصف الرابع، وأنا في الصف الأوّل. وفي يوم عطلة في الصيف، ذهبنا معاً إلى القابون، حيث زرنا والده عطا باشا البكري. ولما سألني الباشا عن حالة المدرسة قلت له، إنها حسنة، لولا أن عدد «المشمشات» التي يقدمونها إلينا بعد الطعام قليل جداً.

وفي اليوم التالي أوصلنا الباشا إلى المدرسة، وقابل رئيسها وقال له: إن الأولاد يشكون من قلة الفواكه، فإذا كنتم لاتقدرون على إشباعهم فإننا نستطيع أن نرسل إليهم المشمش الكافي كل يوم!

فاستحيا الرئيس ووعد بإجراء اللازم. وكانت غرفة الطعام كبيرة، يأكل فيها الطلاب جميعاً بإشراف أحد الرهبان. وبينما كنا نتناول طعام الغداء، دخل علينا الرئيس ووراءه عدد من الأساتذة، وخلفه خادم يحمل طبقاً كبيراً مليئاً بالمشمش. فوقفنا جميعاً احتراماً له، وإذا بالرئيس ينادي بصوت عال: مسيو بكري... أين هو مسيو بكري؟

فأجاب فوزي: بريزان... (يعني حاضر).

فتناول الرئيس الطبق من الخادم، وقدمه إلى فوزي قائلاً بلهجة كلها سخرية: «تفضّل اشبع مشمش»!

وارتبك فوزي، وأجاب: أنا لم أطلب فواكه... ولكن الذي طلبها فخري البارودي!

وكنتُ أجلس في زاوية أخرى من القاعة مع صغار الأطفال، فتقدم نحوي الرئيس، وقال بلغة عربية محطمة: انتي ما في شبع مشمش!

فأجبته: نعم... ما في شبع!

فأعطاني الطبق، فتناولته بكل بساطة قائلاً: مرسي مون بير...

وهكذا وضعت الطبق أمامي، ورحتُ أفرق منه على رفاقي دون أي خجل، بعكس فوزي الذي لم يعد يجرؤ على النظر إلى الرئيس من شدة خجله!

على الرغم من «شيطنتي»، ومن أن «السينيال[١]» لم يفارقني يوماً واحداً أثناء وجودي في المدرسة، فقد تعلمت الفرنسية، وأصبحت أتكلمها بشيء من السهولة. ومايزال لديَّ دفتر من دفاتر تلك المدرسة، فيه تاريخ دخولي إليها، وخروجي منها، وقد كتبَتْ عليه الإدارة الملاحظة التالية عني «دائماً معاقب عقاباً خفيفاً».

أدَّيت الفحص للانتقال إلى الصف الثاني في السنة الثانية (١٨٩٨ -١٨٩٩)، ولكن والدي لم يلبث أن نقلني إلى مدرسة أخرى، ولا أدري السبب حتى الآن، ولكنني بقيت أتأسف على انتقالي، لأن ذلك صرفني عن إتقان اللغة الفرنسية، وقد احتجت إليها كثيراً عند دخولي معترك السياسة، خاصة في العهد الفرنسي.

المدرسة الريحانية

نقلني والدي من العازرية إلى المدرسة «الريحانية»، وهي مدرسة أهلية أسّسها الشيخ محمد المبارك جد الشيخ محمد المبارك النائب الحالي[٢]، وخلفه فيها الشيخ عبد الجليل الدرَّة. وقد جمعت نخبة صالحة من أبناء دمشق.

كانت المدرسة تتألف من ثلاثة صفوف، ثم أسسوا فيها صفاً رابعاً سموه «صف مخصُوص» لكبار الطلاب، تعطى فيه الدروس الأدبية زيادة عن دروس الصف الثالث، ويستظهر طلبته قصائد شعرية، أذكر منها «لامية العجم» و«لامية

---

(١) «Signal» إشارة، كان يحملها التلاميذ الكسالى والمشاغبون.

(٢) يعود تاريخ تأسسها الأول إلى سنة ٥٧٥هـ، أي في عهد صلاح الدين، أوقفها الخواجا ريحان الطواشي، وكانت تقع لصيق المدرسة النورية من الغرب. في زقاق المحكمة، وقد هُدمت في الخمسينات، وقامت مكانها عمارات تجارية والصاغة الجديدة.

العـرب»، وغـيـر ذلك. وعلى الرغم من صـغـرِ سني أدخلوني إلى هذا الصف. وكانت الأجرة فيه ريالاً مجيدياً في الشهر[١].

كـان أسـاتذة المدرسـة يسـمـحـون لطلاَّب «الصف المخـصـوص» بحـضـور اجتماعاتهم الخاصة، وحلقات السمر التي يعقدونها، فتدور فيها المذاكرات الأدبية والأناشيد. ولما كان شرب الشاي نقطة الدائرة في هذه الاجتماعات، فقد كان أكثر الأناشيد عنه وأذكر منها:

يـا مـــديـر الـشـــاي هيَّا ... واســقنا كــأس المحـــيَّا
إن تــكـــن راضـــي عــلـــيَّا ... . . . (نســيت البـــاقي). .

ومنها أيضاً:

يا حُسْنَ شَـــايٍ لاح في بلّورةٍ ... يزهو كـتـبـرٍ في لُجينٍ رائقِ
أدارَهُ السـاقي على الندمان في ... زينة مـعـشـوق ولون العـاشقَ

وبين الطلبة الذين أجيز لهم حضور جلسات الأساتذة، السادة لطفي الحفار، عزت حبَّاب، خليل ملص، شكري العجلاني.

أما أنا، فرغماً عن كوني من تلامذة الصف، فإنهم لم يسمحوا لي بالحضور نظراً لصغر سني، وتعويضاً على ذلك «انتدبوني» مع ممدوح العابد لكي نهيِّئ لهم الشـاي، على أن نبـقى خـارجـاً. فكنا نغلي الماء في «السَّمـاور[٢]»، ونُخـمِّرُهُ في «البـرَّاد» ونصبُّه في الكؤوس. وعندئذ ندق عليهم الباب، فيخرج إلينا الساقي صاحب النوبة في ذلك اليوم، ويستلمه منا مع العدّة.

وكانت العدّة مؤلفة من السماور والبراد وعلبة الشاي والسكر وأكياس الفحم وطاسة غسيل الكؤوس والملاعق الصغيرة، والكل موضوع في صندوق خاص ذي

(١) الليرة العثمانية الذهبية كانت تساوي (٥ $\frac{١}{٤}$)ريال مجيدي.
(٢) جهاز لغلي الشاي وبقائه ساخناً بواسطة الفحم، ويوجد منه اليوم عند القلّة من أهل دمشق، وكان أوّل ما يأخذه معهم أهل دمشق إلى «السيران».

بيوت عديدة. وكان الصندوق رفيق الشيوخ والمعلمين في «السيران» يوم العطلة الأسبوعية.

وبفضل انتدابي لهذه «المهمة»، أتيح لي عن غير قصد أن أتعرف إلى محلة «زقاق المحكمة» التي تقوم فيها المدرسة الريحانية وأن أدخل بيوتها. ذلك أن الثقاب «الكبريت» كان مجهولاً في تلك الأيام. وكان الناس يحتفظون في بيوتهم بجمرة كبيرة الحجم، مطمُورة في «المنقل» فتبقى ٢٤ ساعة قبل أن تصبح رماداً، وكلّما احتاج أصحاب الدار إلى ولعة، اقتطعوا من الجمرة قبساً لإشعال النار.

وجرت العادة أن يقترض الجار من جاره قبساً أو قطعة من الجمر. فلما عيّنوني مُحضرّاً للشاي، اضطررت أن أذهب في كل مرة إلى البيوت المجاورة، «لأشحذ» منها قبساً لإشعال «السماور». وهكذا طرقت مع الزمن أبواب جميع بيوت الحي، وتعرّفت إلى أهلها. ومايزال ببالي أسماء بعض تلك الأسر، منها آل الصبّان، وآل مراد، وآل الحديدي، وسواهم. وكثيراً ما كنت في ساعة العسرة أستعير الجمرات من أربعة أو خمسة بيوت في آن واحد، على سبيل الاحتياط، فإذا انطفأت «ولعة» تكون الأخرى جاهزة.

ومرّ على طلاب «الصف المخصوص» زمن طغت فيه عليهم «موضة» التعمُّم بعمة بيضاء. ومن بين الذين تعمموا السادة لطفي الحفار، خليل ملص، ونسيب البكري. وأراد الأخير إقناعي بالتعمم، فلم يفلح. وقد ظل هو متعمماً مدة سنة ونصف. وقبل أن ينتقل من المدرسة الريحانية إلى المدرسة الإعدادية (أي مكتب عنبر) خلع العمامة، كما خلعها لطفي الحفار. أما خليل ملص فقد «ملص» منها بعد أن اعتمر بها بضعة أيام. وهكذا تبدّدت موجة التعمُّم في تيار العصر الجديد.

المدرسة الياغوشية[1]

كان أبناء «الذوات» في ذلك الزمن يأنفون دخول المدارس الحكومية، وإذا دخلوها بالغوا في الصلف والتمرُّد. وما أقلّ الذين نجحوا منهم فيها في تلك الأيام.

---

(١) اسمها الصحيح: السياغوشية، نسبة لواقفها الوزير الأعظم سياغوش باشا سنة ٩٩٥هـ. وهي اليوم مسجد معروف وجميل في منطقة الشاغور الجواني/ ياغوشية.

في ذلك الحين عيَّن والدي السيد علي السقا أميني، رئيس كُتّاب مديرية المعارف، ولياً لأمري. فأقنع والدي بنقلي من المدرسة الريحانية إلى «مكتب الياغوشية». وكان الأتراك يطلقون اسم مكتب على المدارس الحكومية. وكان في دمشق يومئذٍ ١٣ مدرسة حكومية للذكور، ومنها المدرسة الياغوشية المشار إليها، الواقعة بين محلة الخضيرية والشاغور، وفيها خمسة صفوف.

اختارت مديرية المعارف لإدارة هذه المدرسة، الشيخ أبا الخير المنيّر. ورغم عمَّته البيضاء وانتسابه إلى طبقة الشيوخ المعلّمين. فقد كان فتىً قوياً، وقد وقع الاختيار عليه لرجولته وشجاعته، لأنَّ المدرسة واقعة بين حيَّي الشاغور والميدان، اللَّذَيْنِ اشتهر سكانهما بالمرجلة و«القبضايات»[1].

وكان الحيّان في حالة حرب دائمة، تقع بينهما المعارك بصورة مستمرة. وإذا ذكر الشاغوري أو الميداني أمام أهل الأحياء الأخرى من دمشق، قالوا عنه: «دعنا منه، فإن هذا اصبعه ثخينة». ويقصدون بذلك أنه صعب المراس، قاسي القلب.

وكان من الطبيعي أن تمتد الخصومة بين الحيين إلى طلاب المدرسة، فعند خروجهم في المساء منها، كان الشجار يبدأ بين الطلاب الشاغوريين والطلاب الميدانيين. ولو لم يكن مدير المدرسة الشيخ المنيِّر قوي الشكيمة صنديداً، يملأ قلوب الطلبة رهبة وخوفاً، لدار القتال كل يوم داخل المدرسة من الصباح إلى المساء!

ولم يكن الشجار مقصوراً على أبناء المدرسة الياغوشية فيما بينهم، بل كثيراً ما كنا نتشاجر مع أبناء الكتاتيب الأهلية، فيتدخَّل رجال الشرطة لتفريقنا. ولابدَّ من الملاحظة بأن أبناء المدرسة -على اختلاف أحيائهم وأحزابهم- كانوا يقضون صفاً واحداً في وجه الطلاب الغرباء وضد «زعران» الحارات. وكانت محافظ الجِلد التي نضعُ فيها الكتب ونحملها على ظهورنا، دروعنا الواقية في المعارك!

(١) مفردها: قبضاي، تركية بمعنى الخال القاسي.

«أسلحة» الطلبة

مادمنا نتحدث عن مشاجرات الطلاب، فلا بأس من ذكر الأسلحة التي كنا نستعملها في ذلك الحين، وهي النقّيرة، والمدّاحة، والمقلاع، والنقّيفة، والشبرية، والبونيه.

النقّيرة: قطعة من غصن غليظ، مقطوع من شجرة «الدردار» أو اللوز، طولها من شبر إلى شبر ونصف، رأسها مبري حاد كرأس المسمار.

المدَّاحة: قطعة من قماش صوفي، بيضوية الشكل، موثوقة إلى حبلين من الجانبين، يلفها التلميذ حول خصره تحت زناره. وعندما يشتبك بشجار، يخرجها، ويضع فيها الحجارة، ويقذفها بها إلى مسافات بعيدة.

المقلاع، ويسمّيه بعضُهم «الصَّبّان»، هو أكبر من المداحة، فإذا كان حجر المداحة بحجم اللوزة، فإن حجر المقلاع بحجم الجوزة الكبيرة، وقد يكون أحياناً بحجم الرمانة.

النقّيفة، ويقال لها «العقفات»، هي شعاب من أغصان الشجر، تشد إليها خيوط من المطاط، في وسطها جلدة توضع فيها الحصوة، فتقذفها بعيداً. وكنا نستعملها لصيد العصافير.

الشبرية: خنجر صغير. أما البونيه: فهي قطعة من حديد أو نحاس فيها أربعة ثقوب تدخل بالأصابع، ولها أنصال مسنة وهي خطرة جداً.

بعد وصف هذه «الأسلحة» لا ننسى ذكر الأمواس على اختلافها. ومنها ذات الكبَّاس، وكذلك العصي والقضبان والحجارة والطوب، وكل ما تقع عليه الأيدي في الأزقة، وفي ساحة «الكونة».

الكلاّوي ومعلم التركية

قلت إن مدير الياغوشية الشيخ المنيّر كان مرهوب الجانب لقوته وشجاعته، لذلك هابه الطلاب. ولكنهم ما كانوا ليترددوا في الاعتداء على المعلم الضعيف. وإنني أضرب مثلاً على ذلك الحادثة التالية:

كان في مدرسة «القمّاحين»[1] معلّم للُّغة التركية، وكان قاسياً على الطلبة، لا يغفر لهم أي ذنب، ويجازي كل قصُور بالضرب أو بالفلق.

وكان بين الطلاب تلميذ «مدلّل» عند أهله، يسمى محمد حسن راجحة، من سكان باب الجابية، له خال معدود بين كبار «القبضايات» يُلقَّب بالكلاَّوي يحب ابن اخته محمد حسن حباً زائداً، حتى سمَّاه باسم عائلته، وكنَّاهُ من صغره بأبي حسن.

هذا الغلامُ عصى مرَّة على معلم التركية، وأبى أن يحفظ الدرس فهدده المعلم بالفلق إذا داوم على التمرُّد، فخرج الغلام يبكي، وذهب يشكوه إلى خاله الكلاّوي. فما كان من هذا إلا أن أخرج من جيبه مسدساً من نوع «النيكل» وأعطاه إياه، وأمره أن يذهب ويُطلقَ الرصاص على المعلم!

وعاد الغلام بالفعل، ووجد المعلم في المكتب، فأخرج المسدس وأطلق عليه رصاصتين شردتا عنه، فسارع بعض الأولاد وحالوا بين محمد حسن وبين المعلم.

ومايزال هذا المعلم إلى اليوم قيد الحياة، وهو السيد محمود الصباغ مدير النبك الزراعي السابق. وقد رويت هذه الحادثة للتدليل على العقلية التي كانت تسود مدارسنا في نهاية القرن التاسع عشر.

وفي آخر العام المدرسي (سنة ١٣١٦ -١٣١٧) أنهينا دروسنا وأدَّينا الفحص أمام مميزين انتدبتهم مديرية المعارف من موظفي الدولة فنجحتُ بحمد الله، ونلتُ الشهادة الابتدائية من مدرسة الياغوشية بدرجة: «أعلى»، وبهذه الشهادة دخلت المدرسة الإعدادية المعروفة بمكتب عنبر.

---

(١) خارج باب الجابية في محلّة قصر حجَّاج.

مكتبُ عنبر

نظام الدراسة

كان مكتب عنبر[1] المدرسة الملكية الإعدادية (أي التجهيزية) الوحيدة في دمشق يومئذٍ، يتراوح عدد طلابها دائماً بين الخمسمئة والخمسين والستمئة. وكان الطلاب النهاريون يتعلَّمون مجاناً، والداخليون يدفعون أجرة مقابل النوم والطعام. والمدرسة سبعة صفوف، ولها شهادتان، المتوسطة تعطى في انتهاء السنة الخامسة، والاعدادية تُعطى في انتهاء السنة السابعة، وتدرس فيها العلوم الآتية: القرآن الكريم، العلوم الدينية، العقائد، الفقه الشريف، منه كتاب الصلاة، وكتاب الصوم وكتاب الحج، وكتاب الزكاة وكتاب النكاح.

وكانوا يدرسون في كل صف كتاباً من هذه الكتب، ثم علم الأخلاق، والمنطق، واللغة العربية (منها الصرف، النحو، ترُجمة، تطبيقات)، واللغة التركية، وقواعد، الكتابة الرسمية (الرسائل الديوانية)، والأدبيات العثمانية، واللغة الفرنسية (قواعد، قراءة، إملاء)، واللغة الفارسية (قواعد، قراءة، أدبيات)، وكتاب الكلّستان، وعلم الثروة (الاقتصاد) وعلم أحوال السماء (قوزموغرافيا)، وجغرافيا عامة، وجغرافيا الولايات العثمانية، وتاريخ الدولة العثمانية والتاريخ العمومي وحفظ الصحة، وخلاصة القوانين وعلم الأشياء، وعلم الحساب: العملي والنظري، والجبر، والهندسة الخطية، المجسَّمة،

(١) نسبة إلى الخواجا يوسف عنبر، الثريّ اليهودي الذي عجز عن إتمام بنائه فصادرته الدولة العثمانية وجعلت منه أول مدرسة تجهيزية في دمشق. وكان ذلك سنة ١٣٠٥هـ/ سنة١٨٨٨م، وما يزال إلى اليوم أحد معالم دمشق التاريخية.

والسطحية، والرسمية، والمثلثات المستوية. وأصول الزراعة، والرسم، وحُسن الخط، والكيمياء، العضوية والمعدنية، والفيزياء، ويسمونها علم الحكمة أو الماكينا (ميكانيك)، وأصول مسك الدفاتر (دوبيا)، المواليد الثلاثة: المعادن، طبقات الأرض، النباتات، والحيوانات.

هكذا كانوا يدوّخون رؤوس الطلبة بهذه العلوم. وكان مدير المدرسة تركياً، وأكثر معلميها من الأتراك أيضاً يأتون بهم من الأناضول والروم إيلي، والقليلون منهم من الآستانة، حتى إن معلم العربية في زمننا كان من الأتراك المعممين الملقبين «بالسفطة[1]» واسمه إسماعيل حقي أفندي. ولم يكن في مكتب عنبر من أبناء العرب غير أستاذين: محمد المرعشلي، معلم القواعد والقراءة التركية، والشيخ محيي الدين الخاني معلم الدينية[2]، وكلاهما من دمشق.

وكان مفروضاً أن يكون لكل تلميذ ولي مسؤول عنه، فإما أن يكون الوالد أو الوصي إذا كان الغلام يتيماً. ونظراً لبُعد والدي عن دوائر الحكومة وكَّلَ أمر الولاية عليَّ إلى صديقه علي السقا أميني، رئيس كتاب دائرة المعارف في دمشق.

وبدون أن يكلّفني هذا الولي أي عناء، استحصل على الأوراق الرسمية التي تلزم لي كتلميذ، وقدَّمها إلى إدارة المدرسة، فقبلتني في الصف الأول، وذلك في السنة الدراسية ١٣١٧ -١٣١٨ التالية.

رفاقي في المدرسة

فرحت بدخول هذه المدرسة فرحاً كبيراً، لأن تلميذ المدرسة الإعدادية، كان يتمتع في تلك الأيام بمكانة عالية في الأوساط العائلية، نظراً لتفشي الجهل فيها.

---

(١) الصُّوفتة، هي الدرجة الدنيا من درجات المدرسين في العصر العثماني، ويأتي موقعهم «الدانشمند» -الطشمند -المعجم العثماني -حسين المصري.

(٢) الشيخ محمد بن علي المرعشلي أو المرعشي مدرس فاضل أمضى أكثر من أربعين عاماً في التدريس، توفي سنة ١٣٤٠هـ/ سنة ١٩٢١م

- أما الشيخ محيي الدين الخاني، فقد توفي بعده بعشر سنوات. تاريخ علماء دمشق مطيع الحافظ ١/ ٣٨٨ و٤٥٨.

وكان الشاب الذي يحرز الشهادة الإعدادية يعدُّ من أرقى شباب ذلك الزمن، وينظر إليه الناس نظرة أهل هذا الجيل إلى حملة الدكتوراه.

وأكثر كبار موظفي حكومتنا اليوم هو من خريجي مكتب عنبر، ومنهم فخامة الرئيس شكري القوتلي. وأذكر من بين ذوي المهن الحرة السادة: سعيد محاسن، وسعيد الغزي، وسعيد حيدر، والمرحومَين: فوزي الغزي ومظهر رسلان، ووصفي رسلان، والدكتور صالح قنباز، والإداري أسعد خورشيد، والدكتور فؤاد الساطي، وغيرهم من رجالات البلاد.

وكانت المدرسة الإعدادية تضم طلاباً من جميع أبناء البلاد، ولم تكن مقتصرة على الدمشقيين فقط. وهكذا كان أكثر الداخليين، إذا لم أقل جميعهم، من أبناء عواصم المتصرفيات[1] والأقضية.

وكان عدد طلبة الصف الأول يتراوح بين المئة والخمسين والمائتين، فلا يُتمِّمُ التحصيل فيه ويحصل على الشهادة إلا قسم قليل منهم. وهكذا لم يزد عدد الذين كانوا ينالون شهادة مكتب عنبر، عن عشرين تلميذاً في كل عام.

عرفتُ في هذا المكتب رفاقاً كثراً، ذهب بعضهم في ما بعد إلى الآستانة ودخلوا مدارسها العالية كالطب، والحقوق، والهندسة، والملكية، والبيطرة، ودار المعلمين، وغير ذلك من المدارس.

ومن الإخوان الذي رافقتُهم في صف واحد منذ الدخول حتى الصف الأخير السادة: سعيد محاسن، حسن فرحات، نسيب النابلسي، عبد الرحمن رشيدات العجلوني، وكان محاسن وفرحات يتسابقان على الدرجة الأولى دائماً. ولا بد من أن يكون أحدهما الأول والآخر الثاني. كذلك كان النابلسي والعجلوني يتسابقان على الدرجة الثالثة دائماً، ولابد من أن يكون أحدهما الثالث والآخر الرابع، أما أنا فكنت من «عفاريت» المكتب، ولم تكن درجتي متفوقة، بل كانت دائماً تحت درجة الأعلى، ولم أرسب في أية سنة.

(١) المتصرفية: كانت تسمى عند الأتراك سنجق، وهي ما يسمى اليوم المحافظة.

أنا والداودي

كان من رفاقي في الصف السيد توفيق الداودي ابن أخ الشيخ محمد الداودي[1]، المعروف بنظم الشعر. فكان توفيق يردد علينا أحياناً قصائد عمه. وفي أحد الأيام، ونحن في الصف الرابع نستعد في ساعة المذاكرة لدرس الهندسة، قام توفيق الداودي يقرأ علينا قصيدة لعمه طويلة عريضة، فشغل الطلاب وأزعجهم. ورجاه البعض أن يكف عن القراءة فلم يفعل.

وكانت القصيدة داليَّة فقمت إلى اللوح (السبورة) وكتبت عليه هذا البيت، وهو أول بيت نظمته في حياتي، على بحر القصيدة التي كان يقرؤها:

توفيقُ إنَّ العلكَ في أشعارِكُم وقفٌ عليكم يا بني الداودي!

فضحك الطلاب، وقامت الضجة، وغضب توفيق منه وخرج من الصف إلى الملعب.

وفي اليوم الثاني جاء توفيق مبكراً وبيده قصيدة ادّعى أنه نظمها، هذا مطلعها:

إخسأ بوجهِك أيُّها البارودي واحذر أسوداً درعُها داودي

وقد هجاني في القصيدة هجاءً قبيحاً استفزّني، فتوعدتُه بالجواب في الغد، وذهبت إلى البيت وأنا مضطرب البال، وقضيت الليل أفكر حتى تمكنت من نظم أبيات كِلْتُ له فيها الصاع صاعين، وذهبت في الصبح مبكراً إلى المكتب، فلما اجتمع الطلاب قرأت قصيدتي، ومطلعها:

إخسأ بوجهِك أيُّها الداودي واحذرمدافع حشوها بارودي

واستمرَّ الهجاء بيننا، فكان توفيق ينظم أبياته فيصلحها له عمه الشيخ

---

(١) محمد بن محمد، توفي سنة١٩٢٧ عن خمسين عاماً، وقد أثنى عليه تلميذه ظافر القاسمي ثناء حاراً... المصدر السّابق ١/ ٤١٧

محمد، وأنظم أنا أبياتي وأعطيها إلى الشيخ عبد القادر بدران[1]، فيصلحها. وبقينا مدة سنتين ونحن نتهاجى. ولكننا مع ذلك بقينا أصدقاء نقضي أوقاتنا سوية داخل المدرسة وخارجها. ولما كثرت قصائد الهجاء بيننا عقدنا صلحاً واتفقنا على أن تُتلف جميع ما كتبناه نحن الاثنين، وأقسمنا الأيمان على ذلك. وهكذا حرقتُ جميع القصائد التي قلتها فيه، وقال إنه حرق قصائده.

ومنذ ذلك الحين أصبح لي بعض الميل إلى نظم الشعر. وقد ساعدني على ذلك الشيخ عبد القادر بدران أحد علماء قصبة دوما الفقهاء على المذهب الحنبلي، وهو من العلماء المجددين. وكان لسانه سليطاً جريئاً لايهاب أحداً. فوقعت مرة مشادة بينه وبين رئيس بلدية دوما صالح طه، وتبادلا الهجاء. وعلى الأثر استصدر طه من الوالي أمراً بإبعاد الشيخ بدران عن دوما، فانتقل إلى دمشق وحل ضيفاً علينا في بيتنا، مدة سنتين ونصف، حتى انتهت مدة نفيه.

كنت يومئذ في المدرسة الإعدادية، فأفادني وجوده في دارنا إذ ساعدني على تعلّم اللغة العربية، وكان له فضل كبير بتوجيهي وإرشادي إلى كتب اللغة ومطالعة كتب الأدب ودواوين الشعر. وقد قرأت عليه مقامات الحريري بأجمعها، فكان لها تأثير في توجيهي نحو الأدب العربي، خلافاً لرفقائي الذين اتجهوا نحو الآداب التركية.

ممدوح العابد

كان من رفقائي في هذه المدرسة ابن عمتي ممدُوح بن رضا العابد. التقينا أولاً في الصفّ الثاني، ثم بقينا حتى نلنا الشهادة معاً. وكان رحمه الله من أخف خلق اللّهِ روحاً. وله حوادث كثيرة، من أغربها:

---

(١) المؤرخ المشهور، صاحب «منادمة الأطلال» وغيره، توفي في دمشق سنة١٩٢٧، وله مؤلفات عديدة في الأدب والفقه والنحو.

أننا صحونا أحد أيام الشتاء على ضرب (البوري). وكنت في القسم الداخلي، فما كاد الطلاب يستيقظون حتى وقع لغط، وارتفعت الأصوات من كل جانب، وتبيَّن لنا أن أحد الطلاب قام أثناء الليل، وخطط بالحبر الأسود وجوه المبصرين[1] تلك الليلة، كما أنه دهن وجوه كبار الطلاب. فبدا وجه كل طالب كوجه مهرج المسارح، له ثنيات وحواجب عجيبة.

ونظراً لكثرة عدد الوجوه «المسخَّمة» تعالى الضجيج، حتى بلغ غرفة المدير المعاون رشيد حكمت، وكان من أشد المعلمين بطشاً، فجاء مسرعاً ليستجلي الخبر، فلما رأى هذا المشهد لم يتمالك نفسه من الضحك. وسارع بعض الطلاب نحو ممدوح العابد يتهمونه بهذا العمل.

وكان ممدوح ينام في غرفة صغيرة في آخر المهاجع، مع ثلاثة طلاب. فوجدوه غارقاً في النوم. ووجهه هو الآخر مسخم مثل ووجوههم، فأيقظوه واتهموه بما جرى، فأنكر وصاح بهم صياحاً شديداً.

ثم نهض ممدوح، وذهب نحو المدير المعاون وأسرَّ في أذنه شيئاً، فوافقه المعاون عليه. وهكذا نزل المعاون والمبصران وبعض الطلاب الكبار المدهونة وجوههم ووقفوا أمام باب المهجع السفلي من الخارج، ودعوا الطلاب إلى نزول السلم واحداً واحداً، وكلما مرَّ واحدٌ فحصوا أصابعه، حتى جاء أحد الطلاب الحوارنة، ويسمى محمود الحوراني، فوجدوا حبراً على سبابته، فصاح ممدوح: هذا هو الفاعل.

وأخذوا المسكين إلى غرفة المعلّمين، وانهالوا عليه ضرباً، وآجر فيه كل من أصابه رشاش تلك الليلة، حتى كاد يهلك.

وبعد بضعة أيام تبيَّن أن الفاعل هو ممدوح العابد، وأنه بعد أن سخَّم وجوه الجماعة سخَّم وجهه أيضاً، ودهن إصبع الحوراني المسكين، ثم اقترح على المعاون أن يعاين أصابع الطلاب، فانطلت الحيلة على المعاون وعلى الطلاب.

---

(١) المبصر: هو المناظر الذي يراقب الطلاب في النهار والليل، ويسمونه اليوم: معيداً.

ولما عـرف الجـميع أن الفاعل هو ممدوح، أحـضروه إلى غرفـة المعلّمين، وشكلوا محكمة من الأساتذة حققت معه، فاعترف بجرمه، وقال: إنه سخن زجاجة الحبر على المدفأة، حتى لا يصحو أحد عند دهن وجهه بحبر بارد. وعندئذ أطعموه «علقة ماكنة» وكدروه علناً أمام جميع الطلاب.

نسيبُ البكري(١)

وهذه حادثة طريفة وقعت لنسيب البكري عندما كان في أول صف في المدرسة الإعدادية:

مرَّ بجانبه تلميذ فلاَّح مجتهد فصفعه نسيب صفعة أطارت صوابه، فراح يشكو أمره إلى الإدارة. فاستدعى المديرُ نسيب البكري وسأله: لماذا ضرب الغلام؟ فأجاب: ضربتُه قضاء أفندم.

بعد بضعة أيام بينما كان الطلاب بالفرصة، دوّى البوق يدعو الطلاب إلى الاجتماع. وكان نسيب البكري وفهمي الحسيبي يسيران جنباً إلى جنب لما سمعا البوق، فقال فهمي: ربما يريدون أن يجمعونا لمجازاة أحد الطلاب!

فقال نسيب: إن شاء الله تكون المجازاة لك يا فهمي!

فأجابه فهمي: بل إن شاء الله تكون لك أنت يا نسيب!

واستجاب الله دعاء فهمي، إذ تقدم المدير الثاني، نظاميات أفندي، إلى منتصف المربَّع الذي شكله الطلاب، وخطب خطاباً طويلاً باللغة التركية حمل فيه على المعتدين، ثم أعلن أن السيد البكري اعتدى على الطالب فلان، وصفعه صفعةً قوية بلا سبب، وكانت صفعته «قضاء أفندم»، لذلك ارتأت الإدارة أن تكدره تكديراً علنياً «قضاء أفندم»!

---

(١) نسيب بن عطاء الله البكري، من أعيان المجاهدين في دمشق، استضاف الأمير فيصل في داره سنة١٩١٦، ثم تولّى عدة وزارات، وشارك في تأسيس حزب الشعب، وتوفي سنة١٩٦٦ عن ٧٨عاماً وهو رئيس رابطة المجاهدين في سورية.

وهكذا انفض الجميعُ، وهم يضحكون من النتيجة، حتى نسيب نفسه راح يقهقه، كأن القط لم يأكل له عجيناً!

نسيب الكيلاني وشجرة الليمون

كان نسيب الكيلاني «أشطن» تلميذ في زمانه مع الداعي لله. ولا أذكر أنَّه مر يوم من السنوات السبع التي قضيتها في المدرسة الإعدادية، إلا وكنت مسجوناً فيه «إذن سيز –حرمان»، مع نسيب الكيلاني.

وذات يوم بقي في المدرسة عشرة تلامذة مسجونين، وبينهم نسيب وأنا طبعاً. وكان في باحة المدرسة أشجار مثمرة من الليمون الحامض، فرغب نسيب الكيلاني في أن يقطف شيئاً من ثمرها، فأحضر «السيبة» التي يصعد عليها الخدم لإشعال الفوانيس، وتسلَّق عليها، وراح يقطف الثمار ويناولنا إياها. وفي هذه الأثناء جاء معاون المدير المناوب ورأى ما يجري. وكان المعاون مرعباً جداً وله شنب طويل، فتقدم من التلميذ الواقف في أسفل السلم وأشار إليه بإصبعه أن لا يتكلم، ثم تقدم المعاون إلى تحت السلم وراح يستلم الثمار من نسيب!

ثم نادى نسيب الطالب ليصعد إلى الشجرة ويرى ثمرة كبيرة جداً. فصعد المعاون حتى أصبح إلى جانب نسيب. فمد نسيب ساعده وعانق المعاون وهو يشير إلى الليمونة والتصق الخدان، فأحس نسيب بخشونة شعر الشنب، والتفت مدهوشاً وما كاد يرى وجه المعاون حتى قفز عن السلم فوقع إلى الأرض، ووقع معه المعاون، وقام كل منهما ينفض ملابسه ويضحك.

وذهب المعاون إلى غرفته وضرب البوق داعياً الطلاب المسجونين إلى الاجتماع، فاجتمعنا. وإذا بالمعاون يقول: إنه نظراً للنكتة التي رافقت الحادث، فإنه يعفو اليوم عن جميع المسجونين!

ثم فرق على كل تلميذ حبة ليمون واحدة، مشترطاً علينا ألا نعود إلى مثلها، وأخذ الباقي لنفسه، وخرجنا ندعو للسلطان بالنصر!

بعد مضي ما يقرب من نصف عام على دخولي المدرسة، خبرت أحوالها وطلابها، فبدأت «شيطنتي». وكلما مرت الأيام كثرت الجزاءات علي، حتى أصبحتُ من «زبونات» المدرسة الدائمين أيام التعطيل. ولا أبالغ إذا قلت إني منذ دخولي المدرسة إلى يوم أحرزت الشهادة في مدة سبع سنوات لم أقض عطلة أسبوعية واحدة في داري، بل كنت أقضيها كلها بالحرمان، مسجوناً في المدرسة.

وفي أحد الأيام نقر المدير على زجاج النافذة بشدة. وكنا نلعب في باحة المدرسة أثناء الفرصة، فالتفت الطلاب جميعهم نحوه، ورأيناه ينادي أحدنا بإصبعه، فجعل كل منا ينظر إلى الآخر ليرى المدعوَّ. وما لبثت أن أدركت أن المدير يدعوني. فذهبت إليه خائفاً وظننت أن هناك وشايةً ضدّي.

صعدتُ إلى غرفة المدير كما يقول المثل العامي «رجل لورا ورجل لقدّام».

ولما دخلت الغرفة، وجدت بعض المعلمين الذين يتكلمون اللغة العربية، فقال لي المدير: أنت فخري البارودي؟

فسقط قلبي، وقلت: نعم!

قال: هل أبوك من أصحاب المزارع؟

فلما أجبت بالإيجاب، قال: عندكم غنم في مزرعتكم؟

فأجبت بالإيجاب. فقال: وهل والدك من الأجواد؟

قلت: هكذا يقولون!

قال: عندي خروف، وأريد إرساله إلى المرعى، وقد دلّني الناس عليكم، فهل يمكنك أخذ هذا الخروف إلى مزرعتكم والاعتناء به إلى أن يكبر؟ وهل يرضى والدك؟

قلت: نعم، بل أظنه يكون شديد السُّرور بهذا التكليف!

فأشرق وجهه وقال: إذاً أنت مأذون اليوم. عند انصراف الأولاد من المدرسة خذ الخروف معك، ونم في دراكم وعُدْ غداً صباحاً.

ضربت «تمني» وخرجت أهبط درجات السلم خمساً خمساً، إلى باحة الملعب حيث كان رفاقي ينتظروني، فأبلغتهم الخبر.

وفي المساء احتشد أكثر من خمسين طالباً من الطلاب الخارجين ينتظرون الخروف عند باب المدرسة. ولما خرجت والخروف معي قام الطلاب بمظاهرة ومشينا «بعراضة» نسحب الخروف ونجرّه، ومررنا بسوق مدحت باشا بهذا المهرجان حتى وصلنا إلى الدار.

قدمتُ الخروف إلى والدي ورويت له الحكاية فضحك، وأمر وكيل الخرج أن يحضر اللحام ويذبح الخروف، وقال: عندما يطلبه المدير نحضر له خروفاً كبيراً بدلاً عنه!

ومضت شهور، وانقضى العام، وجاء العام الثاني، وإذا بالمدير يناديني ثانية فأسرعت إليه، فسألني عن الخروف، فقلت: إنه بخير، صحته جيدة يقبل يديكم.

فضحك وأمرني بإحضاره، فقلت: سأكتب إلى والدي.

ومضت أيام، وكنت مراراً أطلب الخروف، والوالد «مطنِّش» لا كتاب ولا جواب، وأنا أختلق الأعذار للمدير. وأخيراً لم أر بداً من الذهاب بنفسي، فأخبرت المدير وطلبت إذناً للسؤال عن الخروف فسمح لي بالذهاب إلى الدار مع الطلاب الخارجين. ولما أخبرتُ والدي بإلحاح المدير، أرسل إلى دوما رسولاً ليأتي بخروف. وفي الصباح حضر الرسول ومعه خروف صغير، أصغر من الخروف الذي استلمناه من المدير. فقلت لوالدي: كيف يمكنني تقديم هذا الخروف بعد هذه المدة؟

قال: اذهب وقدّمه، وإذا «علَّكَ» المدير، قل له: إن خروفه «فطس وهذا بدل عنه!

أخذت الخروف إلى المدير، فلما رآه غضب غضباً شديداً، وصاح بي: نه دربو؟ (يعني: ماهذا؟).

قلت: هذا خروف!

قال: بو كديدر! (يعني: هذا قط!).

وبالحقيقة كان هذا الخروف بقدر القط، فحمله ووضعه على رقبتي، ودفعني إلى خارج المدرسة وقال: اذهب إلى والدك وقدّمه له هدية مني!

وعدت إلى الدار بحالة يُرثى لها، فلما رآني والدي غضب وأمر وكيل الخرج بإحضار اللحام، فأحضره، وذبح الخروف وقال: اذهب إلى المدير وقل له: قبلنا الهدية!

ودخلتُ إلى الدار أبكي. وكانت عمّة والدي السيدة ليلى البارودي -وعمرها آنذاك زهاء السبعين- في زيارتنا. فلما عرفت بالأمر، أعطتني ديناراً عثمانياً ذهبياً، وقالت لي: اشتر به كبشاً بدل الخروف، وقدمه إلى المدير! وهكذا كان، فاشتريتُ كبشاً وذهبتُ به حالاً إلى المدرسة، وقلت للمدير: إني غلطت بالأول. فهذا هو كبشك!

فلما رآه المدير فرح به، وضحك وربّت على ظهري، وخلصني الله من هذه البلية على خير!

المقصف

كان في مكتب عنبر «دكان» يؤجَّر بالمزاد العلني. وقد رسا أثناء إقامتي في المدرسة على المدعو زكي البقّال.

استخدم زكي هذا صانعاً لبقاً يدعى بكري، لقبه الأولاد بـ«الدنكورة». وكان بكري خفيفاً نشيطاً، يلبي وحده جميع طلبات الأولاد في الفرصة، عندما يحتشدون أمام نافذة الدكان، ويتصاعد صياحهم: دنكورة هات قلماً.. دنكورة أعطني رغيفاً.. دنكورة هات راحة.. الخ.

ولم تكن الفرصة القصيرة لتسمح بتأمين حاجات جميع الطلبة، لذلك كان «دنكورة» يسمح لأبناء الأغنياء بالدخول إلى الدكان والاختباء فيها، وإن كان ذلك ممنوعاً. وكان «المبصرون»، أي المراقبون، يغضّونَ الطرف عنهم مقابل هدايا يقدمها إليهم صاحب الدكان، وفقاً للمثل القائل: أطعم الفم تستحي العين.

وكان التدخين ممنوعاً، ولكن كل ممنوع مرغوب، لذلك كان كثير من الطلبة يجتمعون في باحة صغيرة على مقربة من المراحيض، حيث لا يأتي أحد من هيئة الإدارة، ويشرعون في التدخين، بينما يقف أحدهم عند المدخل لإنذارهم بالخطر!

هكذا، لا يكاد «بوري» الاستراحة يدق، حتى يهرع عشاق التدخين إلى «المحششة خان»، ويبدؤون في التدخين. ولا حاجة للقول: إنني كنت، طبعاً، منهم!

السيران

كانت إدارة المدرسة تقيم في فصل الربيع من كل عام سيراناً للطلاب، تجمع نفقاته منهم، فتحضر لهم «نوبة» آلات موسيقية، وتستأجر لهم حديقة أو بستاناً، ويقضي الطلاب يومهم حتى المساء. وأذكر أن الإدارة أقامت لنا سنة ١٩٠٧ سيراناً في حديقة «الأفندي» في حي باب توما، مثّلنا أثناءه رواية باللغة العربية، فكانت أول رواية مُثّلت في مكتب عنبر.

وكان «السيران» في ذلك العهد جزءاً من حياة الناس. وكانت في دمشق جمعيات مهنية، غايتها تنظيم التسلية والنزهات لأبناء الصنعة. وكان بعض أفرادها يركبون في السيران الرهاوين والخيول، والبعض الآخر يركب الحمير من هليبية وقبرصية وقروية. ويسير فُرسان كل فئة على حدة إلى مكان السيران، حيث يترجّلون، ويبدأ الهرج والمرج.

وأذكر أن صغار «الزعران» كانوا يجتمعون قرب الحمير ويصيحون فيها: «زعرّ! زعرّ!»، فتأخذ كلها في النهيق، ويتصاعد منها أصوات منكرة، فتقوم قيامة أصحابها، ويلحقون الأطفال بالعصي والحجارة.

وما يزال سكان دمشق إلى يومنا هذا يحبون «السيران» فتراهم في الربيع والصيف منتشرين بين البساتين وعلى ضفاف السواقي، يتمتعون بجمال الطبيعة.

الرياضة في مكتب عنبر

لم يكن للرياضة ذكر في مناهج المدارس العثمانية في زمننا، ولذلك كانت ألعابنا بسيطة، نقوم بها في باحة المدرسة، وهي تكاد لا تتسع لسير خمسين طالباً، فكيف إذا خرج يلعب فيها خمسمائة؟

من ألعابنا في ذلك الحين، أذكر لعبة الطيح، الأسير، أم عميش، كرة اليد، سباق الركض. هذا كل ما كنا نلعبه في المدرسة الإعدادية. وكان المدير والمعلمون ينظرون إلى الولد الرياضي بعين الازدراء، وينعتونه بالطائش. ولا عجب فإنه لم يكن للرياضة في دمشق كلها شأن يذكر.

أما الألعاب التي كانت شائعة في دمشق إجمالاً، فإنني أذكر منها لعبة «الدوج»، وهو عبارة عن حجر «مفلطح» يحمله اللاعب ويحاول أن يصيب به «النكرة»، وهي حصاة بحجم الجوز، فمن يصبها يربح اللعبة، ويركب على ظهر رفيقه شوطاً!

وهناك لعبة «طابة التيس»، وهي كرة محشوة بالخرق، يقذفها اللاعب على حجر يكمن وراءه لاعب آخر، فإذا أصابته احتل مكانه وراء الحجر. ويشترك فيها عادة خمسة أو ستة لاعبين، وتنتهي بأن يمتطي الفائزون ظهور المهزومين!

أما كرة القدم وكرة السلة فلم نكن نعرفهما. وإني أذكر أن أول لعبة «فوتبول» رأيتها في دمشق كانت تمريناً يقوم به الأخوان نوري[1] وحُسين الإيبش[2] في مرجة

(١) نوري بن أحمد إيبش، مزارع وسياسي سوري، انتخب رئيساً للغرفة الزراعية بدمشق ونائباً عنها في المجلس النيابي سنة١٩٤٧، وتولى وزارة الزراعة في عهد حسني الزعيم، ثم وزارة الداخلية. وانصرف سنة ١٩٥٣ إلى إدارة أعماله الزراعية في دمشق ولبنان وتوفي سنة١٩٧٥ عن ٨٤عاماً. وقد زوَّدنا بهذه الترجمة ابنه الأستاذ أحمد.

(٢) حسين الإيبش، الأخ الأكبر لنوري، عمل هو الآخر في الزراعة وتوفي سنة١٩٦٧ عن ٨٣عاماً.

الحشيش قرب «صدر الباز»، وكان هناك جسر على نهر بردى، وميدان فسيح للعب الجريد. وأذكر أن الكرة سقطت يومئذ على رأس أحد المتفرجين، المرحوم نعيم الغزي -وكان من المتعمّمين- فضغطت عمّته على رأسه إلى ما تحت أذنيه. وكان بين المتفرجين حقي باشا مشير الشام[1]، فضحك حتى وقع طربوشه في العربة. وقد شاهدته بنفسي لأنني كنت واقفاً مع وكيل خرج دارنا أمين آغا إلى جانب عربة المشير.

وقد تعلّم السيد نوري الإيبش يومئذ تلك اللعبة من الجامعة الأمريكية في بيروت، إذ كان طالباً فيها.

السيف والترس

كانت لعبة السيف في ذلك العهد أكثر الألعاب انتشاراً بين الدمشقيين، توارثوها أباً عن جد، لأنها تعلّم الشباب الرجولة والخفة، وتروض الأجسام، وتُعوّد الشباب على الصبر، ولها أصول ثابتة لايمكن الخروج عنها. ويشترك في هذه اللعبة من اثنين إلى خمسة لاعبين. فإذا لعب اثنان حمل كل واحد منهما سيفاً وترساً، وقد ينضم إليهما ثالث يحمل سيفين ويتوسط اللعب. وإذا لعب خمسة ترأّس أحدهم المعركة وحمل سيفين في آن واحد وتوسط اللاعبين.

ويكون اللعب على الأكثر حُبّياً. أما إذا وقع خصام بين لاعبين، فإنه ينتهي إلى حادث مؤلم. وكان من الرؤساء المشهورين لحلقات السيف والترس أبو سعد الخضري، وأبو شاكر مسلم الخانجي، والريس العبسة الميداني، وأبو علي الصباغ، وأبو علي القباني، وأبو صالح رشيد الخجا، وأبو عزّو حسن الأرناؤوط، وأبو عادل السروجي. وأكثر هؤلاء انتقلوا إلى رحمة الله.

من تقاليد لعب السيف والترس «الشد»، وهو أن يقطع رئيس اللعبة على التلميذ الجديد عهد الولاء، وبعد ذلك يكرّسه لاعباً رسمياً، ويناديه بلقب «ابني». وكانوا يسمّون التلميذ بالشراق، وهي كلمة فارسية تعني المولى.

---

(١) كان يُقيم في دار المشيريَّة، وهي السَّرايةُ القديمة التي حلّ محلها اليوم قصر العدل، وهو المسؤول عن قافلة الحج.

وتجري هذه المراسم بحضور رؤساء هذا الفن من جميع الأحياء، فيقرأ الريّس دعاء مخصوصاً لهذه اللعبة وهو: «بعد الفاتحة، سبحان الأبدي الأبد، سبحان من بسط الأرض على ماء جمد، سبحان مقسم الأرزاق، من لا ينسى من فضله أحد، سبحانه من ذاته وصفاته، قل هو الله أحد».

ثم ينادي بأعلى صوته: صحائف النبي ﷺ، صحائف العشرة المبشرة بالجنة من الصحابة الكرام، صحائف الأسد الكرار علي بن أبي طالب، ابن عم النبي المختار، رضي الله عنه وكرم وجهه، صحائف فاتح الشام أبي عبيدة الجراح، صحائف سيف الإسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه، صحائف فلان وأبي فلان وأبي فلان -ويعدد أسماء أبرز الحاضرين من وجوه المحلاّت.

ثم يفتح بقجة من الثياب، فيها قنباز حريري يسمى بـ«الصاية»، وشملة، فيلبسون التلميذ الصاية. ومتى زنّروه بالمشالح دخل في جماعة اللاعبين، ويقرؤون الفاتحة، ويصبح الشاب بعد ذلك لاعباً، ويمكنه أن يشترك في طوابق اللعب[1]!

لعبة الحكم

لعبة يتحرك عليها أولاد الأحياء، تمهيداً لانتقالهم إلى لعب السيف والترس. ولا يتمكن لاعب السيف من إجادة لعبته إلا إذا تعلّم الحكم.

عدة هذه اللعبة هي درقتان من جلد محشوتان بالصوف أو القطن، وللدرقتين مقابض يتقي بها اللاعب ضربات خصمه. والدرقة الواحدة اسمها «حكمة»، واللعب يكون بقضيب من الخيزران أو السفرجل.

وهذه اللعبة تربي في الشاب عضلاته، وتعلمه على الشجاعة والصبر، وهي من أنفع الألعاب. وليت النوادي تعيدها سيرتها الأولى!

(١) من بقايا هذه اللعبة ما نراه اليوم في دمشق من فرق للسيف والترس، انتشرت في معظم أحياء المدينة، ومهمتها فولكلورية بحتة، تظهر في المسلسلات وترافق الحجاج والأعراس والمناسبات.



نسيب بك البكري ثاني امناء جلالة الملك

العرب والأتراك

أربعمائة سنة ونيف كانت قد مرت على الأتراك وهم يحكمون بلادنا لما دخلنا مكتب عنبر، وكان من الطبيعي أن يتولد شيء من النفور بين أبناء الحاكم وأبناء المحكوم. فالأتراك كانوا يومئذٍ أبناء الست، ونحن أبناء الجارية. ولم يكن أحدنا ليجرؤ على رفع رأسه أمام المعلمين ورجال الإدارة، وكلهم من الأتراك، كما أن رهبة الحكم العثماني كانت تملأ القلوب.

إنْ أنسَ لا أنسَ مشهداً رأيته أمام دار أحمد باشا الشمعة. كان أحمد باشا من أخص رجال عبد الحميد، سلطان البرين وخاقان البحرين. وقد منحه السلطان امتيازاً عن سائر رجال الخاصة إذ أعطاه آلة برق (تلغراف) مرسلة ولاقطة في داره، ليخابر بها السلطان رأساً.

غضب السلطان على أحمد باشا يوماً، لسبب أجهله، فأمر باعتقاله في داره ووقف أمام بابه «بوليس نظامي»، أي شرطي بلباسه الرسمي، يراقب كل داخل وخارج، ويسجّل أسماءهم. وقد مررت يوماً من هناك، فرأيت المارة يضطربون عندما يقتربون من دار الشمعة، فيثبّتون أنظارهم إلى الأمام، حتى لايلتفتوا لفتة واحدة نحو باب الباشا، خوفاً من أن يُحاسبوا على النظرات!

بسبب هذا الرعب الذي بثّه الحكم العثماني في النفوس، لم يكن أحد يجرؤ على ذكر العرب والعروبة، خصوصاً من الذين يعيشون مع الأتراك في السرايات ودوائر الحكومة.

في تلك الأيام بدأت الروح العربية تستيقظ خصوصاً في الشبان وبدأت نغمة ترك وعرب تتردد في المجتمعات الخاصة، وأخذ بعض الطلاب في مكتب عنبر يتمردون على المعلمين الأتراك. وقد سبب ذلك ظهور روح شريرة عند العناصر غير

العربية، كالترك والكريديين والأرناؤوط. فراحوا يتحرشون بنا، هذا بالنعر وذاك بالنكش، نحن نرد عليهم بالمثل. وما لبثوا أن شكلوا جميعة من أصحاب الأجسام البدينة سمّوها «طاغلر جمعيتي»، أي جمعية الجبال، وعلى رأسهم بدر الدين السباهي، شقيق الأستاذ نجم الدين السباهي الأديب التركي المشهور، وهو من الأرناؤوط. وكان من عادة «الطاغلرية» أن ينتظم كل أربعة أو خمسة منهم في صف واحد، ويركضوا في الملعب، فيدفعوا أمامهم كل من يعترضهم من الطلاب المفردين. وعلى الأثر شكل الطلبة العرب مقابلهم كتلة من أصحاب الأجسام المتينة، منهم السيد رشدي القوتلي (أبو راشد)، والسيد توفيق المالكي (أبو الرعود) والسيد نسيب البكري (أبو عطا) والداعي لله (أبو الحسن) . . . إلخ.

ومع الزمن ازدادت العداوة، وانتقل الاحتكاك من اللعب الخشن إلى الشجار داخل المكتب، ثم خارجه. وكنت يومئذٍ قد بلغتُ الصف الثالث (حول السنة ١٩٠٤)، فكنا نتواعد على الصدام معهمْ في مكان ما خارج المدرسة. وكانوا يجلبون معهم رفقاءهم من محلة المهاجرين. ونحن نُحضر معنا رفقاءنا. فيدور شجار يكثر فيه الجرحى. وأخيراً تدخلت الحكومة، وجعلت ترسل شرطة خاصة إلى الساحات لتمنع الخصام والشجار. هكذا كان النفور يتزايد بيننا وبينهم كلما تقدمنا بالصفوف. حتى جاءت سنة ١٩٠٨، ووقع الانقلاب العثماني.

وفي معرض هذا البحث أذكر حادثاً شخصياً وقع لي مع بدري رئيس جمعية «الطاغلرية» المشار إليها. فقد اشتد العداء بيني وبينه بصورة لا مثيل لها بين سائر الطلبة، حتى تواعدت وإياه على النزول في المساء، بشرط ألا يخبر أحدنا أحداً من رفقائه بالأمر. وبالفعل لم نخبر أحداً، واجتمعنا في آخر زقاق الحمراوي قرب مدخل «القباقبية»، فتماسكنا وتشابكنا بالأيدي. ودار اللكم واللطم، والخبط والرفس، والخدش والخمش، حتى سالت الدماء من وجهينا، ثم ضربته بطبق الطعام «السفرطاس» فأصبته في جبينه بجرح بليغ. وهنا تدخل بعض المارة وفرقونا والدماء تسيل منا.

وبينما كان الناس يبعدون كلاً منّا عن الآخر، كانت الشتائم تنطلق من فم كلّ منا كالرشاش، أنا أشتم بالعربية، وهو يشتم بالتركية. وأعتقد أن الشتائم التركية

أقبح بكثير من الشتائم العربية. وبينما نحن في هذه الحال، إذا بالمدير المعاون في مكتب عنبر، نظاميات أفندي، يمرُّ بنا. فوقف وألقى علينا درساً بالأخلاق. ولم يفارقنا حتى صالحني وإياه. فقبَّل أحدنا الآخر. ومشينا سوية كأن لم يجرِ شيء بيننا أصلاً!

عيُونٌ تتفتّح

بدأت عيوننا تتفتَّح على الحقائق القومية حول السنة ١٩٠٥ -١٩٠٦، وهي السنةالتي نلت فيها الشهادة المتوسطة. ولا يستطيع أن يقدّر الفرح الذي ساورني بهذا النجاح إلا من دخل الفحص ونال الشهادة.

وفي السنة السادسة بدأت أطالع بعض الصحف المصرية التي كانت تتسرَّب إلى دمشق كالمقطم والأهرام والمؤيد. ولا أدري كيف كانت تصل إليها، لأنها كانت ممنوعة. ولم نكن نحن نعرف من الجرائد إلا جريدة «الشام»[١].

وأذكر أن بعض أصدقاء لي كمحيي الدين الخطيب وعثمان مردم بك، كانوا يأتون بعدد أو عددين من الجرائد المصرية وينقلونها إلى عدد محدود من أصدقائهم من الشبان الناشئين، فيمر العدد من يد ليد بصورة خفية، دون أن يطَّلع على ذلك أحد.

وكان قد بدأ يتكون في دمشق جمهور من الشباب العرب، من خريجي المدارس العالية كالطب والحقوق والمكتب الملكي، وهو أعلى مدرسة لإخراج الموظفين الإداريين. وكانوا يعقدون اجتماعات خاصة، ويخوضون في أحاديث جديدة غير مألوفة عند الدمشقيين آنذاك. فبينما كان الدمشقي يومئذ من أي طبقة كان، لا يتحدث إلا عن طعام يومه، وعن الأشكال التي أكلها وكيفية طبخها

(١) المقطم: أسسها في القاهرة سنة١٨٨٩ الأخوان حتروف، وكانت لها شهرة واسعة. وتأسست الأهرام سنة١٨٧٦ على يدي سليم وبشارة تقلا.
أما المؤيد فقد أسسها الشيخ علي يوسف سنة١٨٨٩. تاريخ الصحافة العربية فيليب طرازي ٣/ ٣٤، ٣٧، ٥٠.

(١) أسسها في دمشق سنة ١٨٩٦ مصطفى أفندي واصف، وكانت من صحف العصر الحميدي في دمشق، بعكس الصحف الأولى التي كانت تتمتع بقسط أوفى من الحرية. انظر: الصحافة السورية -هاشم عثمان- وزارة الثقافة سنة١٩٩٧، صفحة١٥

والدعوات التي دُعي إليها، الحفلات الكبيرة التي أقامها وجهاء البلدة، كان هؤلاء الشبان الناهضون يتحدثون عن أوربا وتقدمها وعلومها، وعن نهضات الشعوب، والشكوى من ظلم الحكومة، واستبداد السلطان عبد الحميد، وسرد حكايات طويلة عريضة عن إغراق الأحرار في بحر مرمرة، وتعذيب الألوف من الشبان المطالبين بالإصلاح.

وكنا نسمع هذه الأحاديث في مجالس الشبان كلما سنحت لنا فرصة بالاجتماع إليهم، ومن بينهم السادة: شكري العسلي، وعبد الوهاب الإنكليزي، وسليم الجزائري. (وقد شنقهم جمال باشا أثناء الحرب)، والأستاذ محمد كرد علي، والدكتور عبد الرحمن شهبندر، وعلى رأسهم شيخ أحرار العرب ذلك الحين الشيخ طاهر المغربي الجزائري، وهو شيخهم وشيخنا. وله أكبر فضل في تنوير الأبصار والبصائر، ودفع العرب في طريق التقدم. وهو أول من فتح مدارس البنات في دمشق.

وكان يحضر اجتماعات الشلّة الشيخ سليم البخاري[١]، والشيخ جمال القاسمي[٢]، والشيخ عبد الرزاق البيطار[٣]. وهم من الشيوخ الأحرار المجددين، وكانوا جميعاً موضع نقمة الحكومة.

وكنا إذا حضرنا مجالسهم يتحفظون أمامنا، وعلى الرغم من ذلك كانت أحاديثهم إصلاحية توجيهية، فاتهمهم بعض الناس بأنهم وهّابيون، واتهمهم آخرون بالماسونية.

في هذا المحيط، فتحت عيني على الدنيا، ومن رجاله اقتبستُ الوطنية والحرية، ومن شبانه تعلمتُ الجسارة والجراءة. رحم الله من مات منهم، وأحسن إلى من بقي حياً!

---

(١) سليم بن أحمد، عالم مجاهد من زملاء الشيخ بدر الدين الحسني. توفي سنة١٩٢٨ عن ٧٧عاماً.

(٢) جمال بن محمد من كبار علماء دمشق، له مؤلفات عديدة. توفي سنة١٩١٤ عن ٤٨عاماً.

(٣) عبد الرزاق بن حسن البيطار، عالم دمشق ومدرس جامع الدقّاق بالميدان، وصاحب كتاب: حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر. توفي سنة١٩١٦ عن ٧٩عاماً.



رضا بك الصلح وزير الداخلية

حُسين عوني وأنا

كان حسين عوني واحداً من أحرار الترك، وكان ربّاناً لإحدى بواخر الدولة، فوشى به بعضهم إلى السلطان عبد الحميد، ففرّ على الأثر إلى انكلترا وقضى فيها بضع سنين.

ثم توسّطت له السفارة الانكليزية، فعفا عنه السلطان، وعيّنه مديراً للمعارف في ولاية سورية.

هذا الرجل له حوادث عجيبة، مازلتُ أذكر بعضها: كان صُلباً، ضيّق الصدر، قصير القامة، إذا مشى بين الأولاد يبدو أقصرهم، وكثيرا ما كان يدفعه أحد الطلاّب أثناء ركضه، فيثور وينزل بسوطه على الطالب حتى يحرمه العافية.

أتاه مرة أحد أبناء الأسر العريقة بكتاب توصية من وزير كبير في الآستانة، مرسل إليه بواسطة الوالي ناظم باشا، فما كان منه إلا أن مزّق الكتاب وقال للطالب: اذهب وقل للوالي أن يبرق إلى قريبك الوزير، أني مزّقت الكتابين ودستهما برجلي هكذا!

ورمى بالأوراق الممزقة إلى الأرض وداسها برجله. وكان ذلك قبل إعلان الدستور بسنة أو سنتين.

وهذا الرجل برز بعد الانقلاب العثماني، واستلم أرفع مركز في جمعية الاتحاد والترقي، وأصبح هو ومعاونه هاشم بك المسيطرَيْن على فرع الجمعية في سورية. وكان الناس قد أخذوا يتهافتون على الانخراط في الجمعية بكثرة، مما سيرد تفصيله.

وكانت حكومة عبد الحميد تؤخر في بعض الأحيان دفع رواتب الموظفين شهراً أو يزيد. ولذا كان الموظفون يبيعون سندات رواتبهم إلى سماسرة مخصوصين، يشترون الليرة بريال مجيدي وكان على رأس هؤلاء «دفتر دار» الولاية، أي مدير ماليتها، وهو من أتراك الآستانة.

وقد ساوم أحد السماسرة حسين عوني على شراء راتبه في أحد الأعياد فأبى البيع. وعندئذٍ أخروا دفع رتبه، فأبرق إلى السلطان عبد الحميد برقية قال فيها: «جميع الموظفين فرحوا بأخذ رواتبهم في هذا العيد إلا أنا، فقد أخَّروا عني الدفع. فهل هذا هو العدل السلطاني؟ أنتظر الإنصاف!».

وصدف أن وصلت البرقية بسرعةٍ إلى يد السلطان، فأصدر إرادته بتعيين حسين عوني مديراً للمعارف في دمشق. وبالرغم من أنَّه أصبح موظفاً كبيراً فقد ظلَّ تحت المراقبة حتى إعلان الدستور، عندما ظهر على المسرح السياسي واستلم رياسة فرع جمعيَّة الاتّحاد والترقّي، التي قامت بهذا الانقلاب.

وكان حُسين عوني يلقي علينا ثلاثة دروس هي: علم الفلك، والمواليد الثلاثة والجبر. فلما جاء فحص علم الفلك دخلت بدوري إلى القاعة فإذا بالمدير يقلب وجهه ويكلمني بجفاء، وانتهرني قائلاً: «ارسم على اللوح دائرة»!

رسمت دائرة، فقال بصوت عال كأنه يشاجرني: افرض هذا القمر، فاكتب أوجَهُ وحضيضه!

فكتبت لشدة اضطرابي كلمة «الحضيض» في أعلى الدائرة وكلمة «الأوج» في أسفلها، فصاح بي بشدة: اخرج، تنبل!

طار صوابي من هذه المعاملة، لاسيما أن حسين عوني قد أصبح أكبر من الوالي ومن المشير. وهو الآمر الناهي في الولاية، ولاترتد له كلمة. أمرني بالخروج فلم أفعل. فدارت بيننا مشادة تركني على أثرها واقفاً بجانب اللوح، ودعا عدة

طلاب فحصهم وأنا واقف. ثم تداخل المميزون في الأمر وهدَّؤوا روعه، فألقى عليَّ بضعة أسئلة أخرى أجبت عليها ونجحت.

ثم جاء دور الفحص في «المواليد الثلاثة»، فأراد حسين عوني معاكستي ولكني نجحت أيضاً. وجاء دور الجبر فدخلت بدوري. فلما رآني ضحك وقال بصوت عالٍ: دوشدنمي (أي هل وقعت؟).

أجبت بالإيجاب، فألقى عليَّ مسألة ذات خمسة مجاهل ومعلوم واحد، فلم أقدر على حلها فأعطاني صفراً.

وأذكر أنني لمّا لم أجب قال: خذ القلم وضع الرقم الذي تستحقه إلى جانب اسمك!

أخذت القلم ووضعت رقم عشرة، فضحك وأخذ القلم ووضع نقطة وهو يقول: صفر، صفر، صفر!

سقط بهذه المسألة تسعة تلامذة جاؤوا بعدي. وكان المعلّمون قد اجتمعوا خارج غرفة الفحص، وانهمكوا كلهم بحل المسألة. فحلها أخيراً الأستاذ خير الدين أفندي أنجوق، وأخذها عنه رفيقنا الدكتور علي الأبرش الصالحاني، فدخل الفحص وفاز بأوّلية الجبر.

وفي دورة الإكمال[1] فحص حسين عوني جميع المُكملين، إلا أنا فإنه لم يقبل أن يفحصني حتى تداخل وكيلي علي أفندي السقا أميني، الذي ولاّه أبي أمري منذ دخولي مدارس الحكومة، فقبل أن يفحصني. ولما دخلت عليه قال: إن صدقتني القول نجحتُكَ. هل أتيت بخنجرك؟

قلت: أي خنجر؟

قال: الذي تريد أن تقتلني به؟

---

(١) يعني الدور الثاني، وهي فرصة تعطى للراسبين في مادة أو مادَّتين لتقديم الامتحان بهما في أواخر فصل الصيف، حتّى لايضطر الطالب إلى إعادة السنة بكاملها.

فعرفتُ عندها أن أحد أخصامي في المدرسة وشى بي وشاية كاذبة، فقلت له: يا سيدي أنت من الأحرار، وكنت ضحية الوشاية، فهل تريد أن تسمع وشاية بتلميذ ضعيف، وأنت رئيس الأحرار في دمشق؟

فضحك وكتب على ورقة الإكمال رقم خمسة دون أن يفحصني وقال: اذهب إذن، وهذا الرقم هو «دفع بَلا» عن صحتي!

وقد علمت فيما بعد أن أحد الطلبة الأتراك هو الذي وشى بي إلى حسين عوني بك، انتقاماً مني بسبب الخصومة التي قامت بين الطلبة العرب والأتراك في معهد عنبر، مما وصفته في فصل سابق. وكانت هذه الوشاية سبب تنكر حُسين عوني لي في الامتحانات.

وبعدَ أن أديتُ فحص إكمال درس الجبر سنة ١٩٠٨ ونجحت فيه، أصبحتُ مأذوناً من المدرسة الإعدادية وحصلتُ على شهادتها، فأقيمت لي الأفراح والليالي الملاح.

وطلبت من والدي أن يرسلني إلى الأستانة لاتمام التحصيل العالي هناك، فوعدني بذلك إذا استقرت الحال بعد الانقلاب. وفي الانتظار انغمستُ في تيار الحركة التي انبثقت عن الانقلاب، ورحتُ أحضر كل حفلة تقام. ولم يكن لنا هم إلا انتقاد الخطباء.

وأقامت المدرسة الإعدادية بهذه المناسبة حفلةً خطب فيها مدير المعارف ومدير المدرسة وبعض المعلمين. وقد طلبتُ من المرحوم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر أن يكتب لي خطاباً ألقيه في هذه الحفلة، فكتبه لي ونمقه، وجعل موضوعه «الحث على العلم». فكان أول خطاب ألقيته، وكان له وقع كبير على المستمعين، وممّن أثّر فيهم خطابي المرحوم أحمد الدالاتي، وكان لذلك صلة بزواجي في ما بعد.

رفاقي في الصف

بينما كانت الحوادث الآنفة الذكر جارية، كان رفاقي الذين تخرجوا من مكتب عنبر معي يستعدون للالتحاق بالمدارس العالية. وقد سافر أكثرهم إلى الآستانة. وكان عدد أبناء صفيّ الذين نالوا الشهادة معي ١٦ شخصاً، هم السادة:

سعيد الزيبق، علي الأبرش (أكمل الطب ونال الدكتوراه)، خالد جوجه، زكي القصيباتي، إبراهيم الترك، نسيب النابلسي (أنهى مدرسة الملكية)، مصطفى الترك، (أكمل الطب وصار طبيباً)، عثمان السمان (أصبح طبيباً)، ممدوح العابد، عبد الرحمن الرشيدات العجلوني (حصّل الحقوق)، جلال البخاري (حصل الحقوق)، محمود الصاحب (صار طبيباً)، محمد سيف الدين (حقوق)، فخري البارودي (صار متقاعداً)، توفيق الداوودي، مصطفى الصالحاني.

وطلبت إلى والدي إرسالي إلى الآستانة لإتمام تحصيلي، فوعدني بذلك، ولكنه أشار بالتريُّث إلى العام القادم، ريثما تهدأ الحالة هناك خشية أن تقع اضطرابات جديدة أذهب ضحيتها وأكَّد لي أنه سوف يرسلني حتماً عندما يستقر الحال، فصبرت على مضض. وطلبت منه أن يجد لي عملاً مؤقتاً، حتى لا أبقى عاطلاً فالتزم لي «عُشْر» قرية منين، وجبيته ذلك العام. وهكذا مرت سنة ١٩٠٩ والاضطرابات لما تنته في الآستانة.



فخري بك البارودي الحاجب لجلالة الملك المعظم

الانقلاب العثماني

الاتّحاد والترقّي

في السنة ١٣٢٣ -١٣٢٤ مالية[1]، أي في العام ١٩٠٨، وقع الانقلاب العثماني، وكنّا يومئذٍ في الصف السابع الأخير، والسنة على وشك الانتهاء، فقامت القيامة، وخرج المنادون ينادون في الأسواق بإعلان الدستور، والحرية والمساواة والعدالة، وأُقيمت الزينات، وراح الناسُ يهتفون مع الهاتفين، دون أن يفهموا شيئاً ممّا جرى، وما أقل الذين كانوا يفهمون معنى الحريَّة التي ينادون بها.

وقد قامت بالانقلاب جمعية الاتحاد والترقّي، التي كانت سرّيّةً حتى وقع الانقلابُ، فظهرت علناً، وكان على رأس رجالها: نيازي وأنور.

وفي مدَّة قليلة تشكلت لها فروع في جميع الولايات، وساعد على تشكيلها الموظفون الذين نفاهم عبد الحميد من الآستانة.

وقد وصل خبر الانقلاب العثماني من الآستانة مساء ١١ تموز، فأعلنته حكومة الولاية في الساعة الحادية عشرة ليلاً، وفي الصباح التالي -وكان يوم سبت- نادى المنادون به.

(١) السنة المالية العثمانية تقوم على الشهور الميلادية والسنة الهجرية، وبداية السنة فيها هي شهر آذار. وقد طبقت للمرة الأولى سنة١٢٥٦هـ= سنة ١٨٤٠ ميلادية، وكان الفرق بينهما آنذاك يساوي ٥٨٤ سنة. ولذلك فإننا بإضافة هذا الرقم إلى السنة المالية المذكورة نحصل على التاريخ الميلادي ما لم يكن شهر كانون الثاني وشباط فنضيف ٥٨٥ سنة.

وقد أسقط في أيدي رجال الحكومة المحلية. وحاروا في تعيين موقفهم من رجال المعارضة بعد هذا الانقلاب. وقد سارع كثيرون منهم إلى تبديل خطتهم، وتقربوا من الأحرار الذين استلموا فرع جمعية الاتحاد والترقي في دمشق، وعلى رأسهم حسين عوني بك.

أما أعضاء الفرع فكانوا خليطاً من العسكريين والملكيين، وفيهم بعض أبناء دمشق، فكان من الأعضاء العاملين: بهاء الدين بك الماسترلي وأسعد بك أركان حرب، الذي تعيَّن بعد الدستور مديراً للشرطة في دمشق، وهو من أسرة الدرويش من طرابلس الشام، المنتمية إلى آل قرقماز.

وكان من أعضاء الفرع السيدأحمد إيبش، ومن الأعضاء المساعدين مجيد باشا العظم وعبد الرحمن باشا اليوسف[1] وجبران لويس.. وغيرهم.

أما المثقفون من أبناء البلاد فإنهم ساروا بهذا التيار ومشوا مع أحرار الأتراك ينادون مثلهم، ويخطبون ويرشدون الناس إلى تفسير ما غاب عنهم تفسيره من الكلمات الجديدة: حريت، مساوات، عدالت، أخوَّت (أي: الحرية والمساواة والعدالة والأخوة).

وَجدت هذه الكلمات صدى في نفوس الناس، وراح الاتحاديون ينادون بالإخاء، فيجمعون رجال الأديان المختلفة، ويطلبون إليهم أن يتعانقوا بعضهم مع بعض، ويخطبون بعد العناق بتأييد هذا الإخاء. وكان أكثر التأييد على ما أظن ظاهرياً لأن حال البلاد بعد إعلان الحرية ظل على ما هو عليه، ولم يتغير فيها إلا الكلمات أي بدلاً من «بادشاهم جوق يشا»، أصبحوا ينادون «يشاسون حريت» أما الإدارة ومعاملات دوائر الدولة فلم تتبدَّل!

---

(١) عبد الرحمن بن محمّد اليوسف، من أعيان الأكراد في دمشق، وسبط سعيد باشا شمدين أمير الحاج الشامي، الذي تنازل له عن أمواله، ثم خلفه في إمارة الحج. وفي عهد الانتداب عيّن رئيساً لمجلس الشورى، وقد ذُبح في خربة الغزالة في حوران يوم ٢١ آب سنة ١٩٢٠ مع رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي.

وقد ساعد الاتحاديين على نشر دعايتهم اللوج الماسوني الذي كان مغلقاً قبل الدستور. وكان مربوطاً بالمحفل الإيطالي. ومن أركانه المرحوم الأمير عبد القادر الجزائري. وبعد الانقلاب فتح المحفل أبوابه وجمع الأعضاء شملهم، وأسسوا محفلاً جديداً أسموه محفل «نور دمشق» وربطوه بالمحفل الاسكتلندي. وقد تعاقب على رئاسته السادة مصطفى السباعي الخطاط المشهور، ثم جبران لويس ثم غالب شاوول مدير البنك العثماني، ثم الأستاذ فارس الخوري، وهو من أعضاء شلة الأحرار تلامذة الشيخ طاهر الجزائري، وبعد نشاط قصير عادوا فأغلقوا المحفل، ومايزال مغلقاً إلى الآن.

ظهور الخطباء

استمر الابتهاج بالانقلاب زمناً طويلاً، وراح الناس يتسابقون في إقامة المهرجانات، فيقوم فيها الخطباء ويستفزون حماسة الجماهير بالعبارات الرنانة المزوّقة.

لم يكن في دمشق في ذلك التاريخ خطباء بالمعنى المقصود من الخطابة. وكان خطباء المساجد موظفين يقرؤون أيام الجمعة الكراسات المطبوعة. وكانت خطبة المساجد في العهد العثماني واحدة، وهي الخطب التي وضعها ابن نباته منذ ألف سنة.

أما الخطباء المدنيّون فلم نكن نعرف عنهم شيئاً. ولم أسمع في عمري خطيباً خارج المساجد إلا عند إعلان الانقلاب، حيث قام شبان الأتراك يخطبون باللغة التركية، وخريجو المدارس العالية من أبنائنا يخطبون باللغة العربية، ومنهم السادة الانكليزي(١) والشهبندر(٢) وفارس الخوري(٣). وكانوا يؤثّرون على الجماهير بأقوالهم، ويسترسلون في الحديث عن الحرية ومعانيها.

(١) عبد الوهاب الانكليزي، من شهداء الثورة العربية المعروفين سنة١٩١٦م.

(٢) عبد الرحمن الشهبندر، طبيب ومجاهد مشهور، كان خطيباً من الطراز الأول، اغتيل يوم ٦ تموز سنة ١٩٤٠ بدمشق عن ٦١ سنة، ولحسن الحكيم كتاب قيّم عنه.

(٣) من رجال الثورة العربية، ورجال الأدب والقانون، ترأس المجلس النيابي السوري مرّات، وترأس الوزارة، وتوفي سنة١٩٦٢ عن ٨٩سنة.

ومن أطرف ما وقع في هذا الموضوع أن ضابطاً من أبناء دمشق يدعى أحمد جودت كان من أشد المتحمسين للحرية، فراح يعدو من حي إلى حي ليفهم الناس معنى الانقلاب. وقد رأيته ليلة في حي الميدان يخطب باللهجة العامية، فحمل على أحمد عزت باشا العابد[1] حملة شعواء، واتهمه بكل شنيعة.

وكان عزت باشا من أبناء الميدان، وأهل الميدان موصوفون بالرجولة، فاستاؤوا من التعرض لزعيمهم. فلما رأى الخطيب أن العين احمرت عليه، وسمع الهمهمة من كل جهة، أحسّ بالخطر. فطلب إلى ضابط الجوقة الموسيقية العسكرية أن تتهيأ للعزف، وقال:

أتعرفون يا إخوان ما هي الحرية؟ الحرية غزالة مسجونة في قفص، فتحوا لها الباب وفرت... فرت إلى الصحراء. هذه هي الحرية!

ثم التفت إلى الجوقة وقال: «مزيكة دقي!» فالتهى الناس بأنغامها ونزل الخطيب عن المنبر وتوارى!

المشير فؤاد باشا وعبد الرحمن الشهبندر

كان بين كبار الأتراك المنفيين في دمشق المشير فؤاد باشا، المعروف بـ«دلي فؤاد»، أي فؤاد المجنون، وقد نفاه السلطان عبد الحميد عن الآستانة إلى دمشق. فسجن في البناية التي كانت يؤمئذٍ نادياً للضباط، وهي قرب الثكنة العسكرية. وقد أصبحت اليوم جزءاً من الجامعة السورية.

ولما أعلنت الحرية لم يطلق سراحه، ولذلك ذهب الأستاذ فارس الخوري وأسعد بك أركان حرب إلى مدّعي عام الولاية، وطلبا إليه إخلاء سبيل فؤاد باشا، فأجاب: لم تصلني أوامر من الآستانة!

---

(١) من رجال السلطان عبد الحميد المقرّبين، ومن أشهر آثاره في دمشق: الخط الحديدي الحجازي وبناء «العابد» في ساحة المرجة والمسمّى اليوم بـ: المنزل. توفي في مصر سنة ١٩٢٤ عن ٦٩ سنة، ودفُن في دمشق، وللناس فيه آراء متباينة.

قالوا: أي أوامر تنتظر؟ هل بيدك أمر مخطوط بسجنه؟

فلما أجاب سلباً، قالوا: إذن القانون يمنعك من إبقائه في السجن!

وعلى الأثر ذهب المدعي العام مع السيدين الخوري وأسعد قرقماز وأخرجوا المشير من سجنه، ولا أدري أين ذهبوا به، ولكن الذي أعرفه أنهم أقاموا له حفلة تكريم في حديقة الدفتر دار، وهي الحديقة الواقعة أمام مدرسة التجهيز الأولى[1]، عزفت فيها الموسيقا العسكرية، وخطب فيها الخطباء، وسمعنا فيها المرحوم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر يخطب لأول مرة في دمشق.

وأذكر أنه أخرج منديله وطلب إلى الناس إخراج مناديلهم، وصار يلوح بمناديله ويقول: اعملوا مثلما أعمل! فصار الناس يلوحون بمناديلهم، فكانت هذه العملية مثاراً لانتقاد بعض الأوساط الناقمة على هذا الدور.

ومن ألطف ما جرى بهذه الحفلة أنهم كلفوا بعض الوجهاء بإلقاء كلمة في هذه الحفلة. ولما كان أكثرهم لم يقفوا على المنابر في حياتهم، فقد تلعثموا، ومنهم الأمير علي عبد القادر الجزائري، الذي قرأ خطاباً مكتوباً، وكان نور السراج ضعيفاً، فوصل إلى كلمة لم يتمكن من قراءتها، فنادى بأعلى صوته «مطموسة»، وترك الكلمة واستمر في قراءة الخطاب، فكان لهذه النكتة وقع جميل. وصفق له الحاضرون طويلاً!

(١) ثانوية جودت الهاشمي اليوم.



الدكتور سعيد طليع مندوب طرابلس في المؤتمر السوري وواضع هذا الأثر التاريخي

حكاية الشيخ رشيد رضا في دمشق سنة ١٩٠٨

كان طبيعياً ألا يرتضي السلطان عبد الحميد العهد الذي فرضه عليه الانقلاب، وهو الذي اشتهر بجبروته العظيم وملكه الواسع. وكان الموت والحياة بين شفتيه، إن ركب مشى الأكابر في ركابه، وإن نزل وقفوا ببابه وخضعوا لموظفيه، بل وخدامه.

وكانت إدارة البلاد في عهده بأيدي المتسلطين من الأعيان والوجهاء والحشوية من الشيوخ والسفطاء، فانقطع رزقهم بعد الانقلاب، وتهدم نفوذهم، وأضحَوْا مشردين في الآفاق. وعقب الصدمة الأولى استعادوا جأشهم، فألف بعض رجال الدين بالاتفاق مع رجال عبد الحميد المعزولين وبتشجيع السلطان نفسه، حركة خفية، ظهرت بعد شهور من الانقلاب باسم «الجمعية المحمدية» في الولايات والعاصمة. وقد استطاعوا أن يستميلوا كثيراً من العوام، وراحوا يحاولون هدم ما أنشأه الأحرار العثمانيون.

وكان يترأس هؤلاء الرجعيين في دمشق أحد رجال الشيخ أبي الهدى الصيَّادي الحلبي[1]، فراح يتهجَّم على الأحرار، ويحرض الناس عليهم، فتصدى

---

(١) محمد بن الحسن، الصيادي الرفاعي. أبو الهدى. ولد في خان شيخون سنة١٨٤٩م وتولى نقابةَ الأشراف في حلب ثم قلَّدهُ السلطان عبد الحميد مشيخة الشيوخ وصار من أقرب المقرّبين إليه، وكانت له الكلمة العليا في تعيين القضاة والعلماء والمدرسين طوال ثلاثين عاماً، وبسقوط سيده النهائي سنة١٩٠٩، نفي إلى جزيرة الأمراء حيث مات في العام نفسه. وله مؤلفات عديدة.

له المرحوم الشيخ رشيد رضا[1]، وهو من أحرار العرب الميامين الذين جاهدوا لرفع الظلم وبث الإصلاح.

وذات يوم ألقى السيد رشيد عظةً في الجامع الأموي داعياً إلى إصلاح الدين، فنهض رجل يدعى الشيخ صالح التونسي، وراح يخطب في المسجد ضد الشيخ رشيد.

وقد أتى المرحوم الأمير شكيب أرسلان[2] على ذكر هذه الحادثة في كتابه «السيد رشيد رضا، أو إخاء أربعين سنة»، فقال:

«ذهب الشيخ إلى دمشق عند إعلان الدستور، وهناك ألقى درساً يتعلق بالعقيدة، ذهب الشيخ صالح الشريف التونسي -وكان حاضراً ذلك الدرس - إلى أن فيه تعرُّضاً للأولياء، وأن فيه شيئاً من الوهَّابية. وتكلم الشيخ بشدة، فمال الجمهور ممَّن يقال لهم «الحشوية» إلى كلام الشيخ صالح. كما أن أصحاب النزعة الجديدة والدستوريين مالوا إلى كلام الشيخ رشيد رضا. وحصل ضجة عظيمة في الجامع، واتصلت بالحكومة فاستدعت الشيخ صالح إلى دائرة البوليس بحجَّة أنه اعتدى على الشيخ رشيد وأنه كفَّره.

فشاع في دمشق أن الشيخ التونسي اعتُقل، وأوجب ذلك هياج العامة فاجتمعوا وجاؤوا لتخليص الشيخ صالح من السجن. والحقيقة أنه لم يكن قد سجن بل استوقفوه بحجة أنه هو الذي تعرَّض للشيخ رشيد. ولما رأى الوالي هذه الحالة، وخاف الهرج والمرج، ركب العربة وأجلس الشيخ صالح بجانبه.

وإنني لم أحضر تلك الواقعة ولكنني سمعت خبرها».

هذه رواية الأمير شكيب عن الحادث. أما أنا فقد حضرت الواقعة فأرويها كما شهدتها:

---

(١) من تلاميذ الإمام الشيخ محمد عبده وصاحب المنار، وهو أشهر من أن يعرَّف، توفي ودفن في القاهرة سنة١٩٣٥ عن سبعين عاماً.

(٢) من كبار علماء الشام، ومن الإسلاميين المتحررين. توفي سنة ١٩٤٦ عن ٧٧عاماً.

ألقى الشيخ رشيد رضا في ٢٦ رمضان سنة١٣٢٦ درساً تحت قبة النسر كان له وقع بليغ على الأهلين. فتداعى الناس في اليوم الثاني (أي ٢٧ منه) إلى المسجد ليسمعوا هذا الشيخ الفاضل، وكثر الجمعُ حتى قُدِّر بالألوف.

وبينما كان الشيخ يلقي درسه ويشرح الآيات والأحاديث ويطلب إلى الناس الرجوع إلى سيرة الصحابة، واتباع أوامر النبي والعمل بها، إلى غير ذلك من النصائح والإرشادات، وإذا بشيخ مغربي يدعى الشيخ صالح الشريف التونسي يشق طريقاً بين الواقفين حتى وصل إلى وسط الحلقة ووقف خلف الجالسين من المستمعين والشرُّ بادٍ في عينيه. وبعد أن وقف قليلاً يستمعُ ويجيل نظره بالحاضرين كأنه يزن الموقف صاحَ بصوته: أيها المسلمون اسمعوا لي كلمتين!

فالتفت الناس جميعهم إليه، وسكت الشيخ رشيد، فراح الشيخ صالح يحذّر من الوهابية ويقول: «وإياكم أن يُضلّوكم عن دينكم، ومنهم هذا الشيخ -وأشار إلى الشيخ رشيد- الذي يحرِّمُ زيارة قبور الأنبياء والأولياء والصالحين، ويمنع التوسل بهم ولا يعتقد بكراماتهم. فهذا فعل الوهابية، فأنا أحذّركم منه. فالأنبياء والأولياء والصالحون يقرّبون الإنسان إلى الله، ويقضون حوائج الناس إذا سمعوا الدعاء.. إلخ».

وهناك وقف الشيخ رشيد ليرد عليه وليثبت للحاضرين أنه لم يذكر ما قاله الشيخ في درسه. ولكن الناس كانوا قد هاجوا وماجوا. وكان بين الحاضرين عثمان بك العظم والقومسير يحيى أفندي تللو، وغيرهما من الشبان المنورين، فالتفوا حول الشيخ رشيد وأخرجوه من الجامع، وخرج الناس من المسجد إلى الشارع بهياج عظيم، فذهبتُ إلى داري.

وبعد الفطور سمعنا الضوضاء تأتي من الشوارع، وإذا بأهل الأحياء قد خرجوا بمظاهرات مسلَّحة نحو سراي الحكومة[1] يهتفون بسقوط مدير الشرطة العام

(١) هي التي تشغلها اليوم وزارة الداخلية، بنيت كما هو مدوَّن عليها سنة١٣١٨/ سنة١٩٠٠م في عهد الوالي حسين ناظم باشا، وقبل ذلك كان مقرّ الولاة في بناء الوالي كشيخ يوسف باشا في مكان بناء العابد، وقبله كان في مبنى المشيرية -القصر العدلي اليوم- وقبل ذلك كان في دار السعادة في سوق الحميدية، وهو من العصر المملوكي.

أسعد بك، وسقوط جمعية الاتحاد والترقي. ومنهم من كان ينادي بسقوط «جمعيَّة التفريق والتدني». واجتمع ألوف الناس في ساحة المرجة. وكان والي سورية يومذاك هو شكري باشا[1]، وقد أسماه الدمشقيون «شكرية خانم» لضعف شخصيته إذ كان يحكم الشام بالفعل أسعد بك المذكور.

وهجم المتظاهرون على دائرة الحكومة لإخراج الشيخ صالح من النظارة، وتعالت الأصوات: «اقتلوهم! اقتلوهم!». واتجه قسم من المتظاهرين وأراد كسر باب الغرفة التي كان فيها أسعد بك مدير الشرطة العام. وقبل أن يصلوا إلى غرفته ركض السيد شكري الطباع، وهو من «قبضايات» حي القنوات ووقف أمام باب غرفة أسعد بك، وفتح ذراعيه ووضعهما على عضائد الباب قائلاً: لا يصل أحد إلى أسعد بك إلا على جثتي!

وانبرى أبناء محلته يردون الناس عن باب الغرفة إلى أن تمكنوا من إنقاذ من في داخلها. وكان من بينهم الدكتور حسين حيدر من بعلبك، وعمر فرحات مدير شرطة دمشق. وعلى الأثر هرب أسعد بك إلى بيروت.

هذه الفتنة كانت ولا ريب مبيتة ضد جمعية الاتحاد والترقي، وساعد الجهل على إذكائها، ونجح الرجعيون بمؤامرتهم التي قاموا بها خلف ستار الدين. وبعد المظاهرة نزل الوالي شكري باشا إلى دائرة الشرطة وأخرج الشيخ صالح، وركب وإياه عربته الخاصة، ودار به شوارع البلدة، ليرى الناس أن الشيخ أطلق سراحه. وهكذا انتهت الفتنة، ولكن ذيولها لم تنقطع.

أحمد كمكوم

هذا الحديث عن الهجوم على السراي يجرني إلى حديث آخر، من نوع شخصي. ذلك أنني شاهدت ذلك الهجوم برفقة رجل مولَّج بالمحافظة علي، يدعى «أحمد كمكوم». ولهذا الشاب حكاية أخرى. أود أن أسردها على القراء، للتدليل على بعض مظاهر العهد الذي نشأ فيه جيلنا.

---

(١) حكم بين ١٣٢٥ و١٣٢٧، وخلفه حسين ناظم باشا في ولايته الثانية.

كان أحمد هذا، نجل جندي مصري من جنود إبراهيم باشا، تخلّف في دمشق واستوطنها، ويدعى سليم كمكوم. وكان له ثلاث أخوات. فلما بلغ العاشرة من عمره. غضب على أخته الكبرى -وعمرها ست سنوات- فخنقها. ثم ذهب وخنق الثانية، ثم وضع وسادة على رأس الثالثة وجلس عليها حتى ماتت. وبعد ذلك ذهب إلى والده يبلغه أنه قتل أخواته الثلاث، خوفاً من عارهن عندما يكبرن!

انهال أبوه عليه بالضرب، وصدف أن مرَّ في تلك الساعة جدي محمد حسن البارودي، فخلّص الولد منه وأخذه إلى داره، لأنه صغير لايعي مايفعل، فرباه عنده وأصبح «قبضاياً» مرهوب الجانب.

وذات يوم تشاجر أحمد مع شاب أخرس، فقتله بطعنة خنجر عن غير قصد، فالتجأ إلى دارنا، وحماه جدي من الحكومة، حتى هدأت الأعصاب، واستطاع والدي استرضاء والدي القتيل بدفع الدية.

بعد ذلك عاش أحمد كمكوم في دارنا. أقسم أنه سيمسح أحذية العائلة البارودية حتى الموت. وكان يأتي كل أسبوع بصندوق البويا ويمسح أحذيتنا، ويدعو الله ألا يميته إلا على دارنا.

وذات يوم، وكان قد تجاوز الثمانين، شعر بقرب منيَّته، فطلب إلى زوجته أن تقوده إلى دارنا، حيث جلس أمام باب الإسطبل، وبعد دقائق أسلم الروح هناك.

وكان كمكوم يحترف صنعة «البسطاطية»، أي بيع الحوائج القديمة، كأدوات النجارة والحدادة، وماأشبه ذلك من مطارق ومناشير وأمواس. وكان يبيع حاجاته بالرخص لأن بعضها «لُقَطَة» أو مسروق. وكان البسطاطيون من أشقى فتيان دمشق. ومنذ عشرين سنة تقريباً انتظمت هذه الحرفة، وفتحوا لها الحوانيت، وهي رائجة اليوم في سوق الدرويشية.

أثناء السنوات السبع التي قضيتها في مكتب عنبر، لم أنل أية إجازة استثنائية، بسبب «شيطنتي»، إلا يوم أنعم السلطان عبد الحميد على خال والدي عطا البكري برتبة الباشوية. وعندئذ تعطّف مدير المدرسة، وأجازني ثلاثة أيام. ولم يبق يومئذ في دمشق أحد من الأصدقاء والأحباب إلا شاركنا بأفراحنا. ولاعجب فإن الحصول على الباشوية في تلك الأيام كان حدثاً عظيماً، لأن مقاييس الدنيا كانت يومئذٍ رتباً وألقاباً!

لما كانت الرتب تعطى من الآستانة، فقد كان أكثر الذين يحظون بها من موظفي الدولة الأتراك، خصوصاً من أبناء الآستانة نفسها، وممن يتعين فيها من أبناء الولايات. وكانوا يسمّون الأقطار الخارجة عن العاصمة «طشرة». وكان لقب الباشوية يُعطى لكل من يصبح وزيراً، ولو لم يكن تركياً، أي من «الطشرلية».

وكان وجوه البلاد من الأغنياء يطمعون بنيل الرتب، مع أنها رتب فخرية لا راتب لها. ومع الزمن ولدت مهنة جديدة، هي مهنة السماسرة الذين يتولون الوساطة بين طالب الباشوية وبين إستانبول، لبيع اللقب بالمال. وفي أواخر أيام السطان عبد الحميد بلغ ثمن الباشوية مائتي ليرة ذهبية عثمانية. وهو مبلغ كبير بالنسبة إلى ذلك العهد.

عرفت سمساراً للرتب باع رتباً كثيرة في دمشق. فكان إذا اختلف مع أحد الباشوات أعلن بصوت جهوري على الملأ أنه سيسحب الباشوية من فلان، لأنه هو الذي أتاه بها!

ركبت يوماً مع والدي قاصدين إلى دوما، حتى وصلنا إلى قطعة أرض تدعى «البحصة»، فوقفنا أمامها. وكان العمال ينصبون فيها مروشاً، أي نصب زيتون، فالتقينا هناك بسمسار مشهور بتدبير الألقاب، فقال لوالدي: مارأيك يا أبا فخري بباشوية بمائتي ليرة عثمانية؟

فضحك والدي وقال: إن «مروشة» واحدة من هذه الشجيرات تساوي عندي جميع الرتب الحكومية!

رتب الدولة العثمانية

كانت الرتب يومئذٍ على ثلاثة أقسام: ملكية، وعسكرية، وعلمية. وكانت تعطى بفرمان، أي بمرسوم ملكي يصدر عن السلطان، وهي على درجات متفاوتة، وإذا وجد صاحبا درجة واحدة يتقدم صاحب الرتبة السابقة بالتاريخ زميله حامل نفس الرتبة. ولكل رتبة لباس خاص منقوش بالسيم المعروف عندنا بـ«الصرمة» أي القصب.

أما الأعياد والأيام الرسمية التي كانوا يرتدون فيها لباس التشريفات، فهي عيد الأضحى وعيد الفطر وعيدا جلوس السلطان وولادته، ويوم خروج المحمل من دمشق، وعودته إليها.

وكان أصحاب الرتب يفرحون في المواسم الرسمية فرح الأولاد بالأعياد، فيقضون الليل في تعهد لباس التشريفات بالمسح والكي، وتلميع السيم بالزيت لإزالة الصدأ عنه.

حدثني مرةً صديقي المرحوم تيمور باشا[1] فقال: في أحد أيام المراسم أخرجتُ لباس التشريفة لتهيئته، وإذا بولدي الصغير يركض ويمسك بالرداء، ويصرُّ على أن يلبسه. وعبثاً حاولنا إقناعه بالعدول عن هذا الطلب، فقال لي الصغير: لمن تكون زخارف القصب، أللصغار أم للكبار؟

قال أحمد تيمور: ومن ذلك اليوم لم أعد أرتدي ذلك اللباس!

وفيمايلي تفصيل الرتب في العهد العثماني، مع تفصيل الرتب التي كانت تعطى لها:

الرتب الملكية

رتبة الوزارة: باشا، مير ميران أولى صنف ثاني باشا، رتبة أولى صنف أول

---

(١) من علماء عصر المرموقين، كانت داره ملتقى العلماء والأدباء والشعراء، وكانت عنده مكتبة عامرة أهداها إلى دار الكتب، وله مؤلفات عدَّة. توفي في القاهرة سنة ١٩٣٠ عن تسعةٍ وخمسين عاماً.

بك، رتبة ثانية صنف متمايز بك، رتبة ثانية صنف ثاني بك، رتبة ثالثة وركاب همايون وقيوجي باشي لغي أفندي، رتبة رابعة وخامسة أفندي.

الرتب العسكرية

مشير باشا، فريق أول باشا، فريق باشا، ميرالاي بك، عسكري قائمقامي بك، ألاي أميني وقول أغاسي أفندي أو آغا، يوزباشي آغا.

الرتب العلمية

كانت كلها «أفندي» وتعطى إلى: صدر روم إيلي، صدر أناطولي، حرمين شريفين مولويتي، بلاد خمسة مولويتي، مخرج مولويتي، موصلة سليمانية، خواجكان[1].

وِسَامُ الحمار

كما كان الأغنياء يتنافسون على الرتب، كانوا يتنافسون على الأوسمة العثمانية، ويدفعون ثمنها غالياً. وأذكر بمناسبة حديث الأوسمة حكاية وقعت يوم زار إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني[2]، دمشق في سنة ١٨٩٨، فاسقبلته المدينة استقبالاً عظيماً.

---

(١) نُظّمت هذه الرتب منذ عهد السلطان سليمان القانوني، وكانت رتب المدرسين على ١٢ درجة، ويُطلق على أصحاب الدرجات الست الدنيا اسم: صوفتة، بينما يطلق اسم الدانشمند على أصحاب الرتب العليا.
وبعد ذلك يلازم الخريج أحد العلماء ويتحوّل إلى مدرس، ثم يترقّع إلى رتبة القاضي، وأعلاها رتبة قضاء الروملّي، وأرفع الرتب العلمية الدينية بعد ذلك مشيخة الإسلام.

(٢) أو وليم، إمبراطور ألمانيا، زار دمشق قبل مائة عام، في عهد الوالي حسين ناظم باشا، وهو الذي أوحى له ببناء حيّ المهاجرين، بعد أن شاهد دمشق من «المصطبة» التي بُنيت له في قاسيون. تولّى الحكم سنة١٨٨٨ وعزُل سنة١٩١٨، وتوفي في هولندة سنة١٩٤١م عن ٨٢عاماً. أما زوجته الامبراطورة التي رافقته في زيارته فهي: أوغستا ڤيكتوريا التي توفيت ١٩٢٢م.

في أثناء الاستقبال لاحظت الإمبراطورة حماراً أبيض، فاستلفت نظرها، وطلبت إلى الوالي أن يأتيها به، لكي تأخذه معها ذكرى. فراح الوالي يبحث عن صاحب الحمار. فعلم أنه يخص أبا الخير آغا تللو. وكان الآغا من وجوه محلته، ويفاخر دائماً بأن له حبيبين: الحمار وحفيده حسني!

استدعى الوالي أبا الخير، وطلب إليه إهداء الحمار إلى الإمبراطورة، فاعتذر. فعرض عليه شراءه منه، فأصرَّ على الرفض. ولما اشتد الوالي في الإلحاح أجابه أبو الخير:

– يا أفندينا، إن لديَّ ستة رؤوس من الخيل الجياد، إن شئت قدمتها كلها إلى الامبراطورة هدية مني، أما الحمار فلا!

استغرب الوالي هذا الجواب، وسأله: ولماذا؟

قال: سيدي، إذا أخذوا الحمار إلى بلادهم فستكتب جرائد الدنيا عنه، ويصبح الحمار الشامي موضع النكتة وربما السخرية، فيقول الناس: إنّ إمبراطورة ألمانيا لم تجد في دمشق ما يعجبها غير الحمار. لذلك لن أقدمه إليها، ولن أبيعه!

ونقل الوالي الخبر إلى الإمبراطور والإمبراطورة، فضحكا كثيراً، وأعجبا بالجواب. وأصدر الإمبراطور أمره بمنح أبي الخير وساماً، فسماه «وسام الحمار» واشتهر أمره زمناً في دمشق!



محمد خيري افندي المحاسني قاضي دمشق

السلطان عَبدُ الحميد[1]

في العهد الذي نشأتُ فيه كان اسم واحد يتقدم على كل اسم، ولا يذكره الناس إلا بخشوع صادر عن رعب، هو اسم السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد بن محمود الثاني. كانت والدته سرية أرمنية، ونشأ بين العبيد والسراري. واشتهر منذ صغره بحب الانفراد. وقد اتهمه الكتاب الأحرار بعد خلعه بكل نقيصة، ولم يذكروا له حسنة واحدة. على أن بعض الكتاب في أيام حكمه كانوا يصفونه بالحلم والشجاعة.

وعلى كل فقد كان عبد الحميد من أدهى ملوك هذا العصر وأذكاهم. ولو كان على جانب من العلم والثقافة لما وقع بما وقع فيه من خطيئات، ولما اعتمد في حاشيته المنافقين دون سواهم. وكان يستشير المنجمين المشعوذين والدجالين من شيوخ الدين، ويستخدم رهطاً من شياطين رجال السياسة ممن أتقنوا النفاق والمداجاة. وقد جمع حوله جيشاً من الجواسيس، وأطلق العيون في العاصمة والولايات بعد أن عطَّل الدستور وأبعد الأحرار وحلَّ مجلس «المبعوثان» وسجن المثقَّفين.

وكان عبدُ الحميد يرهب الانتقام، فصار يصدق كل وشاية يحملها إليه

(١) وُلد في ٢١ أيلول سنة ١٨٤٢، وتولى الحكم سنة ١٨٧٦م، وخُلع من السلطنة يوم ١٤ نيسان سنة ١٩٠٩م، وتُوفي معزولاً سنة ١٩١٨م، وللناس في حقّه آراء كثيرة. ويمكن القول إن من حكم قبله كانوا خيراً منه، وهو أفضل ممَّن جاء بعده بكثير.

جواسيسه. وقد عرف هؤلاء نقطة الضعف فيه، فراحوا يكثرون من تلك التقارير التي تثير الأعصاب، ويزيدون استفزازه، حتى جعل همه من الدنيا محاربة الأحرار ومقاومتهم، والكيد لرجال الجمعيات الوطنية، إلى أن وقع الانقلاب، كما أسلفنا. ولما لم يقدر على تحمُّل الحكم الدستوري، رتَّب بواسطة رجاله حركة رجعية اسمها «الجمعية المحمدية»، انضم إليها رجال الدين، ورأس عليها أحد أعوانه الدرويش «وحدتي»، وانتصر لها كل ناقم على العهد الجديد.

وقد اتصل عملاء هذه الجمعية بالجيش، فنجحوا في اجتذاب بعض الرقباء في ثكنة «أولو قشلة» في الآستانة. وتظاهر الجنود وهجموا على مجلس المبعوثان وقتلوا بعض النواب، ومنهم المرحوم الأمير محمد أرسلان[1] شقيق المرحوم الأمير أمين أرسلان.

وهكذا استعاد الرجعيون السيطرة على الآستانة بفضل دسائس عبد الحميد. ولكن الأحرار سارعوا إلى إرسال جيشهم من سلانيك، فوصل إلى الآستانة وأطفأ الفتنة، وخلع عبد الحميد عن عرشه.

ومما يؤسف له أن الأحرار لم يختاروا لتبليغ قرار الخلع إلى عبد الحميد -وهو سلطان المسلمين- غير عمانوئيل قره صو[2]، وهو زعيم يهود سلانيك. وكانت وقعت له حادثة تاريخية مع عبد الحميد، طرده على إثرها من القصر.

ففي سنة ١٩٠٠ دخل قره صو على السلطان، بفضل القرين عارف بك، وأبلغه أنه موفد من قبل الجمعية العالمية الصهيونية، وأنه قادم يطلب إليه إعطاء تلك الجمعية الأراضي الواقعة في المثلث القائم ما بين يافا وغزة والبحر الميت، مقابل خمسة ملايين ليرة عثمانية ذهبية تدفعها الجمعية الصهيونية هدية إلى الخزينة

(١) نائب اللاذقية، قُتل خطأ لظنّ المهاجمين أنه حسن جاهد بك صاحب جريدة طنين، لسان حال الحزب.

(٢) بقيادة محمود شوكت باشا. وهو عربي من بغداد، قتله رجال الاتحاد أنفسهم سنة١٩١٣. وكان معه: أسعد طويطاني الألباني، والفريق عارف حكمت، وآرام أفندي الأرمني.

الخاصة، وعشرين مليوناً تقرضها الجمعية إلى الحكومة دون فائدة لمدة تعينها الحكومة، فغضب السلطان وطردهُ من حضرته.

وعلى الأثر ألف اليهود جمعية سريّة أكثر أعضائها من اليهود المعروفين بالدونمة[1]. فاتصلت بأحرار الأتراك، ودخل أعضاؤها حزب الاتحاد والترقّي، وتعاونوا مع كثيرين من شبان الضباط كأنور ونيازي. وكان لهم اليد الطولى في الانقلاب الثاني وخلع عبد الحميد.

وظل اليهود ذوي نفوذ قوي في أوساط الاتحاديين، وكانوا في جملة العناصر التي بثت الفساد في الشعب التركي وفي حكامه.

مقهى: الله كريم

بعد خلع السلطان عبد الحميد، أحال الاتحاديون على التقاعد قسماً كبيراً من الضباط الذين ناصروه.

وكان الضباط المتقاعدون في دمشق يجتمعون في مقهى البغا، قرب جامع «يليغا» الواقع بين محلتي البحصة وسوق الخيل. فلما انضم إليهم الضباط الحميديون المتقاعدون تزايد عددهم، حتى أصبح ذلك المقهى خاصاً بهم تقريباً.

وكانوا يجلسون فيه طول النهار، حتى إذا مرّ أمامهم ضابط حديث، يتبادلون النظرات ويرددون: «الله كريم!»، أملاً منهم في أن يعود عبد الحميد إلى العرش ويعودوا معه إلى مناصبهم. ولكن عهد عبد الحميد لم يعد، ولم يبق لهم من آمالهم سوى عبارة «الله كريم»! التي أصبحت اسماً للمقهى.

الدستور العثماني

تحدثت كثيراً عن الانقلاب الذي أدى إلى إعلان الدستور. والواقع أن

(١) يهود إسبانيا الذين أقاموا في سلانيك، كانت أسماؤهم إسلامية وديانتهم يهودية وينتسبون إلى «سباتاي سيفي»، ومنهم جاويد بك وغيره من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي.

الحكومة العثمانية أعلنت الدستور أول مرة سنة١٨٧٦ . وكان مؤلفاً يومئذٍ من ١١٩ مادة، أهم مافيها بالنسبة إلى ذلك العهد :

١ – المساواة بين الرعية على مختلف المذاهب والأديان .

٢ – حرية التعليم، على أن يكون إجبارياً، وحرية المطبوعات .

٣ – إلغاء السخرة ومنع المصادرة والتعذيب .

٤ – جعل اللغة التركية اللغة الرسمية للدولة .

ولكن السلطان عبد الحميد لم يلبث أن تنكَّر للدستور الذي أعلنه، فألغاه في ١٤ شباط ١٨٧٨، أي بعد إعلانه بسنة واحدة[1]، وظل يحكم البلاد حكماً استبدادياً حتى وقع الانقلاب سنة١٩٠٨ .

وقد قرأتُ في مجلة «الهلال» في العدد العاشر من المجلد السابع عشر، مقالاً عن أسباب إلغاء الدستور سنة١٨٧٨ وحل مجلس «المبعوثان»، يلقي التبعة على جهل الشعب لحقوقه وواجباته، إذ لم يكن يفهم معنى الدستور والانتخابات .

وكان النواب مجموعة قوميات، فمنهم التركي والعربي والسرياني والبلغاري والبوسني والسلافي والصربي والفلاخي والفارسي والكردي، ولكل منهم لغة مستقلة كما كانت أديانهم متباينة . وقد كان هذا التباين سبباً في مشاكل مذهبية، اتخذها السُّلطان ذريعة لحل المجلس .

(١) في ٢٤ تشرين الأول سنة١٨٧٦ أصدر السلطان عبد الحميد مرسوماً بعقد مجلس للأمة . وفي ٤ آذار سنة١٨٧٧م اجتمع هذا المجلس، ثم ألغي في شباط سنة١٨٧٨ .

حطّ بالخرج

لم تمض مدة قليلة على الانقلاب، إلا وأصبحت كلمة الحرية على كل لسان، بعد أن كانت محظورة في عهد عبد الحميد، بيد أن الكثيرين أساؤوا استعمالها، ظناً منهم بأن الحرية غير محدودة.

وكانت الصحافة قُبيل هذا الدور غير معروفة، عديمة الأثر. ولم يكن منها في دمشق غير صحيفة واحدة اسمها «الشام» كان يصدرها مصطفى أفندي الشقللي، مرة في الأسبوع.

وكان الدمشقيون يسمون الجريدة «كزيطة»، وهي تحريف كلمة «غازيتا» الإيطالية. ومايزال بعض الشيوخ من عوام الدور الحميدي يسمون الجريدة «كزيطة» إلى اليوم.

بإعلان الدستور العثماني، فتح باب الصحافة على مصراعيه. فصدرت في دمشق أول جريدة يومية متزنة وطنية هي جريدة «المقتبس»(١) للأستاذ محمد بك كردعلي. وكانت إدارتها مجمعاً للعلماء والأدباء والمفكرين من العرب على اختلاف أقطارهم. ومما لاشك فيه أنها كانت الأولى التي نبهت أذهان الناس إلى واجبهم نحو وطنهم. وإذا كان من فضلٍ لأحدٍ عليَّ في توجيهي من الناحية الوطنية، فهو أولاً للشيخ طاهر الجزائري المغربي أستاذنا، وإلى تلامذته الأحرار، ومنهم الأستاذ كردعلي الذي صحبته مدة غير يسيرة من الزمن، علّمني خلالها كيف أطالب بالحق وأنادي به.

---

(١) صدر العدد الأول منها يوم ١٧ كانون الأول سنة ١٩٠٨، وكان الأستاذ أحمد كردعلي، يتناوب مع شقيقه العلامة محمد كردعلي التحرير فيها.

وفي العام ١٩٠٩ خطر لي أن أصدر جريدة. وهكذا دون أن أستشير أحداً، أصدرت جريدة أسميتها «حط بالخرج»[١]، وكانت أول جريدة فكاهية صدرت في دمشق، أخرجتها دون أن أحصل على رخصة من الحكومة، لأنني كنت أجهل أن إصدار الجرائد يحتاج للرخصة، كما أنني كنت أتوهم أن رأس مال الجريدة لايزيد عن قلم وورقة.

وفعلاً أصدرت العددين الأولين بتوقيع «عزرائيل»، فراجا رواجاً كبيراً، وكنت أحررها باللهجة العامية.

ولما عرف والدي بالأمر، قامت قيامته، وغضب غضباً شديداً، وأقسم أن يطردني إذا نشرت اسمي صريحاً على الجريدة. وعلى الأثر اتفقت مع المرحوم «الدده» عارف الهبل على أن يضع اسمه في الجريدة، وأن يتخذ صفة مديرها المسؤول، على أن أتابع أنا تحريرها، فقبل. وهكذا وضعنا اسمه في العدد الثالث، واستمرت الجريدة في الصدور، فكان لها ضجة في مختلف الأوساط.

ولما كنت أجهل أصول الصحف الفكاهية، فقد استحضرت من القاهرة ما توصلتُ إليه من الجرائد الفكاهية الصادرة هناك، كجريدة «أبي نظارة» وجريدة «المسمار» وغيرهما، وجعلت أسير على نهجهما، مما لم يكن معروفاً في دمشق قبلاً.

ولما راجت الجريدة، ومال الناس إلى هذا النوع من الكتابة، أخذ بعض الشبان يصدرون جرائد فكاهية أخرى. فلما رأيت أن الجرائد قد تبذّلت، وأن أصحاب الجرائد يبيعون أنفسهم للاتحاديين مقابل عشرين ليرة عثمانية في الشهر، تركتُ جريدتي وانقطعت عنها.

وكان الأستاذ كردعلي قد دعاني مراراً إلى العمل معه «المقتبس»، فاعتذرت بانشغالي بجريدتي. فلما تركت جريدتي لبيت دعوته، وقضيت عنده في «المقتبس» مدة تزيد عن السنة، تمرنت خلالها على الترجمة من التركية إلى العربية. وكان يصحح لي أغلاطي ويشرف على لغتي. وبقيت بعد ذلك أتردد عليه إلى أن سافرتُ إلى أوربا، كما سيرد ذكره.

---

(١) صدر العدد الأول منها سنة ١٩١٠. انظر: الصحافة السورية، هاشم عثمان، صفحة٢٣ و٢٤.



حيدر بك مردم بك كاتب البلاط الملكي

في مفترق الطرق

الملتزمون والأعشار

العشر ضريبة كانت تحصّلها الدولة العثمانية من رعاياها، وهي ٥, ١٢ بالمئة من مجموع محصول المزارع. كان في البداية ١٠ بالمئة فضمت إليه حكومة عبد الحميد ٥, ٢ بالمئة حصة للمعارف.

وكانت الدولة تطرح الأعشار في المزاد العلني، لكي تقبض ريعها من الملتزم سلفاً، وتطلق له العنان في تحصيلها من المكلفين، وكم تحمَّل الناس من ظلم الملتزمين عند التحصيل. فقد كان هؤلاء من أرباب النفوذ الإقطاعيين. وكانوا يتفقون مع الحكام على سلب الفلاح. معتمدين طرقاً خاصة في التخمين، وفي ابتزاز المال منه بدلاً من أخذ الأعشار عيناً على المنتجات السريعة العطب، كالعنب والبطيخ. أما المواد التي كانوا يأخذون عشرها عيناً، فهي الحبوب على الإطلاق، والزبيب واللوز والجوز.

وكان في كل قرية بضعة أشخاص يسمَّون بالعوانية، اتخذوا تحصيل العشر مهنة لهم. فكان الملتزمون يستعينون بهم في التحصيل مقابل نصيب من الأرباح.

أعرف أحد المتنفذين في دوما، كان يلتزم أعشار القصبة في أكثر الأعوام، وإذا صدف أن التزمها أحد غيره، كان الملتزم يتنازل له عنها مقابل إعفائه من الدفع بتاتاً. وأذكر أنه لم يحصل منه أحد من الملتزمين قرشاً واحداً إلا أنا، فقد حصلت عند التزامي الأعشار الحصة كاملة، وقدرها أربعمائة ليرة عثمانية ذهباً. على أنني تركت أعشار الفقراء الصغار، الذين يتجاوز المترتب عليهم ٤ ليرات، مما ساعد على تنبُّه الأفكار ضد المعشرين.

حياة التسلية

شغلني تحصيل الأعشار في تلك السنة (١٩٠٩) أشهراً قليلة، وما عدا ذلك كنت أقضي أيامي في دمشق في التسلية على اختلافها. وكان ذلك بداية اصطدامات كثيرة بيني وبين والدي، بسبب القسوة التي كان الآباء يعاملون بها أبناءهم في ذلك العهد.

ومع أني وحيد والدي، فإنني لاأذكر أنه قبّلني إلا مرة واحدة، وأنا في السابعة من عمري. كنت نائماً وصحوت على نفس حار، ففتحت عيني فرأيت والدي منحنياً على فراشي يقبلني. هذا كل ما عرفتُه من قبلات والدي.

أما الضحك في وجهي فلم أعرفه منه، وقليلاً وما رأيت أسارير وجهه تنفرج عندما تبدر مني نكتة ما.

عوّدني والدي على ألا أطلب منه شيئاً مباشرة، بل بالواسطة. وكان له صديق ودود، قضى العمر في معاشرته (مثلي ومثل صديقي حسني تللو الذي لم يفارقني منذ خمسين سنة)، يدعى كمال أفندي المهايني، من أسرة المهايني الكريمة، وهي من أكبر أسر دمشق، تقطن محلة الميدان الفوقا.

وكنت، إذا احتجت إلى شيء ما، طلبته من والدي بواسطة كمال أفندي، فكان مثلاً يأخذ لي إذناً كل شهرين أو ثلاثة لقضاء سهرة في أحد المسارح، فيوافق والدي، ويرفق إذنه مصحوباً بريالين: ريال أجرة «اللوج»، وريال للشبرقة.

وكان رفاقي الذين رافقتهم منذ الصغر حتى فرّقتنا الحرب العامة الأولى هم السادة: محمد علي الدالاتي، نسيب البكري، محمد المهايني، شقيق كمال أفندي المهايني، أسعد البكري، حسن سلام، مظهر البكري، خليل ملص، سامي البكري.

هؤلاء السادة هم «الشلّة» اليومية التي لم يفترق أفرادها بعضهم عن بعض في جميع أوقات الفراغ. كان كل منا يدعو رفاقه إلى المسرح في دوره، أو نمشي على أصول التعاون (عِشْرة حلبية).

وفي رمضان إحدى السنين بعد أن أنهيت تعليمي وحزت الشهادة، طلبت من والدي -بالواسطة طبعاً- إذناً للذهاب مع رفقائي إلى «التياترو» فسمح لي. وفي اليوم الثاني كررت الطلب فنفر والدي وقال إلى كمال أفندي المهايني: بلّغ فخري أنني لاأسمح بالسهر يومياً، ولو في رمضان.

جاءني الرسول يبلّغني ذلك، فقلت له: إن سني تجاوز العشرين، وأصبحت رجلاً، يمكنني أن أدير شؤون نفسي بنفسي، وإذا كان والدي قد أحسن تربيتي، فعليه ألا يخشى عليّ من شيء. وإذا كانت تربيتي عاطلة، فليس بإمكانه تقويمي بعد الآن، ولهذا فإني أعد نفسي منذ الليلة حراً أتصرّف بأموري كما أشاء دون الرجوع إلى والدي بشيء.

وهكذا خلصت من انتداب والدي، فلم يعد يمنعني عن الخروج، حتى مات رحمه الله.

مغاني دمشق

كانت أسباب التسلية العامة في عهد شبابي محدودة، فهناك المقاهي، وهناك «التياترو» وهناك المغنيات. وقد اصطلح أهل دمشق على تسمية المغنيات البلديات بالمغاني، واللواتي يأتين من مصر بالعوالم.

عرفت في شبابي عشرات من «المغاني» اللواتي يحترفن الغناء والرقص، وكان معظمهنّ من اليهوديات، حتى إن إحداهن «اشترتني» بربع ريال. ذلك أنه كان في دمشق عادة غريبة، تقضي على الأم بأن تبيع طفلها رمزياً من إحدى المغنيات، فيحفظه الله عندئذٍ لأهله. هكذا «باعتني» والدتي من المغنية «هانولا» بربع ريال.

من أشهر مغنيات ذلك العهد: رحلو الترك، رحلو سلطانة، بنات الشطاح، نظيرة عنبة، بدرية مواس، بدرية سعادة (وكانت جميلة العينين)، بنات مكنو، حسيبة ومريم وروجينا، وطيره، وشفيقة، وسمحة، وحسيبة أتشي، ومن أجملهن

صلحة الأبيض. وكان غواتها من أرقى الدمشقيين، حتى إن أحدهم كان ينام على عتبة بابها حتى الصباح، إذا لم تستقبله!

ومن المغنيات المسلمات «رسمية جمعة»، وكانت كفيفة البصر، تضرب بالعود ولا تحضر إلا حفلات النساء. ومنهنّ أيضاً بنات «علي عمك» وفهمية ضاربة القانون، وشقيقاتها اللواتي كن يضحكن الحضور، وبنت «أبو قفة» وهي من الضاربات على النقرزان، وبنات «مكنو»، وهن جوقة كاملة كن يقمن بأفراح دمشق، من أعراس وسهرات ويستأثرن بالأفراح الكبيرة. وهن اللائي أقمن لي فرحة العرس ولم يصعدن المسارح إلا في أيام الحفلات التي كان يقيمها فرع جميعة الاتحاد والترقي.

وكان يفد على دمشق عدد كبير من مغنيات الأروام والأرمن والأتراك، ومن شهيراتهن «كوزل دنبل»، كوزل بلانس، كوزل فاني، والجميع روميات.

وكان في دمشق من المسارح، مسرح قهوة الجنينة[1]، ومسرح الإصلاح خانة[2]، ومسرح القوتلي[3]. ومن أشهر أصحاب المسارح المرحوم أحمد آغا الخباز، صاحب قهوة الخباز. وكان إذا جلس أمام مدخل المسرح، لايجرؤ أحد من فتيان البلدة أن يطل برأسه على المسرح.

وكان في سوق ساروجا ومحلة البحصة وزقاق رامي عدة شبان من «الزكرت» يأخذون الغفارات من أصحاب المسارح ومن الراقصات. وإذا تمنع أحدهم عن دفع «الغفارة» انتقموا منه ومن حضور حفلاته. وكانت الحكومة تتجاهل دائماً هذه الاعتداءات، إلا في حالة واحدة جرت على يد فرحات آغا، وهو عبد من عبيد السلطان عبد العزيز المنفيين إلى دمشق.

---

(١) يعني حديقة الأمة، مقابل ثانوية جودت الهاشمي.

(٢) مسرح وسينما في سوق علي باشا، مكان سفريات أمية اليوم.

(٣) كان في زاوية جادة السنجقدار وسوق الناصري، أسس نحو سنة ١٩٠٠ واحترق في حريق الدرويشية الكبير سنة١٩٢٨م.

كان هذا العبد شرطياً جريئاً أعجز أشقياء دمشق. وقد رأيته مرة يدخل المسرح لتأديب بعض الفتوات المتسلطين على المسارح ويطردهم.

أما الكحول فكانت ممنوعة في المسارح، وكان المدمنون على الشراب يذهبون إلى «الخمارات» ويشربون كفايتهم منها قبل الدخول إلى المسارح. وكان بعضهم يخفي في جيب سترته زجاجة «مفلطحة» تسمى «بطحة» يضع فيها عوداً من القنب يرشف بواسطته الخمر من البطحة.

أما برامج المسارح فكانت واحدة تقريباً. يبدأ المنهاج بوصلة غناء من أحد الرجال. وكان أكثر رؤساء التخوت من المصريين. فيفتتح الفصل بوصلة موشحات، ثم ليالي، ثم تقاسيم ودور من النغمة التي غنوا بها الموشحات. ثم يختتمون الفصل بقصيدة على الوحدة، تفتتح بهذا البيت:

آه يا أنا، ويش للعواذل عندنا   قم ضيّع العذال، وواصلني أنا

أما القصيدة فمن أي بحر، ومن أي قافية، وليس لها أقل ارتباط، بالمدخل المذكور أبداً. وإنما كان هذا البيت فاتحة قصيدة ليعطي الوزن لأصحاب الآلات.

وبعد انتهاء الفصل ينزل الستار للاستراحة، ثم يبدأ الرقص، وكلما انتهت راقصة، استراحت النوبة عشر دقائق إلى أن يأتي دور رئيسة الراقصات. وتكون عادة من ذوات الصوت الرخيم، ومن ربات الصنعة، فتؤدي دورها وتغنّي قصيدة على الوحدة أيضاً.

ثم يمثل فريق من اللاعبين مع أجمل بنت بين الراقصات فصلاً هزلياً لتسلية الناس.

وهكذا كنا نقضي سهرات المسارح. واستمرت المناهج على هذا الشكل حتى مدة قريبة.

روايات الفروسية

كانت الروايات في زمننا شبه معدومة. وكان بعض الكتاب المتخرجين من المدارس الأجنبية يترجمون ما اشتهر من الروايات من تمثيلية ومن تاريخية.

أما الكتب التي كنا نعتمد عليها للتسلية فكانت سيرة عنترة، وقصة الملك الظاهر (وهي غير مطبوعة، تقع في ٩٢ جزءاً مكتوبة بالخط الثلث العريض)، وقصص أبي زيد الهلالي سلامة، والزير أبي ليلى المهلهل، وغيرها من القصص التي تُعلِّم الفروسية والبطولة.

وقد طالعت بعض هذه القصص وأنا صغير، وبعضها بعد خروجي من المدرسة. وأذكر أني لما كنت في الصف الثالث الإعدادي، جاء إلى دمشق رئيس وزراء دولة إيران، وزار المدرسة يصحبه الوالي وكبار الموظفين، ومدير المعارف حسين عوني. وكان مكاني في آخر الصف، وخلفي نافذة يستطيع الناظر أن يشرف منها على الصف كله. وكنت غارقاً في مطالعة فصل من الملك الظاهر، فلم أنتبه لمجيء الضيوف، ولا إلى الجلبة التي حدثت في الصف. ووقف الوزير والوالي يطلاّن علينا من النافذة خلفي، فوقع نظر الضيف على الكتاب الذي أقرؤه، ونظر إلى كتب الطلاب بجانبي، فاستغرب اختلافها، وسأل الوالي عن السبب، فنقل الوالي السؤال إلى مدير المعارف، فأطل عليَّ. وما إنْ رأى الرواية في يدي حتى ثارت ثائرته، وضرب على زجاج النافذة ضرباً مزعجاً نبهني من غفلتي، وصاح بصوت عال مرعب: نه دربو كتاب؟ (يعني: ماهذا الكتاب؟)

في الحال أطبقت الكتاب، ورفعت يدي نحو السماء، وقلت: دعا أفندم! دعا أفندم!

وسبل الله الستر، وجازت الحيلة، أو أن الرجل اختصرها. لاأدري.

الحكواتي

أما الحكواتي فلايزال موجوداً إلى الآن، يقصُّ على الأميين قصة عنترة والملك الظاهر، جالساً على دكة عالية بحيث يراه جميع من في المقهى، فيقرأ فصلاً من القصة، ويجبي «البخشيش».

هذه القصص وضعت على ما أظن أيام الحروب الصليبية، وفيها شيء من إثارة النعرات، كان بالإمكان تهذيبها وحذف المضرّ منها.

حياة البطالة

ذكرتُ في فصل سابق كيف أنني أصدرت مجلة «حط بالخرج»، ثم سلمتها إلى «الدده» عارف الهبل. ولقد أيقظت المدة التي حررت فيها، وتلك التي داومت فيها في جريدة «المقتبس» روح الصحافة في نفسي، فرحت أفكر بإصدار جريدة يومية.

ومن ممارستي لمهنة التحرير، أدركت أنه يتوجَّب على صاحب الجريدة قبل كل شيء أن يملك مطبعة، وأن يعرف صناعة الطباعة بالفعل لا بالنظر. هكذا أحببت أن أتمرَّن على صف الحروف، فدخلتُ بطولي وعرضي صانعاً في مطبعة «بدائع الفنون»، لصاحبها السيد تاج الدين الصلاحي.

وكان رئيس العمال آنذاك السيد سعدي العمري، فكنت أقضي كل يوم أربع ساعات في صف الحروف، وبقيت مدة ستة أشهر وأنا أداوم على العمل مجاناً حتى أتقنت شيئاً من الصنعة. ومازلت أذكر من رفاقي في المطبعة «مستو الميداني» غابت عني كنيته، ومازال حياً.

بقيت فكرة الجريدة والمطبعة تراودني حتى سافرت إلى أوربا كما سيرد ذكره. ولكني بعد رجوعي من أوربا عدلت عن الصحافة لأني رأيت أن الصحيفة التي يمكنها أن تعيش، يجب أن تكون صحيفة حزب قوي غني، أو ملكاً لشركة قادرة على تمويل الجريدة، خصوصاً في بلاد دستورية الاسم، استبدادية الفعل، كما كانت حكومة الاتحاديين التي أعقبت حكومة عبد الحميد. ولذلك نفضت الصحافة من رأسي، حتى أيام الكتلة الوطنية، إذ أصدرنا مع بعض الإخوان جريدة «الأيام»[1] كما سيجيء.

---

(١) صدر العدد الأول منها في ١٠ أيار سنة ١٩٣١م وكان أصحاب الامتياز: هاشم الأتاسي، إبراهيم هنانو، لطفي الحفَّار، عارف النكدي، سعد الله الجابري، وفخري البارودي، واستمرَّت حتى سنة ١٩٦٣م، وكانت أقوى الصحف السورية.

وأول مطبعة وصلت دمشق في ذلك العهد هي مطبعة الحكومة، وكانت حجرية، ويشرف عليها مصطفى أفندي الشقللي. وبعد مدة استحضروا لها الحروف. وكان رئيس عمالها يحيى صدقي. ومن عمالها الذين أسسوا مطابع فيها بعد مصطفى شورى، وتاج الدين الصلاحي، وسعدي العمري، وخليل الترك. وقد جاء من الآستانة، وهو الذي علّم صناع دمشق صف الحروف.

وأوّل مطبعة تجارية تأسست في دمشق مطبعة «الفيحاء» لصاحبها فهمي شورى، والثانية مطبعة «الإنصاف» لصاحبها صالح الحيلاني. وقد قلب اسمها إلى مطبعة الترقي(١) بعد حريق سوق الحميدية سنة١٩١٢.

والدي يعرقل سفري

وفي عام ١٩١٠ بعد أن أخذت الأحوال تستقر شيئاً راجعت والدي، راجياً تنفيذ وعده بإرسالي إلى الآستانة لإتمام تحصيلي، فتهرَّب طالباً التأجيل، خوفاً منه عليَّ، بوصفي ولده الوحيد. وبهذه الفكرة قضى على إتمام تحصيلي في الآستانة.

وكان أكثر رفقائي الذين خروجوا قبلي أو معي المدرسة، بل وبعدي، قد سافروا إلى الآستانة. فلما يئست من إقناع والدي بالموافقة على سفري، جعلت أضرب أخماساً بأسداس، لإيجاد طريقة تمكنني من إتمام تحصيلي، خوفاً من أن يتقدم عليَّ رفقائي الذين سافروا إلى الآستانة ودخلوا مكاتبها العالية، فلم يخطر لي أي حل، وقنطت من إكمال دراستي.

حياة المقاهي

للمحيط تأثير عظيم على الإنسان، خاصةً في سن المراهقة وفجر الشباب. والبطالة هي مفتاح الفساد. ولما كانت دمشق في أيام شبابي خالية من كل ناد علمي أو أدبي، فنّي أو رياضي، كان من الطبيعي أن ألجأ إلى المجتمعات العامة والخاصة التي سأصف كلاً منها باختصار، ليمشي معي القارئ في هذه الرحلة ويتحسَّس بما كنت أتحسس به.

---

(١) مايزال بناؤها ولوحتها في مدخل حي القيمرية، مقابل تلة القاضي.

بقيت مدة طويلة بلا عمل، أقضي بضع ساعات في إدارة جريدة «المقتبس» وأخرج منها إلى المقاهي. وكانت مقاهي البلد قسمين: بلدي ومدني. فالبلدي ماتزال منه بعض النماذج في ضواحي دمشق النائية، يجلس فيها الناس على الحصر والكراسي المربعة، أمام مناضد خشبية موازية للكراسي، تقدم فيها النراجيل والقهوة المرّة. هكذا يقطع الناس الساعات الطوال في لعب الضاما والدومينو والورق والنرد.

أما المقاهي المدنية فمقاعدها من الكراسي الخيزران. وفيها حسب قيمة المقهى ما يلزم من أدوات اللعب كالشطرنج، والنرد، والبيلارد، والبيزيك، وجميع أنواع ألعاب الورق. يلعب فيها الناس مختلف أنواع ألعاب الميسر الخفيفة كالبوكر والباشكا والأوتوزير.

وكان أقدم مقهى في دمشق مقهى «ديمتري»، وهو يوناني، انتقل إلى دمشق، وفتح مقهى على الطرز الحديث، فكان مجتمعاً لأرقى طبقة من طبقات الدمشقيين الذين لايرتادون «القناقات»[1] ولا يفتحون دورهم للاستقبال.

وكان مقهى ديمتري في المرجة. وفي هذه الساحة نفسها فتح الخواجة أبو خليل الشماس مقهى منظماً أسماه «زهرة دمشق»[2] استحضر له ما يلزم من أدوات اللعب، كما أنه جعل في صدره مسرحاً وعلى جوانبه ألواجاً. فكان يستعمله في الليل مسرحاً للتمثيل أو الرقص والغناء. وفي النهار للعب القمار ومختلف الألعاب.

وشارك ديمتري في عمله رجلٌ يدعى «أبو فاضل الأوبجي»، وهو قبضاي معروف، استقدمه ديمتري ليتقي به شر الرعاع وليحمي المحل من الفضوليين والمسترجلين.

(١) جمع قناق، وهي الدور الكبيرة.

(٢) في زاوية زقاق رامي اليسرى الملتقية مع ساحة المرجة. مقابل المنزل. وقد تحوّلت سنة١٩١٨ إلى دار للسينما.

وحدث مرة أن علّق أحدهم في صدر المقهى صورة للشاعر الفرنسي الكبير فيكتور هيجو. وكان ذكره يومئذ قد وصل إلى الشرق، فلما رأى ديمتري الصورة سأل أبا فاضل عنها. وكان أبو فاضل يجهل الاسم، فتظاهر بالمعرفة، وأجاب: هذا شيخ «قهوجية» باريس!

هكذا أصبح فيكتور هيجو عند رواد القهوة شيخ القهوجية. وظلت هذه النكتة موضع التندُّر زمناً طويلاً.

قهوة كركوز[1]

إلى جانب المقاهي، كنا نتردَّد على محلات «خيال الظل» المعروف باسم «قهوة كركوز». وهي طليعة السينما اليوم. فكان مدير اللعبة يضع في صدر المقهى ستاراً من قماش في وسطها قطعة مدورة من الخام الأبيض، في أسفلها رف من خشب يوضع عليه سراج من فخار ينار بزيت الزيتون. ويقف الرجل خلف الستارة التي يسمونها «الخيمة» ويمسك بيده عصا رفيعة يحرك رسوم أشخاص من جلد، إذا وضعت على الشاشة ظهر خيالها مجسماً من عكس النور عليها من الخلف. ثم يتكلم الرجل ويحرك الخيال، فيبدو وكأنه يتكلم. وكان يبدل صوته حسب أصوات الرسوم.

كان لهذه اللعبة مكانة في القديم، ولكنها تبذّلت اليوم. وأدخلوا فيها بعض الكلمات البذيئة المستقبحة، وهي على وشك الانقراض. أما في زمننا فكان «الكركوز» تسلية فكهة، يذهب إليها جميع الناس في رمضان، والأولاد في بقية ليالي السنة. وكان أبطال الخيالات يتبدلون مع الفصول.

أما أشخاص الكركوز الدائمة التي تظهر خيالاتها في كل فصل فهي «كركوز» و«عيواظ». وعليهما تتركب اللعبة. ثم «المدلل» وهو أصغر خيال في الخيمة،

(١) أصلها قره كوز، وهما كلمتان تركيتان: قره= أسود، وكوز= العين، والمعنى صاحب العيون السود.

و«قريطم» الخيال الذي يمثل الرجل المصري بكلامه، و«أبو أركيلة» قشقو بكري مصطفى، أم كركوز «بالتصغير». وللخيمة حمار يدعى «كرش».

وقد نشأت هذه اللعبة في الصين، وانتقلت إلى الهند، فإلى بلاد فارس، ثم إلى بلاد العرب، فبلاد الترك، ثم إلى البلاد الغربية.

وقد عُني المستشرق الألماني جورج جاكوب (١٨٦٢ -١٩٣٧)م بدراسة هذه اللعبة، فوقف على طبع أجزاء من كتاب «طيف الخيال» لابن دانيال.

وفي مكتبة المدرسة العلمانية الإفرنسية[١] في دمشق كتاب باللغة الألمانية يبحث عن هذه اللعبة. وفيه من الرسوم القديمة طائفة غير قليلة، بطبع ممتاز وورق جيد جداً.

ومن مشهوري رجال هذه الصنعة في زمننا خالد بن حبيب الذي كان والده حبيب من أعلم الناس بالموسيقا والأنغام، وهو أستاذ المرحوم الشيخ أبي خليل القباني في علم الموسيقا.

وليت الحكومات تلتفت إلى تنبيه اللاعبين، وإجبارهم على حذف بعض الجمل البذيئة التي يتكلمون بها، وحذف بعض الخيالات كالخيال الذي يمثل شخصية طرمان.

أنا جُنديّ

كانت الخدمة العسكرية في الزمن الحميدي إجبارية، ومدتها سنتان. ونظراً لسعة المملكة كان الجنود يفرُّون بكثرة. وكان الناس يتذرعون بكل وسيلة للتهرب من الخدمة. على أن السلطة كانت تعاقب الفار بمضاعفة مدة الخدمة، وإبعاده إلى أقطار نائية حتى يعسر عليه الرجوع إلى بلده.

وكانت الفتن قائمة دائماً، والحكومة في شبه حرب مستمرة، إن في اليمن، أو في بلاد الروم إيلي. وكان عدد القتلى كبيراً في القطع المرسلة لتأديب العصاة.

---

(١) اللاييك : Laïque.

لذلك أصبح اسم الجندية مقارناً لاسم الكوليرا. خصوصاً في الولايات غير التركية. وكان كل قادر على تقديم البدل النقدي عن الخدمة ٥٠ليرة عثمانية ذهبية لايتوانى عن دفعه مقابل الخلاص من الجيش.

ومع أن مدة الخدمة الفعلية سنتان، فإن أكثر الجنود كانوا يغيبون فيها الثلاث والأربع سنوات، لانشغال الدولة في محاربة العصابات، وتمديد الخدمة المؤقتة بين حين وحين.

وفي عام ١٩٠٨ جاءت قرعتي، فباشرت بدفع البدل. وتمت المعاملة في ١٩٠٩ فبقي عليَّ أن أتمرن على حمل السلاح مدة ثلاثة أشهر، عينوها لي في السنة التالية.

وفي الوقت المعين، أي في منتصف سنة ١٩١٠ التحقت بالقطعة التي عيَّنوها لي، وهي: «يشوبخي أوردوي همايون، طقوزنجي فرقة، أوتوز أوجنجي ألاي، أوجنجي طابور، برنجي بلوك، برنجي طاقم، برنجي مانغة».

وكان مركز الطابور في سراي العسكرية في دمشق، وقائده البكباشي (المقدم) سعدي بك الكحالة، وهو يقيم في باب السراي، أمام مدخل سوق الحميدية الآن تماماً. وكان مركز السرية في البناية التي تقع خلف اللوازم، ومحلها دار نقطة الحليب في شارع النصر اليوم.

دخلتُ على سعدي بك، وهو صديق لوالدي، وتربطنا به قرابة بعيدة. فاستقبلني استقبالاً حسناً. وكان من أبناء قرعتي ممدوح العابد، التحقتُ وإياه في يوم واحد. وقيَّدونا في قطعة واحدة. لذلك أرسلنا سعدي بك معاً، برفقة أحد الضباط إلى قطعتنا، فسلمنا إلى «جاويش» الحظيرة التي قيدونا فيها، حيث انضممنا إلى بعض «البدلجية» أمثالنا في «القاووش»، أي المهجع.

كان الجندي المكلف يسمونه «معذباً». وكان «القاووش» يتسع لمائة جندي، أرضه من التراب. فيه «تتخيتة» للنوم والجلوس. ولكل جندي فراش من خيش

محشو بالتبن أو شبشول الذرة، و«جانطة» قمَطْر لوضع حاجات الجندي وكبّوت (يسمى باغمورلق)، وهو للارتداء والغطاء. ولم يكن في الزمن الحميدي «بطانيات» للجنود، بل كانوا يلتحفون الأردية فقط. ولكنهم بعد الحرية سلموا الجنود بطانيات.

وكان المهجع قليل النوافذ، رائحته عفنة كريهة، يزيد بكراهتها رائحة أقدام الجنود عند عودتهم من التدريب حينما يقلعون أحذيتهم ولم تكن النظافة معروفة.

وكان صغار الرتباء يتحكمون بالجنود تحكُّماً غريباً. ولا يعرف هذا إلا الذي عاناه بنفسه. وإنه لمن الضروري في رأيي أن يتمرن طلاب المدرسة الحربية بضعة شهور في القطع العسكرية. ليروا بأعينهم كيف يعامل الرتباء معيتهم من الجنود. لأن الضابط الذي يدرس بنفسه ذلك يستطيع أن يحسن إدارة معيَّته.

مهما يكن من أمر فإن مدة التدريب القصيرة أفادتني في الحرب العامة إفادة حقيقية، وقد تعلمت خلالها جميع الدروس، خلافاً لرفقائي الذين كانوا يفرون من التعليم.

لقد مارستُ جميع أعمال الجندي، من استعمال البندقية إلى حمل القروانة، وحلقتُ شعري عند حلاَّقي الجنودي الذين كانوا يجلسون في السنجقدار أمام مدخل القلعة، فكان المزيّن يسلخ الجنود كالماشية، مقابل أجرة خمس بارات، وتسمى «أم الخمسة». ومازلت أذكر كيف كان المزيِّن «يقيش» الموس على حذائه!

وكان أكثر رفقائي تملُّصاً من واجبات الجندية لأسباب صحية، السادة لطفي الحفار، وأخوه جمال الحفار، وحسن العاني، وعبد القادر أبو نصوح الدوجي، وممدوح العابد.

ويوم أنهينا التعليم وأخذت «التذكرة»، يعني شهادة إنهاء الخدمة، اشتريت علبة من القصدير، ذات شريط يدخله الجندي المُسرَّح في رقبته، فتتدلى القصديرة من تحت إبطه، ويضع فيها «التذكرة». وكان من عادة الجنود المسرحين أن يشتروا

بندقية صيد مزدوجة، ويسيروا بها في الأسواق. وقد قمتُ بهذا الدور فحملتُ «جفتاً» وقصديرة التذكرة لأُري الناس أني أنهيت خدمتي!

أذكر أنني دخلت إلى حانوت في سوق الحميدية، لأطلع صاحبه -وهو صديقي- على التذكرة، وأخبره بخلاصي من الجندية وانتقالي إلى صنف الرديف (أي الاحتياطي). وكان يجلس عنده ضابط برتبة رئيس، فنسيت أن ألقي عليه التحية العسكرية.

وبارك لي الحضور بالخلاص، ولكن الضابط حدَّجني بنظرة قاسية، وسألني: هل أنهيت تعليمك؟

فأجبت بالإيجاب، وعرضت عليه التذكرة، فقال: ماذا تعلمت؟

قلت: جميع مايلزم الجندي.

قال: وهل أتممت تعليمك حتى استحققتَ هذه التذكرة؟

فلما أجبت بالإيجاب قال: إنك لم تزل عجمياً. (وهي كلمة تعني أن الجندي لم يزل غِراً. والغرُّ هو الجندي الحديث يطلق عليه هذا النعت إلى أن يحسن التعليم ويقوم بوظائف الجندي تماماً).

سألته السبب، فأجاب: ما هو أول درس أخذتموه؟

قلت: احترام الآمرين.

قال: وأين احترام الآمر؟ (وتقال له «مافوق»).

فانتبهتُ أنني لم أؤدِّ له التحية العسكرية، فنهضت واقفاً في الحال، وأخذتُ الوضع العسكري، وحييتُه معتذراً. فضحك وقال: الآن عرفت أنك أخذت تذكرتك بحق. وصافحني. ومنذ ذلك اليوم لم تفتني فرصة للإعراب عن احترام الجميع.

دخلت السنة ١٩١١، وأنا مازلت بلا عمل، أعيش بلا غاية، وأقضي أوقاتي في السهرات الخاصة وفي المحلاَّت العامة، وكلما مرَّ الزمن ازداد خلقي ضيقاً، مع أن الله خلقني حركة دائمة، لا أحب أن أبقى دقيقة واحدة في حالة البطالة.

ولما ضاق ذرعي بالبطالة خطر لي أن أؤلف جمعية خيرية تقوم بتأسيس دار عجزة وميتماً للأطفال، فكتبت سلسلة مقالات في جريدة «المقتبس» تحت عنوان «أين من يحبون المشاريع الحيوية» عالجت فيه حالة المتسولين والعاجزين.

وكان في دمشق يومئذ جمعية للشحَّاذين في دمشق من نساء ورجال. وكان الجميعُ يطيعون الشيخ ولا يخرج أحدهم عن إرادته، وكان للشيخ زبانية لتأديب المخالفين من زعران أهل هذه الحرفة. فأكثرتُ من الكتابة عن المتسولين المحترفين، الذين يوجد بينهم أغنياء حقيقيون. ورحت أفضح أسرارهم في كتاباتي فقامت قيامتهم وجاءني شيخ الشحاذين مع بضعة أشخاص من «وجوه» هذه الحرفة يطلبون إليّ -أو يأمرونني أمراً- بأن أكف عن التعرض لهم، وإلا قتلوني. وكان تهديدهم لي جدّياً، فأقلعت عن الكتابة بهذا الموضوع وتركت المشروع، لأني لم أجد فرداً واحداً أتعاون معه على القيام به. وأخذت أطبع على حيطان دمشق -بواسطة لوحة من القصدير المحفور- عبارة «تعلم يا فتى فالجهل عار». وإني أذكر جيداً أنني لم أدع حائطاً من حيطان الشوارع والحارات، حتى «الدخلات» الصغيرة في أي محلة من محلات دمشق، إلا وكتبت عليها هذه الجملة.

وفي عام ١٩١٩، بعد الحرب، عاودتُ الكرة في هذا البحث في جريدة «المقتبس» فكتبت مقالات متسلسلة تحت العنوان السابق، ولكن ذلك لم يفدني، ولم أتمكن من تأسيس غرفة واحدة، فعدلت وبقيت أنتظر فرصة أخرى، حتى سنحت في سنة ١٩٤٠، فأعدت الكرة، وتأسست دار العجزة والميتم كما سيجيء ذكره[١].

---

(١) كان مقرُّه في مبنى المدرسة العمريّة بالصَّالحية.

زواجي

كانت والدتي وجدتي لوالدي قد فاتحتاني سنة ١٩١٠ بالزواج فرفضت البحث في ذلك، وقلت: إنني لن أتزوج قبل إتمام تحصيلي. ثم أعادتا الكرة بعد ذلك ببضعة أشهر، فأصررتُ على الرفض، ولكنهما ظلتا مع ذلك تبحثان عن فتاة مناسبة لي.

في سنة ١٩١١ عادتا إلى ملاحقتي، وقالتا: إذا وجدنا لك فتاة صالحة خطبناها، وسيجري «كتب الكتاب». فإذا ذهبت إلى التحصيل تبقى الفتاة بانتظارك، فيجري العرس!

وهكذا أقنعتاني، فطلبت إليهما في أول الشروط أن تكون صاحبة أخلاق حسنة، وأن تعرف القراءة والكتابة بصورة جيدة! وتتقن إدارة البيت.

وهكذا راح أهلي يخطبون لي. في ذلك العهد لم يكن الخطيب يرى خطيبته، بل يكتفي بوصف قريباته لها. فيقلن له: عيونها كذا، شعرها كذا، وجهها كذا، طولها كذا. وعلى الوصف يتوكل الرجل على الله ويعقد العقد، وسعدك يا أبا السعود.

وعلى هذه الطريقة جعلت جدتي ووالدتي تصفان لي البنات اللواتي خطبتاهنَّ لي، إلى أن سمعتُ من ابنة خالي بوصف قرينتي الحالية، كريمة المرحوم أحمد أفندي الدالاتي، فطلبتُ إلى والدتي خطبتها فأبت جدتي، بدعوى أن خال والدي خليل أفندي البكري خطبها لأحد أولاده، فتمنَّع أبوها ولذلك لايمكن لجدتي أن تقدم على هذا العمل.

أصررت على طلبي. وكان والدي صديقاً للمرحوم أحمد أفندي الدالاتي، ولم يكن قد بقي عنده غير فتاة واحدة عزباء، هي أصغر أولاده. وقد طلبها الكثيرون من أهل دمشق فرفض والدها زواجها.

ولما لمس والدي إصراري حار بالأمر، وقال: لاأريد أن تقوم بيني وبين أحمد

أفندي الدالاتي برودة أو عداوة. ولذلك فإني لن أطلب منه ابنته خوفاً من الرفض، فإذا رفض فستكون بيننا عداوة أبدية لاسمح الله!

بقيت القضية بيننا، جدتي في عناد، ووالدي على الحياد، وأنا في إصراري على رأيي بازدياد، إلى أن علم بالأمر محمد أفندي المهايني -صديقي وابن عمة الفتاة- فتدخل في الأمر وسعى مع شقيق الفتاة منير الدالاتي، لإقناع والدة منير بقبول هذه الخطبة. وعلمت أيضاً من المهايني أن الدالاتي أفندي راضٍ عني منذ سمع خطابي في مكتب عنبر عن إعلان الحرية. وفهمت أننا إذا خطبنا الفتاة فإنه لن يتأخر. وعلى الأثر تقدم باسم والدي أحد أصدقاء الطرفين سعيد أفندي العسلي، وخطب لي الفتاة من أبيها، فوعده بالجواب بعد ثلاثة أيام ليستخير الله.

وذهبتُ إلى قصبة دوما في أثناء هذه المدة، وفي اليوم المعيَّن ذهب العسلي لأخذ الجواب، فإذا به يظفر بالموافقة. وفي الحال دعوا والدي حالاً، وأحضروا أحد المشايخ وعقدوا العقد وأنا أنتظر في دوما. وإذا «بصراحيَّتيْ لموناضة» أي شراب الليمون، تصلانني إلى دوما، في صينية من الفضة محاطة بقطعة من التول الحرير، مربوطة بشريطة حريرية خضراء، دليلاً على عقد العقد.

وقبل وصولهما إلى الدار، جاءني المبشِّر يركض يطلب مني بشارته، ولاتسل عن الفرح الذي أصابني فقد أصبحت زوجاً بحمدالله، ومع ذلك لاأعرف الزوج التي اختاروها لي، ولاتمكنتُ من رؤيتها إلا يوم عرسي كما سيجيء[1].

ومن الغريب أني قبلت بالزواج وأنا دون عمل، وليس لي وارد يكفيني وحدي، فضلاً عن الزوجة. ومن السخف أن يتزوج المرء إذا لم يكن ذا صنعة يكفيه واردها لفتح بيت. ومن العار أن يتَّكل الولد على ثروة أبيه مهما كان غنياً فيتزوج. وهو مفلس. ولذا فإني أنصح كل شاب ألا يتزوج إلا إذا كان له من الوارد ما يكفيه وزوجه، والأسرة التي ستتشكل منهما.

---

(١) أثنى البارودي على زوجه، وقال إنه عاش معها ٤٢عاماً، صبرتْ خلالها على تصرُّفاته وعبثه ورثاها بقصيدة في ديوانه: تاريخ يتكلم، صفحة ٨٦. وقد تُوفيت سنة ١٩٥٤م.



تحسين بك قدري الحاجب لجلالة الملك المعظم

مُجتمعُ الخاصَّة في دمشق

أسباب التسلية:

ما دام حديثي قد تناول المقاهي والمحلات العامة في عهد شبابي فإنني سأكمله الآن بحديث عن المجتمعات الخاصة. فقد كان للدمشقيين مجتمعات خاصة، شتاءً في الدُّور وصحواً في البساتين. وكانوا يسمّون الدور التي يجتمعون فيها «قناق» وهي كلمة تركية أصلها «قوناق» يعني الدار. أخذها الدمشقيون عن الأتراك واستعملوها «للبراني»، أي لمحل اجتماع الرجال.

وكان أكثر القناقات يبعد عشرات الأمتار عن دار سكن صاحب القناق، فيختلف إليها أصدقاؤه الخصوصيون وزوّاره، ويعقدون «الأدوار» وقد اصطلحوا على إطلاق اسم «الدور» على اجتماع «شلة» من الرفاق من طبقة واحدة، فيقضون سهراتهم في أحد القناقات أو البيوت. وكان لكل فرد «دور» معين، فتكون الأدوار إما يومية أو أسبوعية. فإذا كانت يومية يكون الدور الأول عند زيد في اليوم الفلاني، وفي اليوم الثاني عند عمرو، والثالث عند بكر، إلى أن ينتهي الدور عند آخر فرد من أفراد الشلة، ويعود من جديد.

وكانت أسباب التسلية في الأدوار بسيطة، يدور أكثرها على المقرعة، كلعبة «عبَّك»، وهي أن يخبىء أحدهم خاتماً مثلاً أو حاجة صغيرة، في «عب» أحد الرفاق، إذ يدخل يده في جيوب الحاضرين، ويترك الحاجة في جيب فلان، فإذا أخطأ يقرعه مقرعة على كفه، ثم يسأل الثاني... الخ. ومن يحزر يقوم ويستلم المقرعة مكانه. وهكذا يُقضي معظم الوقت بضرب المقارع!

لعبة السَّلَطَة:

ومن ألعاب التسلية لعبة السلطة. فيقف أحدهم وبيده المقرعة، ويعطي كل فرد من الأفراد اسماً البقول التي يعمل منها السلطة، وتسمى هذه البقول «زرزاوات»، ثم يقول: «إني أريد أن أعمل صحناً من السلطة، وعندي كل شيء من الزرزاوات إلا البقدونس».

ويكون الجميع منتبهين فيقول من تسمّى بالبقدونس: بقدونس في، ولكن ملح ما في» فيقول من تسمّى بالملح: «ملح في، ولكن كزبرة ما في». وهكذا فالذي ينتبه ويجيب بسرعة دون توقف نفد من ضرب المقرعة. وإذا تأخر ضربه الواقف مقرعة على يده. وهكذا يمضي وقت طويل في ضرب المقارع.

لعبة المروحة

هذه اللعبة لعبة ضرب أيضاً، ولكن ضربها صفع بالكف على ظاهر الكف، لا ضربُ مقارع.

يقف صف من اللاعبين بحسب اتساع المكان، ويقف خلف الصف صف آخر بعدد أفراد الصف الأول.

يضع أفراد الصف الأول أيديهم على رقابهم مشبكة الأصابع بحيث تلتصق الكفوف برقبة اللاعب، ويهز أفراد الصف الثاني أيديهم المرفوعة هز المراوح، وتبقى أوجه الصف الأمامي متجهة الى الأمام. ثم يبدأ اللعب بأن يصفع لاعب من الصف الثاني رفيقاً واقفاً في الصف الأول. وعندئذٍ يلتفت المضروب ليحرز اليد الضاربة فإن أخطأ عاود الصفع، وإن حزر انتقل الصف الأول مكان الصف الثاني، وهكذا حتى يمضي ردح من الزمن والصفع قائم!

هكذا كان الوقت يسير وألعابنا ضرب وصفع. وكم كنت أحاول أن أغير شيئاً من أساليب التسلية بقراءة شيء من كتب التاريخ أوكتب الأدب ذات الفائدة،

فلا أنجح إلا نادراً. وما تزال الى اليوم الألعاب عند بعض طبقات الناس تسير على هذا الشكل، فنحن نهزل ونضرب، وغيرنا يشيِّد ويجد...

الطقة

قلنا إن الأدوار كانت يومية أو أسبوعية، ووصفنا اليومية كما مرَّ. أما الأسبوعية فتقضي بأن يبقى الدور عند زيد طوال الأسبوع. وفي آخر يوم من أسبوع الدور يقدم صاحبه الى رفاقه ما تيّسر من الطعام الخفيف، كالجبن والشاي وبعض الحلوى والفواكه. على أن بعضهم، خاصة من حديثي النعمة كانوا يبالغون في تقديم الأشكال والألوان، من أعمر الموائد. وكم جلبت هذه العادة الشجار بين الأصدقاء، إذ يريد كل منهم أن يقدم طعاماً أحسن من غيره، كأنها مباريات في الأكل. وليتهم كانوا يتبارون في تقديم المبرات الى المؤسسات العامة كالمستشفيات والمياتم ودور العجزة وغير ذلك. ولكن ما العمل وبلادنا ويا للأسف لم تعتد حتى الآن على القيام بمثل هذه الأعمال؟ وكم رأينا وارثاً غنياً يصرف الليرات بالألوف على أشياء تافهة، ويضنُّ على وطنه بليرة سورية لأي مشروع خيري أو اجتماعي. فلا حول ولا قوة إلا بالله!

قناق البكري

من القناقات المشهورة قناق آل البكري. وكانوا ممثلين في شبان، ذوي أعمار متقاربة، هم رشدي أفندي وأنور أفندي ومدحت أفندي. وكلهم أولاد خليل أفندي البكري. كانوا مشهورين بالفتوة، ولهم ولع بالصيد والقنص ولعب الشطرنج وكشّ الحمام. ولم يكن قناقهم يخلو ليلة من الزوار. ولا بأس من ذكر شيء عن سهراتهم ليطلع القارئ على لون من حياتنا في ذلك العصر.

وكانت السهرة تبدأ من الساعة السابعة مساءً تقريباً. وكلما جاء أحد من الرفاق، قام له الجميع. وبعد أن تقدم إليه القهوة -المرة طبعاً- يشترك في الحديث مع الحضور، وهو يدور عادة حول الصيد، وتربية الحمام والشطرنج، فيروي كل واحد أطرف ما جرى له من الحوادث.

تربية الحمام

كانت تربية الحمام تشكل صنعة قائمة بذاتها لم تزل شائعة إلى اليوم على أيدي «الحميماتية»، الذين يجمعون أنواعاً من طيور الحمام، ويسكنونها أماكن خاصة في أعالي الدور، في محل يسمى «حضير»، وهو بناء منفرد كالغرفة، داخله مربعات خشبية تغطي الحيطان، فيوضع في كل مربع زوج من الحمام، وكل نوع له اسم خاص، فمنها: البربريسي، والأخضر، والأبلق، والأزرق، والأبيض، والمرقع، والحلبي، والبغدادي، والقلاب. والأبلق منه أبلق بحلسة، وأبلق بخضرة، وغير ذلك من الأنواع.

هذه الطيور لها ساعات معينة لإطعامها ولإخراجها من الحضير. ولا بدّ لكل حضير من باحة سماوية تطير من عليها الطيور وتعود إليها. والحميماتية قسمان: محترف وغاوٍ. فالمحترف يكون على الأكثر من أصحاب الرجولة، يجمع أقوى أصناف الطيور وأرخصها ثمناً ويدرّبها على الطيران، ولهم في تدريبها أصول وعادات، سأكتب فيها كتاباً خاصاً إذا ساعدني الوقت.

وللحميماتية آلات للصيد من حبال المرس، منها طارات بمرس تسمى شبكة، تشبه بضفر حبالها شبكة صيد السمك. ومنها آلة ثابتة تسمى «سقلب»، وهي الأخري من نوع الشبك، ولكنها مثبتة بعصي رفيعة على حافة ظهر الحضير، فعندما تهبط الطيور العائدة من التمرين، يقلب الرجل السقلب عليها إذا كان بينها طير أوطيور غريبة، فيصيدها ويبيعها، أو يعيدها إلى أصحابها مقابل مبلغ من المال يتفق عليه بينهما، ويسمى هذا المبلغ «الفكاك». وقد يبلغ ١٠ ليرات ذهباً. وهناك محترفون يعيشون من اقتناص حمامات سواهم، ثم يرجعونها مقابل الفكاك.

وكثيراً ما كنت أحضر إلى حضير أولاد خالي، وأقضي الساعات بالفرجة على «كشّ الكشة»، واختلاط الكشّات في السماء، واهتمام أصحابها بإبعاد طيورهم عن سماء الحضير. من ذلك أن صاحب الطيور المدربة، إذا كان ساكناً في محلّة أبي جرش في الصالحية مثلاً، يستطيع إرسال كشة «طيوره» إلى سماء الميدان

الفوقاني، أو إلى سماء باب شرقي. والكشة هي اسم مجموعة الطيور التي يطلقها صاحبها، سواء أكان عددها خمسة أو خمسين.

وللحميماتية المتخصصين معرفة تامة بأشكال الطيور. فإذا أراد أحدهم خلط كشته بكشة غيره، يصفّر للطيور فتطير وتحلّق فوق داره، ويحمل بيده «كشاشة» وهي عصا، يزيد طولها عن الثلاثة أو الأربعة أمتار، في رأسها شلة من الخرق، يحركها للطيور فتعرف من حركتها الاتجاه الذي يراد أن تتبعه فتسير فيه. وإذا عاكسته، يضع الرجل في «المدأّحة أو الصبّان» قشرة ليمونة معصورة ويضربها بها. وكثيراً ما يصيب طائراً فيرميه، وبهذا تذل الكشة وتتجه الى الناحية التي يريدها.

وعندما تصل الكشّة إلى كشة أخرى طائرة، أي إلى الكشة المرسلةإليها، تختلط الطيور وتدور مجتمعة طول المدة التي يريدها صاحبها.

والحميماتي يعرف من مكانه أنواع الطيور المختلطة وقوة أفرادها. ومتى رأى ضعف الطير الذي يريد صيده أخرج طيرة أنثى من الحضير، وقبض عليها من تحت جناحيها وجهل يهز بها، وهي ترفرف بجناحيها، إلى أن يرى طيوره اتجهت نحوه وقربت من داره، فيلقي الطيرة أمام باب الحضير ويختفي في مكان لا يظهر منه. فتهبط الطيور، وبينها الطير الغريب الذي اصطحبها. وبمهارة زائدة يرمي عليه السقلب أو الطارة ويصيده. ولا تسل عن الفرح الذي يصيبه عندما يصيد طيراً ثميناً!

وكان رزق عشرات الحميماتية في زمننا على الله، وعلى صالح بك العظم، الذي كان له غرام زائد في هذه اللعبة. ولا أستطيع أن أحصي الأموال التي دفعها فكاكاً عن طيوره. ولكن بإمكاني أن أقول إنه دفع مدة غوايته ما يزيد عن عشرة آلاف دينار ذهباً. وكان حديثه بين الحميماتية لا ينقطع مدةحياته، وما يزالون الى اليوم يتندرون بأحاديثه.

الشطرنج

قلت إن الشطرنج كان موضوع الحديث في القناقات. وبعد أن يشبع الحضور من الكلام عنه يحضرون الرُّقَع ويتبارى اللاعبون، كل طبقة مع الطبقة المعادلة لها.

وكان من مشاهير اللاعبين في دمشق في ذلك الزمن الخصي سعيد أفندي، وهو أحد عبيد السلطان عبد العزيز، نفاه السلطان عبد الحميد مع من نفى من رجال معية عمه. ومن الدمشقيين المشهورين بهذه اللعبة محمود أفندي حمزة مفتي دمشق الشهير[1]، والسيد توفيق، والسيد رسمي، أولاد الميداني. وكان يعجبني في هذه اللعبة التي تعلَّمتها أن اللاعبين كانوا لا يلعبون على رهن، أي لا يقامرون بها، بل كانوا يلعبون على أنواع الفاكهة، يأكلونها في آخر السهرة.

وهكذا كانت تُقضى ليالي القناقات في الألعاب، وفي النرد والورق. ومن ألذ ألعاب الورق لعبة «أبو الفول»، وهو إخراج جميع الصور، وترك صورة واحدة بين الورق، وتفريقه على الحاضرين، فيصيب اللاعب بضعة أوراق يزاوج بينها، ويرمي الأزواج. وما زاد يسحب الواحد من الثاني بالدور ليزاوجوا الأوراق المفردة. ومن بقي بيده الصورة يغنون له بقولهم: «أبو الفول عليك فطور»، ويصفقون، وهكذا تنتهي السهرة!

النور في الشوارع

قبل تمديد الكهرباء في دمشق[2]، كانت الشوارع تنار بمصابيح البترول، وكان أكثرها يُطفأ لأن الأولاد يضربون ألواح البلور بالحصى فيكسرونها، ويدخل الهواء

---

(١) محمود بن محمد حمزة، مفتي دمشق ونقيب الأشراف فيها. كان له دور بارز في حماية المسيحيين في حوادث الستين، وله في الحادثة شعر مشهور، وكان ماهراً في الرماية والصيد والرياضة وله ما يزيد عن ثلاثين مؤلفاً. توفي سنة ١٨٨٧م عن ٦٦ عاماً.

(٢) دخلت الإنارة الكهربائية وخطوط الترامواي إلى دمشق في شهر نيسان سنة ١٩٠٧، في عهد السلطان عبد الحميد، ووالي دمشق الفذّ: حسين ناظم باشا، وقد أُلغيت حافلات الترام من دمشق سنة ١٩٦٢م.

فيطفئ النور. وكان الناس يسيرون وفي أيديهم مصابيح من ورق، يضعون فيها الشموع تنير لهم الطريق، تسمى «فنار». وقد مرَّ وقت منعت فيه الحكومة سير الناس بعد صلاة العشاء بدون مصابيح.

ومن الطرائف أن صالح بك العظم، وهو من أعظم أبطال دمشق، كان في شبابه مغرماً بإحدى اليهوديات. وقد سهر عندها في إحدى الليالي، يرافقه السيد سليم الميداني، وهو من نوادر زمانه.

وبعد منتصف الليل بساعتين أوثلاث، خرجا من حارة اليهود عائدَيْنِ. وبينما كانا يجتازان محلَّة مأذنة الشحم، صادفا دورية البوليس، تقدم رئيسها ورفع مصباحه ليرى المارين بلا مصباح، فلما تميَّز صالح بك، وهو يترنّح، قال له: ياسيدي أنت ابن الحكومة، وأنتم تضعون القوانين، فلماذا تخالفها؟

قال: بأي شيء أخالفها؟

قال: إنك تسير بلا مصباح، وهذا لا يجوز.

قال: مصباحي معي، اذهب في طريقك!

وسأله الشرطي عن مصباحه، فأدار له ظهره. ورفع ذيل سترته وقال: هذا مصباحي!

ومشى صالح بك، وخلفه السيد سليم، فقال له المفوض: وأنت يا رجل، أين مصباحك؟

قال: أنا سائر على ضوء البك!

فضحك رجال الدورية، وذهب كل واحد في سبيله!

التشليح في الحارات

كان الأمن شبه مفقود في تلك الأيام، وكثيراً ما كان اللصوص يسلبون مَن يستفردونه في المحلات النائية من البلدة. ولم يكن في دمشق في الليل محلٌّ أمين،

إلا المواقع الممتدة من موقع السنانية الى باب الجابية، فالسنجقدار، فساحة المرجة. أما بقية الأحياء فكان المار فيها، خصوصاً بعد منتصف الليل، يحتاج الى حراس وخفراء.

مرّ شرطي يهودي مرة في العمارة، فصادف أبا فياض البغل -وهو أحد الفتيان المشهورين بالرجولة- يُعربد وفي يده خنجر، يعترض به المارة ويضربهم بقبضة الخنجر على رؤوسهم، ولا يجرؤ أحد على معارضته. فلما رأى الشرطي اليهودي تقدم إليه وضربه على رأسه بالقبضة ضربة قوية طفر منها الدم، وغسل وجهه ورداءه.

ولما رجع الشرطي الى داره، ورأته زوجته، ولْوَلَتْ وصاحت: ويه... شو صابك؟!

قال: البغل ضربني!

قالت: ويه عليك، «شو فوّتك عالخان؟»

قال: ولك ليس الذي ضربني بغل حيوان، بل هو بغل إنسان!

فقالت له: إذن اذهب واشلح بذلة السلطان مادمت لا تقدر على حمايتها!

القبضايات

كلمة مأخوذة عن التركية، معناها الخال الغليظ «قبادايي»، وتطلق عندنا على كل موصوف بالرجولة، أو «زكرت». وفي بغداد يسمونه «أبو جاسملر». وفي حلب يسمونه «الحاج حمده». وهناك رجال يدّعون هذه الصفة زوراً، وهم من الزعران المعروفين بالـ«بابا حسن».

ويسيطر القبضايات عادة على المحلّة، ويضعون أنفسهم في خدمة وجهاء المحلة من باشاوات وبكوات وأفندية.

حكاية المفتي والنقيب

كان معروفاً عن أهل دمشق في ذلك الحين أنهم متحدون، يطيعون زعماءهم، وينتصر بعضهم لبعض ضد الغريب، عاملين بالحديث: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، بعكس هذه الأيام التي عزّت فيها الصداقة والوفاء. وأضرب على ذلك المثل التالي:

حدثني الشيخ حسن النحاس قال: في أيام راشد ناشد باشا[1]، اختلف المفتي ونقيب الأشراف في دمشق. وكان المفتي من العلماء المشهورين، ونقيب الأشراف لا يحمل من العلم إلا العمامة الخضراء. وكان سبب الخصام استهتار النقيب بمنصبه وبواجباته الدينية.

وكان مدير الأمن العام يسمى «ألاي بكي»، وهو أكبر ضابط في الجاندرمة، أي الدرك. فوقع بينه وبين النقيب نزاع شديد. وتربّصَ بالنقيب الدوائر، حتى أخبروه أنه في بستان من بساتين دمشق مع خليلة يحبها، فانتهز الفرصة وذهب الى البستان بقوة كبيرة، واعتقل النقيب وخليلته وعاد بهما الى السجن.

وذهب أحد المنافقين إلى المفتي ليبشره بسجن عدوّه، فلما سمع الخبر نهر الرجل وكذّبه أمام الحاضرين، وأرسل خلف السّجان حالاً، ولما جاء قال: ستصلك سيدة بعد قليل، فضعها حالاً مكان السجينة التي أرسلوها إليك اليوم. وإياك أن يفهم أحد، وإذا فُهْتَ بكلمةٍ فليس لك مقام في هذه البلدة!

ووعد السجان بتنفيذ الأمر، لأن مقام المفتي كان أعظم مقامٍ في الدولة، يعني شيخ الإسلام في العاصمة والمفتي في عاصمة الولاية.

ثم أرسل المفتي دون تمهُّل رسولاً دعا زوجة النقيب، فحضرت سريعاً،

---

(١) حكم دمشق مرتّين: الأولى سنة ١٨٧٦ لمدة ثمانية شهور، والثانية دامت أكثر من ثلاث سنوات بدءاً من سنة ١٨٨٤م.

ودخلت الى الحرم فأفهمتها زوجة المفتي القضية، وأرسلوها الى السجن، ووضعوها محل الخليلة المسجونة.

وبعد أن اطمأنَّ المفتي للعمل أرسل واستدعى جميع وجهاء الشام، وكان بينهم الشيخ عبد الله الحلبي شيخ الشام، وأعلم علمائها في زمنه. وأخبرهم أن العداوة بين النقيب وقائد الدرك توترت الى درجة تجاسر فيها «الألاي بكي» على سجن النقيب وزوجه: هذا في سجن الرجال، وهي في سجن النساء، وأن الحال مع هؤلاء الحكام لم يعد يطاق، فثار ثائر القوم، وتشاوروا ماذا يعملون؟ فقرَّ القرار بعد المشاورة على مراجعة الوالي لإخراج النقيب، ومجازاة المفتري.

وهكذا ذهب كل واحدٍ الى محلّته و«دبُّوا الصوت»، وأوعزوا الى القبضايات أن يُهيئوا أنفسهم وجماعتهم، وأن ينتظروا الأوامر التي تصدر عن المفتي، فإن سمع الوالي شكواهم وأخرج المساجين وجازى المفتري كان به، وإلا فعليهم أن يهجموا على السجن ويخرجوا النقيب.

وبالفعل ركب العلماء والزعماء دوابهم وذهبوا إلى دار الوالي، وكان ذلك عند منتصف الليل. وكانت دار الوالي في البنايات المجاورة لجسر الصالحية، التي فتحوا فيها شارع الرئيس والشارع الجديد. ولما وصلوا إلى دار الوالي أيقظه «الحرم آغاسي» وأعلمه بمجيء زعماء دمشق، فخرج مضطرباً، فقدموا له مفاتيح الدور وأوراق «الطابو». يعني أوراق التمليك، وقالوا: نحن لا نبقى في هذه البلاد عرضة للظلم والجور!

سأل عن السبب، فأخبروه أن «الألاي بكي» سجن النقيب وزوجه، وأنهم لا يرضون إلا بإخراج السجين وطرد المفتري من سلك الدرك، وسجنه مكبَّلاً بالحديد في قلعة بعيدة، ليلقى جزاء الافتراء.

فهدّأ روعهم وطمأنهم، وأمر باستحضار الألاي بكي، فجاء مسرعاً، ولما رأى هذا الجمع حار في أمره، وسأله الوالي بحضور الجميع: لماذا سجنت النقيب وزوجته؟

قال: يا أفندينا (وهذه كلمة تطلق على السلطان وعلى وكيله في الولايات والأيالات): إني وجدته بحال مريبة مع مومس في أحد البساتين، فأودعتهما السجن إلى أن يجري التحقيق معهما!

فقال المفتي: يا دولة الباشا إن المرأة التي كانت معه هي زوجة النقيب لاخليلته، وهي بالسجن الآن، فإذا تحقق لكم هذا أرجو إصدار أمركم بإطلاق سراحهما ومجازاة المفتري.

فأرسل الوالي زوجته مع بعض الحراس إلى سجن النساء، وكان في باب البريد، فأخرجت المسجونة وحضرت بها الى دار الوالي. وأخبرته أن المسجونة هي زوجة النقيب. فأمر حالاً بإطلاق زوجها، وقطع خرج الألاي بكي، وأمر بسجنه مكبلاً، واعتذر عن هذه الهفوة.

وفي اليوم الثاني جاء النقيب إلى دار المفتي للشكر، فلم يقبله وقال له: إن العداوة التي بيننا لم تزل كما هي.

وبعد بضعة أيام ركب المفتي بغلته وسار إلى دار النقيب. ولما علم هذا أن المفتي في طريقه الى داره ركض حافياً لاستقباله. فاختلى المفتي بالنقيب وقال: إن عداوتنا لم تزل باقية، وإني أتيت إليك لنذهب إلى الوالي ونستعطفه حتى يطلق سراح المظلوم الذي سجنه لأجلك يا ظالم!

وسارا سوية الى السراي، ودخلا على الوالي. فاستقبلهما بالحفاوة، فقال المفتي: يا مولانا إن أصل النقيب أجبره على الحضور بين أيديكم ليطلب منكم العفو عن الألاي بكي. وقد أخبرني أنه منذ ذلك اليوم إلى اليوم لم يغمض له جفن من تأثره، وأنه عفا عن هذا الذنب. وهو يطلب منكم العفو وإطلاق سراحه وإرجاعه إلى رتبته، على أن يكون مقامه في غير هذه البلدة.

فأثنى الوالي على علو النفس، و«هذه الأصالة والنجابة» وأمر بإطلاق سراحه وأرسله بوظيفته الى مدينة حماة.

وهكذا بقي راشد ناشد باشا طوال مدة ولايته لا يرى إلا تكاتف الزعماء والعلماء وكلمتهم واحدة. حتى إنه لما خرج من الشام وخرج الناس لوداعه عند جسر «توره» بكى، فسأله أحدهم: لِمَ تبكي يا أفندينا، أعلى فراق دمشق؟

قال: لا، بكيت لأني طول مدة إقامتي فيها لم أقدر أن أفرق بين اثنين من أهلها!

أما المفتي فقد أوعز إلى النقيب بالاستقالة سَتْراً لطابقه وخوفاً من سقوط الاعتبار لمقام نقابة الأشراف. فاستقال النقيب. وكانت استقالته سبباً للصلح بينه وبين المفتي.

من هذه القصة نعرف مقدار تماسك الدمشقيين في ذلك الزمان. أما اليوم فما لي أن أقول إلا: لا حول ولا قوة إلا بالله...

ليالي الأنس

كان والدي رحمه الله من أصحاب القناقات المشهورة. وعنده كل ليلة كيف وطرب. ومنذ وعيت على الدنيا وأنا أسمعُ الغناء في قناق والدي. إذ كانت له تقريباً جوقة خاصة، أفرادها من أبرع الموسيقيين في ذاك العصر.

وكانت سهرات والدي العامرة ليلية تقريباً. وجوقته مركبة من عمر الجراح القانوني[1]، ومن أخيه إبراهيم العواد. وأحياناً يأتي معهما أخوهما الثالث محمَّد الجراح، العازف الوحيد على الكمان في عصره.

ولما اختل إبراهيم العواد، استبدل والدي به بديع محسن. وكان من أجمل شبان عصره. أما المغنّون فكانوا: الشيخ عبد الله أبو حرب[2]، والشيخ رشيد

(١) عمر بن صالح الجرّاح، من كبار العازفين على القانون بدمشق، وكان يساعد إخوته الثلاثة محمد وحمزة وابراهيم، اجتمع في مصر بالفنان عبده الحامولي وأعجب به. توفي في دمشق سنة ١٩٢١م عن٦٩ عاماً.

(٢) عبد الله بن عبد الرحمن. من تلامذة أبي خليل القباني ومن أعمدة الغناء المشهورين في دمشق. توفي فيها سنة ١٩٠٨ عن ٧٢ عاماً.

عرفه[1]، وهمـا من المداومين ليليـاً. وكـان الغناء القـديم كله مـوشـحـات وأدوار وقصائد على الوحدة.

ولكثرة سماعي لهذه الأغاني في كل ليلة تولّدت ملكة السماع لدي. وكنت أصلاً أميل الى الموسيقا. ولعلي ورثت ذلك عن جدي لوالدتي أمين العلمي، الذي كان من الموهوبين بصوت حسن مع عزف لطيف على الناي والفلوت. وكـان جدّي حتى وفاته من زبونات القناق الدائمين، وكـذلك كـمـال أفندي المهـايني، الذي لم يترك والدي منذ شبابه حتى فرّق بينهما الموت. فكانا يجتمعـان يوميـاً في السفر والحضر، في الليل والنهار. وقلّ أن ترى صداقة كصداقتهـما التي كـانت مضرب المثل في دمشق.

وكان من هذه الشلّة السيد رشيد الحنّاوي، من وجوه التجار ومن ذوي الذكاء النادر. وكـانت السهرات تضـم أظرف الندماء المشهـورين في دمشق، كـالشبؤون، وعبده الحمامي، وكزابر، وغيرهم ممن خصّهم الله بخفة الروح وسرعة النكتة، كما أنَّ أكثر الموسيقيين كـانوا كـذلك من أخف الندماء روحاً وأسرعهم نكتة. وعندما يجتمع هؤلاء وهؤلاء معاً في ليلة أنس، لا يستطيعُ الإنسان مهـما كان منقبضاً، إلا أن يتبـذّل ويساهـم مـعـهم في النكات. وسأضع كتاباً عن ظرفاء دمشق في القرن التاسع عشر، إذا مدَّ الله بالعمر، أذكر فيه كل نديم ظريف مع شيء من نوادره، كحَسَن حمدالله، وسليم شاكر، وبكران، وأبي علي أنبوبا . . . وغيرهم.

وكـان لوالدي في قصبة دومـا ندماء ظرفـاء، لا يقلُّون خفة عن ظرفاء دمشق المذكورين. كـان والدي يقضي نهـاره في العمل ويعـود مساءً الى دمشق. فإذا قضي عليه المبيت في دومـا كان يأتيه الندماء، ومنهم مصطفى صلاح وعبد الحميد شاكر، ومـصطفى حـسّون وعبـد الله الحلاج . . ، وغـيـرهم. ومن أظرف الندمـاء في ذاك

(١) من تلاميذ القباني أيضاً، توفي في دمشق سنة ١٩٠٧ عن ٧٦ عاماً.

العصر عبد النافع أبو غنيم. وكان يجمع والدي في الأعياد والمواسم بين ظرفاء دمشق وظرفاء دوما فيقضون ساعات فريدة.

ومن مشاهير المغنّيين في دوما آنذاك عبد المولى. وكان يغني على طريقة القبضايات، مواويل بغدادية وشروقية وعتابا، يصحبه على الناي سعدو حسّون. ومن لطائف ما وقع من النكات، نكتة عملها أبو غنيم عبد النافع، ما زال الناس يتندَّرون بها الى اليوم.

حكاية القاضي والفقير

كان زاهد أفندي الإلشي قاضياً في دوما. وهو من المشهورين بخفة الروح. جاءه محمد عبد النافع أبو غنيم يوماً بعرضحال يقول فيها: إن الله سبحانه وتعالى خلقه بغير إرادته، ودفع به الى خضمّ هذا العالم دون أن يستشيره، وحكم عليه بقدرته أن يتزوج ففعل. وأنعم عليه بأولاد من ذكور وإناث ما يزيد عددهم عن تلامذة مدرسة ابتدائية. ومن كثرتهم أفلس. فكانوا سبباً لمصيبته. ولذلك فإنه يرجو حضرة القاضي جلب المدَّعى عليه ليقاضيه ويسأله: لمائا خلقه؟ ولماذا قطع رزقه؟ حتى إنه أوعز إلى أصحاب الحوانيت من التجار أن لا يسلّفوه حاجةً مهما كان ثمنها. وهو يطلب الإنصاف من القاضي لأنه لم يعد يحتمل مرارة هذه الحياة.

أخذ القاضي المعروض وذهب الى القائمقام. وكان الأمير أمين أرسلان على ما أظن. فأطلعه على القصة، وقال له: سأنظر في قضيته بعد إتمام القضايا التي بين يدي اليوم، وأطلب إليك أن تحضر الجلسة.

وهكذا كان. فعقد القاضي جلسة خاصة، ومنع حضورها إلا على كبار موظفي الدولة. ثم طلب المدّعي وهو يتكلَّف الجدَّ، وسأله عن دعواه، وطلب إليه أن يُحضِر المدَّعى عليه، فأجابه: إنه حاضر ناظر في كل مكان!

ثم قال: إن قصتي بيدك مكتوبة!

فأمره أن يرويها ثانية، فأعاد شكواه، واصفاً البؤس الذي يحيط بأسرته من كثرة أفرادها. فقال له القاضي: منذ متى هذه العداوة بينكما؟

قال المدّعي: منذ مدة طويلة!

فقال القاضي: منذ تلك المدة الى اليوم، كم قاضياً جاء الى دوما؟

قال: كثيرون!

فقال القاضي: لماذا لم تتقدم إليهم بهذه الشكوى، لينصفوك في دعواك؟

فأجاب: إن الذين تقدَّموك لم يكونوا مثلك أصحاب جرأة ومتانة، والجميع كانوا يخافونه. ولهذا لم أقدّم لأحد شكواي. ولما رأيتك أنك الوحيد الذي لايخافه، أتيتك بشكواي طالباً منك الإنصاف!

فصعق القاضي، وصعق الحاضرون. وبعد أن ذهبت موجة الدهشة قال القاضي: هل تريد الصلح مع خصمك؟

فلما أجاب بالإيجاب، قال القاضي: إذن تعال في المساء إلى داري!

وفي المساء ذهب عبد النافع الي دار القاضي، فقدم إليه خمسة دنانير ذهبية، وأعطاه طحيناً ومؤونة الدار لمدة سنة من زيت ودبس وبرغل وزيتون، وقال: اكتب براءة بينكما.

فكتب له براءة. فوضعها القاضي في جيبه وقال للشهود الحاضرين بعد أن أشهدهم عليها: إني سأُوصي بإنزالها في قبري. وإذا حاسبني الله فسأعطيه هذه البراءة الشاهدة يتخلص ذمَّته، ليعفو عنّي!



فارس بك الخوري وزير المالية

وداعاً يا دِمَشق[1]

ذكرتُ أنَّ والدي بعد أن كان يعدُني بإرسالي الى الآستانة، نَكَلَ وأراد أن يزوِّجني ليفرح بي. وعقد نكاحي كما جاء سابقاً. ومضت سنة ١٩١٠ وأنا بدون عمل. ورأس العاطل كما لا يخفى هو محطة الشيطان. وبإمكاني أن أقول إنني لم أترك ناحية من نواحي «الجهل» إلا جرَّبتُ حظي فيها، حتى مللت، فتقدمت باستدعاء إلى مدَّعي عام الاستئناف، طلبت فيه قبولي في قلم محكمته مداوماً بدون راتب، عساي أتمكن من التمرُّن على الكتابة التركية الرسميَّة فيساعدني ذلك في مستقبلي.

قُبلت وداومت. ولكن دوامي لم يكن يأخذ جميع وقتي. بل كنت غير مجبر على قضاء جميع أوقات الدوام في العدلية، بل كنت أذهب حسبما أريد. ولما كانت كتابتي التركية بالنسبة الى كتابة الآخرين من الكتَّاب أصلح من كتابتهم كان رئيس الكُتَّاب يعتمد عليَّ بتبييض ما يلزم. وعلى هذا بقيت مداوماً إلى أن فررت إلى أوربا كما سيجيء.

والدي في الآستانة

وفي عام ١٩١١ حصل لوالدي أشغال خاصة في الآستانة، فسافر إليها في أوائل كانون الثاني. وكان بعض رفقائي في المدرسة وأكثر أبناء الصفوف الذين تخرجوا بعدي سافروا الى (إسطنبول) الآستانة. وبقيت مبلبل الفكر، أضرب

(١) بداية الجزء الثاني من المذكرات المطبوعة سنة ١٩٥٢.

أخماساً في أسداس للخروج من هذه الورطة الوبيلة . وكنت أفكر في أكثر أوقاتي بالحالة التي وصلتُ إليها . وقد خطر لي خاطر كان شغلي الشاغل من بعد سفر والدي . وكانت نفسي تُحدّثني بلزوم تنفيذ هذه الفكرة ، وهي أن أسافر إلى أوربا لدراسة الزراعة في إحدى مدارسها . ولطالما منعني والدي عن السفر الى الآستانة . وراجعت الأستاذ محمَّد بك كرد علي بهذه الفكرة فاستصوبها وشجعني عليها . ومازلت أفكّر بها حتى تجسَّمت في رأسي .

وصرتُ كالمأخوذ ، إنْ قمت أو قعدت ، إن نمت أو صحوت ، لا أفكر إلا بالسفر . وجعلت الخيالات تمرُّ في مخيلتي مرور مناظر السينما . فلقد كنت أفكر في أيام المدرسة الماضية ثم ينتصب أمامي المستقبل . فمرَّة أرى نفسي في مدرسة زراعية في فرانسا ، وأخرى أرى نفسي في دمشق . ثم تمرُّ أمامي مناظر حياة عائلية فيها أولادي يطلبون مني «خرجية» وأنا فقير ، مرة أرى السعادة في يدي وهي شهادة المدرسة الزراعية . ثم يمرُّ في مخيلتي المجد والعلاء ومراتب العلم والأدب . وأخيراً تمكنت الفكرة مني ، وعزمت على السفر الى فرانسا والدخول في مدرسة زراعية فيها ، لأني رأيت بعد شدة التفكير أنني لا يمكنني سحب فلس واحد من كدّ يميني في هذه البلدة ، لأن الناس كانوا يعيِّرون أبناء «الذوات» إذا اشتغلوا ، فكيف أشتغل وأنا فخري بن محمود البارودي ووحيده ، أيُّ عمل يليق بي القيام به دون أن يعيِّرني الناس فيه؟ أي صنعة أقوم بها دون أن ينقذني المجتمع فيها . ها هم أبناء الذوات أكثرهم يعيشون . في دور أهلهم ، يتناولون رواتبهم من آبائهم وهم في جهلهم يسبحون . أكبر شاب منهم لا يُحسن قراءة رسالة أو كتابة مكتوب . فهل أبقى مثلهم أمدّ يدي لوالدي أشحذ منه راتبي الشهري بدلاً من أن تكون بيدي صنعة أساعد والدي من نتاجها . هذا بعض ما تراءى لي .

فوطّدتُ العزم على السفر ، وجمعتُ ما قدرت على جمعه من المال ، فبلغ مائة وثلاثين ليرة إفرنسية ذهبية . دفعتُ ديوني منها ، واشتريت أدوات طبخ وضعتها في صندوق خشبي صغير . ونقلت جميع ملابسي التي أخذتُها معي من

«الجوَّاني» دائرة الحرم إلى «البراني». ووضعتها في الحقيبة التي اشتريتها خصيصاً لهذه السفرة.

حضَّرت الأشياء. ويوم الجمعة الواقع في ١٥ شباط سنة ١٩١١ وصلتني برقية من والدي من إسكندرونة يشعرني فيها بأنه سيصل الى دمشق الأحد مساءً. وخوفاً من أن يصل والدي إلى دمشق قبل مغادرتي إياها أسرعت بإتمام جميع ما يلزمني، وقطعت علائقي، ودفعت ديوني التي لا تزيد عن بضع ليرات. وأخذت البرقية الى خال والدي «عطا باشا البكري»[1] وعدت الى الدار. وأطلعتُ سيدتي الجدة لوالدي ووالدتي على البرقية، وقلت لهما إني سأذهب الى دوما لأرى الأعمال وأعود غداً لأخبر والدي بعد وصوله بحسن سيرها.

وأمرت الحوذي بإحضار العجلة (العربة) ونقلت الأمتعة إليها دون أن يشعر بي أحد. وبعد أن خرجنا من المحلَّة إلى الشارع قلت: اذهب إلى فندق «أوتيل فيكتوريا». وكان مكانه مقابل البنك السوري اليوم على ضفة بردى الثانية[2]. ووضعت الحقيبة والصندوق في الفندق، وقلت للحوذي اذهب الى الدار بعد قليل وأخبرهم أني بقيت في الضيعة لأشغالٍ ضرورية، وغداً صباحاً تعال الى الفندق، وذهب الحوذي بالعربة وبقيت في الفندق وقضيت تلك الليلة فيه وصحوتُ في الساعة الرابعة، وارتديت ملابسي بسرعة. وطرق النادل «الكرسون» الباب ليوقظني حسب طلبي في المساء فوجدني جاهزاً، فأحضر لي عربة أجرة، ونقل أمتعتي إليها. وكان الثلج يتساقط والبرد شديداً والشوارع مظلمة، وليس فيها مصباح مضاء. وكان النور الكهربائي مقطوعاً من التكية كما فهمت من شرطي المحطة بعد وصولي.

---

(١) عطاء الله بن أسعد البكري الصدّيقي، من أعيان دمشق، توفي سنة ١٩١٥، وأعقب فوزي ونسيب وسامي ومظهر، وكلهم ساهموا في الكفاح الوطني، منتخبات التواريخ لدمشق، ص٨٢٠-٨٢١.

(٢) في موقع بناية الحايك اليوم. يُنسب الى ملكة بريطانيا ڤيكتوريا ١٨١٩-١٩٠١، وقد هُدم الفندق، وأُطلق اسمه على الجسر المجاور له: جسر ڤيكتوريا.

وكانت شوارع دمشق في تلك الأيام لا تختلف عن شوارع القرى. ولم تكن البلدية تعتني إلا بالشوارع التي تحيط بدائرة الحكومة، أما بقية المحلات، خصوصاً النائية كمحلّة الميدان وقبر عاتكة وأمثالهما، فإنها كانت مهملة يخجل الإنسان أن يمرّ فيها من الوحول.

وبعد ساعة من خروجنا وصلنا الى محطة القدم. ويعلم الله ماذا لقيت والحوذيّ من البرد في هذه المدّة القليلة. وكان وصولنا قبل وقت حركة القطار بمدَّة، فوجدت الكثيرين من الركاب ينتظرون القطار. وكانت طرقات المحطة غير مُعبَّدة، وليس فيها رواق يمنع الأمطار عن المنتظرين. وبقينا في المحطة والمظلات في أيدينا تحمينا من الثلوج.

وفي الساعة السادسة تماماً تحرك القطار الى حيفا. وسبب سفري الى حيفا أن طريق بيروت كان مسدوداً من الثلوج، وبقي أربعين يوماً مسدوداً بين بيروت ودمشق.

سار القطار بنا، وكدنا نموت من البرد، لأن أحد ألواح الزجاج مكسور، وليس في العربات مدافئ عامَّة «شوفاج سنترال». وكانت عربات الركوب قليلة والركاب كثيرين. ولم أتمكن من إيجاد محل. وقد تحايلنا على النافذة المكسورة وسددناها ببعض الأمتعة حتى منعنا عنا دخول الهواء المثلوج.

والغريب أن إدارة السكة كانت بأيدي الحكومة، لأن خط حيفا والمدينة هو خط حكومي (مؤمَّم)، فإذا شكونا أمرنا لا يسمع أحدٌ شكوانا، لأن إدارة الخط إدارة حكومية[1]. وتحمَّلنا برودة هذه السفرة إلى حيفا بكل نفس ذائقة الموت. والخط الحجازي مصلحة خاصة، سيأتي لها بحث خاص فيما بعد. وكانت مناظر

---

(١) الخط الحديدي الحجازي، وقف إسلامي كبير، نُفذ في عهد السلطان عبد الحميد، واحتفل بتدشينه رسمياً في دمشق سنة ١٩٠٨، ووصل أول قطار قادم من دمشق الى المدينة المنوَّرة يوم ٢٢آب ١٩٠٨م. ويبلغ طوله الأساسي ١٣٢٠كم، وله فروع عدَّة، منها فرع حيفا، وقد خربت أجزاء كبيرة منه إبّان ما سميّ بالثورة العربية الكبرى، ثم شُكّلت لجان لإعادة تسييره، ويبدو أنه لن يسير . . .

الثلوج المتساقطة على الحقول والجبال رائعة جداً. ولما وصلنا إلى جسر المقارن انقطع الثلج. وفي المساء وصلنا الى مدينة حيفا.

حيفا

بلدة جميلة من ألطف البلاد العثمانية الساحلية. ومناظرها بديعة. وجبل الكرمل يسلب اللب. وهي بلدة زراعية تجارية، ولكنها كانت متأخرة كبقية البلاد العثمانية، وشوارعها ضيقة فيها من الوحول ما يشوّه جمالها يزيل بهجتها. وللأسف لم أجد فيها فندقاً إلا فندق «يعقوب ليفي». ولم تكن الحالة بيننا وبين اليهود متوترة. وكنا نعاملهم كبقية العناصر العثمانية. وبعد أن استرحت قليلاً خرجت الى السوق وتناولت طعامي في دكان شوآء، دكان قذرة على «طاولة» من الخشب «مزفّتة» من الدهن الذي عليها.

وجعلت أدور في البلدة لقضاء السهرة، فلم أجد مقهى لائقاً بالمسافرين. ووجدت مسرحاً يضربون على بابه بآلات موسيقية عسكرية «كلارينيت وبوكلي وطبل وترامبت» فدخلتُ مع الداخلين، ودفعت الأجرة نصف بشلك. وكان اللاعبون جوقة موسيقية تمثيلية مصرية. ولكن الجميع كانوا من الرجال. وبعد أن أسمعونا شيئاً من الغناء خرجَتْ راقصة ممشوقة القوام، وأجادت الرقص وأحسنته أيما إحسان، مما استلفت نظر الجميع. وبعد نزول الستارة خرجت تلمُّ الإكرامية (البالصة)، فصار الناس يداعبونها. وإذا بها شاب صوته عريض يقلد النساء بالرقص، على رأسه شعرٌ مستعار. وقد فهمت أن ظهور الراقصات على المسرح لايجوز، وهو ممنوع بأمر القائمقام، ومسموح للرجال تقليد النساء، وكان هذا في البلاد العثمانية معروفاً مشهوراً. والأتراك يسمون الرجل الذي يمثل دور البنات«زينة».

ثم لعب الممثلون دوراً هزلياً ختموا فيه الليلة. وعدتُ الى الفندق. ولما صحوت في الصباح الباكر ذهبت أولاً الى الميناء، وسألت عن البواخر التي تسافر ذلك اليوم الى الاسكندرية، فأخبروني أن إحدى بواخر الشركة الخديوية

المسمَّاة«قُصير» ستصل العصر الى حيفا وتقلع منها في الساعة الرابعة عربية ليلاً، أي في الساعة العاشرة زوالية مساءً. فعُدت الى البلد وأكملت ما ينقصني من الحوائج، خصوصاً أدوات طبخ الطعام التي حملتها من بلادي الى أؤربا، وعادت معي الى دمشق دون أن احتاج إليها إلا في طريقنا من فيينا إلى الآستانة عند رجوعنا كما سيجيء ذلك فيما بعد.

ثم ذكرت لأحدهم ما لاقيت الأمسِ من العناء في تناول طعام العشاء فقال: أصلحك الله، إن في البلدة مطعماً نفيساً يسمى «مطعم الكازار». وهو مطعم نظيف في موقع جميل يطل على البحر، حسن الرياش، وخدامه آية في النظافة، مما غيَّر فكري في حيفا. فذهبت الى الكازار ورأيته حقيقة كما قال الرجل. فتناولت الطعام، وخرجت أفتّش عن محل (عبد الله أفندي مخلص)[1]، وأنا ألوم نفسي لتسرُّعي بالحكم على مطاعم حيفا بالأمس. وقلت: على المرء أن لا يحكم قبل أن يحقق.

وعبد الله مخلص من أصدقاء محمد بك كرد علي[2] الذين يعتمد عليهم كل الاعتماد. وهو من أدباء العرب وعلمائهم. وكنت أحمل إليه كتاباً من صديقه كرد علي يوصيه بي خيراً. وأرشدوني إليه في الميناء. وكان مديراً «لعنبر» مستودع السكة الحجازية. فلما قرأ الكتاب رحَّب بي ترحيباً قلبياً، وأجلسني الى جانبه، وأحضر لي القهوة.

وأخبرته خبري فجعل يؤانسني ويشجعني على المضي في طريق العلم. واستعلم عن قدوم الباخرة «القُصير»، وعرف أنها ستصل العصر. فأرسل بصحبتي أحد الكتاب المدعو رضا أفندي. وسرنا إلى «الآجنته الخديوية» مركز فرع الشركة في حيفا لقطع تذكرة سفر. فتمنَّع الموظف الإنكليزي عن إعطائي التذكرة لأني من دمشق.

---

(١) أديب عربي وعضو في المجمع العلمي العربي بدمشق، وله مؤلفات مطبوعة. ولد سنة ١٨٧٨م وتوفي سنة ١٩٤٧م.

(٢) علامة الشام، ورئيس المجمع العلمي العربي فيها، وصاحب خطط الشَّام، تُوفي سنة ١٩٥٣م.

وكانت الحكومة المصرية لا تقبلُ دخول أحد الشاميين إلى القطر المصري خوفاً من أن يكون الشامي آتياً من الحجاز. وكانت بلاد الحجاز موبوءة في ذلك العام. وكان الخوف من دخول جراثيم الكوليرا الى القطر. وعدت إلى عبد الله أفندي مخلص. فقام وغاب مدة قليلة وعاد ومعه أوراق رسمية تثبت أني من موظفي الخط الحجازي، ومن الذين لم يذهبوا إلى الحجاز في هذه السنة.

وبناء على هذه الأوراق أخذت تذكرة سفر مع حسم ٤٠ بالمئة، لأني من مستخدمي سكة الحجاز!!!

وبينما أنا في الميناء بين العنبر والآجنته وإذ بسامي باشا مردم بك، وهو من وجوه دمشق، مع ابن عمه راشد باشا وبعض الدمشقيين، مثل صادق أفندي جبري، والدكتور سليم أفندي صبري، وغيرهم من التجار الذين فاتتني أسماؤهم، عرفوا بسفري إلى أوروبا، ولا أدري من أين فهموا أني ذاهب دون إذن والدي. فتجمهروا علي وجعلوا ينصحونني بالعودة لأخذ إذن والدي وبعدها أسافر. وأصروا عليَّ بذلك، ولكني لم «أخزِ» الشيطان على رأيهم، وبقيت مُصراً على السفر، .وهكذا كان.

الى يافا

في الساعة الرابعة وصلت الباخرة، وألقت مراسيها خارج الميناء. ونزل الركاب بالرغم من هياج البحر. وكان بين الركاب بعض الدمشقيين الذين ركبوا من بيروت، أخبروني أن والدي وصل إليها عائداً من الآستانة (إسطنبول)، وأن الطريق بين دمشق وبيروت سدَّته الثلوج. وبينما نحن في هذا الحديث وإذا بقارب عليه علم يضطرب في البحر وتتلاعب به الأمواج، ينقلب بمن فيه في منتصف الطريق بين الميناء والباخرة. وبادر الملاحون لإنقاذ الغرقى فأنقذوهم جميعاً. وكان هذاالقارب قارب البريد الروسي، والعلم الذي كان يرفعه هو العلم الروسي.

جرى هذا أمام الناس، فأحجم الكثيرون عن السفر خوفاً من هياج البحر، كما أنهم لم يتمكنوا من تحميل الحمضيات أو صناديق التجارة لهياج البحر. وجاء

عبد الله أفندي مخلص إلى الميناء. وبواسطته تمكنتُ من إيجاد ملاحين يوصلونني الى الباخرة، وكانت أجرة الراكب في مثل هذه الأحوال ليرة افرنسية ذهبية. وملاحو حيفا مشهورون بهذه الصنعة، يفوقون البيروتيين واليافاويين بالمهارة وشدة البأس والقوة.

وعندما أنزلنا الأمتعة إلى القارب وقفت أودّع الدمشقيين. وقد أعاد الجميع عليَّ الكرَّة يرجونني تأخير سفري الى أن يهدأ البحر، فلم أقبل خوفاً من أن يحضر أحد من دمشق، أو يأتي تلغراف إلى الحكومة بلزوم منعي من السفر، فيتأخر سفري. وقلت: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. وودَّعت الجماعة وركبتُ القارب، وكان فيه سبعة ملاحين، أكثرهم رؤساء. وأحد الرؤساء نادى ابنه فجاء وركب في المؤخرة لإدارة الدفة. وسار بنا القارب قبل غروب الشمس، وجميعُ الناس الواقفين على رصيف الميناء جعلوا يدعون الى الله. وكلما جدَّف الملاحون وتقدموا خمسة أمتار يأتي الموج ويردنا أربعة أمتار إلى الوراء.

وعلى الرغم من أني لم أركب البحر في عمري لم أخف، ولم يصبني الدوار، وكنت أشجع الملاحين وأحدثهم. وهم يضحكون كأنهم ذاهبون الى متنزَّه. وقد بُحَّ صوتي من شدة الصياح، لأن هدير الأمواج كان يذهب بالصوت أدراج الرياح. ودخلت العتمة وكثر الضباب وبعدنا عن البلدة. ولم يعد يظهر لنا إلا نور مصابيحها. وكانت أنوار الباخرة تظهر لنا من بُعدٍ.

وبينما نحن سائرون باتجاه الباخرة، إذ بالقارب يتحوَّل سيره وينحرف قليلاً عن اتجاهه. فنبَّهت ابن الريّس إلى ذلك فقال لا تخف، نحن ذاهبون إلى مستودع هنا في البحر لنأخذ بعض الملاحين من هناك إلى البلدة. وبدلاً من أن نأخذهم في الرجعة نأخذهم الآن ليساعدونا بالتجذيف. فقنعت وصرنا نمر بقوارب مربوطة بالصخور. فسألت عنها فقالوا إن الملاحين يربطون قواربهم قرب مستودع الكلس أو الفحم (لم أعد أذكر) خوفاً عليها من الاصطدام بالصخور إذا هم أبقوها في الشاطئ، لأن ميناء حيفا كانت تخيف البحارة، وليست مثل ميناء الإسكندرية أوبور سعيد مثلاً.

وبقينا نسير مدة غير قليلة بين الصخور إلى أن وصلنا إلى المستودع، وهو قائم في البحر على صخور مرتفعة عدة أمتار عن سطح البحر، واصطدم القارب بجانب المستودع، فجعل ابن الريِّس يشتم بعبارات بذيئة لم أسمع مثلها في عمري. وخاف الجميعُ من الغرق. وبعد قليل سمعنا لغطاً فنادى أحد الملاحين فأجابوه، فتقدمنا بحذر من محلهم، والبحارة يتحاشون اصطدام القارب بصخرة أو بجانب المستودع، إلى أن وصلنا إلى المستودع. فنزل سبعة أشخاص الى القارب وجعل يجذف كل اثنين بحذاف، وعدنا الى البحر واتجهنا نحو الباخرة. ولولا اتساع القارب ومهارة الملاحين لما وصلنا سالمين.

ولم نكد نقترب من الباخرة حتى سمعنا سلاسل السلم وهو يرتفع، فجعلوا يصيحون بأعلى أصواتهم على الطائفة الذين عرفوا بوصولنا، فأعادوا السلم وصعدتُ إلى الباخرة وأصعدوا الحقائب والأغراض. وأردت إعطاءهم الأجرة فأبوا إكراماً لعبد الله أفندي، ولأني ذاهب في طلب العلم. فشكرتهم ونقدت الذي أصعد حقائبي ريالاً مجيدياً بخشيشاً، فتمنع أيضاً، ولكني أقسمت فأخذه وودَّعتهم. وعادوا بالسلام الى حيفا.

ورؤساء الملاحين الذين رافقوني في تلك الليلة هم السادة: الريس محمود رنّو، الريّس أحمد حسن رنّو، السيد أسعد أبو زيد، السيد أحمد أبو زيد، السيد حسن الحاج إبراهيم، السيد محمد الحاج إبراهيم. فلهم الشكر أولاً وآخراً على هذا المعروف الذي يجب أن يسطَّر لهم في هذه المذكرات. ورحم الله المتنبي حيث يقول:

لا خيلَ عندكَ تهديها ولا مالُ فليسعدِ النطقُ إن لم تُسعِدِ الحالُ

فإلى الأحياء منهم شكري، وإلى من قضى منهم الرحمة والغفران.

في الساعة السابعة والنصف زوالية من ذلك اليوم أقلعت بنا الباخرة من حيفا وهي باخرة صغيرة ليس فيها شيء من الحمولة. وما كدنا نبحر حتى اشتد البحر وهاج، وجعل يلعبُ بالباخرة كما تلعب الريح بالريشة، وقد تحمَّل الركاب،

حتى بعض البَّحارة منهم، آلاماً شديدة من الدوار. وذهب كل راكب إلى فراشه، وذهبت الى «قمرتي» ونمتُ إلى الصباح نوماً متقطعاً، حيث صحوت في الساعة السابعة من يوم الاثنين ٢٠ شباط ١٩١١ . وصعدتُ الى الظّهر فوجدت الباخرة متجهة إلى يافا، والمدينة قريبة منا. وبعد ساعة تقريباً ربطت الباخرة بعيداً عن الميناء. وكان البحر ساكناً. وقال الملاحون إن البحر منذ عشرين يوماً لم يسكن. ولم تقف باخرة في يافا لشدة هياجه. وهذه أول باخرة تقف منذ عشرين يوماً. فحمدنا الله، وأقبل الركاب والتجار.

واشتغل الملاحون بنقل صناديق البرتقال. وما زالوا يعبئون الباخرة الى أن امتلأت عنابرها وامتلأ الظهر حتى وضعوا صناديق البرتقال في جوانب الممرات، مما ساعد على تحمل الباخرة لهياج البحر، لأنها كانت فارغة وكانت العواصف تلعب بها، أما بعد الحمولة فكان البحر بالرغم من هياجه أقل تأثيراً بمداعبتها.

ومما يُذكر أن الباعة المتجولين صعدوا من القوارب الى الباخرة يحملون بضائع مختلفة، أكثرها من مصنوعات القدس وضواحيها. وهي من خشب محفور وأصداف مرصوفة ومسابح وصلبان وغير ذلك من المصنوعات التي يعدها متدينو المسيحيين من الآثار المقدسة.

وركب في الباخرة كثيرون من زوار القدس من الاوربيين الذين كانوا منقطعين في القدس منذ عشرين يوماً للنوء الشديد الذي حصل في ذلك العام. وفي الساعة التاسعةزوالية[1]، أقلعت بنا الباخرة من يافا. وفي الساعة التاسعة من صباح الثلاثاء الواقع في ٢١ شباط ١٩١١ ظهرت لنا مدينة بور سعيد المصرية.

مدينة بور سعيد

في الساعة الواحدة بعد الظهر ربطت الباخرة في الميناء، ونزل أكثر الركاب رأساً الى الرصيف دون استعمال القوارب. ونزلتُ مع رفيق تعرفت عليه في

(١) كان أهل دمشق وجميع العثمانيين يستعملون الساعات العربية في معرفة أوقاتها. وقد اتبعت الوقت على الساعة الزوالية منذ ركوبي من حيفا فتنبّه.

الباخرة يُدعى كرياكو بك، وهو أحد موظفي وزارة الزراعة في الآستانة. أردنا التفرج على البلدة فحصلنا على رخصة من موظف جالس خلف منضدة من خشب، وأمامه حاجز من الخشب «كالدرابزين»، أخذنا إليه حمّال في صدره قطعة نحاس محفور فيها رقمه، وكفلنا عند هذا الموظف بأننا سنعود بعد الفرجة على البلدة. وبعد أن تثبت الموظف من أننا لم نكن في الحجاز سمح لنا بالخروج. فخرجنا من باب يحرسه رجل يسمُّونه (عسكري)، أعطيته ورقة (العتاقة) التي أخذناها، فسمح لنا بالمرور، فخرجنا ودرنا في هذه البلدة اللطيفة التي أثرت مناظرها بي تأثيراً كبيراً لأني لم أكن خرجتُ قبلاً من دمشق. وجعلت أقارن بين نظافتها ووساخة دمشق، وقلت: ليت ربي يرزق دمشق رئيساً لبلديتها، فيجعلها كبور سعيد.

ووصلنا في سيرنا إلى دائرة البريد، وكانت تسمَّى «دائرة البوسطة»، فكتبت تحارير إلى والدي وأصدقائي ووضعتها في صندوق البريد، وأتممنا الفسحة وتفرجنا على الحدائق والشوارع.

جلسنا في أحد المقاهي نتناول كأساً من الشاي، وإذ بجوقة موسيقية مؤلفة من نساء ورجال دخلت المقهى وجعلت تعزف القطع الموسيقية الإفرنجية، مما لم يكن لي عهد به. ودارت إحدى النساء وبيدها صينية على الجالسين تستجدي منهم الأجرة، ويسمّونها «البلصة أو البالصة»، وانتقلت الجوقة إلى مقهى آخر. وعدنا إلى الباخرة واشتريت في طريقي عصا من جلد داخلها قضيب حديدي. وهي ثقيلة جداً أفادتني في الرحلة كثيراً كما سيجيء. ومن الضروري لكل إنسان أن يحمل بيده عصا قوية. والعصا نصف سلاح.

وصلنا الباخرة، وجاءنا الكفيل يطلب أجرته فنقده كل واحد منا فرنكاً وذهب شاكراً، بخلاف دليل إسكندرية الذي سيأتي خبره قريباً.

أقلعت الباخرة في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين، وسارت ببطء، وانتشر الركاب أفراداً وجماعات في الممرّات وعلى السطح منهم من راح

يتمشّى، ومنهم من جلس يتمتع بالمناظر، ومنهم من أخذ يغني دمدمة، أو يصفر. والباخرة تبتعد، ثم أسرعت بالسير، وبدأ الليل يخيم. ودخل الركاب متتابعين الى صالونات الباخرة، منهم من يطالع، ومنهم من يلعب الورق أو الشطرنج. وقضينا سهرة لطيفة وقد اجتمع فريق كبير في إحدى زوايا صالون الطبقة الثانية، وجعلوا يتحدثون وكل من عنده حكاية لطيفة أو طرفة طريفة يلقيها على المسافرين، وهم يضحكون ولا شك أن السفر أكبر مدرسة للإنسان. ورقي البشر يظهر في مثل هذه السفرات وكلما طالت السفرة ظهرت الأخلاق على حقيقتها.

والمسافر لا بد له من أن يجتمع ويتعرف الى أناس مختلفين، منهم اللطيف ومنهم الثقيل. وويل لمن يصطحب ثقيلاً في سفره. لاشك في أنه (يعدم عافيته معه)، ووصيتي لكل من أراد السفر أن يختار الرفيق قبل الطريق، خصوصاً في السفرات البعيدة. والرفيق ضروري في مثل هذه السفرات لأن الإنسان معرَّض للحوادث. والسعيد من يتمكن من إيجاد الرفيق الموفق. وكثرة الرفقاء في أي سفر بلاء، خصوصاً إذا كانت مشاربهم مختلفة أو كان بينهم من صحته منحرفة.

الإسكندرية

في الساعة السادسة من صباح يوم الأربعاء في ٢٤ شباط ١٩١١، أيقظني «الكرسون» مُعلناً وصولنا إلى الإسكندرية، فأسرعت بجمع حوائجي ووضعها في الحقائب، وأفطرت ثم وقفت على سطح الباخرة أتمتَّع بمناظر المرفأ والسفن والحركة في هذا المرفأ الجميل.

ورست الباخرة جانب الرصيف في الساعة التاسعة، ونزل الركاب. ولما صرنا على البر سألت عن البواخر المسافرة الى مرسيليا وأوقاتها، فأعلموني أن باخرة ألمانية ستقوم مساء اليوم إلى مرسيليا، اسمها «البرنس هنري»، فسررت وذهبت قبل أن أخرج أمتعتي من الباخرة «القصير» إلى الأجنطة الألمانية وقطعت تذكرة. ونقلت أمتعتي من باخرة الى باخرة بسرعة. ولماكان لدينا وقت طويل للسفر طلبت من مدير الميناء إذناً بالسماح لي بالخروج إلى الاسكندرية للتمتُّع

بمناظرها، والتفرج عليها، فسمح لي وخرج معي نيقولا كرياكو بك، وتقدم منا دليل أحبّ أن يدلنا على البلدة، فأبى رفيقي كرياكو بك ولكني أصررت، وأخذنا الدليل وسرنا في البلدة بعد أن كفلنا الدليل لدى الموظف في المرفأ، على أن يعود بنا قبل أن تُقلع الباخرة. ولم يسمح لنا الموظف بالخروج إلا بعد أن اطلع على أوراقنا، والمستندات التي تشعر بأننا سنغادر الإسكندرية، أنا إلى مرسيليا، وكرياكو إلى الآستانة.

وعلى هذا خرجنا نتمشى في الشوارع، واستأجرنا عربة ركبناها ودرنا في البلدة مقدار ساعة. وطلب كرياكو مني أن نتمشى لأن السائح يتمكن في السير من رؤية البلدة أكثر من الراكب، فأجبته إلى طلبه. وقد لاحظت كثرة الباعة المتجولين يحملون في أيديهم الحوائج الخفيفة، كالأقلام والأمشاط وغير ذلك. وإذا عرفوا أن المشتري غير مصري يطلبون ثمن الحاجة أضعافاً مضاعفة. ومهما أنقص المشتري من الثمن يجد الحاجة باهظة. وقد طلب مني أحدهم سبعين غرشاً ثمن قلم حبر، فرفضت. وما زال ينزل من الثمن حتى أخذته بعشرة قروش فتأمل.

والفقراء كثر، خصوصاً الأولاد كانوا يسيرون حفاة عراة الرؤوس، يلحقون السياح يطلبون الصدقة بإلحاح بصورة بشعة، كما هو الحال في بلاد الشرق.

بلدة الاسكندرية بلدة جميلة لا يمكن وصفها بمجرد مرور طريق، ولكن يمكنني أن أقول إنها ثغر جميل (باسم) فيها حركة عظيمة. اشتريت منها بعض الكتب. وبينما نحن في الطريق مررنا بمصرف «كريدي ليونيه»، فقال كرياكو بك إن لي أموالاً مودعة في البنك، مرادي سحب شيء منها. ودخلنا المصرف وطلب سحب المال، وطلبوا منه أشخاصاً يعرّفونه، فقال للدليل: تعال معي لنحضر لهم من يعرّف بي. وخرجنا من المصرف. وجعل كرياكو يسير بنا من محل لآخر، والدليل يسأله: إلى أين أنت سائر؟ فيقول: إلحقْ، إلى أن وصلنا أمام بناية عظيمة، فقال له: وصلنا، انتظروني هنا لأحضر أصدقائي. ودخل من الباب، (ويا إيدكم)، وخرج من باب آخر. وانتظرنا مقدار ربع ساعة والبك لم يحضر، ودخلنا

نفتش، ولكن «أين فطيم بسوق الغزل؟» وبعد أن درنا جميع الوكالة غرفة غرفة ولم نجد له أثراً عرفنا أنه محتال وجد وسيلة للهرب «ففركها». ولا تسلْ عن الدليل الكفيل وما أصابه من الانزعاج. فلطم وجهه حتى كاد أن يدمي خدوده وجعل يصيح، وخرج الزبد من فيه، وأخذ بتلابيبي وقال وهو يبكي وينوح: أنت المسؤول عن رفيقك: (يا لله ويايَ للقسْم)، واجتمع حولنا الناس. وما أقنعته بلزوم السير إلى المرفأ لإخبار مديره بالأمر إلا بألف جهد جهيد.

ولما وصلنا أعاد الرواية (وزاد بالزعبرة) أمام الموظف الذي كفلنا عنده، وجعل ينادي: يا عسكري، وجاء شرطي أسمر طويل فشكاني إليه. وأخبرته الخبر، وقلت: مادام هذا الدليل يعرف البلدة كان عليه أن يدخل مع الرجل، مادام يعرف أن هذه البناية لها أبواب عديدة. وكرياكو رومي وأنا عربي، ولا رابطة بيننا غير معرفة الطريق، فما ذنبي إذا هرب منه؟ وهنا تداخل أولاد الحلال وقالوا: أرضه. قلت: بماذا أرضيه؟ فقال أحدهم: (بكم جنيه). وهنا بدأت الرواية تتجدَّد، وزاد الرجل بالصراخ. وبالرغم من أني قبلت أن أدفع له نصف (بينتو) أي نصف ليرة افرنسية ذهباً، فإنه لم يقبل إلا أن نذهب الى القسم فقلت: يا الله الى القسم، أيوجد هناك قطع راس؟ ولما عرف مني الجد تراجعَ وقبل النصف (بينتو) وهو يشتم كرياكو بكل مسبَّة بذيئة. وبعد أن انتهت هذه المشكلة صعدت إلى الباخرة الجديدة.

الباخرة هنري

هذه الباخرة من بواخر شركة «نورد دوتشر لويد بريمن»، واسمها البرنس هنري، وفيها ٣٤٣ قمرة لعموم الدرجات: «بريمو» أولى، وعدد قمراتها ٢٨٠. و«سيكوندو» ثانية، وعدد قمراتها ٤٥، وثالثة وعدد قمراتها١٨. والأسرة في القمرات: ففي الأولى سرير أو سريران، وفي بعضها ثلاثة حسب طلب الراكب. وأسرَّة الدرجة الثانية أربعة أو ستة. والثالثة أسرّتها ستة أو ثمانية. والأسرّة في القمرتين الثانية والثالثة فوق بعضها. أما في الأولى ففي كل قمرة من ٢ الى ٣ أسرّة وجميعُ القمرات فيها مغاسل تامة، وكلها نظيفة. وغير هذه الدرجات يوجد

السطح، ويسمّونه ظهر الباخرة. والسفر عليه في الصيف لطيف جداً. أما في الشتاء فهو مزعج لما يصيب الراكب من تبدل الأنواء من الدوار.

الصالونات وغرف الطعام

ولهذه الباخرة في كل درجة صالون للجلوس يختلف باختلاف الدرجات. وأحسنها «البريمو» فيه مناضد مختلفة مفروش برياش ثمينة، وفيه آلة للموسيقا«بيانو» كبيرة يعزف عليها من شاء من الركاب، وتقدم في الصالونات جميع أنواع الألعاب كالورق والشطرنج والداما والدومينو وغيرها من الألعاب المخصصة للصالونات، من البريتش للبوكر إلى غير ذلك.

وغرف الطعام نظيفة. والدرجة الأولى أوانيها جميلة ثمينة. وعلى كل وحدة من أدوات المائدة علامة الباخرة متخذة شعاراً للأواني وجميع أدوات الباخرة. والشعار هوحرفا (ب. هـ. P.H)، وهما أول حروف البرنس هنري.

كان لكل درجة ممرَّاتٌ خاصة مع ملاعب على سطح الباخرة، وفي الممرّات توضع للركاب كراسي بحريَّة تفتح وتغلق وتمدد حسب طلب الراكب. منها ما يحضره المسافر صحبته، ومنها ما يعطى من قبل إدارة الباخرة مقابل فرنكين أجرة الكرسي من الإسكندرية الى مرسيليا. والفرنك معادل ربع ريال عثماني. وعلى جانب كل كرسي إطار صغير ثابت من النحاس يوضع فيه بطاقة (كارت) يحمل اسم مستأجره أو صاحبه.

التسلية على ظهر الباخرة

ويوجد على الظهر ملاعب للدرجات الثلاث فيها أنواع من اللعب، منها لعبة فاتني اسمها لم أقيده بمفكرتي. وهي عبارة عن مربعات مخططة في الأرض وأقراص من خشب رقيقة مبسطة بشكل دائرة تضرب بعصوات في أسفلها قطعة من خشب مبسطة بقدر الكف، فتدفع الأقراص الى المربعات. و«الشاطر» من اللاعبين من لا يمكّنْ خصمه من وضع أقراصه في المربعات، بل يسعى بضرب أقراصه لإخراج أقراص اللاعب الآخر. وقد دخلت في هذه اللعبة. وبأقل من ربع ساعة

أصبحت بطلاً فيها. وهناك لعبة أخرى، وهي عبارة عن أكياس صغيرة مملوءة رملاً ترمى من بعد الى مربعات غير مربعات اللعبة السابقة. في هذه المربعات أرقام، لكل مربع رقم، يرمي اللاعب بالكيس، فمن وصل كيسه أبعد من غيره يكون هو الرابح. وهذه لعبة لإظهار القوة. غيرها: خشبةمستطيلة بشخن عشرة سم، في وسطها عمود رأسه كالأهرام، بارتفاع متر في جانبه عددمن حلقات الليف شبيه الكعك. يرمي اللاعب من بُعد مخصوص بالحلقة، فالذي يدخل أكثر من غيره حلقاً من الليف في العمود يكون هو الرابح.

والخلاصة: كان هناك عدة ألعاب لا لزوم لذكرها كلها. وأكثر الركاب يشتركون باللعب نساء ورجالاً، ولا يمتنع عن اللعب إلا من يجهل الألعاب. ولاأفتخر إذا قلت بأني تعلمت جميع هذه الألعاب وأتقنتها، وكنت محور اللعب طول هذه الفترة. ويوجد من الألعاب غير ما ذكرت لعبة سبق الخيل، وهي من أخشاب على شكل الفرسان تصفُّ في مربعات ستة، بعضها جانب بعض، لكل فارس بيت خاص كبيوت الشطرنج. وكل فارس يحمل رقماً. وبهذه اللعبة شبكة من شريط مخروطي كساعة الزجاج الرملية لها طرفان، مثقوبة من المنتصف عند اجتماع رؤوس المخروطين، تدار بدولاب، فيها ثلاثة فصوص من فصوص النرد كبيرة الحجم، يحرك دولابها بالدوران. ومتى وقف الدولاب تسقط الفصوص المسدسة الأوجه، وتستقر في أسفل الشبكة، فالرقم الذي يكون في الوجه الأعلى من الزهر يسير فارسه قاطعاً المربعات بمقدار أعداد الرقم. فإن وقف الزهر على رقم ثلاثة أو أربعة وستة مشى الفارس ذو الرقم الثالث وذو الرقم الرابع وذو الرقم السادس.

وإذا جاء الثلاث زهرات رقم واحد يسير فارس الرقم ثلاثة بيوت من بيوت ذلك الرقم، والذي يسير الفارس أحد الخدم ينقل الفُرسان في البيوت الى أن يسبق أول، فارس، فيكون الرابح للسبق، ولهذا السبق أوراق تباع للمتفرجين يتراهنون فيها على السابق مقابل مبلغ طفيف يجمعُ في نهاية الشوط مجموع الدراهم المدفوعة ثمن أوراق اللعب، ويحسم منها ١٠ بالمئة لإدارة الباخرة، والباقي يعطى

للرابحين، أي لمن يحملون أوراقاً برقم الفارس الفائز، وهذه اللعبة مسلية ولكنها على كل حال لعبة قمار.

في البحر الأبيض المتوسط

قلت إن الباخرة تحركت بنا في السّاعة الثانية من بعد ظهر الأربعاء في اليوم الثاني والعشرين من شهر شباط ١٩١١ من ميناء الاسكندريّة. وكان البحر غاية في الهدوء، والهواء عليلاً، والركاب يُمرحون في المماشي وعلى ظهر الباخرة يسيرون أزواجاً وفرادى، وتقدم مني شابان يتكلمان اللغة العربية جيداً باللهجة المصرية، وقدّما لي أنفسهما: أحدهما يدعى «المسيو باروخ بنطاطا والثاني يدعى باصيل بصالتي»، وكلاهما يهودي، وجلسنا في الممشى نتمتع بمناظر البحر والتموُّجات الخفيفة، ونتحدث أحاديث مختلفة. وبقينا على هذا المنوال إلى أن حان وقت الطعام، فتناولنا العشاء وصعدنا الى الصالون، وهناك اجتمع جميع ركاب الدرجة الثانية، وبدأ التعارف بين الركاب، وكان بينهم رجل ألماني بدين يدعى «الهربريك» خفيف الروح جداً، لم يترك فرصة إلا اقتنصها للتفريج عن المسافرين وتسليتهم. وبالحق فلقد كان سلوتنا من الإسكندرية إلى مرسيليا.

وبعد التعارف مع بعض الركاب انتحى كل جماعة منهم ناحية وجعلوا يلعبون الورق والشطرنج والنرد. ودار باروخ ورفيقه باصيل على الحاضرين يسعَوْن لتشكيل لعبة «بوكر»، فتوقفوا لإيجاد بعض اللاعبين. وسألوني: هل تلعب البوكر؟ قلت: لا قالوا: تعال نعلمك إياها. قلت: لا أريد. قالوا: لماذا قلت: لأنها في البدء لعبة بوكر، ولكنها في النهاية«بوق يير» ومعناها باللغة التركية: أكل هواء...

وكان بجانبي رجلان يسمعان حديثنا، فضحكا، وكلّماني باللغة التركية، وهما روميان. وكان هذا الحديث ورفضي اللعب سبباً لعقد أواصر الصداقة بيننا. أحدهما يدعى قسطاكي أفندي، والثاني جورجي أفندي. وقد قضيت أكثر أوقات السفر من الإسكندرية الى مرسيليا بصحبتهما.

وتقدم مني شاب إيطالي، وعرّفني بنفسه يّدعى «المسيو ميشيل سبيرناك»،

يتكلم اللغة الافرنسية بصعوبة . هذا الشاب جاءني يوماً الى غرفتي-وغرفة البواخر تسمى «قمرة» ، وجلس عندي يحدثني بلغة إفرنسية مكسّرة ، ومع الأسف كانت إفرنسيتي مكسَّرة أكثر منه . . وبعد فترة من الزمن أخرج من جيبه رسوم بنات عاريات بأوضاع مختلفة ، ورسوم أخرى فيها مناظر فحش . وأفهمني أن الباخرة سوف تقف في نابولي ، وأنه يعرف نابولي ، وله فيها صديقات من هؤلاء النسوة . وقدم نفسه لي كدليل خير يحب خدمة الإنسانية مقابل أجر طفيف لا يزيد عن الخمسين فرنكاً ، مقابل تعريفي بإحدى الفتيات الجميلات . فصرفتُه بالحسنى ، وتجنَّبته بعد ذلك . وعندما نزلنا في نابولي «فركتها» منه ، ولم أصاحبه في الجولة التي جُلْتُها فيها كما سيجيء .

الشطرنج

ومن الألعاب المحببة الى المسافرين لعبة الشطرنج . والذين كانوا يلعبونها أكثرهم من الطبقة الغنية . وقد جلس الى جانب لاعبَيْن يلعبان بالشطرنج . وقضيت وقتاً طويلاً جانبهما وأنا أتفرج دون أن أتكلم كلمة واحدة . ولم «أدودب» لا مع هذا ولامع هذا . و«الدودبة» في لغة الشطرنج هي أن يساعد المتفرج أحد اللاعبين بإلفاته الى لعبة إذا لعبها يكون له منها فائدة . وأكثر المتفرجين في بلادنا «يدودبون» . والذي رأيته في أوربا «لا يدودب» أحد مع أحد إلا إذا كانوا شلة أصدقاء مرفوعة بينهم الكلفة .

وبعد أن انتهيا من لعبهما سألني أحد الجالسين ، وهو رجل ألماني يدعى «الهر باربو» : هل تلعب الشطرنج؟ قلت : قليلاً . قال : أتحبُّ أن تلعب «دقّاً» دستاً بالشطرنج؟ قلت نعم . فلعبنا ، واجتمع حولنا اللاعبون للتفرُّج . ولعبنا دستاً خرجنا به (باطة) . ثم آخر غلبني فيه . وانتصف الليل ، وجعل الركاب ينسحبون إلى قمراتهم . وكان البحر هادئاً ، والباخرة تسير بسرعة يُسمع لمراجلها صوت ضعيف . وكان اهتزازها خفيفاً فلم يؤثر الدوار على أحد ، وانسحبتُ الى قمرتي ونمت بهناء .

صحوت باكراً، ولما ارتديت ملابسي وجدت في رقبتي بعض الحرارة من قبة القميص (الكوتشوك) فلم أضعها، وتركتها مع «الكرافات-قمطة الرقبة» لأريح رقبتي. وذهبت الى غرفة الطعام لتناول الفطور(كسر الصفرة). ولم أكد أن أصل إلى المكان المخصص لي وأتقدم للجلوس وإذ برئيس الخدم (شيف دو تابل) يتقدم مني بلطف ويشير الى رقبتي قائلاً: أظنك نسيت القبة. قلت: لا. وأريتُهُ حبوب الحرارة الظاهرة في رقبتي. قال: بإمكانك أن تلفها بشيء يستر الرقبة، لأنه لا يجوز الجلوس على المائدة بين الركاب بدون (قبة وكرافات). فرجعت الى القمرة ووضعت قبتي وعدت.

وبعد الطعام قضينا الوقت على سطح الباخرة وفي الممَّرات بالرغم من برودة الطقس. وأخيراً أخذت كتاباً وجلست في مقعدي أطالع. وكان الركاب منتشرين في الباخرة، منهم من يدمدم، ومنهم من يصفر لحناً، ومنهم من يقرأ أو يحدِّث رفيقه. وقرب الساعة العاشرة صباحاً جاءني «الهرباربو» طالباً اللعب بالشطرنج، فقمت الى الصالون وجلسنا نلعب دستاً.

وبينما كنا نعلب وإذ بسيدة تدخل، يصحبها زوجها وابنتها، ووقفوا يتفرجون على اللعب. وكان الألماني يتكلم الافرنسية بصعوبة. كذلك كانت إفرنسيتي. ولذلك كان تفاهمنا بالإشارة. وبعد عشر نقلات في الأحجار أخذتُ الدست بغلطة غلطها الرجل. وعند الإفرنج لا يجوز الرجوع في اللعب خلاف العادة عند العرب، فإنهم يرجعون في ألعابهم إذا كان الاتفاق بين اللاعبين على ذلك.

فلما أخذت الدست(الدق) صفقت بيدي وطالعت من القاموس كلمة انتقام، وقلت له: أخذت بثأري منك، وجعلنا نضحك جميعاً من تكلمي بالإشارة. وقالت لي السيدة: أتحب أن نلعب دستاً، ولو لم يكن بيننا معرفة؟ فقلت: بكل سرور. قالت: أنا مدام المسيو فيليب، وهذه ابنتي. قلت: وأنا المسيو فخري، وخطيبتي في بلدتي. فضحكنا وجلست، فغلبتني دستين، وأخذت دستاً

واحداً، وقمنا على أن نعود إلى اللعب مرة ثانية لأخذ الثأر. وظهر أن زوجها يلعب أكثر منها لأنه نبهها إلى بعض الألعاب، أي (دودب) معها. ونبَّهتُهُ إلى لزوم الوقوف على الحياد، وإذا شاء لعبنا سوية في وقت آخر، فقبل.

وكانوا من ركاب الدرجة الأولى، فذهبوا بعد اللعب. وقمت إلى الظَّهر أستروح الهواء. وجلستُ أطالع في كتاب تاريخ العباسيين. و«غرقت» بالمطالعة، ومرت أمامي تلك العصور الزاهية، ثم أدوار الانحطاط. فتركت الكتاب وجعلتُ أفكر بأمتي العربية، وهل يعود لها عزها فترجع أمة حية بين الأمم، أم نبقى عالة على البشرية نأكل ونشرب وننام كالحيوانات. وبقيت سابحاً بهذه الأفكار الى أن نبَّهني إعلان النادل بضرب جرس الطعام: فنزل الركاب جميعهم إلى الموائد.

ومن نعم الله عليّ أنني كنت ممن اعتاد أن يأكل على الطريقة الغربية. وكان في زمننا الطعام يوضع على صينية كبيرة من نحاس، يجلس حولها أفراد الأسرة، إما على الأرض فوق بساط أو حصير، وإما على كراسي صغيرة. ولم تكن أدوات السفرة معروفة لدى الدمشقيين. ولم يكن معروفاً غير الملعقة. أما الشوكة (الفرتيكة) المعدن فلم تكن معروفة إلا عند الطبقة الراقية، ولم تكن السكاكين عندنا توضع على الموائد.

وكان على المائدة إناء خردل بعيد عن الرومي. فقام ومدَّ يده لأخذه فأصابت إبريق الماء فوقع على المائدة. وساح الماء على المنضدة، والتفت الجالسون نحو الرومي، والماء يتجه نحوهم، وخجل الرومي خجلاً ما بعده خجل. وبعد الطعام بينما كنا نسير في الممشى وإذا برئيس الخدم يتقدم من رفيقي الرومي ويختلي به في أحد جوانب الباخرة. ثم يتركه ويعود إلينا الرومي ويخبرني أنه تلقَّى درساً في آداب الطعام من رئيس الخدم لا ينساه مدى حياته.

والذي فهمته منه أنه قال له: إن الجالس على مائدة الطعام لايجوز له أن يقوم ليتناول شيئاً من الأدوات على المائدة، كما أنه لا يجوز له أن يمدَّ يده بأكثر مما تصل إليه. وإذا لزم أحدهم شيء بعيد عنه، كالمملحة أو أي شيء غيرها، وكان في جانبه

أعظم الرجال قدراً أو أعظم السيدات مكانة، مسموح له بأن يطلب منهم مايريده أو ممن هو أقرب الى الأداة المطلوبة من الجالسين. وقد أخذت عبرة من هذا الدرس ولم أقع في خطأ مثل هذا، ولله الحمد.

والعادة في اللغة الديدن. سميت بذلك من العود أي الرجوع، لأن صاحبها يعاودها ويرجع إليها مرة بعد أخرى. وقد عرفوها بحدود كثيرة مرجعها جميعاً الى الأعمال المتكررة التي يألفها الإنسان والحيوان جماعات وأفراداً. وقد قالت العرب: العادة خامس طبيعة. وقالت الإفرنج: العادة طبيعة ثانية.

والعادة خاصة وعامة. فالخاصة تخص كل فرد بأحوال معلومة. والعامة تشمل أمة بأسرها، أو طائفة من طوائفها، أو شعباً من شعوبها، أو قارة من القارات الأرضية. ولهذا أصبح لكل شعب عادات خاصة به تسوقه الى هذه العادات حالات المكان والزمان. فيألف من المطاعم والمشارب والمساكن والأخلاق والأهواء ما تسوقه إليه حاجته بادئ ذي بدء، ثم يألف تلك العادات حتى تصير ملكة فيه. ومتى رسخت العادة في قوم أصبحت سنة له، وصارت عرفاً عاماً، ثم قانوناً مشروعاً وإن لم يصدر به مراسيم وقرارات حكومية مصدقة من المجالس. ولهذا اعتبر المشترعون العرف المبني على العادة العامة بمنزلة لا تنزل عن الشرع المشروع.

ومع أن القوى الطبيعية متفاوتة بين فرد وفرد آخر من بني الإنسان، ولكن ائتلاف كل قوم على عادات مخصوصة يضرب حجاباً ظاهراً على ذلك التفاوت ويجعل منه نوعاً من التناسب يستحسنه الذوق وترتاح إليه النفس. وعادات الأمة هي أساس أخلاقها وآدابها. لذلك يجب على السائح مراعاة عادات أهل البلاد التي يزورها، ومشاركة أهلها بما لا يمس بأمور دينه، ومن خالف عادات القوم الذين يمرُّ بهم يكون عرضة للهزء والسخرية وليتجنب السائح في الاجتماعات العامة الحركات غير اللائقة والهزء والسخرية بعوائد الأقوام، خصوصاً طقوسهم الدينية مهما كان فيها من الشواذ. وإذا ظهر من السائح حركة استهزاء بقوم، وتعدى عليه بعض الرعاع فلا يلومَنَّ إلا نفسه.

وسأذكر بعض العادات بصورة مجملة عند مروري في كل بلدة من بلدان القارات الأربع: أوربا وأمريكا وإفريقيا وآسيا، حسبما تقتضيه الظروف.

إلى نابولي

في اليوم الأول من ركوبنا الباخرة من الإسكندرية تقدمت مني سيدة افرنسية نَصَفٌ تسحب كلباً صغيراً من نوع «بولدوك Bouledogue» من أكثر ما خلق الله من الكلاب حركة و(أشطنها). تقدمت السيدة وطلبت مني بلطف أن أساعدها بجلب مقعد بحري لتجلس عليه فأسرعت وأحضرت مقعداً وفتحته وقدمته لها، فشكرتني وجلست جانبي وحضنت الكلب وجعلت تقبله وهو يلحس وجهها وشفتيها. فأنفتُ من ذلك ونفرَتْ نفسي منها وعددْتُ مساعدتي لها عملاً إنسانياً. وقلت بنفسي: هي ساعة وتمضي. ولم أعلم أنها مثل (الدبّيقة) سوف تعلق بي إلى آخر السفرة. وكلبها المدلل لم يكن لينزل من حضنها. فكانت تقبله ويلحس وجهها وشفتيها، ولا تتركه ثانية واحدة بعيداً عنها.

وقد صدف أن أفلت منها مرة وجلس بحضن رجل نهر به ورماه أرضاً. ولما رأته صاحت وقامت قيامتها وملأت الباخرة زعيقاً، وحضنته وجعلت تقبله وتراضيه كأنه طفل «حردان».

هذه السيدة استلطفتني، مع أني استثقلتُ دمها وعقلها. فجعلت تتعقبني من مكان إلى مكان. وكلما جلست جانبي أبحث عن طريقة للابتعاد عنها. وقد أسميتها «أم دوك». ومشى هذا اللقب عليها بين الركاب. وقد أحسَّت المسكينة بنفور الناس منها فصارت تجلس في زاوية تطالع بكتاب وتداعب ابنها المحروس دوك الذي أبغضته بمقدار حبي للجمال.

ومن العجائب أن الأخ حسني أفندي تللو المشهور بحبِّ الجمال يحوي عنده كلباً من هذا النوع. ولعل له به غرضاً لا نعرفه، ولله في خلقه شؤون.

أهوال البحر

في اليوم الثاني من ركوبنا البحر اشتدت الأنواء (وكبر البحر)، وجعلت

الأمواج تلعب بالباخرة لعب القط بالفأر، وداخ أكثر الركاب. فمنهم من انسحب إلى قمرته، ومنهم من جلس على كرسيه في الممرات دون أن يحفل بالعاصفة. ويظهر أن بعضهم كان يكابر بالمحسوس ليرينا أنه لا يأبه لشيء مما يجري. ولكن لم يطل الحال حتى هرب جميع الركاب إلى قمراتهم وأكثرهم مصاب بالدوار.

وفي اليوم الثاني هدأ البحر قليلاً، وبقينا إلى المساء لا نرى إلا الماء والسماء. وفي الساعة الخامسة ظهرت لنا أراضي صقلّيّة «سيجيليا-Sicile»[1] عن بُعد، فصعد أكثر الركاب الى سطح الباخرة ينظَرون بالنواظير. والسائح الذي يركب البحر لابد له من ناظور جيد ليقرب له المسافات البعيدة. وبقينا مقدار ربع ساعة نتطلّع الى سواحل صقلية. ثم بدأت تظهر لنا أراضي «كالابريا» عن بُعد. وبعد قليل دخلنا «بوغاز مسّينا». وهو مضيق بين أراضي صقلية وكالابريا. وبقيت الباخرة في المضيق أكثر من ساعتين ونصف، والنوء شديد. وقد ذكرتنا هذه الليلة بليلة الباخرة قُصير بين حيفا ويافا. بل إن هذه الليلة كانت أشد، حتى إن الموج كان عند ميل الباخرة على أحد جانبيها يضرب من فوق السطح. وعندما تستوي الباخرة تسيل المياه من الجانب الآخر، وتحمّل الركاب ما لا يوصف من الصعاب.

ولما خرجنا من المضيق اعتدل النوء وهدأ الاضطراب وعادت الباخرة إلى سيرها الاعتيادي. وعاد الركاب الى ألعابهم.

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم السبت الواقع في ٢٥ شباط قرع جرس الطعام، فنزلنا إلى الغرفة متسائلين عن سبب تقديم الوقت. فقالوا إن الباخرة ستصل الى ثغر نابولي، وهو من ثغور إيطاليا الجميلة. والركاب الذين يزيدون الفرجة على نابولي يجب أن يتناولوا طعامهم باكراً. فتناولنا الطعام بسرعة، وكتبت اسمي مع من يريد النزول إلى نابولي. ولم يكن في ذلك الزمان «جواز سفر-Passeport»، ولم يُطلب مني الجواز إلا عند دخولي إلى الآستانة في عودتي من أوربا، كما سيجيء.

(١) فتحها القائد العربي أسد بن الفرات سنة ٨٣٠م، وبعد ثلاثة قرون احتلّها النورمنديون وغيرهم، وهي اليوم جزء من إيطاليا.

وفي الساعة الحادية عشرة بانت لنا نابولي. وكلما تقدمت الباخرة كانت تظهر لنا اليابسة. ونابولي ثغر من أبدع ثغور البحر المتوسط، وهي غاية في الجمال بمناظرها الطبيعية. فكأنها عروس قائمة على ساحل البحر المتوسط، فيها أشجار باسقة وبساتين بديعة. وقرب الظهر وقفت الباخرة في الميناء. وتقرب مني «المسيو سبيرناك» الإيطالي يريد أن ننزل معاً فيكون دليلي في نابولي فرفضت بصراحة. واستأجرت عربة بواسطة شرطي واقف أمام رصيف المرفأ، وأريته الساعة وأن مرادي أن أدور البلدة في العربة. فتفاهمنا بالإشارة، وأفهمني أن أجرة العربة «فرنكين بالساعة». فركبت ومشى الحوذي يريني البنايات والهياكل القائمة في الشوارع، ويشرح لي بالإيطالية عنها دون أن أفهم منه شيئاً.

وبعد ثلاث ساعات عاد الى الميناء، وكانت الساعة حوالي الرابعة. ولم يزل لدينا من الوقت ما يسمح لي بالفرجة. فسرت على الرصيف متنقلاً. والذي رأيته في نابولي جمالها وانتظام شوارعها والأشجار القائمة في الشوارع الواسعة وقصرها المزخرف الذي يشبه القلعة، وهو ما يسميه الافرنسيون «لو كاستيل نوفو».

ومن أجمل ما رأيته في نابولي سوق الملك. وهو بناية على هيئة الصليب مبنيّة على شكل خطين متقاطعين مسقوفة بالزجاج. وداخل الخطين المتقاطعين ساحة مدورة. والحوانيت على طرفي أركانها الأربعة. وفيها مقاه للاستراحة. ولها أربعة أبواب يحار المتفرج بما يراه في هذه السوق من المصنوعات البلّورية والنحاسية والمعدنية والأواني الخزفية والثريات والشمعدانات الثمينة التي قلّ نظيرها في الدنيا.

ويشعر السائح من النظرة الأولى أن أكثر أهل إيطاليا من الفقراء. ومن يدقق النظر في وجوه الطبقة العاملة يرى فيها الشحوب ظاهراً. واستجداء الإيطاليين السكاير من السياح مباح. ولا يجد الإيطاليون أي عار بطلب السكاير من الغرباء. وهذا مارأيته في كل مرة زرت فيها إيطاليا.

والدليل على كثرة الفقراء في ذلك الزمن وقوف عشرات النساء على رصيف الميناء، ينتظرن الشبان الأغراب للاجتماع إليهم وكسب بعض الدراهم من بيع أنفسهن في سوق اللذة.

جلست في مقهى، فاحتاط بي ست سيدات، كل منهنَّ تدعوني لزيارتها. ولما رأين رفضي طلبن مني أن أضيّفهنَّ بكأس من الجعة «البيرة»، فلم أتمكن من الرفض. وضيَّفتُهنَّ بما طلبن، وتمشيت إلى مطعم قريب وقلت: ما دمت الآن في إيطاليا فلأجرب أكلتها الوطنية. وقلت لرجل واقف «مسيو منجريه معكرونة» فضحك ودلّني على مطعم قريب. وهناك طلبت بالاشارة صحناً من المعكرونة، فأحضروه لي بعد ربع ساعة مع صحن من الجبن المبروش. وبالحقيقة وجدت بهذا النوع لذة فائقة لا نعرفها في المعكرونة التي نأكلها في بلدنا.

وللطليان اعتناء تام بهذا الطعام، ولهم في طبخه عدة طرق. وإني أقول: كما أن «الكبّة» هي الطعام الوطني للسوريين، فالمعكرونة هي الطعام الوطني للإيطاليين والبطاطا للافرنسيين.

إن الإيطاليين مشهورون بدقة الصناعات، وبينما أنا أتنقل في الميناء مرَّ بي عدد من الشبان يحملون هياكل من (جبصين) أو من الرخام الأبيض والملون وغير ذلك من أفواه السكاير وعلبها، مصنوعة أحسن صنع. والأواني البلورية المركبة مع المعادن، إن من أواني الزينة أو من أواني الاستعمال. وهي غاية في الإبداع والجمال، وهي من أشهر الصنعات في إيطاليا. كما أن أهلها مشهورون أيضاً بالموسيقا وصُنع أوائلها على اختلاف أنواعها. وعندما جلست في المقهى كانت أجواق الموسيقا المركبة كل جوقة من عدة أشخاص والتي لا يقل عدد إحداها عن الخمسة موسيقيين تمرُّ من أمامنا، ويركبون الزوارق ويدورون حول البواخر، فيقف الركاب يتفرجون على الأجواق ويسمعون أنغام موسيقاها وغناء أفرادها نساءً ورجالاً، فيرمي الراكب بما تجود نفسه الى الجوقة فتقع الدراهم في الزوارق فيلتقطها رئيس الجوقة ويقدم الشكر للمحسن.

وهناك أطفال صغار، أكبرهم في سن المراهقة، وأصغرهم لا يقل عن السابعة من عمره، يلقون أنفسهم في البحر ويغوصون لإخراج ما يرميه إليهم الراكب من الدراهم فيخرجون القطعة في فمهم، ويتسابقون عليها بالغطس، مما يضحك الإنسان ويؤلمه في آن واحد. لأن نزول هؤلاء الأطفال في البحر في مثل هذا الطقس لتحصيل شيءمن الدراهم يدمي القلوب. وويل للإنسان الذي لا يتألم لشقاء أخيه الإنسان.

أما أهل نابولي فكانوا أسرق من الفأر، وأحرق من النار. وايطاليا كانت مشهورة بتصدير اللصوص إلى العالم. وإذا لم يكن الغريب واعياً فلا شك أنه يكون عرضة حتى لسرقة قبعته.

ومما وقع لي أنه كان في رجلي عندما نزلت إلى نابولي «كندرة صب» خوفاً من الطين. ولماجلست في «القهوة-المقهى» ناديت ماسح أحذية (بويه جي)، وبعد أن مسح حِذائي أعطيته كندرة الصب ليمسحها، فمسحها ووضعها في جانبي وذهب. وما كاد يتواري عن عيني حتى التفت فلم أجدها. وعبثاً حاولت البحث عنها. وقد راجعت البوليس الواقف فلم أقدر أن أفهمه مقصدي ولا فهمت منه ما قاله. وطلبت عوضي من الله وعدت إلى الباخرة، ووقفت مع الركاب على السطح نتفرج على الميناء وعلى العمارة الإيطالية الراسية في هذا المرفأ.

ومما لفت نظري لما كنت أدور في البلدة شاب واقف أمام منضدة موضوعة في عربة يجرها حصان، عليها صندوق كبير، في داخله آلات لم أرها، يقف بين الحين والحين في الشارع ويتكلم بسرعة كالخطيب المفوه، يعلن عن شيء. ولم أفهم من كلامه شيئاً. وأخيراً يأخذ ورقة بيضاء بقدر الكف يبلها بالماء، ويدخلها بثقب مستطيل، ويدير دولاباً فتخرج الورقة من جانب الصندوق المقابل مطبوعة ملونة مثل ورقة «البنك نوت».

وكان الشارع يمتلئ عند وقوفه لإلقاء خطبته. وقد طارت ساعات بعض

المتفرجين من ركاب الباخرة، الذين وقفوا للتفرُّج بين الناس. وأحمد الله أني كنت راكباً في العربةآنذاك فحمى الله ساعتي من السرقة.

قضينا آخر سهرة في الصالون على العادة، وودَّعنا بعضنا عند منتصف الليل. وذهب كل منا إلى قمرته. وفي صباح الاثنين صحوت باكراً وجمعت أمتعتي ورتبتُها في الحقائب وجلست في الممشى مع الروميين ننتظر بصبر فارغ أن تظهر لنا مرسيليا. وبعد أن تناولنا الفطور أخبرنا الخادم أن مرسيليا ظهرت من بُعد. فصعدنا ووقفنا نتفرج إلى أن دخلت الباخرة الميناء ورمت مراسيها جانب الرصيف.

مرسيليا

ومرسيليا من أكبر ثغور فرنسا، والحركة فيها تدهش النظر. نقلنا أبصارنا في هذا الميناء، ورأينا حركة الملاحين الدائمة، وكثرة الزوارق واللنشات والبواخر. وفي ناحية من الميناء قسم من الأسطول الإفرنسي، وحداثتُه قريبة من بعضها، وجماله يبهر النظر.

وما كادت الباخرة تقف حتى هُرِع الركاب إلى النزول، ومررنا بالكمرك، وبعد التفتيش خرجنا إلى البلدة، وركبت عربة يجرها حصان مفرد. وأكثر عربات فرنسا كانت بحصان واحد. وطلبت من السائق أن يأخذني إلى «أوتيل» قليل التكاليف (بون مارشيه). فأخذني إلى أوتيل صغير، ووضعتُ فيه أمتعتي واسترحت قليلاً، وطلبت من صاحبه أن يدلني على «القنصلية» العثمانية، فدلَّني عليها، وكانت قريبة من الفندق. فذهبت لأرى القنصل، وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة. ولما وصلت وجدت معاون القنصل، وهو شاب تركي يدعى لطيف أفندي. حييته برفع القبعة وأرجعتها إلى رأسي، وإذا به يصرخ بصوت مزعج سمعه الناس من الشارع: قبَّعتك قبعتك وكانت كلمته بالافرنسي: «Votre chapeau» قلت بالتركية: ما لها قبعتي؟ قال: اقلعها عن رأسك وتعلَّم المدنية. قلت: أتريد أن أتعلم المدنية بهذه العقلية؟ إن هذه المعاملة هي ثقيلة، ونحن لسنا عبيدكم، بل نحن أسيادكم، رواتبكم منا نحن أبناء الشعب، وأنتم الموظفين لستم إلا خدماً للشعب. وبما أن اسمك لطيف كان يجب عليك أن تكون معاملتك للناس، خصوصاً لرعايا

الدولة لطيفة، مثل اسمك. ولكن بكل أسف أقول: إن معاملتك ثقيلة غليظة، وليتهم سمّوك: غليظ أفندي بدل لطيف أفندي، وتركته مدهوشاً وخرجت وأنا أرتعد غضباً من هذه المعاملة.

وكان في الباب بضعة أشخاص من المراجعين، منهم الترك ومنهم العرب. ركض إليّ أبناء العرب يشكرونني على هذا الموقف الذي رأوه مني تجاه هذا المتعجرف، وأخبروني أن معاملته لأبناء العرب دائماً بمثل هذه الفظاظة، وأنه يقدم أبناء الترك ويقضي حوائجهم بأسرع من البرق، ويؤخّر أبناء العرب أياماً لا لسبب بل لإظهار تحكمه.

هذا ما رأيته من أحد صغار موظفي الأتراك في «قنصلاتو» مرسيليا، مع أن المشهور عن موظفي خارجية الدولة العثمانية أنهم من ألطف الناس وأدمثهم أخلاقاً. وما كنت أدري أني أرى بينهم رجلاً فظاً من فصيلة «غليظ أفندي».

السفراء والقناصل في زمننا

السفير: Ambassadeur في اللغة الرسول المصلح بين القوم، جمعه سفراء. واصطلحت عليه الدول لممثل دولة أخرى تنتدبه حكومته للإقامة في عاصمة الدولة المرسل اليها، وهو نائب ملكه أو رئيس جمهوريته عند هذه الدولة. وشخص السفير محترم لا يمسّ، لأنه يمثّل ملكه. وهو معفىً من جميع الأحكام المحلّية في المملكة التي يُرسل إليها.

والإعفاء يشمل أعضاء أسرته، فهم فيه سواء لا يُسجنون ولا يحجز عليهم أبداً مهما أتوا من الذنوب. وهو الحاكم المطلق على أفراد رعيته وجالية بلاده. فإذا حدث من أحدهم ذنب يوجب العقاب كان السفير هو الذي يعاقب. وفي مقر السفارة سجن لحبس المجرمين من رعية دولة السفير. وكان للدول الأجنبية في الدولة العثمانية امتيازات للأجانب لا يمكن لأحد أن يعبث بها مهما كان شأنه.

حديقة الحيوانات

تركت «القنصلية» وعدت إلى الفندق، واسترحت قليلاً وأنا أفكر بمعاملة

لطيف أفندي لأبناء العرب. ولما لم يكن لي من غرض في القنصلية قررت أن لاأراجع قنصلاً تركياً في عمري. وخرجت للتفرج على مرسيليا ودرت بعض شوارعها فوجدت أجملها وأكثر حركة فيها شارع البورصة، وفيه أكثر المسارح وقاعات الملاهي، وسألت عن أحسن مسرح، فدلّوني على مسرح اسمه «ڤاريتيه-Variété». وقد دهشت من الحركة في هذا الثغر، وجعلت أتفرج على الحوانيت والمخازن وأنواع البضائع وحسن تنسيقها في الواجهات. ولم أكن أعرف أحداً في هذه البلدة. ولكن من حسن حظي أني التقيت رجلاً من أبناء العرب من الذين رأيتهم في القنصلية العثمانية. فسألته عن أحسن «الفُرَج» في هذه البلدة فقال: جنينة الحيوانات، وقال: إذا شئت صحبتك إليها.

فذهبنا وقضينا فيها ثلاث ساعات رأيت فيها أجناس الحيوانات والطيور والزواحف وغيرها على اختلاف أنواعها. وسررت جداً من هذه النزهة وعدت إلى الأوتيل، وتناولت الطعام واسترحت قليلاً، وخرجت إلى شارع البورصة، وما زلت أتنقل في هذا الشارع وأنقل نظري من عربة إلى سيارة. وكانت السيارات لم تزل في بدء عهدها، ومن واجهة حانوت إلى سيدة متأنقة، إلى أن دقت الساعة التاسعة فتوجَّهت إلى التياترو.

تياترو الڤاريتيه

هذا التياترو من أرقى مسارح مرسيليا، ولكنه يأتي بالدرجة الثالثة بعد مسارح باريس. قطعت «البيليت» ودفعت خمسة فرنكات، وجلست في مكان متوسط. وأجرة المقعد تبدأ من «الفرنك إلى الاثني عشر فرنكاً». والحساب آنذاك على السعر الذهبي. وموقع الفرنك الواحد إما في آخر طابق، وهو الرابع، وإما في آخر الجالسين في الطابق الأول حيث يقف المتفرج طوال الليل على أقدامه.

وفي هذا المسرح «بوفات» يَؤُمّها المتفرجون في أوقات الاستراحة «انتراكت» واللباس عادي. وكانت المقاعد في تلك الليلة مشغولة جميعُها، والذي فهمته من

المسيو جورج نادر في اليوم الثاني أن جميع مسارح مرسيليا دائماً تكون ملأى بالمتفرجين، وأكثرهم من الأغراب الذين يصلون مرسيليا في كل يوم.

كراند بال ماسكه

في الساعة التي نزلتُ فيها الى مرسيليا وقع نظري على إعلان كبير يُعلن عن حفلة راقصة كبرى مقنَّعة (كراند بال ماسكه). ولم أكن في عمري حضرت حفلة رقص. وكنت أقرأ في الروايات عن المراقص المقنّعة والسافرة والخيال يتسع لمثل هذه الأبحاث خصوصاً إذا كان قلم الكاتب سيالاً. وكانت نفسي مشوقة لإطفاء الظمأ لرؤية الحفلات الراقصة التي طالما كنا نتغنى بها على السمع. والحفلة موعدها يوم الخميس ٢ آذار ١٩١١، وستقام في مسرح الأوبرا في مرسيليا. وكنت أينما سرت أجد على الحيطان في كل شارع إعلان الـ (كراند بال) فلم يعد يغيب عن فكري خاطر الاشتراك بهذه الحفلة.

وقد سألت صاحب الأوتيل عنها ففهمت منه أن لها ألبسة خاصة، إما لباس تنكّر وإما لباس أسود. ولم يكن معي (بذلة سموكن Smoking) ولا أريد شراء (بذلة) جديدة. وعلمت أنّه توجد محلات خاصة لإيجار هذه البذلات. فذهبت إلى أحدها، وصاحبته سيدة نَصَفٌ. ولما رأتني غريباً لا أحسن التكلم، وعرفْت أني أريد استئجار بذلك لحضور الحفلة أسرعت فأخرجت لي عدة أنواع من الألبسة المزركشة التي يلبسها المهرِّجون في المسارح النقالة. قلت: لا أريد هذا، بل أريد بذلة سوداء. فأحضرت لي المطلوب. واتفقنا على خمسة فرنكات أجرة البدلة في تلك الليلة. ولما كنت أتكلم وأراجع الكلمات في القاموس تجمَّع حولنا بعض عاملات الخياطة اللائي يعملن عندها، وعددهُنَّ يزيد على العشرين، وجعلن يسمعن كلامي. وبأقل من عشر دقائق صرنا كالإخوان. وسألتني: هل أنت ذاهب وحدك، أم معك رفيقة؟ قلت: وحدي. قالت: يوجد آنسة تريد حضور الحفلة، وليس لها (كفاليه)، يعني رفيق، فهل تريد مرافقتها؟ والأجرة لا تزيد شيئاً، حيث

بالتذكرة الواحدة يدخل الشخص والشخصان. وبما أنك وحيد فبنفس الأجرة يمكنك اصطحابها. قلت: هل هي لطيفة؟ قالت: نعم، وسترى.

وخابرت بالتلفون سيدة أعلمتها أنه يوجد طالب زراعة وحيد يريد حضور البال، فهل تريدين أن تصحبيه؟ فقبلت مع الشكر. وبعد مدة قليلة دخلت سيدة بدينة قلّ أن يوجد مثلها في مرسيليا. فقدمتْنا صاحبة المحل إلى بعضنا وهي تدعى (المدموازيل مرغريت براك) وصاحبة المحل تدعى (المدام جانيت روبي).

معمل الخياطة

معمل المدام روبي صغير بالنسبة لمصانع الخياطة الكبرى. فيه نحو عشرين آنسة، كل واحدة لها (ماكنة خياطة). والذي يلفت النظر أن جميع البنات كنّ مشغولات في تصليح الأثواب المؤجَّرة إلى الذاهبين للحفلة. والمستأجرون ينتظرون في غرفة خارجية. وكل منهم يُحبّ أن يأخذ ثوبه قبلاً. بينما كانت الآنسة مارغريت ترتدي ثوبها المصنوع خصيصاً لها، وهو من أفخم الأثواب الخاصة(بالمرافع-Carnavals) مصنوع من ألوان مختلفة يُضحِك من النظر إليه، زادها سمناً على سمنها. وقد تأخرنا عن الساعة التاسعة. فجعلت أستعجل رفيقتي، وهي تتأنى بارتداء ثيابها. وفهمت أنها تتأخر قصداً حتى تتم صاحبة المحلّ أعمالها وتذهب معها. وكانت آنستان من الصانعات أحضرتا لنفسيهما لباساً خاصاً لتلك الليلة. وهذا اللباس هو بشكل بذلات القرون الوسطى. وعلى أطراف البذلات أجراس صغيرة من تلك التي توضع في رقاب القطط. والقبّعات كانت على طراز قبعة نابليون، وُضع على دائرها من هذه الأجراس. فكانت البنت إذا تحركت انبعثت منها أصداء ناعمة من تلك الأجراس تلفت النظر.

وفي نحو الساعة العاشرة توجهنا بالموكب مشاة من شارع البورص إلى الأوبرا. وأخذت الآنسة مرغريت من أحد الأولاد الصغار تذكرة دخول، وقالت لي: ادفع له ثمانية فرنكات. وكان ثمن التذكرة عشرة فرنكات إذا اشتراها المرء من شباك الأوبرا. وقد فهمت أن إدارة الأوبرا تعطي الفقراء تذاكر للبيع تحسم لهم فيها

مقداراً من المبلغ المحدد كمساعدة لهم على فقرهم . وهذه الحال رأيتها في كثير من المسارح في فرنسا .

وصلنا لساحة الأوبرا ، وإذا بالأضواء تسطع فيها كالشموس ، والناس مصطفّون على أطرافها يتفرجون على الداخلين . فمنهم من يأتي بالسيارات ، أو بالعربات ، والكثرة مشاة على الأرجل ، ونحن منهم طبعاً .

وكنا نسير مزدوجين اثنين اثنين ، في صف مستطيل . وقد انتظم في صفنا بعض المتفرجين فصرنا (طابوراً) نمشي مشيةً عسكرية . والناس تصفّق لنا ، إذ كنت رفيع القد أرتدي البذلة السوداء وعلى رأسي قبعة سوداء مرتفعة ، وتسمى(هودفورم) وهي القبعة الرسمية . وكانت رفيقتي الآنسة مرغريت بثوبها المنفوخ المخطط آيةً بالثخانة . وقد استلفتنا الأنظار بهذا السير المنتظم المضحك .

ظل التصفيق من المتفرجين الواقفين في استدارة الساحة متواصلاً إلى أن دخلنا الأوبرا ، وكان كل واحد منا يضع على وجهه قناعاً مستعاراً يستر فيه القسم الأعلى من الوجه ويسمى بالافرنسية(Masque) .

وفي الأوبرا كانت الجوقة الموسيقية داخل المسرح أفرادها جالسون على المقاعد ، والمقاعد بشكل مدرج بحيث يظهر الجميع للنظارة .

وقد رفعت المقاعد من الطابق السفلي وأصبحت قاعة للراقصين .

قاعة الرقص

كانت القاعة المعدة للراقصين بديعة جداً ، يطلّ عليها المتفرجون من جميع الجهات . فالرقص كان يجري في القاعة الأرضية ، وكانت الألواج ومقاعد جميع الطوابق ملأى بالجالسين ، وأكثرهم مقنَّع . ولا تقع العين إلا على أزواج من النساء والرجال . فالجالسون في الألواج ، وجميعهم من الأغنياء ، مع كل شلة منهم سفط فيه أنواع الألعاب الصغيرة ، كالخشاخيش والزمامير ، والصفافير والمصفقات ' ق الكرّ ، وأوراق الثلج (Confetti) وبالونات مطاط من التي يلعب بها

الأولاد، يرمون هذه اللُّعب بين آونة وأخرى، فيلتقطها الراقصون ويزمّرون بها، ويرسلون البالونات في جو الصالون بعد نفخها ويصفرون بالصفارات وأوراق الكرّ، فهي عبارة عن بكرات من الورق يمسك اللاعب بطرف البكرة ويرميها إلى بُعد، فيكر الورق منها بأشكال مختلفة كل بكرة بلون، فيلتفُّ الراقصون بهذا الورق دون أن يحصل لهم منه أذى. كما أن ورق الثلج وهو ورق صغير مدور مثل الأوراق التي تبقى في أسفل الثقابة التي تثقب الأوراق لتوضع في الإضبارات. وعندما يُلقى من الأمكنة العالية بأشكال مختلفة تقع عليه الأضواء (فيرصف) ويكون له لمعان بديع. وهو يتساقط فوق الرؤوس. ومن كثرة ما ألقي من هذا الورق في تلك الليلة منع الراقصين من الرقص لكثرة ما اجتمع منه في الأرض، حتى أوقف الرقص إلى أن جمعوا ما تكدس من الأوراق وأعادوا الجمع ثلاث مرات.

وقد اشتركت موسيقا الجيش بهذه الحفلة وعزفت بعض الألحان الشجية رقصوا عليها بسرور. والرقص على أنغام الموسيقا النحاسية يُهيج الراقصين أكثر من ألحان الموسيقا الوترية التي عادت بعد انتهاء الموسيقا العسكرية.

رقصة الكادريل

ومن أجمل الرقصات التي رأيتها رقصة تسمى الكادريل. يمسكُ الراقصون أيدي بعضهم فيصبحون حلقة، ويرقصون بخطوات موزونة ويدورون في القاعة. والراقصون يجب أن يكونوا من الجنسين الخشن والناعم على التوالي. وفي هذه الرقصة تجري مداعبات لطيفة عندما تشتدُّ الرقصة. فأصحاب الروح الخفيفة يأتون بحركات تضحك الحاضرين. والمرء في مثل هذه الحفلات يحسب نفسه مقصرّاً إذا كان بإمكانه إضحاك الناس ولم يفعل.

وبما أني لم أكُ أعرف الرقص فلم أشترك في أي رقصة، بل كنت أسير بين النظارة والمتفرجين، وأرجع الى المكان الذي جلسنا فيه حين دخولنا. وقد وضعت كل سيدة من اللائي كنَّ معنا حقيبة يدها، وبرامج الحفلة على مقاعدهن، وبذلك حفظن المقاعد. فكنت أسير وأرجع الى المكان، وهو في الطابق الثالث، وأجلس

قليلاً للاستراحة، ثم أدور في المقاصير والممرات فأرى الناس كالطيور المزدوجة، كل اثنين منهما على غصن يتناجيان، وأنا وحيد أسير بمفردي أنتظر انتهاء رفقائي من الرقص لنجتمع.

ومن أبدع ما جرى في تلك الليلة أن رفيقتي مارغريت طلبتْ مني أن أرقص فاعتذرتُ فأصرَّت متعجبة من امتناعي. قلت: السبب الوحيد هو أنني لا أعرف الرقص. فنظرت اليَّ بدهشة متعجبة قائلة «تيه ن»[1]، وهي كلمة تعجب يقولها الافرنسيون إذا فاجأهم خبر غير منتظر.

ولما أكدتُ لها الأمر وفهمتْ الحقيقة مني بعد صعوبة بالتفهيم لعجزي باللغة، قالت: إذاً اسمح لي أن أجد لي مراقصاً يراقصني، قلت: تفضَّلي. فقامت. وبعد بضع دقائق وإذا بالضجة والتصفيق ينبعثان من جميع الجهات، والناس جميعهم ينظرون إلى جهة واحدة وإذ بالمدموازيل مرغريت ترقص مع رجل بدين، فكانا أضخم راقصين في تلك الحفلة، وقلَّ أن يُرى مثلهما بهذه الضخامة لابحفلة مرسيليا بل في الدنيا على ما أظن، وكانت دقائق لطيفة سُرَّ لها جميع الحضور. وبعد انتهاء الرقصة صعدت مع راقصها إلى أن أوصلها إلى عندنا وهي تعبة تنفخ كالبقرة وتمسح العرق المتصبّب من جبينها. وانحنى الرجلُ البدين مودِّعاً وأدار ظهره للذهاب من عندها، وقمتُ بسرعة وأخذتُ مروحتها وفتحتها ووقفت على مقعد في جانبها، وجعلتُ أُهوّي لها وهي ثخينة ضخمة وأنا رفيع «ممروت». وهكذا ضجَّ الناس بالتصفيق، وقضينا سهرة من ألطف السهرات، وكنت آسفاً لعدم تمكني من الرقص تلك الليلة.

والرقص والموسيقا عنصران تأسسا على الوزن، ولهذا فقد عاشا معاً منذ عُرفا، ولا أريد أن أبحث عن تاريخ الرقص، بل سأذكر الأنواع التي كانت مستعملة في تلك الأيام. وأنواع الرقص كثيرة: التاريخي، الديني، المسرحي، التمثيلي،

---

(١) tiens

«رقص القصور الملكية-باله دوكور»، الرقص الشعبي، الجمعيات، ويقال له رقص الصالونات، وأنواعه كثيرة. والتي كانت منتشرة تلك الأيام هي «البولكا، مازوركا، كادريل، ڤالس». وبعضها يستعمل حتى الآن كالڤالس مثلاً. وسأرجئ الكلام في هذا البحث إلى الأبحاث القادمة.

الوداع

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل جعل الناس ينصرفون إلى بيوتهم. وقد تعب رفاقي من الرقص. فعزمنا على الذهاب، وعرفوا أني مسافر هذا الصباح إلى مونت بيليه. فعزموا على مرافقتي إلى المحطة. وبعد أن بدلنا لباس السهرة ذهبنا إلى مطعم قريب من الفندق، تناولنا فيه شيئاً من الطعام. وأحضرتُ حقائبي، وفي الساعة الخامسة كنا في المحطة وقد بقي لحركة القطار ربع ساعة وضعت حقائبي فيها في إحدى العربات. ولما صفَّر «الكمساري» ودَّعتهم. وبكت السيدات فأبكينني، وأحسست كأني أودع أسرتي، كما أني لحظتُ وكأنهنَّ يودعن قريباً لهن، وهذا من خلق الإفرنسيين في بلادهم، ولقد رأيت من شعبهم نساءً ورجالاً من العطف والنبل بقدر ما رأيت من مستعمريهم نساءً ورجالاً من الفظاظة والغِلظة.

وفي الأبحاث الآتية سيطلع القارئ على حوادث كثيرة تثبت أقوالي في الحالتين.

سار بنا القطار وأنا أُشير إليهم بمنديلي وهنَّ يشرن إليَّ، إلى أن غبْنَ عن عيني، ووصلتُ إلى مونت بيليه قرب العصر يوم الجمعة في ٣/ ٣/ ١٩١١.

مونت بيليه

وصلت مونبيليه، وكان بانتظاري صبحي بك الحسيبي، أحد طلاب المدرسة الزراعية. وكنت أعلمته من مرسيليا عن ساعة وصولي. وبدلالته قضيت الليلة الأولى في أحد الفنادق. وفي اليوم الثاني نقلني إلى بانسيون عند سيدة عجوز ليس في الدار غيرها «سامحه الله على هذه الاستفقادة».

وبلدة مونت بيليه واقعة في جنوبي فرنسا. وهي مركز مقاطعة الهيرول. تبعد عن باريس ٧٥٢كم. نفوسها كانت تقرب من الثمانين ألفاً. وتعد أول بلدة للعلوم في فرنسا. فيها معاهد كثيرة: معهد للآداب، وآخر للعلوم، وللصيدلة، وللطب. ويقال إن بناية المعهد الطبي هي من بقايا آثار العرب الذين احتلوا هذه المدينة عندما احتلوا إسبانيا. وفيها من المعاهد أيضاً معهد للصناعة وآخر للتجارة. وفيها مركز جمعية الطب والجراحة، ومجمع علمي تأسس سنة ١٨٤٧.

مياهها العذبة تأتيها من قرية «سان كليمان». والمياه تمرُّ في قناة فوق قناطر كقناطر المياه في حماة. وهي التي ترفعها إليها النواعير. وفيها موقع بديع يسمى البيرو، وهو من أجمل باحات المدن، في أقصاه قصر قديم مبني في القرن السادس عشر يدعى «شاتودو»، يقع في الجهة الغربية للمدينة.

وفيها متحف صغير. وبالرغم من صغره بالنسبة إلى غيره من المتاحف فإن فيه من الآثار أشياء قديمة ثمينة جداً لا يوجد لها نظير. تأسس سنة ١٨٢٥.

وفي ساحة المدينة مسرح يسمى «كراند تياتر» أي التياترو الكبير. وبالرغم من اسمه فهو مسرح صغير بالنسبة للمسارح الكبرى في فرنسا.

وكان في فرنسا ثلاث مدارس زراعية كبرى: في مونت بيليه، وفي كرينيون، وفي رين. وهذه المدارس من أعظم مدارس العالم الزراعية. يخرج الطالب منها بشهادة مهندس زراعي. ويوجد غيرها مدارس زراعية من الدرجة الثانية تسمى «فيرم إيكول» سيأتي البحث عنها.

مدرسة مونت بيليه الزراعية

هي من المدارس الكبرى في فرنسا، ذات ثلاثة صفوف تدرس جميع الدروس الزراعية الآتيةُ: الزراعة العامة، النباتات، الآلات الزراعية، المروج والمراعي، الحيوانات وتربيتها، الدواجن، الكروم، صنُع الخمور بجميع أنواعها، الألبان بجميع أنواعها، طبقات الأرض، الري، مصارف المياه، الأمراض النباتية،

لمحة مختصرة عن امراض الحيوانات، وهذه اقل من دروس البيطره والصنائع الزراعية. . . وغير ذلك من الدروس اللازمة لمهندس الزراعة.

في اليوم الثاني من وصولي إلى مونت بيليه انتقلت إلى غرفة استأجرها لي صديقي الحسيبي بأربعين فرنكاً مع الطعام لمدة خمسة عشر يوماً عند سيدة تدعى مدام أليس دوموندا، تسكن في شارع «دوله ربيريهRue de l'Herberié»، وهي أرملة موظف توفي قريباً، جاءت معه بحسب وظيفته من بلدتها نيس. وكانت تنتقل معه من مكان إلى مكان حسب اقتضاء الوظيفة ولا أدري وظيفته، ولكن الذي يظهر من أثاث الدار أنه كان في وظيفة لائقة.

البانسيون

البانسيون هو عبارة عن غرفة مفروشة للإيجار يستأجرها الطالب بمبلغ يتفق عليه مع صاحبة المنزل. والبانسيونات قسمان: عادي، و«بانسيون دو فاميل» عائلي. والعادي هو استئجار الغرفة بفرشها دون طعام. أما العائلي فهو استئجار الغرفة مع الطعام والغسيل وجميع ما يحتاج الإنسان. فيكون في غرفة كأنه في داره. وهذه البانسيونات كثيرة في فرنسا. وأكثر أصحابها من النساء الأرامل اللائي يفقدن أزواجهن. وهذه البانسيونات منها ما فيه الراحة، ومنها ما فيه العذاب. وهذا حسب طبائع صاحبة الدار. وسأذكر بعض الحوادث عن أخلاق أصحاب البانسيونات التي سكنتها في ليون وباريس.

أما المدام أليس هذه فكانت عجوزاً طيبة حسنة الأخلاق عاملتني معاملة الأم لولدها. أولادها الأربعة موظفون كل منهم في ناحية. وليس معها في الدار غير ابنها الكبير. وهو رجل في نواحي الأربعين من عمره، طيب العنصر حسن التربية، قضيت معهما أحسن وقت مدة إقامتي عندهما.

قهوة دوليسبلاناد

قهوة لطيفة نظيفة في شارع (ماركادييه)، كنا نجتمع فيها أوقات الفراغ مع

الطلاب العرب والعثمانيين. وقد تعرفت إلى شاب تركي يدعى جواد بك، من ألطف شبان الترك كان يحصّل الزراعة مع الحسيبي، وشاب دمشقي يدعى ميشيل النحاس، كان يحصل الهندسة الصناعية، وشاب مصري ينادونه «السي مكيد» يعني السيد عبد المجيد خفيف الروح جداً كان يخفف عنا آلام الغربة.

وهذه البلدة هادئة ساكنة بعكس باريس. وليتني تمكنت من إتمام دروسي فيها. ولكن ما الفائدة وليس كل ما يتمنى المرء يدركه.

المدرسة الزراعية

في اليوم الثالث من وصولي ذهبت مع السيد الحسيبي إلى المدرسة وقابلت المدير وطلبت قيدي بين الطلاب. ولما كلمني ووجدني مقصراً باللغة قال: لا يمكنه قبولي إذا لم أحسن التكلم والقراءة بالإفرنسية، وعليه طلب مني أن أداوم على مدرسة ابتدائية في تلك البلاد. ولما عرفت أنه لا يمكنني الدوام في هذه المدرسة، جعلت أبحث عن مدرسة متوسطة يقبلونني فيها إلى أن أحسن القراءة والتكلم بالإفرنسية، فأرشدني إلى مدرسة زراعية في ليون تدعى (إيكول فيرم)، فعزمت على السفر إلى ليون.

وقبل انتهاء الخمسة عشر يوماً التي استأجرت فيها الدار أعلمت المدام أليس بالأمر، وأفهتهما عذري واضطراري للسفر، فقبلت العذر وأرجعت لي الفرق عن الأيام السبعة الباقية، لأني قضيت في مونت بيليه أسبوعاً في المراجعة، ولما انقطع أملي غادرتها إلى ليون لدخول مدرستها. وركبت القطار باكراً، وخرج لوداعي السيد الحسيبي. والمدام أليس وابنها «السيد مكيد». ورأيت من هذه السيدة في هذا الأسبوع عطف الوالدة ووداع الأم للولد، فكنا نبكي كلنا عند الوداع. ولا أزال أذكر ما أصابني من التأثر البليغ من هذا الوداع، والإنسان أخو الإنسان أينما كان، وليت أطماع السياسيين تزول من الرؤوس ليعيش البشر إخواناً على وجه هذه البسيطة. ولكن ما العمل وأطماع الطماعين تزعج الخلق على مرّ السنين.

القطارات في فرنسا

القُطُرُ في فرنسا منظمة بالنسبة إلى القطار الذي نعرفه في سورية، وهي: «رابيد، سريع»، لا يقف إلا على المحطات الكبرى. وإكسبريس هو أقل سرعة من السريع ولا يقف إلا على المحطات الكبرى والمتوسطة. والقطار العادي يقف على جميع المحطات. والأجرة تختلف باختلاف القطر. ويجتمع الإنسان في القطار بأشخاص مختلفين من جميع الأمم. وعلى المسافر أن يحترم جميع الركاب مهما كانت طبقتهم وسنهم. وعند الصعود والهبوط من القطار وإليه، يجب التأني بالمسير، وعدم دفع الناس للوصول إلى المقعد بسرعة.

والأحسن للمسافر في القطار أن يصل قبل ربع ساعة من قيام القطار إلى المحطة ليتمم نواقصه ويجد مقعده بسهولة وراحة فلا يعكر على غيره بالدفع و«الدفش». ومن عادات الأوربيين في القطار إحناء الرأس بالسلام عند الدخول والخروج من عربات القطر خصوصاً إذا كان في العربة سيدات.

ومن أقبح العادات قلع الحذاء أثناء السفر. وإذا كانت رائحة أرجل المسافر كريهة فإنه يؤذي الركاب ويسلب راحتهم وهذا لا يجوز مطلقاً أن يكون.

ومن المعيب أخذ الكلاب في القطر وإركابها في عربات الركاب. وبإمكان المسافر أن يشحن كلبه بقفص في «الباكاج» عربة الشحن، فيضع له طعامه والماء، ويستلمه في محطة البلدة الذاهب إليها. وكثير من الحكومات الأوربية تمنع ركوب الكلاب مع المسافرين في القطار.

والتدخين ممنوع في القطر، ولكن بعضهم يدخن رغم المنع إذا كانت نوافذ العربة مفتوحة، خصوصاً في الشتاء. فإن الدخان يؤذي الركاب، وعلى الأكثر السيدات منهم. ولذا على المسافر مراعاة هذه العادة والاستئذان من المسافرين بالتدخين قبل البدء فيه. وإذا سأله أحدهم عدم التدخين يجب أن يمتنع لأن بعض الأمراض يضرها دخان السكاير، خصوصاً مرض الربو «آسم». وفي بعض القطارات يمنع التدخين. ومن أراد التدخين فليخرج إلى الممشى.

وذكروا أن سيدة في قطار طلبت من أحد الركاب عدم إزعاجها بالتدخين، وكان بيده غليوناً يدخن فيه، فلم يلتفت الى احتجاجها، وأعادت الطلب بشدة فلم يأبه لها. فأخذت الغليون من يده وألقته من نافذة القطار وهو في سيره. فلم يغضب الرجل لكنه مدَّ يده وأخذ كلب السيدة الصغير وألقاه من النافذة. فقامت قيامة صاحبته. وجاء شرطي القطار، واجتمع الركاب من كل صوب. وكانت المحطة قريبة. وما كاد القطار يقف وينزل الشرطي والمتخاصمين إلى رصيف المحطة لإجراء التحقيق حتى رأوا الكلب الصغير يركض نحو المحطة وفي فمه الغليون. فأخذت السيدة كلبها والرجل أخذ غليونه، و«قاموا الدق مانعاً، واحدة بواحدة».

ليون

في الساعة الثانية بعد نصف الليل وصل القطار إلى ليون وكان البرد قارساً جداً، والرياح الباردة تسلخ الوجوه. ليس معي ترجمان ولا أعرف اللغة، ولم أصادف أحداً أعرفه. وتقدم مني رجل لا يحمل أي (شارة) علامة على عضده أو في صدره كالحمالين أو الأدلاء الرسميين، وسألني عما أريد، قلت: أريد فندقاً رخيص الأجرة «بون مارشيه». قال: تفضل. وكنتُ وضعت الحقيبة وصندوق أدوات الطعام عند حارس الثياب «كار ديروب»، فسلمته الحقيبة والصندوق ودفعت الأجرة ثلاث «سوات-السو واحد من عشرين من الفرنك» عن كل واحدة ليحفظهما لي إلى الغد. وأخذت وصلاً مهره بختم الغرفة. وسرت مع الدليل إلى خارج المحطة فوجدت عربات الأجرة منتظرة الركاب، وأكثرها بحصان واحد.

وسرنا على الأقدام وأنا أحمل بيدي علبة القبعات. وكنت اشتريت من الإسكندرية ثلاث قبعات، إحداها «ميلون-نصف رسمية» وهي تشبه بطيخ الشمام، والثانية قبعة عادية، والثالثة للسفر «كسكيت». ووصلنا إلى أوتيل جانب المحطة، والمسافة بينهما لا تزيد عن المئة وخمسين متراً. وأخرجت فرنكاً لأعطيه إياه فلم يقبل، وطلب عشرة فرنكات. مع أن أجرة الغرفة في الفندق فرنكان. قلت:

لماذا العشرة؟ قال : أجرتي . وجعل يعلّي صوته . ولم أقدر أن أتفاهم معه . وكلما أشار له البواب بالسكوت زاد بالصراخ حتى أقلق سكان الفندق .

ولما رأى البواب أن الرجل «فاجر» دفعني وإياه إلى خارج الفندق وألقى بعلبة القبعات إلى الخارج وأغلق الباب . وبقيت على الرصيف والهواء العاصف يسفع الوجوه . وعندما وقعت علبة القبعات على الأرض فتحت وخرجت منها القبعات ودارت القبعة «الميلون» على حرفها ، والشارع منحدر ، وكانت شدة الهواء تدفع القبعة ، فلم أتمكن من اللحاق بها إلا بعد جهد جهيد . والرجل يركض خلفي . أخذت القبعة بعدما امتلأت بالوحول .

والتفتُّ إلى الرجل وقلت : وأخيراً ماذا تريد؟ قال : أجرتي . قلت : إما أن تأخذ فرنكاً وإما تفضَّل إلى مخفر الشرطة . وإذا أبيت فليس لك من دواء إلا هذي العصا . فاضطرب الرجل عند سماعه كلمة الشرطة ، وقبل بالفرنك . أخذه ومضى يشتمني بكلمات لم أفهمها . وكانت شتائمه لي بصوت عالٍ . فتركته يهذي ومشيت نحو مقهى قريب وأنا أضحك .

وجلست في المقهى أستريح ، وطلع الصبح ، وسألت صاحب المقهى عن محلات أبناء العرب في ليون فقال : اذهب إلى الجامعة . وبقيت في المقهي إلى الساعة الثامنة والنصف .

ثم ذهبت إلى الجامعة . وجلست أنتظر خروج الطلاب إلى الساعة الحادية عشرة . وإذ بشبان خارجين بينهم شاب أسمر طويل . فتقدمت منه وقلت : السلام عليكم ، فردَّ السلام ، وتقدم مني وصافحني بشوق ومرارة . والتفَّ حولنا بضعة طلاب جميعهم مصريون . وتعارفنا «على الواقف» وقالوا : هيا إلى المقهى . وكان بالقرب من الجامعة مقهى يدعى مقهى السلام .

وماكدت أخبرهم خبري حتى تكاثر الطلاب المصريون وأصبحوا مقدار عشرة شبان . وكلما جاء واحد يعرفني به الشاب الأول واسمه سي فؤاد . وعرفني بشاب يدعى محمود فخري ، وهو ابن أحد أغنياء القاهرة ، جاء لدرس الحقوق في ليون ، دعاني لتناول الغداء ، وتلطَّف بأن يكون دليلي .

وكثرت أسئلة هؤلاء الشبان عن حالة البلاد العثمانية والحرية والدستور. وكلهم متعطش لسماع أخبار العثمانيين. وجميعهم من أنصارهم، يكرهون الإنكليز. وكانت الروح الوطنية تتوثب في صدور هؤلاء الشبان المصريين الذين يستفسرون عن الانقلاب العثماني بكل تلهف ويسمعون كلامي بكل شوق وارتياح. وبعد أن قضينا ساعة في الحديث تفرق الطلاب. ووعدني فخري بأنه سيجد لي في الغد «بنسيوناً» عند أسرة كريمة ليوفر عليّ شيئاً من أجرة الفنادق.

ثم أخذني إلى فندق قريب بتُّ فيه ليلتي. وفي ظهر اليوم الثاني جاءني حسب الوعد، وأخذني إلى دار سيدة تدعى مدام ماري شوبان، تسكن في شارع «بوبوكو» وهي آية في الشناعة. وابنتها صورة طبق الأصل عن والدتها. استأجرت الغرفة بثمانين فرنكاً مع الطعام والغسيل في الشهر، مشترطاً تركها بعد خمسة عشر يوماً إذا لم أجد فيها الراحة، ودفعت مقدماً عشرين فرنكاً على الحساب. وفي اليوم التالي ذهبت إلى مدرسة فيرم إيكول.

وهذه المدرسة من المدارس المتوسطة تُعلم الطالب الزراعة العملية مع قسم بسيط من العلوم النظرية، ومعناها مدرسة المزرعة: ذهبت إليها مع المدام بلانش كومبو وصديقي فخري محمود. وكان المدير بانتظارنا بناء على وعد مع المدام بالتلفون. وبعد التعارف طلبت دخولي في المدرسة، وقدمت له شهادة المدرسة الإعدادية. فقال: أرجو أن تترجمها وتصدقها من قنصلكم في ليون. ودعانا لزيارة المدرسة. فصحبناه ودار بنا على جميع الصفوف، وعلى الإصطبل ومحل الدواجن وحديقة المدرسة، وأرانا الآلات الزراعية الميكانيكية الحديثة. واحتفل بنا جداً ووعدني بقبولي بعد ترجمة الشهادة.

وفي هذا اليوم بعد رجوعنا إلى ليون زرت القنصل وقدمت له الشهادة طالباً ترجمتها والتصديق على الترجمة. وكان القنصل العثماني قنصلاً فخرياً من تجار ليون الإفرنسيين. ولما لم يكن لديه ترجمان يُحسن الترجمة. وطلب مني ترجمتها ليصدِّق عليها. وذهبت أبحث عمَّن يحسن الترجمة وكنت كتبت كتاباً الى أحمد قدري أحد طلاب الطب في باريز من أبناء دمشق أعلمه بقضيتي، وطلبت منه

ترجمة الشهادة وتصديقها من السفارة. فأخذت الجواب بعد يومين يطلبني فيه إلى باريز ليدخلني في مدرسة كرينيون، لأن فيها مدرسة كمدرسة ليون، وأكون بقرب الطلاب السوريين. فعزمت على السفر إلى باريز وبدأت أقطع علائقي من ليون. وقبل الرحيل منها لا بد من ذكر شيء عما رأيته فيها.

مدينة ليون

ثالث مدينة في فرنسا، وهي مركز إقليم الرون. يمرُّ فيها نهران: الرون والسين. نفوسها تقرب من نصف مليون «آنذاك». فيها جامعة كبيرة تُدرَّس فيها الفروع الآتية: الحقوق والطب والصيدلة والعُلوم والأدب والبيطرة. وفيها مدرسة عسكرية للطب، وفيها معاهد علميّة كثيرة، منها معهد للرياضة، والتجارة العليا، والكيمياء الصناعية، والحياكة، ومدرسة إعدادية للاستعمار تسمى:

"École De Préparation Coloniale"

أُسست سنة ١٨٩٩، وفيها معهد للفنون الجميلة، ومعهد هندسة. وفيها معهد موسيقا «كونسرفاتوار» أُسس سنة ١٨٧٢ أسسه المسيو «مونكن Mongin» رئيس الأوركسترا في الأوبرا. وهذا المعهد مربوط «بكونسرفاتوار باريز» ولهذا المعهد بناية لا بأس بها فيها ١٢ قاعة للدرس، منها قاعتان كبيرتان للاجتماعات، تتسع إحداهما لأكثر من ثلاثمئة شخص.

وفي ليون ١٢ مدرسة تجهيزية، ثلاث للذكور وأربع للإناث وأربع مختلطة. كما أن فيها مدرسة صناعية للميكانيك. أكثر هذه المدارس رأيتها من الخارج، وبعضها زرتها مع محمود فخري. ولا يمكنني أن أبحث عنها بالتفصيل لأني لم أدرس أحوالها بدقة. والذي يمكنني أن أقوله إن رؤية هذه المدارس والمعاهد وانكباب الطلاب على تحصيل العُلوم فيها جعل في نفسي حافزاً يدفعني لإتمام التحصيل لأخدم أمتي المسكينة.

وكم كان الخيال يتجسَّم في رأسي فأرى نفسي ساعياً لفتح المدارس والمعاهد في بلادي مُجداً في دفع الطلاب للتحصيل للنهوض ببلادي والسير بها في موكب الحضارة. وإني أحمد الله بأنني لم أمت حتى رأيت بأم عيني أمثال تلك المعاهد والمدارس في دمشق تقوم بدلاً من «الخجوات والكتاتيب».

مدام شوبان

صاحبة «البانسيون» بقيت معها خمسة عشر يوماً. ولا بدَّ لي من ذكر كلمة عنها. إفرنسية كالإفرنسيات العريقات «بالنروزة». ورغم اللطف الذي تتظاهر به فأقل كلمة كافية لأن «تطلع خلقها». قلت: إني كنت اشترطت أن أكون حراً بعد الأسبوعين إذا لم أجد في دارها راحتي. ولمّا أخبرتها أني مسافر إلى باريس قامت قيامتها. والمصيبة عجزتُ عن تفهيمها مرادي لعدم معرفتي اللغة الإفرنسية، وراحت تعاتبني وتمنُّ عليَّ بما قامت نحوي من الخدمات خارجاً عن الشرط، وهو أنني سألتها في يوم عن محل لرفو الثياب، وأريتُها طرف سترتي وقد أصابها العث وأكل منها بمقدار ظُفْر الإنسان. فقالت: لا لزوم للرفّاء، أنا أرفوها لك، وبالفعل أصلحت السترة «الله يستر عليها»، وشكرتها على ذلك.

وعندما عرفت أني سأغادر الدار قالت: ألم ترتح عندي؟ ألم يكن الطعام جيداً ونظيفاً؟ ألم . . ألم . . ؟ ألم أرفو لك السترة دون مقابل وأضع الخيط من عندي؟ قلت: بلى، وقد شكرتُك آنذاك. قالت: إذاً لماذا أنت ذاهب؟ وجعلت ابنتها «تتزورَّ» أكثر من أمها، حتى إنها من شدة تأثرها بكت وكادت تبكيني. ولم أقنعهما بأني مسافر إلى باريس حتى أتيت بفخري يشهد بذلك. وبعد أن أقسم بشرفه صدقتاه، وغادرتُ الدار على ستر وسلامة.

وكان في غرفتي مصباحان أشعلتهما في الليلة الأولى، وإذ بالسيدة تنبهني إلى لزوم الاقتصاد بالنور وذلك بإطفاء المصباح الواحد إذا لم يكن عندي ضيوف لأن المصباح الواحد يكفيني للمطالعة وإشعال المصباحين يُعدُّ تبذيراً وإسرافاً. فأجبتها إلى طلبها وسرت حسب إشارتها إلى أن غادرتُ الدار.

وكانت المدام شوبان تشعل في المطبخ مصباحاً غازياً. وفي أحد الأيام رأيتها تفتل أوراقاً من الجرائد وتجعلها رفيعه على شكل السهام. هذه الأوراق تضعها في المطبخ بأداة كالكنانة معلّقة جانب المصباح. فإذا ما أعتم الوقت أخذت ورقة وشعلتها من «الطباخ البريموس» وأنارت فيها المصباح. فقلت لها: لماذا تعذبين نفسك بهذا العمل والكبريت رخيص؟ فضحكت وقالت: يا ولدي أنا فارغة الآن، والجرائد لم يعد لي حاجة بها. فإذا استفدت من هذه الأوراق بعض الفرنكات في السنة فبإمكاني أن أشتري بكل فرنك صحناً أو كأساً من البلور أفيد منها في الدار أوفرها من ثمن الكبريت. وما دام الطباخ مشعلاً فلماذا الإسراف في الكبريت، وكبريتة فوق كبريتة يجتمع منها علبة بل علب، فسكتُّ وقلت: ويل للمسرفين. وفكرت بهذا الحادث عندما احتل الإفرنسيون سورية وقلت: أي وقعة سوداء مع أمة نساؤها توفر الكبريتة لتربح منها فرنكاً في السنة.

وتصادف وجودي في ليون في منتصف الصوم عند الكاثوليك، فحضرت المرافع في ليون ويسمونها (كافا لكاد دو ميكاريم). يفطرون بها ويستبيحون الخلاعة، ويكثرون من عمل المساخر. وقد ضربوا الخيام وأقاموا أسواقاً في الباحات والطرق التي حول بنايات الجامعة ونقلت البضائع على أنواعها لهذه الخيام. كما أنهم أقاموا سرادقات كثيرة من سرادق «السيركات» عرضوا فيها كثيراً من الألعاب «البهلوانية» والتمثيلية والمضحكة والكركوز الأفرنجي المسمى marion-nette. وهي دمى من اللعب الصغيرة على أشكال مختلفة، لها في رأسها خيوط من مطاط يمسك بها رجل جالس في أعلى مسرح صغير يساعده مساعد أو اثنان حسب الألعاب التي يقوم بها، فيمثل رواية. وجميعها مضحك، ويُسيِّر الدمى بالخيطان. وفي صدر المسرح الصغير ستارة سوداء، والأضواء مطفأة، والمسرح مضاء بمصابيح خفيفة بحيث لا يرى المتفرّج الخيوط حينما يُحرِّكها اللاعب، فيظنُّ أن الدمى تسير من نفسها. وهذه اللعبة يحبُّها الأولاد. والروايات التي تمثَّل ليس فيها كلمة بذيئة بخلاف ألعاب الكركوز عندنا.

ورأيت في المرفع خيمة كبيرة عرفت أنها مخصوصة لفتل الدراويش، فيها دفوف مرفوعة عن الأرض مقدار نصف متر جعلوا حولها دائرة من الحبال تفصل المتفرجين عن اللاعبين ووضعوا على باب الخيمة إعلانات كبيرة فيها رسوم الدراويش «بكلاهاتهم»[1] الطويلة، وأجرة الدخول «ثلاثة سوات»، والسو واحد من عشرين من الفرنك.

دخلت لأرى هذه «الفرجة». وكان الفصل يتجدد كل ساعتين. ورأيت في الداخل جماعة أخلاط يقلدون الدراويش بالفتلة والطقوس التي تقام في التكايا في المواسم الدينية، وجوقة موسيقية مركبة من ثلاثة نايات وكمان وقانون ونقرزان.

والدراويش أخلاط من ترك وعرب من إسلام ومسيحيين، جماعة مرتزقة جعلوا هذا العمل -ويسميه الدراويش مقابلة- باباً للرزق. وقد تأثرت جداً من هذا المنظر، لأن القائمين به كانوا يتخذونه هزءاً لإضحاك الناس عليهم. والدولة العثمانية لا تحتج على هذا العمل، وكيف تحتج وقنصلها في ليون إفرنسي مسيحي، فتأمَّل!!

ومن أهم الألعاب أسود ستة من أكبر الأسود يلاعبها مروِّض شاب فتركض بين يديه كما تركض الكلاب بين يدي الصيَّاد، وفي يده سوط طويل مثل سوط الحوذي «العربجي» يضرب الأسد فيه ضرباً موجعاً، فيذل ويطيع المروِّض، ويجري الحركات المطلوبة منه بصعوده على مقاعد خشبية خاصة لوقوفه على الأرجل ووضع الأيدي على حديد الأقفاص.

والخلاصة فإنها فرجة مخيفة يقف المتفرّج ماسكاً قلبه بيده خوفاً على المروض الواقف بين ستة أُسُودٍ في قفصٍ صغير.

والغريبون لا يتركون ناحية يمكنهم الاستفادة منها، ولهم روح مطاطة بتدريب وتعليم الحيوانات، الكبير منها والصغير. ومن أغرب ما رأيته في المرفع

---

(١) الكلاه: لفظ فارسي معناه القبعة، او القلنسوة.

رجلٌ يرقّص البراغيث. ولو لم أر بعيني رقصها لما صدَّقت الخبر. رجل أمامه صندوق صغير فيه لوحة من البلّور، في آخرها أبواب صغيرة تحت أقواس، تفتح فيخرج منها عدة براغيث داخلها نتف من الشعر والصوف. يقف المتفرج أمام الصندوق بعد دفع الأجرة وهي فرنك عن المتفرج. وكلما صار عدد المتفرجين أكثر من عشرة يفتح الرجل الأبواب ويضرب بإصبعه أمام الأبواب عدة ضربات ويبدأ بالتزمير بزمّيرة فم. فيخرج بضعة براغيث الى الباحة وتبدأ بالوثب والنط ما دام الرجل يزمر. ومتى قطع التزمير وقفت البراغيث تستريح «انتراكت». ثم يعود الى التزمير ويضرب بإصبعه على الزجاج فتعود البراغيث للرقص والنط. وأخيراً يقطعُ التزمير فتقف البراغيث ويفتح ويدق بأصبعه على الزجاج فتثب وتهرع الى مقرها وتغلق الأبواب ولا تفتح إلا بعد ساعة على الأقل إذا اجتمع العدد الكافي من المتفرجين. وتخرج البراغيث كالسابق. وهكذا دواليك. وهذا مما يحار به الفكر.

وفي إحدى ليالي المرفع كنت أسير أنا وفخري، ونظراً للازدحام تأخر عني بالسير، وبما أنه قصير النظر، كان يضعُ على عينيه نظارات «منمرّة». وكانت «موضة النظارات» أن تكون بلا حمّالات ترتكز على الآذان. بل كان لها سلسلة تعلق بقبة الرداء.

وبينما أنا أسير سمعت صوت فخري يناديني، فعدت لأرى وإذا برجل بدين يضرب فخري على رأسه ويقول: فوتر شابو فوتر شابو»، يعني: قبعتك قبعتك. وفخري مخبول بين يدي الافرنسي، ونظاراته في الأرض. فعدت بسرعة ودخلت بينهما مستفسراً عن سبب الشجار، ففهمت أن فخري صدم الإفرنجي دون انتباه، وطلب «البردون» بالفم فقط دون أن يرفع القبعة. وكانت الصدمة شديدة. فما كان من الإفرنسي إلا أن جعل يضرب فخري على قبعته ويقول: قبعتك، حتى غطّى بها عينيه، ورمى نظاراته في الأرض. ففرقت بينهما. ولكن الإفرنجي زادها «بالبهورة» فصفعته صفعة رنَّت لها جوانب المكان ورفعت العصا الجلد، وهددته بأنه إذا أتى بأقل حركة فسوف يرى ما لا يسرُّه. فكسر الشر ومضى بحاله وأتممنا الليلة على خير.



الشريف جميل ابن عم جلالة الملك المعظم

باريس

شالون سورسون

صحوتُ في الساعة الخامسة من يوم الأربعاء الواقع في ٢٩ آذار ١٩١١، وكنت قطعت جميع علائقي، وحضّرت حوائجي. وجاء محمود فخري مع المدام بلانش كومو وفؤاد المصري. وخرجنا جميعاً إلى محطة «بروتو».

وصحبتنا المدام شوبان مع ابنتها، وودعتهما وبكتا وبكيت، ووصلت الى «شالون سورسون» في الساعة العاشرة فوجدت السادة الأمير مصطفى الشهابي[١]، وعز الدين علم الدين[٢]، وعبد الغنيّ الشهبندر[٣]، وهم شبان البعثة السورية الأولى التي أُرسلت إلى فرنسا سنة ١٩١٠، بانتظاري في المحطة، لأني كنت أعلمتهم قبلاً عن يوم سفري، فجاؤوا المحطة وعلى رؤوسهم الطرابيش. ولما رأيتهم قلعتُ «الكسكيت» قبعة السفر ووضعت الطربوش، ودخلنا شالون على هذه الصورة فكنا مطمح الأنظار، وذهبنا إلى الدار التي يقطنها الرفاق واسترحنا قليلاً ثم خرجنا للتفرج على البلدة.

---

(١) مصطفى بن محمد سعيد، أديب لغوي ولد سنة ١٨٩٣، وترأس المجمع العلمي العربي، وتولى وزارة المعارف بدمشق، وله مؤلفات شتى. توفي بدمشق سنة ١٩٦٨م.

(٢) أديب دمشقي من أعضاء المجمع، ولد سنة ١٨٨٩، ودرس الزراعة، وتسلّم عدة مناصب، توفي بدمشق، سنة ١٩٦٦م. ويعرف بعزّ الدين التنوخي.

(٣) عبد الغني بن أحمد الشهبندر، من مشاهير أطباء بيروت وأدبائها، ولا نعلم عنه المزيد. منتخبات التواريخ. ص٩٠١.

وأول ما أروني إياه مدرستهم، ثم متحفاً صغيراً فيه بعض حوائج الأمير عبد القادر الجزائري. منها سرج حصانه مع رُكبه وغير ذلك من أشيائه الخاصة التي حصل عليها الإفرنسيون في الحروب التي حصلت بينهما.

وشالون سورسون مدينة صغيرة تقع على بُعد ٢٨٠ كيلومتراً تقريباً من باريس. مدرستها الزراعية في الضواحي تقع على بُعد ١١ كيلومتراً من المدينة، ومدرستها تدعى: المدرسة التطبيقية للزراعة والكروم:

"École Pratique d'agriculture et de Vidicultur"

وأراضي البلدة تخرج أحسن الخمور. سكانها ٢٥ ألفاً، فيها معامل حديد وفخار، وزجاجات الخمر والبرانيط والكفوف «قفافيز»، والزيت... الخ. ولما حان وقت القطار أوصلني الرفاق إلى المحطة، وودّعتهم، ومشى القطار إلى ديجون، ومنها إلى باريس. ووصلتها بعد منتصف الليل.

وصولنا إلى باريس

وكان في انتظاري الدكتور أحمد قدري[١]، الذي كتبت إليه أعلمه عن الساعة التي أصل فيها. ولم نكن نعرف بعضنا إلا بالاسم. وهو قريب خطيبتي لأمها، ولأجل أن يعرفني من بين الركاب. أخبرته أني سأضع في صدر ردائي وردة حمراء تفرقني عن الناس. وبالفعل لم يكد ينظر الوردة الحمراء حتى عرفني فأخذني إلى أوتيل كوجاس في «كارتيه لاتان-الحي اللاتيني»، وهو مركز الطلبة.

وفي اليوم الثاني تعرفت إلى عوني عبد الهادي[٢] ورفيق التميمي[٣]، وهما

---

(١) طبيب دمشقي شارك في كل الثورات، ووضع العديد من كتب الطب والسياسة، توفي بدمشق سنة ١٩٥٨ عن ٦٥ سنة.

(٢) عوني عبد الهادي، بدأ عمله محامياً في القدس، وتولى وزارة الخارجية في الأردن، توفي في القاهرة سنة ١٩٧٠ عن ٨٢ سنة.

(٣) رفيق بن راغب، مؤرخ مجاهد، ولد في نابلس، وتخرج من السوربون، وعمل في الترجمة والتأليف. توفي بدمشق سنة ١٩٥٦ عن ٦٨ سنة.

من شبان فلسطين اللامعين. وقضيت بضعة أيام أسعى فيها مع قدري للدخول إلى مدرسة كرينيون الزراعية. وبينما نحن جادّون في أمر الدخول إلى المدرسة وترجمة الشهادة، وإذ بكتاب من نسيب بك البكري[1] جواباً على كتاب مني كنت شوّقته فيه للمجيء إلى فرنسا ولو فراراً إذا لم يوافق والده. ووقع الكتاب بيد عطا باشا البكري الذي طار عقله على ولده ووضعه تحت المراقبة الشديدة حتى كاد أن يزهق أنفاسه.

وقد أعلمني بكتابه أن والدي أقسم يميناً مغلظة بعد عودته إلى دمشق أنه لن يرسل إليّ غرشاً واحداً، ولو بلغه أني في حالة التلف. وأوصاني بأن أغيِّر فكري وأستعيض عن التحصيل بسياحة صغيرة أطلّع فيها على بلاد الغرب، وأدرس أحوالها وأعود لأجل أن يزوجوني ويفرحوا بي على رأيهم.

وبما أني أعرف والدي وعناده، وليس لي من يرسل ما يكفيني مؤونة التحصيل، ولما لم أكن أعرف لغة القوم، ولا يمكنني العمل لتحصيل مصروفي، عزمت على العودة إلى دمشق. وقررتُ أنْ أُبدل بالتحصيل السياحة.

وكان من الشبان الذين تعرّفت إليهم ثلاثة أطباء أتموا تحصيلهم في باريس، ومرادهم الرجوع، فاتفقت معهم على أن نصطحب في السفر ونعود إلى الآستانة بالسكة الحديدية الشرقية، ومنها إلى بيروت بالبحر. وهكذا كان. والأطباء هم المرحوم الطبيب الأمير شريف الشهابي، والطبيب الأمير عز الدين الشهابي، والطبيب أحمد راتب، وسأذكر سفرنا بالتفصيل.

وفي اليوم الرابع من وصولي انتقلت إلى بانسيون «دو فاميل» عند سيدة بولونية أرملة تدعى «المدام كدو كوفيشكا». لها ولد صغير في السادسة من عمره. تعيش هي وابنها من واردها من هذا البانسيون الواقع في ٣ رو دو ليستر أباد. وعدد السكان ١٨ طالباً وطالبة، أكثرهم من البولونيين، منهم الدكتور قدري، والداعي لله.

---

(١) من كبار المجاهدين في دمشق، ولد سنة ١٨٨٨، وشارك في الثورة العربية الكبرى والثورة السورية، واستضاف الأمير فيصل بن الحسين في قصره بدمشق سنة ١٩١٦. توفي بدمشق سنة ١٩٦٦م.

وكانت صاحبة البانسيون اتفقت مع سيدة إفرنسية تسمى المدام كوبير أن تتناول الغداء مع الطلاب لتصحح لهم الكلام أثناء الصعام، وتعطي الدروس الإفرنسية لمن شاء منهم مقابل فرنكين في الساعة. وقد اتفقت معها على أخذ درس ساعة في كل يوم. وبالفعل بقيت تدرسني مدة إقامتي في باريس. وقد أفدتُ منها كثيراً في هذه المدة القليلة التي قضيتها معها. إذ بالطريقة التي كانت تتبعها في التعليم وهي طريقة «برليتس» أصبحت أفهمُ ما يقال، وأُفهِم المرام من الأشياء الضرورية اللازمة.

شبان العرب في باريس

مع الأسف لم يكن في باريس من أبناء العرب من الطلاب إلا عدد قليل بالنسبة إلى غيرهم من الأمم. والذين تعرفت بهم غير من ذكرت سابقاً هم السادة: محمد المحمصاني، عبد الغني العريسي من بيروت، محمد رستم حيدر من بعلبك. وتوفيق الناطور، وتوفيق فايد. هؤلاء الذين كنت أجتمع إليهم طوال المدة التي بقيتها في باريس، واجتماعنا على الأكثر كان في غرفة عوني عبد الهادي، الذي قضى مدة طويلة في تحصيل الحقوق، وتعليمه على حساب والده. وهؤلاء الشبان كان بعضهم مرسلاً على حساب الدولة كما سيأتي.

البعثات العلمية

قبل الانقلاب العثماني كانت البعثات العلمية إلى أوربا في حكم العدم، إلا بعض الضباط الذين كانوا يرسلون إلى المانيا. وكان بعض أحرار الترك يفرّون إلى أوربا من الاستبداد الحميدي. ولكن الحكومة الاتحادية في سنة ١٩١٠ أجرت فحصاً لخرّيجي التجهيز في الآستانة، والذين نجحوا فيه أرسلوهم الى فرنسا. ولما كانت اللغة الفرنسية هي المنتشرة أكثر من غيرها، أُرسل جميع أفراد البعثة إلى فرنسا. والأكثرية الساحقة كانت من الأتراك. والذين دخلوا الفحص ونجحوا من أبناء العرب هم: محمد رستم حيدر ورفيق التميمي اللذين دخلا مدرسة سان

لويس الثانوية وحصلا على شهادتها، وأتمّا تحصيلهما العالي في جامعة السوربون.

وقد أرسلت الجمعيات الوطنية في بيروت السادة محمد المحمصاني وتوفيق الناطور وعبد الغني العريسي وتوفيق فايد. وهؤلاء من الذين وضعوا أساس «جمعية العربية الفتاة» التي سيأتي ذكرها فيما بعد.

متاحف باريس

المتحف «musée» توضعُ فيه الآثار القديمة والعاديات التي تعثر عليها الحكومة من الحفريّات. وفي باريس عدة متاحف، أهمها: متحف اللوفر، ومتحف فرسايل. وكلاهما من قصور ملوك فرنسا. والمتحف العسكري «الأنفاليد» وفيه قبر الإمبراطور نابليون وقبعته وبعض الحوائجُ التي يستعملها. وفي هذا المتحف أنواع اللباس العسكري من مُختلف العصور. وفيه كثير من الرايات التي أخذتها الجيوش الإفرنسية في الحروب المتعدّدة في جميع العصور، ونماذج من لباس الفرسان والمشاة مع جميع أنواع الأسلحة التي استعملها الجيش الإفرنسي في مختلف الأزمان.

ما يجلب النظر في باريس

باريس جنة الله في الأرض. فيها من كل فاكهة زوجان. لا يطلب الإنسان فيها شيئاً إلا ويجده. هي دار العلم والعرفان، كما أنها دار الدعارة والطغيان. وهي كعبة السياح ومنزل الطلاب. مرتع الجهال ومقصد المحتال. مثل البحر، الداخل إليها مفقود، والخارج منها مولود. ورغم ملايين الليرات التي تدخلها بواسطة السياح فإن أكثرية أهلها فقراء. تجمع المتناقضات وتطيب لكل إنسان فيها الحياة. وأهم ما يستلفت النظر فيها من البنايات العظيمة (تور إيفل) البرج الحديدي، أحد عجائب الدنيا.

وأهم ما يلفت النظر أيضاً كثرة الطلاب الأجانب، منهم التشيكيون وعددهم يزيد عن الخمسين ألف طالب وطالبة. ويأتي من بعدهم البولونيون وعددهم يزيد عن الأربعين ألفاً. وبعدهم يأتي اليابانيون ويتراوح عدد طلابهم بين العشرين

والخمسة والعشرين ألفاً. والغريب في أمرهم أني لم أر طالباً يابانياً واحداً في غير أيام الآحاد (يعطعط) في المحلات العامة.

وكان من المصريين مقدار مائة وخمسين طالباً. «والمصريون فيهم البركة بالعطعطة» ولم أر طالبة عربية واحدة بين ألوف الطالبات الأجنبيات. أما الطلاب العثمانيون فكان عددهم ثلاثون طالباً، ليس بينهم طالبة. وهذه البعثة العثمانية الأولى (طالبان) منها عربيان، وثلاثة أرمن، ورومي واحد، وخمسة وعشرون طالباً من الأتراك.

وكان من أبناء العرب غير هؤلاء بعض الطلاب من بعثة الجمعية الخيرية البيروتية. والبعض على حساب أهليهم. وهؤلاء جميعهم لا يزيد عددهم عن الخمسة عشر طالباً، سيأتي ذكرهم فيما بعد. وهذا مما يزيد الحسرة في نفسي، لتأخر أمتي في إرسال البعثات. ومن قرأ تاريخ نهضة مصر الحديثة أيام الباشا محمد علي يرى أن البعثات التي أرسلها إلى أوربا كان لها الباع الطويل في نهضة مصر وعمرانها.

ومن أجمل المباني التي تستلفت النظر في باريس مسرح الأوبرا، وكنيسة (نوتر دام). وكنيسة (مادلين)، وساحة (الكونكورد) التي فيها المسلة الفرعونية التي أُخذت من مصر، وتياترو الشاتله، وتياترو سارة برنار الممثلة الشهيرة التي لم أرَ تمثيلها لسوء حظي، مع أنها كانت على قيد الحياة.

والحاصل لا يمكن الواصف أن يصف باريس من ناحية أو نواح خاصة، بل كل ما فيها حسن جميل. من واجب كل من يقدر على السياحة من الأغنياء أن يزورها ولو مرة في العمر.

ندرة المطران

وقد قُلتُ سابقاً إني قررت العودة إلى البلاد. ولذا أصبح من الضروري أن أطّلع على كل ما يمكنني الاطلاع عليه من بلاد الغرب. ولما كانت السياحة تحتاج إلى النقود، وكانت نقودي قليلة، جعلت أقتصد بقدر الإمكان، ولا تخرج القطعة من يدي إلا «مسحاء»

وقد جلستُ يوماً في قهوة السلام «كافه دو لا به» أستريح من طول المسير على الأقدام. وبما أن والدي لم يجاوبني على أي كتاب أرسلته إليه اضطررت أن أكتب كتاباً إلى صديقه المرحوم كمال أفندي المهايني، أخبره فيه عن عزمي على الرجوع إلى دمشق.

وجلست جانبي سيدة جعلت تنظر إلى الكتابة العربية وتتعجّب وسألتني: ما هذه الكتابة؟ قلت: عربية، فجفلت وقالت: أنت عرب؟ قلت: نعم. فتعجبْت ولم تصدّق. وطلبت مني أن أقدم لها شيئاً من المشروب، فلم أقبل. قالت: إنك لم تفهم ما أريد. قلت: بلى فهمت، إنك تريدين أن تشربي المشروب، وأنا أدفع الثمن. قالت: نعم. قلت: لا أريد. قالت: لماذا؟ قلت: لأني تلميذ فقير. فضحكت وتركتني.

وإذ برجل يسألني بالعربي: أنت من الشام يا أفندي؟ قلت: نعم. قال: ابن المهايني؟ وقد رأى عنوان الكتاب. قلت: لا، بل أنا ابن البارودي. قال: ماذا يكون محمود بك لك؟ قلت: والدي. فقام وصافحني وقال: هذا أخي. وكنت رأيت ندرة بك مرة في دمشق في حفلة أقامها الأكراد لرجال الاتحاد والترقّي في بدء أيام الانقلاب، خطب فيها ندرة بك وأجاد وحاز إعجاب الحاضرين. مما أبقى في ذاكرتي أثراً طيباً له.

ولما عرفته قلت: أولست حضرتك ندرة بك المطران؟ قال: نعم، من أين عرفتني؟ قلت: رأيتك مرة تخطب في دمشق، وبقيت صورتك في ذاكرتي، وأنا معجب بك فدعاني للجلوس معه، وقدَّمني الى شاب افرنسي يفوتني اسمه، بصفته رئيس تحرير جريدة «الجون ترك» التي تصدر في باريز، وفهم مني قضيتي وقال: سأكتب إلى والدك بلزوم إبقائك في باريز للتحصيل، فقلت: سبق السيف العذل، وأنا على أهبة السفر. قال: أنا أيضاً معجب بك وبصراحتك. وهذه المرة الأولى التي أرى فيها شاباً يمتنع عن إجابة طلب سيدة. قلت: لا جود إلا من الموجود، ودراهمي التي معي ربما تكفي لوصولي إلى بلادي، ولست مجبراً على

الاستدانة لأجل أن أضيّف سيّدة لا أعرفها. فدعاني لتناول الطعام في مطعم «كراند أوتيل»، ودعا المحرر، وذهبنا بعربة. والأوتيل واقع جانب بناية الأوبرا، وقاعة الطعام كبيرة جداً، فيها موائد كثيرة. جلسنا على مائدة منفردة.

وأحضر لنا النادل «الكرسون» القائمة. وبما أنني ضيف الشرف قدم لي القائمة. فأخذتها كأني أعرف القراءة. وألقيت نظري عليها فوقع على كلمة «بواسون انكله» فهمت منه: سمك انكليزي، فطلبت منه. فقال لي ندرة بك: إنك لا تقدر أن تأكل هذا اللون، لأنه لا يوافق مزاجك. ولئلا أخجل أمام الإفرنسي قلت له: إني أستطيب هذا اللون. قال: طيب. وجاء السمك و«عينكم تشوف فخري»، بعد أن تناولت أول لقمة ماذا حلّ بي، لا أقدر أن أصف الحال التي وقعت فيها. فقد جحظت عيوني واحتبست اللقمة في حلقي، وكدت أختنق منها، فشربت كأساً من اللبن الممزوج بماء الفيشي، إلى أن قدرت أن أبلع اللقمة الأولى. ووضعت الثانية بفمي فكدت أقضي منها. ولم أعد أعرف ما أعمل. و«بألف زور» بلعتها بعد شرب كأس لبن وماء الفيشي.

فنادى ندرة بك الكرسون وقال له: خذ هذا الصحن وأحضر له صحن لحمة «شاتوبريان» وقال: أما قلت لك إنك لا تقدر أن تأكل هذا السمك. قلت: استحييت من رفيقك بأن ينظر إليّ بعين الاستخفاف. قال: لا تفكر بهذا، وكلُّ شيء لا تعرفه سل عنه قبل الاستعمال لئلا تقع بمثل ما وقعت فيه الآن.

ولا أقدر أن أصور للقارئ مقدار خجلي بعد هذا الفصل. وأخذتُ على نفسي عهداً بأن لا أمد يدي إلى طعام لا أعرفه. وكانت تلك الحادثة آخر ما وقع لي من نوعها. ولم أقع في مثلها بعد ذلك اليوم.

متاحف باريس[1]

من أبدع ما رأيت في باريس متاحفها التي تجمع الحكومة فيها آثار الأمة الإفرنسية. وهذه المتاحف أقاموها في قصور ملوك فرنسا، مثل قصر اللوفر، وقصر

(١) بداية الجزء الثالث من المذكرات غير المطبوعة، وقد أعدها للنشر على حلقات. وهي محفوظة في الملف ٧٩/ ٨ في مركز الوثائق.

فرسايل، والأنفاليد، وغيرها من القصور والمتاحف. ويرى الداخل إلى هذه المتاحف حُلَى الملكات وتيجان الملوك مصفوفة بطريقة بديعة تلفت الأنظار. وهناك لوحات زيتية مرسومة بريشة أشهر المصورين. وقد جرت عادة الأغنياء على إهداء التحف إلى المتاحف التي تتقبَّلها الحكومة بالشكر. وتقيم لأصحابها التماثيل، أو تضع رسومهم في القاعات التي يهدونها تحفهم.

وفي جُملة ما رأيتُ داخل هذه القاعات جناحاً خاصاً في معرض اللوفر تُعرض فيه لوحات المسيو شوشار التي أهداها إلى المتحف. وقد علقوا رسمه في صدر القاعة واللوحات التي قدمها آنذاك. ويبلغ ثمنها مليون فرنك ذهبي، لم تزل إلى اليوم معلقة في المتحف.

وقصر اللوفر من أجمل قصور القرون الوسطى، وله تاريخ مجيد. ومن أراد الاطلاع على تاريخه فليرجع إلى تاريخ فرنسا، فيقف على ما يريد.

أنا وعوني عبد الهادي

عوني عبد الهادي شاب قومي من أسرة من فلسطين-نابلس. وهو أحد مؤسسي جمعية (العربية الفتاة)، ذكيّ الفؤاد كثير المطالعة، حصل على شهادة الحقوق من الآستانة. وأتم تحصيله في باريس حيث نال الدكتوراه في الحقوق، وقضى عدة سنوات في فرنسا كان فيها مثلاً صالحاً في الأخلاق والتحصيل والاجتهاد. وكانت غرفته في «أوتيل كوجاس» في مدينة الطلبة مجمعاً لشبان العرب الذين ذكرتُ أخبار بعضهم في الجزء الثاني من مذكراتي. وكلهم يسكنون «البانسيونات». وكانوا يدعون بعضهم للطعام.

وكان في «البانسيون» الذي نزلت فيه ثمانية عشر طالباً وطالبة، أكثرهم من البولونيين. وفيهم بعضُ الطلاب الروس. وكان عوني عبد الهادي يزورنا بعض الأحيان، فترحب به مدام«كدو كو فيشكا»، صاحبة «البانسيون»، وتعزّه جداً إكراماً لصديقه الدكتور أحمد قدري الذي عرفها عليه.

ولما كـانت الطالبـات البـولونيـات وغـيـرهـن من الطالبـات العـربيـات لا يحسنَّ الإفرنسية، كنّ لا يُصغين إلى أحاديثه، لأنه كان يبحث في كتب الأدب عن أعقد المواضيع لأكبر الشعراء، ويحدّث بها ليظهر أدبه ومعرفته للغة الإفرنسية. فكنّ يستثقلنه. وما لفتيات غضيضات ولفكتور هوغو؟! وأين أشعار لامارتين من عقل فتاةٍ صغيرة لا تعرف من الإفرنسية أكثر من (بونجور) و(بونسوار)؟ لذلك كنَّ ينصتن إلى حديثي الذي كنت أحدّثهم به فيعرضْنَ عن عوني ويُقْبلن علي.

أما حديثي فكان بيدي وعيوني، نظراً لعدم معرفتي باللغة. فلا أبالغ إذا قلتُ إنه كان أشبه بحديث البكم أو التمثيل الصامت المعروف بـ«باندوميما».

وكنت أستصحب قاموسين أحدهما من الإفرنسي إلى التركي، والثاني من التركي إلى الإفرنسي. كنت أرجع إليهما أثناء الحديث. وكنت موفقاً في أكثر احاديثي التي تلفت أنظار جميع الحضور، وتوحي السرور للسامعين، خصوصاً الشبان منهم. لذلك كان صاحبنا عوني يغار منّي. حتى إنه لم يستطع أن يضبط نفسه في بعض الأيام وهاجمني مهاجمة علنية أظهر فيها شعوره عندما كانت الفتيات يحطُن بي من كل جهة ويسمعن أحاديثي بالإشارة، ويعرضن عن حديثه المنمّق. ولم أنس ذلك اليوم، وكيف جعل يكيل الشتائم للشعر والشعراء، وكيف شتمني وشتم فكتور هوغو، سامحه الله.

ولم أزل أذكر هذه الحادثة كأنها اليوم تجري أمامي...

الحيّ اللاتيني

كان الطُّلاب ُفي زمننا يسكنون هذه المحلّة. فكأنها بلدة خاصة بالطلاب، يؤمونها من كل حدبٍ وصوب. وأكثر الناس كانوا من البولونيين واليابانيين وغيرهم. وقد بلغ عددهم آنذاك أكثر من ١٥٠ ألف طالب. وبلغ عدد اليابانيين وحدهم أكثر من ٥٠ ألفاً. وزاد عدد البولونيين على الأربعين ألف طالب وطالبة. جميعهُم يتعلّمون العلوم العالية. وكانت غالبيّة دور هذا الحي إن لم يكن جميعها «بانسيونات»، يسكنها أبناء تلك البلاد، وكان الإقبال على هذه الدُّور أكثر من

غيرها، لأن الطالب يجد فيها ما اعتاد عليه في بلاده من طعام وشراب وغير ذلك. ومع الأسف لم يكن للعرب دار واحدة تديرها امرأة عربية.

وكان للبولونيين مقاهٍ ومطاعم، وكذلك كان لغيرهم من الشعوب. وقد دُعيتُ إلى نادٍ موسيقي بولوني، وجرى لي فيه حادثة لطيفة لا بأس من ذكرها هنا.

الموسيقا والغناء العربي

وفي أحد الأيام، دعاني الدكتور أحمد قدري الى غرفته في بانسيون «المدام كوفيشكا»، وقدّم لي المدموازيل «أوتوفيشكا» التي وصلت من بولونيا حديثاً، ووجهتها إسبانيا، للاطلاع على الموسيقا العربية القديمة. وقد عرّفوها بالدكتور أحمد قدري. فسألته عن الموسيقا العربية القديمة، فقال لها: «أنا لا أعرف فيها، ولكنني سأعرّفك بصديق لي له بعض الإلمام بها». وهكذا عرَّفني بهذه الآنسة.

ودار البحث عن الموسيقا العربيّة. وكانت لا تعرف عنها إلا الاسم. وعبثاً حاولتُ إفهامها الفرق بين الأرباع والأثمان في موسيقانا، والفرق بينها وبين الموسيقا الغربية. ولم أعرف بعد ذلك الأسباب التي دعتها للسفر إلى إسبانيه، وهي لا تعرف من العربية إلا ما أعرفه أنا من اللغة الصينية. وطلبتْ مني أن أزور النادي البولوني، وأسجل بعض الأغاني العربية فقبلت.

وفي اليوم المعيّن ذهبت إلى النادي مع أحمد قدري الذي امتنع أولاً عن مرافقتي. ثم اضطر إليها أخيراً لمّا رأى إصراري على الذهاب بعد أن قبلتُ دعوتها. وأبلغتِ النادي، وعُيّن يوم الخميس مساءً موعداً للدعوة.

وأخبر أحمد قدري رفقاءنا بذلك، فضحكوا من هذه الفكرة. ويوم الخميس، وفي الساعة السابعة مساءً، اجتمع أكثر الرفاق في غرفة عوني عبد الهادي، وهناك جرى البحث عن الدعوة، فجعلوا يسخرون من هذه الفكرة. ورفض قدري أن يرافقني، وأصرَّ على ذلك. وكلّفهم جميعاً، فلم يقبل أحد منهم مرافقتي وهم: رفيق التميمي، محمد رستم حيدر، عبد الغني العريسي وغيرهم.

وكان الجميعُ يريدون تحويل فكري عن الذهاب، وإقناعي بلزوم تقديم الاعتذار بحجة مرض مفاجئ ألمَّ بي. ولكني أبيت ذلك. ولما رأى قدري إصراري سايرني وذهب معي. فوصلنا في الساعة المعيَّنة. ورأيت المدموزيل «أوتوفيشكا» تنتظرني على الدرج، وبجانبها بعض الأعضاء من نساء ورجال، فاستقبلونا بالترحيب وقدمونا إلى المجتمعين، وكانوا يزيدون على الثلاثمائة مدعو.

وبعد أن جلسنا هنيهة، اعتلت الآنسة أوتوفيشكا المسرح، وجلست تعزف على البيانو عزفاً لطيفاً نال الاستحسان. ثم قامت وقدّمتني إلى الحضور بكلمة مطولة، قائلة: إنكم ستسمعون الآن بعض الغناء العربي من شاب أتى حديثاً من بلاده. فاستقبلني الحضور بالتصفيق. فصعدت إلى المنصّة العالية، وطلبت من الدكتور أحمد قدري أن يصعد إلى جانبي. فارتبك وخجل جداً، واحمرّ وجهه، وجاء يتثاقل. وقال بصوت خافت: «يخرب بيتك، أنا ما بعرف غني». فقلت مداعباً: يجب أن تساعدني بالرد فقط. فقال: والله أنا لا أعرف الغناء. قلت له: إذن ترجم لهم ما أقول.

وألقيت كلمة باللغة العربية وهي:

سيداتي سادتي! لا تحكموا على الغناء العربي بعد سماعي الآن، لأني لست من أصحاب الصوت الجميل، ولا أنا من الموسيقيين المشهورين، وما أنا إلا غاوٍ من محبي هذا الفن اللطيف. ونزولاً على طلب الآنسة أوتوفيشكا سأسمعكم لهجة الغناء العربي السوري فقط. ولهذا فأنا أطلب إليكم غض الطرف عما تسمعونه. والأغاني التي سأغنيها هي مقطوعة شعرية للشيخ أمين الجندي[1]، الموسيقي الحمصي المشهور، وهي من نظمه وتلحينه، من نغمة الحجاز، وهي إحدى النغمات العربية المحبوبة، وتسمى فذاً وهي:

---

(١) أمين بن خالد الجندي، من كبار شعراء القرن التاسع عشر، ولد في حمص سنة ١٧٦٤م وتوفي سنة ١٨٣٧م، وله ديوان شعر طبع مراراً، والشعر المذكور أعلاه في الصفحة ٣٧٧ من ديوانه طبعة دار المعارف في بيروت سنة ١٣٢١هـ.

دعْ يا عــــذولي عنك اللوم في الحبِّ واترك فــضــولكْ
منذُ جــفــا أجــفــاني النوم عـــصــيت في الناس قِيلكْ

دور

أهوى رشــا حلو المبــسم وافـى وحـــيّاً وأنـعـمْ
نــاديــتُه لمّا ســلَّم يا مـــرحـــبا صلْ خليلكْ

دور

فترجم الدكتور قدزي إلى الافرنسية وغنيتُها. ثم غنيتُ لهم بعض الأغاني الخفيفة من الطقاطيق المصرية. وطلبوا مني نشيداً حربياً. ولم نكن نعرف الأناشيد، فغنيتُ لهم: «نحن ربُّ الهول والموت الزؤام»، وهو نشيد للشيخ سلامة حجازي[1]، كان نظمه الأسدي لإحدى رواياته التمثيلية. وهو الذي لحَّن لي نشيدي: «نحن جند الله شبُانُ البلاد»، الذي سيأتي الحديث عنه فيما بعد. وهونشيد لحنه حماسي جداً. وأعقبته ببيتين من رواية صلاح الدين الأيوبي، بعد أن أفهمناهم معناها، وأنها تغنَّى في رواية «صلاح الدين» وهما:

إن لم أصُنْ بمهندي ويميني ملكي فلستُ إذاً صلاحَ الدين
تحمي الممالك ربّها أما أنا فأريدُ أحمي الملكَ لا يحميني

وهكذا انتهت الحفلة، وأسمعنا المدموزيل أوتوفيشكا بعض القطع. وانتقلنا إلى «البوفيه»، حيث قدموا لنا كأساً من الشاي مع الحلويات. وانتهت السهرة. وأقاموا لي بعدها حفلة خاصة في النادي أسمعوني بها عزف بعض أعضائه وغناء البعض الآخر.

---

(١) الشيخ سلامة حجازي. مؤسس أول فرقة تمثيلية في مصر، ولد في الإسكندرية، وتوفي في القاهرة سنة ١٩١٧م عن ٦٥ سنة.

ومن المفيد ذكره هنا أنني لما عدتُ إلى غرفة عوني عبد الهادي وجدتُ الشبان مازالوا عنده. فأخبرهم أحمد قدري بما جرى. فجعلوا يضحكون، وأرادوا أن يهزؤوا بي بدعوى أني قمت بشيء لا يجوز القيام به. فقلت: إن المغني الأجنبي الذي يحضر إلى بلادنا وتقام له الحفلات ويغني الغناء الذي اعتاد عليه نصفّق له ونستحسن غناءه ظاهراً، جبرا لخاطره، فإذا أنا غنيت في حفل أجنبي لا يوجد فيه من يعرف شيئاً من موسيقانا أكون قد فعلت ما يفعله المغني الأجنبي في بلادنا، وهكذا انتهى الحادث بيني وبينهم على خير.

حدائق الحيوانات والنباتات

ومن الأماكن التي يجب زيارتها في باريس حدائق الحيوانات والنباتات. هذه الحدائق تجمعُ من الحيوانات أنواعاً يحار منها الإنسان. تأسست في القرن السابع عشر. وسبب ذلك أن طبيبين إفرنسيين، أحدهما يدعى «دقنر هيرفورد»، والثاني يدعي «كفر دو لايرون» «فكرا بإيجاد مؤسسة علميَّة تحتوي على مجموعات من عالمي الحيوانْ والنبات. فتأسَّسَتْ هذه الحديقة سنة ١٦٥٣. وعينتهما الحكومة مديرين لها، وفي سنة ١٧٣٩ عيّن العالم الطبيعي المشهور المسيو بوفّون[1] مديراً لها، فوسَّعها وزاد في محتوياتها. ومنذ ذلك التاريخ جعلت تتقدَّم في النمو والزيادة.

وتحتوي هذه الحديقة الآن على قاعات محاضرات ومجموعات من الحيوانات الحيَّة، والمصبَّرة، وعلم طبقات الأرض، والمعادن والمستحدثات والتشريح، والحيوانات البائدة، وعلم أصل الإنسان، وعلم البويضات.

ومنها حقول واسعة وحدائق كبيرة لجميع أنواع المزروعات والزهور، ومجموعات من كل الحيوانات، منها حيوانات فقرية ذوات الثدي، وذوات الأيدي الرباعية والسباع والكواسر والمجترّة والدرداء. وهناك عائلات الطيور من الجوارح

(١) جورج بوفون Buffon -١٧٠٧-١٧٨٨، من أشهر مؤلفاته: «التاريخ الطبيعي» في ٣٦ مجلداً.

إلى القواطع، وكفية الأرجل والدنجاجية. وفي زاوية أخرى الزواحف من حيَّات إلى ضفادع إلى سلاحف الى غير ذلك مما يحار منه الإنسان.

ولقد قُسّم التدريس في هذه الحديقة على ٢٠ كرسياً، تُعيِّن أساتذتها وزارة المعارف بناء على اقتراح مجلس الأساتذة ومجمع العلوم. وأكثر عواصم أوربا التي زُرتها فيما بعد، فيها حدائق حيوانات تحوي مجموعات قيّمة يحق لمن يراها أن يفتخر بسياحته وبرؤيته هذه المخلوقات البديعة.

الغرفورة الخضراء

وإذا قلنا إن السيدات الإفرنسيات حصينات، فلا يقصد من هذا أنه لا يوجد بينهن بعض من يخفضن رأسهنَّ. وقد حدثت لي حادثة غريبة. وهي أنني بينما كنت جالساً في مقهى السلام، إذ بسيدة كالغزال النافر تمر بسرعة تحمل مظلة خضراء، وجميع لباسها أخضر «من البرنيطة إلى السكربينة». وقد لفتت نظري، فتعقّبتها إلى أن وقفتْ أمام السينما، فوقفتُ خلفها. ولم يكن أمام السينما إلا بعض المتفرجين. فقطعت هي تذكرة، وأخذت أنا ثانية. فكان مكاني طبعاً إلى جانبها في الصالون.

وجلسنا، وجعلت أنظر اليها من طرف عيني وأتمتَّعُ بجمالها الباهر، وأتنشق من رائحة عطرها المنعش، وكانت السينما صامتة، فجعلت أنظر إليها أكثر الأوقات. وهي تنظر إلى الرواية. وكنت كلما نظرتْ إليَّ أدرتُ وجهي بسرعة إلى الشاشة. فجعلتْ تضحك من حركاتي.

ولما انتهى القسم الأول وبدأت الاستراحة سألتني ببساطة عن بلدي قائلة: يظهر أنك غير إفرنسي وغريب عن باريس؟ قلت: نعم. قالت: من أين أنت؟ فطار صوابي لهذا السؤال، ولم أُعْطِ فرحتي لأحد، وقلت في نفسي: علقت السنارة ياولد. وأجبتها: إني من بلاد الشام. قالت بلغة عربية «مطحبشة»: من نفس دمشق الشام؟ قلت: نعم، أو تعرفينها «يا تقبري عيني؟» فضحكت وقالت: نعم، لقد ذهبتُ إليها مراراً بالقطار، حيث قضيت بضع سنوات في بيروت. قلت: ماذا كنت تصنعين في بيروت؟ قالت: أرتيست في مقهى المرصد. قلت: انتصرنا.

وجعلت تكلمني باللغة العربية. ولكني أقول إنهاكانت تحفظ قاموس الشتائم العربية جميعها عن ظهر قلبها. ولم أقم من مكاني إلا وقد أشبعتني شتائم من الأب ونازل باسم المداعبة، لتريني أنها تعرف اللغة العربية. وما صدقت متى انتهت الرواية حتى (ملصت) منها خوفاً من أن أقعَ بمصيبة.

بولفار سان ميشيل

هذا الشارع كان متنزَّهاً للطلاب، خصُوصاً العفاريت منهم. فيه المقاهي والمطاعم، وكل ما يُعين على التسلية، ويبقى مكتظاً بالمارة من الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل. وهو مجتمع العشاق، خصوصاً الطلاب. وأسعار الطعام والشراب في مطاعمه ومقاهيه رخيصة تتناسب مع حالة الطلاب. وقد شربت في أحد مقاهي البولونيين كأساً من البيرة «بثلاثة سوات». والسو واحد من عشرين من الفرنك. والفرنك كان له قيمة، بحيث كان كل عشرين فرنكاً من الفضة تساوي ليرة افرنسية ذهبية. وكنا نتناول الأطعمة في هذه المطاعم كل وجبة مشبعة قيمتها من الفرنكين إلى الثلاثة. في حين كان يوجد بعض المطاعم، كمطعم «كراند أوتيل» وغيره، يتراوح ثمن الوجبة فيه من العشر فرنكات إلى العشرين، دون أثمان المشروب. إذا أراد الإنسان أن يشرب نوعاً من المشروب طلبه طلباً خاصاً. وتوجد أنواع من الأطعمة لا نعرفها، ولكل أمة عاداتها، وقد ويقع الغريب في مأزق حرجة عليه أن يتنبّه لها. فإذا وقع في مأزق وقدّموا له أكلة لا يعرفها ومعها آلة خاصة بها كالشوكة والسكينة الخاصة بالسمك ونحوها فعليه أن لا يمدّ يده إليها إلا بعد أن يرى من يأكل منها ليتمرن عليها.

وقد وقع لي حادث لطيف لا بأس من ذكره هنا

في المطعم

دخلتُ يوماً إلى مطعم غاب عني اسمه، وجلستُ. وكنت ذلك اليوم لم أصطحب المعاجم. فجاءني النادل «الكرسون» وقدّم لي القائمة، وقال: هل تريد أن تأكل وجبة كاملة، أم تريد أن تنتقي طعامك من القائمة؟ وخوفاً من أن أقع في

خطأ كما وقعت يوم دعوة ندرة بك المطران حين دعاني إلى مطعم «كراند أوتيل». وقد سبق ذكر هذه الحادثة في الجزء الثاني، قلت للنادل: هات لي الطعام وجبة تامة إليّ مقطوعاً.

وكان المطعم من المطاعم الراقية، والوجبة فيه بعشرة فرنكات. فأتى قبل كل شيء بعربة على عجلات الدراجة «بسكليت»، عليها عدة أنواع من الكوامخ والمخللات. لم أكن رأيت قبل ذلك مثلها، كما أني لم أكن أعرف كيف تؤخذ منها الألوان. ومن المعروف عندي أننا في رمضان، كنا في الدعوات نقدم سفرة إفطارية فيها أنواع الطعام الخفيف والمقبلات كالتي في العربة، كان يفطر عليه الصائمون. فكنا نأخذ من الصحن قطعة نأكلها ثم نأخذ من الصحن قطعة نأكلها. ثم نأخذ من الصحن الثاني قطعة ثالثة. ومتى انتهينا من أكلها نأخذ من الصحن الثالث. وهكذا إلى آخر الألوان حسبما نشتهي. فظننت أنني في دعوة إفطار، فتركتُ النادل واقفاً وبيده الصحفة التي يريد أن يضع فيها المقبلات. وجعلت آخذ من كل صحن قطعة آكلها، وأنتقي من الصحن الثاني بعد الانتهاء من أكلها فآخذ قطعة أخرى. وجعل النادل والجالسون وكل من رآني، ينظر إليّ بفضول.

وقد عرفتُ أنني أخطأت بعملي، وخجلت خجلاً ظهر عليّ. وجعل العرق البارد يقطر من جبيني ووجهي. ولم أعد أعرف ماذا أعمل، فاكتفيت من المقبلات. وأشرتُ له بأخذ العربة من أمامي، فساقها وهو يضحك. وجعل يحضر لي أصناف الطعام الداخلة في وجبة الظهر كالعادة. ولم يحصل معي ما يوجب الذكر غير ما سبق. وكنت آكل وأفكر بما صنعت، وما هو الخطأ الذي وقع مني عند تناولي المقبلات.

وبينما أنا في هذه الهواجس، إذا بسيدة وسيد يدخلان المطعم ويجلسان قربي. وساق النادل العربة إليهما، ووقف ينتظر الأوامر. وإذ بالسيدة تشير إلى بعض الصحاف وفي كل صفحة«معلقة شوكة» وكان بيده صفحة متوسطة من الصحاف التي توضع عادة أمام الأكل. فجعل يأخذ من الصحاف الملاعق التي فيها

ويضع في الصحيفة التي في يده، وينظر إلى السيدة فتشير اليه بأصابعها إلى اللون، وهكذا إلى أن اكتفت مما تريده، فوضع الصحفة أمامها، وكذا أخذ صحفة ثانية ووضع فيها ما طلبه السيد، ففهمت من هذا كيفية أخذ المقبلات ولم أعد لمثل ذلك الخطأ فيما بعد.

ماري، بنت مدير الشرطة

في أحد الأيام كنت في نزهة بعيداً عن «البانسيون» وقد عضَّني الجوع، فدخلتُ مطعماً شعبياً بسيطاً. وجلست إلى مائدة مدة منفرداً، وإذ بالمرحوم الأمير شريف شهاب يقوم من مائدته ويأتي ليدعوني إليها. وكان يجلس مع الأمير عزّ الدين الشهابي ومعهما سيدة إفرنسية رشيقة، فأجبته إلى ذلك. وجلسنا معاً، وقدَّم إليّ الآنسة ماري ابنة مدير شرطة الدائرة السادسة في باريس بصفتها خطيبته. وقضينا ساعة لطيفة تحدثنا فيها أحاديث مختلفة مملوءة بالنكات و«التقريق»، وودعتهم بعد انتهاء الطعام ومضيت في سبيلي. وبعد أربعة أو خمسة أيام بينما كنت واقفاً مع المرحومين: محمد رستم حيدر والعريسي ومحمد المحمصاني[1]، نتحدث ونحن وقوف على إفريز الشارع حيث صادفتهم هناك، وإذ بالآنسة ماري تسير حزينة، وهي تمسحُ دموعها بمنديلها. ولما رأتني تقدمت مني بلهفة وزاد بكاؤها، وجعلت تنشج وتنتحب، وضغطت على يدي بشدة كأنها تلجأ إليَّ بالشكوى. واستغرب الجماعة الموقف، وودَّعتهم ورافقتها. وجعلت تبكي وتشكو لي ألمها من معاملة خطيبها الأمير الذي أبلغها صراحة قطع علاقته بها، لأنه عازم على السفر إلى بلاده. وفي الحقيقة كنا على وشك السفر في القطار إلى الآستانة.

وقد ظنت أنه خدعها، وأنه تركها بعد أن أحبَّتْهُ هذه المدة الطويلة التي زادت عن السنة، كانا يجتمعان فيها يومياً.

---

(١) الثلاثة من رجال الثورة العربية الكبرى

- محمد رستم حيدر، ولد في بعلبك واغتيل في بغداد سنة ١٩٤٠ عن ٥٢ سنة.
- والعريسي هو عبد الغني بن محمد، من شهداء السادس من أيار سنة ١٩١٦م.
- والمحمصاني محمَّد بن مصباح، أعدم في بيروت سنة ١٩١٥م، ضمن قافلة الشهداء الأولى.

وطال الحديث بيننا. وكنت أفهم كلمة وتفوتني أربع كلمات، فأستلهمها لأراجع في القاموس لأتفهم قصتها على حقيقتها، وانتحينا في أحد المطاعم جانباً وجعلت تثرثر كل خمسين كلمة بحنك، وأنا أهزّ رأسي أن فهمت، وإن لم أفهم. وجعلت أسترضيها عنه مؤكداً لها سفرنا بعد بضعة أيام. وتناولنا الطعام ونحن بهذا «العزاء». وأخيراً ودَّعتُها على أمل أن نتلاقى يوم الأحد في الساعة التاسعة صباحاً لنقضي فرصة الأحد في قرية سان جرمان عند شقيقتها. وقد غاب عني اسم هذه الشقيقة.

وفي الوقت المحدَّد اجتمعت بماري. وركبنا الترامواي. وقطعنا «بلاس دو لا كونكورد»، وإذ بماري تتقدم مني وتضع رأسها على كتفي، وجعلت تغني. وإذا برائحة كريهة، أعوذ بربنا منها، تهفُّ عليَّ من فمها «قلبت مصاريني» رأساً على عقب. والغريب أنا كنا قضينا بعض الساعات في الأمس لم أشمَّ منها شيئاً لأنها لم تقترب مني، أما اليوم فكدت أعاف نفسي.

واستأذنت منها، وخرجت إلى مؤخرة الترامواي لأشرب سيكارة حيث التدخين ممنوع داخل الترامواي. وبهذه الحيلة تمكنت أن أبتعد عنها مدة. وكلما أنهيت سيكارة أشعلت غيرها. وهي تأتي وتسحبني إلى الداخل وأنا أمانع، إلى أن فرَّج الله ووصلنا إلى سان جرمان.

وكانت أختها بانتظارنا في المصنع الذي تديرهُ. وكان مصنعاً للقبعات النسائية، وفيه ما يقرب من العشرين صانعة يعملن تحت يدها كما أفهمتني. وكانت تنتظر في المصنع لأن بعض السيدات اللائي أوصين على «برانيط» كنّ موعودات بأخذها قبل ظهر الأحد. ولهذا فقد جلستْ تنتظرهن، وأتينا نحن قبل أن تأتي المشتريات، فقدّمتني إلى أختها باسمي وبصفتي صديقاً لخطيبها الذي فسخ الخطبة منذ أيام. فرّحبت بي شقيقتها واستمهلتنا بضع دقائق إلى أن تنتهي عملها. فجلست أتفحص المصنع، وهو عبارة عن حانوت له واجهة كبيرة فيها أنواع القبعات النسائية معروضة بشكل بديع، وداخل الحانوت بضع غرف فيها عدد غير

قليل من «ماكينات الخياطة». والذي لفت نظري أن الماكينات كلها من نوع سنجر، فاستغربت ذلك وقلت لماري: إن ماكينات سنجر ماكنات أجنبية، وأنتم افرنسيون، فلماذا لا تستعملون الماكينات الافرنسية؟ فقالت: إنها أمتن وأصح من غيرها، فسكتُّ.

والذي فهمته من ماري أن الافرنسيات الفقيرات لا يأنفن من العمل في أيّ صنعةٍ كانت، وأهلهنَّ لا يمانعن في ذلك، لتكسب إحداهن ما يساعدها على الحياة. ومنهن من تساعد أهلها بشيء من كسبها، إذا كان أهلها عاجزين عن العمل.

والخلاصة، كانت المرأة في ذلك الزمن تزاحم الرجل في أكثر الأعمال، ولاترى غضاضة في ذلك. هذا بالأمس فكيف اليوم؟

وبعد برهة قصيرة جاء أصحاب البرانيط، وأخذْنَها وخرجنا إلى القرية وزرناها على الأقدام، وهي بلدة صغيرة جميلة. تناولنا الطعام في أحد مطاعمها الصغيرة. وفي المساء عدت إلى باريس. وما كدت أصل إلى ساحة الكونكورد حتى ودَّعت ماري وذهبت نافضاً غبار الموت عن أكتافي من شدة ما أصابني من الانزعاج من رائحة الفم الكريهة.

وقد كان لي من هذه السفرة درس لن أنساه ولا أنساه في عمري، وقد أفادني حيث كانت بنية أضراسي غير قوية. وقد أصابني «السكوربيت» في أيام الحرب العالمية، فجعلت أخلع كل ضرس أصابه النخر خوفاً من رائحة الفم الملعونة. حتى أصبحت بعد مدة قليلة وأنا في ريعان الشباب صاحب طقم أسنان «اصطناعي». وأنا أوصي كل من أصابه نخر الأسنان وأحسَّ بتغيُّر رائحة فمه من النساء والرجال، عليه قلع الضرس المنخور ليخلُص من هذه البلية الممقوتة فيريح ويستريح.

هس

من العادات اللطيفة التكلم بالهس وعدم رفع الصوت في المحلات العامة

والخاصة على السواء. وكل من يرفع صوته أثناء الحديث زيادة عن العادة المألوفة يكون عرضة للهزء واستجلاب النظر. وإذا تكلم أحدهم ولو همساً في المسارح أثناء الغناء أو التمثيل فلا تسمع من النظارة إلا كلمة هش مع توجيه الأنظار إلى المتكلم. كما أن هذه الكلمة تُستعمل لمن يخالف النظام الاجتماعي بدخوله بين المنظرين على أبواب المسارح وصالونات الغناء متخطياً الواقفين ليأخذ مكاناً قبلهم فيسمع كلمة «هش» من الجميع، ولا يسكتون حتى يعود الذي يتجرأ على خرق النظام إلى آخر الصف. وعندها يسكتون ويحولون عنه الأنظار. وهذا يكون له ولغيره درساً لا يرجع إلى مثله.

الهدايا

الهديّة: كل ما يُتحَف به الغير يسمى الهدية، وكل غائب عن وطنه في بلاد بعيدة عليه واجب بأن يحضر شيئاً من الهدايا لأهله وأصدقائه، كل رجل حسب قدرته. وقد أخذت بعض التحف بينها جلد حيوان غريب الشكل. استرخصتُ ثمنه ووضعت جميع الهدايا في صندوق أحكمتُ إقفاله وأرسلته بالسير البطيء مشحوناً مع شركة «المساجيري مارتيم»، بعد أن أمَّنت عليه في إحدى شركات السيكورتاه. وبعد مدة طويلة أظن أنها تزيد عن الستة أشهر وصل الصندوق واستلمته دون أي نقصان. ولكن مع الأسف وجدت أن جميع شعر الجلد «انبكت»، وأصبح جلده كالتي يضع الفلاحون عليها الطعام. والسبب كان لعدم وضع شيء من النفتالين على الجلد، أو أن الصياد صاده في موسم الحرّ، لأن الحيوانات التي تصاد في موسم الصيف «يحلُّ شعرها». ولذا فإن الصيَّادين يتجافون عن الصيد في أيام الصيف، ويصطادون الحيوانات ذوات الجلود الفرائية في مواسم الشتاء.

الاستعداد للسفر

ثلاثة أيام قطعنا بها علاقتنا من باريس، هيأنا فيها أمتعتنا وقطعنا تذاكر السفر في السكة الحديدية الشرقية من باريس إلى استنبول والتذكرة التي أخذناها كانت لمدة

شهر من يوم القطع، إذ يحقّ لنا خلال ذلك أن ننزل في أي بلدة كانت، ونقضي فيها ما نشاء من الأيام على أن نكون آخر يوم من الشهر في آخر محطة، أي في إستنبول. فكان هذا عوناً لنا على زيارة عواصم وبلدان كبيرة في أوربا الوسطى سنذكرها فيما بعد.

وقد قلت قبلاً إني كنت أنتظر جواباً من والدي يشعرني برضاه عني، ويطمئنني عن مستقبلي ويسمح لي بالدخول في المدرسة الزراعية في كرينيون. ولكن مضت الأيام وأخذت من كثيرين من الإخوان أجوبة كتبي إلا من والدي. وكنت كتبت كتاباً لنسيب بك البكري أحرِّضه فيه على الفرار من دمشق إلى فرنسا. وقد وقع الكتاب بيد المرحوم والده عطا باشا البكري، فوضع نسيباً تحت المراقبة الشديدة خوفاً من أن «يعملها».

وقد أخذت جواباً منه أخبرني فيه أن الكتاب وقع بيد والده، وأنه تحت المراقبة. وأن والدي أقسم أن لا يرسل لي قرشاً واحداً مهما بلغ بي الأمر، وأنه لا يريد أن أبقى بعيداً عنه لأني وحيده. ولذا فإن نسيباً ينصحني بأن أمحو من مخيلتي فكرة التحصيل، وأن أقضي الوقت الذي أتمكن من البقاء فيه في أوربا بالسياحة. وأن أصرف ما بقي معي من الدراهم في التفرج على بلاد اللّه وعباده.

وبناء على هذا الكتاب قطعتُ أملي من البقاء في فرنسا، وبدأتُ بقطع علائقي من باريس، وعزمت على السفر إلى دمشق. وكان بين السوريين الذين كانوا يحصّلون الطب في فرنسا ثلاثة أصدقاء قد أنهوا اختباراتهم وعزموا على السفر، فتواعدنا على يوم معين.

والرفاق الذين تواعدت معهم هم الأطباء: الأمير شريف الشهابي، والأمير عز الدين الشهابي طبيب العيون المشهور، و«الأوبراتور» الجراح أحمد راتب. وهكذا اجتمعنا في المحطّة في الساعة المعيّنة.

وفي المحطة خـرج لوداعنا كل من توثقت عـرا الصـداقـة بيننا وبينه من الإفرنسيين والإفرنسيات والبولونيين والبولونيات، وإخواننا من أبناء العرب السوريين وغير السوريين. وعندما تحرك القطار جعلنا نلوّح لهم بمناديلنا، وبكينا وبكوا. والغريب في الأمر أن الإفرنسيين لهم من العواطف الرقيقة ما يحبّبهم إلى القلب. وأقل مدة تجلس معهم في بلادهم كافية لربطك معهم برباط الصداقة التي تكون في كثير من الأحيان رابطة محبة وإخلاص.

ثم سار القطار ببطء وتأنٍّ، ونحن نُلوِّحُ لهم. وكنت كلما ابتعد القطار وزادت سرعته، ألوّح بمنديلي إلى القباب العالية التي كانت تطلّ عليَّ مثل كنيسة نوتر دام وأعالي بناية تور إيفل، وهو البرج الذي يعدُّ من عجائب الدنيا.

وقفت أنظر من نافذة القطار وهو سائر وأتفرج على مناظر الريف الإفرنسي والفلاحين الذين كان أكثرهم يقف عند مرور القطار واضعاً يديه في خصره يتفرج على الركاب. والفلاح الإفرنسي لطيف في طبيعته، طيب السريرة، لا يتركك إذا حللت لديه دون أن يقدم لك شيئاً من الضيافة وإن لم يكن كريماً جداً، ولكنه على كل حال يقوم بواجب الضيافة ولو بتقديم عنقود من العنب. وهو نشيط في عمله متقن له. والمساحات التي يملكها صغيرة ولكنها متقنة ويمكنني أن أقول إن ما كان يقع عليه نظرنا من الأراضي الزراعية يظهر أنه أُعدَّ أفضل إعداد.

ومنذ خروجنا من باريس حتى حدود فرنسا والفلاح كان يلبس حذاء من الخشب المغطى بالجلد ويسمى: (Sabot) وهو كالقبقاب ذي السير الكبير المعروف عندنا قديماً بـ«التختة بابوج».

ومن الطريف أن كثيراً من الفلاحين الذين كانوا يلوحون بأيديهم لنا كأنهم يودعون الركاب وهم يضحكون مما يدل على مرح الفلاح الافرنسي وروحه الخفيفة، بعكس الفلاح الألماني الذي يقف جامداً كالصنم عند مرور القطار لايتحرك منه غير عيونه. وهذا ما رأيناه في البلاد الألمانية عند مرور القطارِ فيها.

وقد قلت إننا قطعنا تذاكر السفر من باريس إلى الآستانة بشكل دفتر لننزل حيث نشاء في أية محطة ونبقى في البلدة التي نرغب الإقامة فيها للمدة التي نشاء، على أن لا تزيد عن شهر على طول الخط.

وتسلّم الأمير شريف شهاب إدارة المحاسبة، وأخذ من كل واحد منا ما يكفي للإنفاق من باريس إلى دمشق، وبقي مع كل واحد منا ما ينفقه. وقسّمنا العمل بيننا: فالمحاسبة بيد الأمير شريف كما ذكرت، ومهمة إدارة الطعام، من إحضاره وترتيبه، أُسندت إلى الطبيب أحمد راتب. أما غسل الصحون والأمتعة والحفاظ عليها فقد أوكل أمرها إلى الأمير عز الدين. أما أنا فكنت دليل الشراء والبيع، بحيث كان يعطيني الأمير ما يلزم لشراء الحوائج، وهكذا دواليك، إلى أن وصلنا إلى الآستانة. وها أنّي أقدم وصفاً مختصراً لهذه البلاد.

تول

بلدة في فرنسا تقع على نهر كوريز، وتبعد عن بوردو حوالي ٢٠٠كم تقريباً. وهي بلدة صغيرة نظيفة فيها متنزّهات كثيرة وجسور عديدة على نهر كوريز المذكور، وفيها كنيسة جميلة برجها عظيم، وفيها معمل للأسلحة. وفيها مع صغرها عدة صناعات منها الجلد ومنتوجات الصوف والقطن والقماش المعروف بالتول الرقيق المنسوب إليها. وفيها مصانع للمسامير والشمع والورق وورق اللعب.

نانسي

بلدة واقعة على بعد ٢٨٠ كم شرقي باريس. وهي بلدة جميلة افرنسية مادة ومعنى. وفيها جامعة كبرى ومكتبة كبيرة. وقد رأيت سيطرة «الأكليروس» ظاهرة فيها أكثر من غيرها من البلدان. أما سكانها فمتدينون تأصّلت فيهم الروح الإفرنسية طبعاً وعادةً. ومما يلفت النظر في هذه البلدة الصغيرة أن فيها داراً للمعلمين

والمعلمات من أرقى الدور في العالم. وفيها مكتب زراعة، وحديقة نباتات، وفيها دار آثار ومكتبة عظيمة، وفيها الجمعيات الكثيرة للطب والآثار القديمة وغير ذلك من الجمعيات العلمية المختلفة.

وفي غربها مناجم معدن الحديد، وفيها فبارك كبيرة للآلات الزراعية. وتنقسم إلى قسمين: نانسي القديمة، ونانسي الجديدة. فالقديمة، لبنائها القديم على الطراز المتخذ في العصور الوسطى. أما الجديدة فأبنيتها كلها على الطراز الحديث. وفيها الشوارع الجميلة والأبنية المزينة بأجمل النقوش.

ستراسبورغ وقصّة الألزاس واللورين

عاصمة مقاطعة الألزاس واللورين. تقع على الحدود الإفرنسية الألمانية. من شرقي باريس تبعد عنها ما يقرب من ٤٠٠كم. وهي على ضفة نهر ديل. يحيط بها سور قديم حول الخنادق، وفيها قلعة شاهقة. ولها عدة أبواب تمر فيها ويتفرع عنها أنهار صغيرة. وفيها جُسور كثيرة خشبية. وفيها ساحات جميلة. وشوارعها ضيقة جداً بالنسبة للبلدان الأوربية التي تماثلها. فيها كنيسة جميلة وبها ساعة فلكية يظهر أنها قديمة. وقد علمت أن مكتبتها الكبيرة قد احترقت في الحرب الألمانية الافرنسية. سكانها يتكلمون اللغتين الألمانية والافرنسية.

والإفرنسيون متعصّبون لاسترداد الألزاس واللورين[1]. والذي يلفت النظر في فرنسا أنك لا تكاد تجد داراً لأحد الافرنسيين ليس فيها رسم الألزاس واللورين، يوحي للناظر روح الانتقام واسترجاع هذه المقاطعة من ألمانيا. وقد صادفت كثيراً من الرسوم التي ترمز الى الألزاس واللورين بصورة فتاة جميلة مغلولة الأيدي

(١) مقاطعة في الشمال الشرقي من فرنسا
- ضمت سنة ١٨٧١م إلى ألمانيا بعد هزيمة فرنسا.
- استردتها فرنسا سنة ١٩١٩ بعد هزيمة ألمانية في الحرب الأولى
- انتزعها هتلر من فرنسا سنة ١٩٤٠م
- استعادتها فرنسا سنة ١٩٤٥ بعد هزيمة ألمانيا.

بسلاسل يحيط بجسمها العقارب والحيات والهوام ذوات السموم تحمّس شبيبة الإفرنسيين، وتوقد فيها روح البغض للألمان وتزكي فيهم الحماسة لاسترداد هذه المقاطعة من عدوّهم.

وقد أعادت لي هذه الذكرى خطاباً لمدير شرطة باريس في السوربون سنة١٩١١، حيث قام شبان باريس بمظاهرة يطلبون فيها من الحكومة إرجاع الألزاس واللورين إلى حضن أمها فرنسا. وقد ساقتني الظروف لسماع هذا الخطاب الذي كان وقعه على المتظاهرين كوضع الرماد على النار. فقد أطفأ حماستهم.

والذي أذكره من هذا الخطاب أنه قال: إن ألمانيا في حرب السبعين غلبت فرنسا. وكان الشاب الافرنسي يعادل عشرة جنود من فرسان «الدراغون» الألمان. واليوم إني أراكم يا أولادي رغم حماستكم الملتهبة لا يعادل كل عشرة شبان منكم جندياً واحداً من جنود «الدراغون». لهذا أطلب إليكم أن تذهبوا إلى دوركم بسلام، وتعدُّوا أنفسكم لأن يصبح الجندي الافرنسي قادراً على دحر عشرة جنود من الألمان. عندها تعالوا وتظاهروا. والحكومة الافرنسية لا تكون آنذاك أقل حماسة منكم لاسترداد هذا القطر المحبوب الذي اقتطعوه من جسم أمّنا فرنسا.

باويره

بعد أن غادرنا ستراسبورغ دخلنا باويره، ويسميها الألمان بايرن، وهي مقاطعة كبيرة من مقاطعات ألمانية الجنوبية، حكومتها ملكية مرتبطة بالاتحاد الألماني[1]. وتقع في الأهمية بعد بروسيا، وقاعدتها ميونيخ. لم نسمع فيها إلا اللغة الألمانية. وإذا تكلم أحد بالافرنسية فهم رؤساء الخدم في الفنادق والمطاعم. حتى إن بعض المطاعم والفنادق الصغيرة لا يتكلم الإفرنسية فيها أحد.

---

(١) كان إمبراطور ألمانيا آنذاك وليم (غليوم) الثاني، الذي حكم سنة ١٨٩٠م، وزار دمشق الزيارة التاريخية المشهورة، وجدّد ضريح صلاح الدين فيها، وبُني له في المهاجرين مصطبة لمشاهدة دمشق، هي اليوم إحدى جادّات المهاجرين.

وسكانها طيبون ومتعصّبون للدين، يملؤون الكنائس في أيام الآحاد. وأكثرهم كاثوليك. وهذه المقاطعة من أهم المراكز التجارية توسطها بين النمسا وألمانيا وسويسرا وإيطاليا ويوغوسلافيا.

وباويره لها استقلال داخلي، ولها مجلس نواب. وهي في مقدمة المقاطعات في الاتحاد الألماني كما قلنا. عاصمتها ميونيخ. وهي من أجمل البلدان الأوربية والذي فهتمه أن المدارس الابتدائية فيها كثيرة، تزيد عن العشرة آلاف مدرسة. ولكل أبرشية مدرسة أو أكثر من مدرسة ابتدائية، حيث لا تخلو قرية أو محلة من التعليم الابتدائي. والدروس تجري تحت إشراف الحكومة البافارية. كما أن المدارس «الرشدية» المتوسطة و«الإعدادية» كثيرة. وفيها ثلاث جامعات. إحداها في ميونيخ، والثانية «وورتسبورغ». وهما جامعتان كاثوليكيتان، والثالثة في بلدة آرلنكن، وهي للبروتستانت. وفي ميونيخ مدارس صناعية وزراعية.

وفي باويره مصانع لا بأس بها، منها للجوخ وغيره. وفيها مصانع بيرة كثيرة، أينما سرت ترى فيها البيرة تباع بـ(الشوب)، وهو كأس كبير له يد مثل «الكيلة»، وخطوط السكك الحديدية فيها منتظمة وكثيرة. وطرقها لا بأس بها.

والألمان في طبائعهم يختلفون عن الإفرنسيين تماماً، حتى بالأجسام والأشكال. والألماني طويل، أبيض أشقر، متين العضلات عظيم البنية وجسيم الهيكل. والألماني معروف بالشدة والأمانة والاستقامة والوفاءوالنخوة والتروي والثبات. والألمان يحبُّون الفنُون الجميلة، والموسيقا منها خاصة. ولهم فيها وفي الحفر والتصوير والنقش مقام رفيع بين الأمم.

والألماني جسور صبور على المشقات، جامد الحركات. على أن فيهم من أصحاب خفة الدم الفكاهي جماعة لا يبقون على القلب هماً من النكات والحركات التي يعملونها لجلب الفرح والبشر الى من يُجالسونهم.

وفي باويره أديرة وصوامع وكنائس بديعة، منها كنيسة في ميوينخ غاية في الجمال، ومنظرها الخارجي يشبه الأبنية الصينية بزخرفتها.

ميونيخ

هي العاصمة كما قلنا، واقعة على نهر أزار. تبعد عن برلين ما يزيد عن ٥٠٠كم، وعن عاصمة النمسا فيينا ٣٦٠كم. وهي بلدة جميلة جداً مع صغرها فيها مكتبة جميلة متوسطة. وبها ما يقرب من مليون و٣٠٠ ألف كتاب مطبوع، وفيها كثير من الكتب الخطية. لم أتمكن من البحث عنها في هذه الزيارة الخاطفة. وفيها المستشفيات الراقية، أعجب بها رفقائي الأطباء. وفيها دار أيتام عظيمة. وهي مشهورة بمطابعها الكثيرة التي كانت في مقدمة مطابع الدنيا في تلك الأيام. وفيها محلات للتسلية، وصالونات عظيمة للاجتماع، منها قاعة عظيمة، وهي صالة «هوف براون الملكية».

لينز

تبعد هذه البلدة الصغيرة عن فيينا ١٥٠كم إلى الغرب، وتقع على ضفة نهر الطونة[1] المشهور. أهلها ألمان بكل ما فيهم، غير أنهم أرق طبعاً من الألمانيين. وبالرغم من ذلك فقد تحملنا من العَنَت شيئاً كثيراً لعدم معرفتنا لغات الأمم التي دخلنا بلادها.

قضينا يوماً فيها في «أوتيل» متوسط، وحضرنا تمثيل رواية في مسرحها الوحيد، وهو مسرح صغير بديع البناء. وفيها مدرسة هندسية، ودار للمعلمين ومدرسة إعدادية تجهيزية. كما أنَّ فيها مدرسة خصوصية للبكم والصم. وقد أعجبتني جداً، لكن عدم معرفتنا للغة جعلني أطوي بحثي عنها لأني لم أتمكن من معرفة تاريخ تأسيسها، ومن هو المؤسس، وما هو عدد الطلاب، وما هي الأعمال التي يُعلّمونهم إياها. وقضاء يوم واحد في بلدةٍ لا يساعد السائح على دراسة حالة هذه البلدة حتى ولو كان يحسن لغة أهلها، فكيف بنا ونحن لا نعرف حرفاً واحداً من هذه اللغة.

---

(١) يُعرف بنهر الدانوب، طوله ٢٨٥٠كم، يصب في البحر الأسود.

ولمّا عرف أهلُها أننا عثمانيون أخبرونا أنَّ في هذه البلدة «فبريكة» طرابيش تصدر مصنوعاتها إلى بلادنا. وكل من حدَّثنا عن هذه «الفبريكة» كان يتكلم بافتخار وعزة كأنه «قاطع رأس البرمبو»!

وفي هذه البلدة «فبريكة» جوخ حكومية. ولم أدرِ الحكمة من ذلك، ولم تقع عيني على غير هذه الفبريكة للحكومة في جميع مراحل سياحتي. لأنه من المعلوم أنَّ: «حكومة وتاجرة» لا يصح أن تكون. وفي هذه البلدة -مع صغرها- معامل للسجاد والدخان والبارود. والذي يلفت النظر فيها «ترسانة» للسفن التي تجوب نهر الطونة بصورة خاصة. ومصانع البيرة كثيرة على عادة أهل البلاد الألمانية، لأن مشروبهم الوحيد هو البرية، بعكس الإفرنسيين الذين يفضلون النبيذ. وقد ركبنا صباحاً الإكسبريس متجهين إلى بلدة ڤيينا.

فيينا

هذا الاسم يطلق على عدة بلدان في فرنسا. كما أنه اسم نهرينبع من جبال «ميل واسن»، يصب في نهر «لوار». وهذه البلدان والنهر هي غير فيينا التي أذكرها هنا، والتي هي من أجمل بلاد أوربا الوسطى، وهي عاصمة بلاد النمسا والمجر. وهذه الدولة كانت ملكيةً إمبراطورها فرانسوا جوزيف، من سلالة أسرة هابسبورغ الشهيرة. وتقعُ على ضفة نهر تتشكل مياهه من نهري الطونة ونهر ثان يسمى «وبانه» يمر من الجهة الشرقية لبلدة فيينا.

الإمبراطور هو لقب يطلق الآن على ملوك أوربا العظام، وهو أعلى من لقب الملك، ومعناه: آمر أو قائد أو أمير. وقد أطلقه الرومانيون على قوادهم عقب انتصارهم على أعدائهم. وبعد زوال الجمهورية الرومانية لقبوا القيصر بالإمبراطور، وذلك سنة ٤٥ ق. م. وجرى هذا اللقب على ملوك الرومان بعد ذلك إلى أن لقَّب البابا الملك شرلمان إمبراطوراً على الغرب، ثم لُقّب به ملوك روسيا ونابليون. وصار يعطى اللقب لكل صاحب مملكة واسعة إلى أن وصل إلى النمسا.

وما كدنا نصل المحطة حتى تقدم منا بعض خدم الفنادق كل واحد منهم

يحمل علامة الفندق الذي ينتمي إليه، إما على قبّعته وإما على صدره. وقد جدنا شاباً يتكلم الإفرنسية بين هؤلاء الخدم، فاتفقنا معه على الذهاب إلى الفندق الذي يدعونا إليه. وبسرعة فائقة أحضر حمّالاً نقل حوائجنا إلى العربة التي استأجرها. والعربات كانت مصفوفة خارج المحطة بنظام بديع، حيث لا يحق لأحد أن يتقدم على أحد. بل يركب المستأجرون العربة الأولى ويأتي غيرهم يأخذون الثالثة والرابعة.. وهكذا بحيث لا يختلُّ النظام من تدافع العربات نحو الركابُ كما كنا نرى في بلادنا.

واتجهنا نحو الفندق الواقع قرب الساحة الكبيرة المسماة «باتر»، وهي مركز حركة فيينا، مثل المرجة عندنا. ولما وصلنا الفندق واسترحنا قليلاً غسلنا وجوهنا وغيّرنا لباسنا، لأنّ المسافر كان يلبس في السفر الثياب العتيقة، حتى ولو كانت خرقة، خوفاً على لباسه النظيف، لأن السفر كان يضني المسافرين وتتسخ ثيابهم من القطارات ومن الأسود المتراكم فوق المقاعد ونوافذ القطار. لهذا كان المسافرون يرتدون الثياب العتيقة تخلصاً من الأوساخ.

خرجنا من الفندق لتناول الطعام، لأن فندقنا كان للمنامة فقط. والغريب في مثل هذه البلاد يضيع إذا لم يكن نبيهاً. وبكل صعوبة وجدنا مطعماً، فدخلناه وجلسنا على مائدة منحرفة، «وتعال نتفاهم مع الكرسون بقى». وبكل صعوبة تناولنا وجبة العشاء، وبعد أن قمت إلى المطبخ ورأيت بعيني أصناف الطعام في الطناجر، وأشرت إلى الطاهي عن الأنواع التي نريدها. وطعام الألمان لم يتفق مع أذواقنا. ولذا فإن طاهينا «الدكتور» أحمد راتب استلم الأمر وجعل يطعمنا من طبخهُ النفيس الذي كاد يخرجنا عن ديننا. لأنه ادّعى معرفة الطبخ وهو بعيد عنه بعد الأرض عن السماء. نعم كان يعرف قلي البيض وشوي اللحمة. ولكنه أكثر الأحيان كان يحرقها على النار، حتى إنه كان إذا صنع لنا صحناً من السلطة يضطرنا بعض الأيام لغسل السلطة بالماء لتخفيف تأثير الملح الذي يضعه فنقول له:

يا«دقتور» لماذا أكثرت الملح فيقول: يا ناس لم أضَعْ غير حفنة! والحفنة معلومكم يمكن أن تكون أوقيه، وهكذا قضينا هذه السفرة طعامنا «ملفوص» من تحت يد هذا الدكتور الطباخ، وعلى كلٍّ أكثر الله خيره فإنه أطعمنا «قوت ولا تموت».

شوارع فيينا وقصورها ومعالمها

إن شوارع هذه المدينة عريضة، وباحاتهاواسعة. والشوارع الحديثة والقريبة من دوائر الحكومة نظيفة. أما المحلات النائية فيها فهي كثيرة الأوساخ، حتى إن في بعضها أوحالاً مثل طرق القرى.

أما طعامها فلم تألفه أبداً، بعكس طعام الإفرنسيين. إذ كان المطبخ الإفرنسي آنذاك يفوق زميله الألماني، خصوصاً في طبخ اللحوم.

والبلديات في كلا الدولتين ساهرة على الأسعار. فلكل حاجة سعر مكتوب على لوحة صغيرة لا يمكن للبائع أن يُخالفه، والحاجات إذا كانت من حاجات اللباس أو الطعام، مرصوفة في واجهات المخازن بشكل بديع يستلفت الأنظار.

و«البوليس» الشرطي النمسوي غاية في اللطف، والرقة من طبائع النمسويين، والشعب النمسوي مشهور بالأدب المعروف عندنا «بالتربية الحسنة وحُسن الخلق». وهو ذو لباس أنيق، وحركاته رشيقة. والأفراد الذين يستخدمون في الباصات الكبيرة وفي دوائر الحكومة جميعهم من أصحاب الأجسام الطويلة والأشكال الجميلة. والشرطي يوحي الاحترام بما يبديه من الرقة، وما يتخذه من الأوضاع الرسميّة.

أما السلام الرسمي فهو شرط على الشرطي، يؤديه إلى كل من كلَّمه من الناس غريباً أم من أبناء البلاد، أميراً أم حقيراً، تاجراً أم جانياً فاجراً. وهذا السلام الذي يؤديه الشرطي لهؤلاء هو نفس السلام الذي يؤديه لرؤسائه.

وفيينا مشهورة بقصورها وجمال أبنيتها. ومن أبدع قصورها قصر ماريا تريزا المطلّ على حديقة «براتو»، وهو القصر الشتوي لهذه الملكة. ولها قصر صيفي

خارج ڤيينا. والقصر الملكي «شون بروتين» من أبدع وأجمل قصور الدنيا في منظره الخارجي. وكم تمنيت الدخول إليه للتفرج على ما في داخله، ولكنني لم أتمكن من ذلك لسوء حظي. ومن قصور ڤيينا الجميلة قصر البلدية.

وبلدية ڤيينا لها قصر من أبدع قصور الدنيا، والحركة في دوائرها دائمة ومنتظمة، لا يمكنك أن تسمع صوتاً لأحد عند التكلم. الجميع يحكون همساً، والأوراق عندما يقدمها أصحابها تحول إلى أصحابها دون كلام. وصاحب المعاملة لا يسأل المحوّل عن شيء، بل يقرأ الحوالة ويذهب بنفسه إلى الغرفة المحولة إليها المعاملة. وقد خطرت ببالي دائرة بلديتنا عند وضع أقلام البلدية بالمزاد. والشغب فيها وارتفاع الأصوات بالكلام والمناداة، كأن الإنسان في سوق من أسواق الشرق. وكلما رأيت شيئاً يستلفت النظر كنت أتمنى أن يكون في بلدتي مثله. وقد غبطتُ الشعب النمسوي على أخلاقه وهدوئه، وتمنيتُ أن يكون الشعب السوري مثله في جميع النواحي.

ضِعْتُ في ڤيينا

وقد أخبرني رفاقي أنهم سيحضرون عملية جراحية في المستشفى البلدي الكبير غداً، وطلبوا مني أن أحضر لهم الطعام لأنهم لا يتمكنون من الحضور قبل الظهر، لأن هذه العملية تعمل للمرة الأولى، وقد قرؤوا عنها في الصحف، وهي حديث الناس. وعليه فإن أحمد راتب، طاهينا المحبوب، سوف لا يتمكن من إعداد وجبة الغداء. وقد أوكل أمرها إلي.

وفي الساعة الثامنة خرج الأطباء إلى المستشفى، وخرجتُ للتنزُّه، على أن أعود قبل الظهر لإعداد الطعام. وكان فندقنا قرب الباحة الكبيرة التي هي مجمعُ خطوط الترامواي. فخطر لي أن أركب حافلة وأبقى فيها ذهاباً وإياباً، فأتفرج على الشارع الذي تمر به دون أن أنزل منها. وما كدت أسير مقدار كيلو مترين حتى وجدت جمعاً عظيماً يقف أمام قوس كبير يمر الجنود والعربات والسيارات من تحته. وهذا القوس متصل بحائط عريض يمر فوقه القطار الحديدي.

وسألت الواقفين: ما هذا؟ فقال أحدهم: «مليتير»، يعني عسكر. ولم أفهم غير هذه الكلمة. فنزلت من الترامواي، ورقم الحافلة (٨) أبقيته في ذاكرتي لأعود فيها بعد الفرجة. ووقفت بين الناس.

وكان المدعوون من المشتركين في الاحتفال يلبسون اللباس الرسمي. والنمسويون مشهورون بحسن لباسهم العسكري. وكانت القبعات المزيَّنة بالريش ومختلف الأشكال تستلفت النظر. وبعد وقوف ساعتين تقريباً رجع المدعوُون، ثم بدأ الجيش يمرّ بصنوفه الثلاثة: المشاة والخيَّالة والمدفعية. وجعل الجيش يدخل تحت القوس ويتفرق في الطرق المتفرعة في حديقة كبيرة. ودخلتُ وراء الجيش ظناً مني أنه ذاهب للاحتفال بشيء أمام سراي الإمبراطور. وما كدت أسير قليلاً حتى تفرقت قطعات الجيش في طرق الحديقة، وبقيت وحدي وأنا لا أعرف الألمانية. وتفقدت بطاقة الفندق فلم أجدها في جيبي. ونسيت اسم الفندق الذي أنزل فيه. ولم يبق في فكري إلا رقم حافلة الترامواي.

وجعلتُ أفتش عمّن يتكلم الإفرنسية أو اللغة التركية أو العربية فلم أجد. وبقيت وحدي، كما أني نسيت بطاقة الفندق التي فيها اسمه في جيب ردائي الذي كنتُ أرتديه في اليوم السابق. وفيينا بلدة كبيرة كما هو معلوم. وجعلت «أحوصُ وألوص» من مكان إلى مكان، والوقت يمرّ، وأنا بعيد عن الفندق. ولم أعدّ أي شيء من الطعام لرفاقي الذين سيعودون من المستشفى الذي حضروا فيه العملية الجراحية. وماذا أصنع وقد أوكلوا إليّ أمر إعداد طعام الغداء؟

جعلتُ أركض من «ناح لناح» وأنا مضطرب، فلم أجد من يفهم كلامي، كما أني لم أفهم من أحد أي كلمة. ولذا سرت إلى شرطي يقف في أحد الشوارع، وأريته حافلة ترامواي، وقلتُ له بالإشارة أريد الحافلة رقم (٨)، ففهم عليّ وسار معي إلى رفيق له كان واقفاً في آخر الشارع، وأفهمه غرضي وحدَّثه عن طلبي، واستفهم مني فأشرت له على ترامواي، وكتبت له رقم الثمانية بالحروف الإفرنجية (8)، وهزّ رأسه، وسأل سائق ترامواي عندما وقف في المحطة الخاصة لوقوف

الترامويايات عن الحافلة رقم (٨) فدلّوه على موقفها. وسار وسرت معه، وأوصلني إلى زميله الواقف في شارع ثانٍ، وهذا أوصلني إلى غيره. وبعد مسير أكثر من ساعة وصلت إلى ساحة «باتر» العمومية بصحبة الشرطيين، وهي الساحة التي ركبتُ منها. وعرفت الساحة والفندق، وشكرت الشرطي وصافحته، وهذا حياني التحية الرسمية وعاد من حيث أتى.

وكانت الساعة قد شارفت الظهر، وكان أمام الفندق حانوت «بقال»، كنت رأيت عنده بالأمس في واجهة الحانوت بين البضائع عدداً من بيض الدجاج. ودخلت الحانوت وأخذت ما أريد من الزبد والخبز والزيتون والبطاطا. وكل صنف كنت أشير إليه بيدي فيعطيني منه حاجتي. والتفتُّ إلى الواجهة وإلى المنضدة التي أمامه فلم أجد بين الحاجات بيضاً. فجعلت أشير إليه بيدي لأفهمه ما أريد فلم يفهم، إلى أن أخذت منديلي الأبيض وصررته بشكل بيضوي وأريتُهُ إياه مصحوباً بقولي «كوكو كوكو». وهنا فهم وضحك هو وجميع المشترين، وذهب إلى داخل الحانوت وأحضر ما أردت من البيض. وكلما دخل أحد المشترين من نساء ورجال جعل يحدثهم حديث البيض ويقول: «كوكو كوكو»، وهم يضحكون.

أخذتُ ما طلبت، وكنت أفكر أن أصنع لهم لوناً من الطعام مغذياً ولا يحتاج إلى وقت طويل، فاخترت «المفركة بالبطاطا». وأحضرت حوائجها كما قلت. ولم يمضِ عليَّ ساعة حتى حضرت لهم الطعام. ووصل الإخوان، وأكثرهم جوعاً الدكتور الأمير عز الدين الشهابي، إذ «وصل مرهقاً». وجلسنا إلى المائدة وأكلوا بشهية عظيمة وهم يضحكون من هذه الطبخة. ولا أبالغ إذا قلت إن الإخوان نزلوا بهذه الأكلة مثل «الجاج الأعمى» من شدة الجوع لتأخرهم عن وقت طعامهم مدة ساعتين لأن عادتنا كانت أن نتغذى في الساعة الثانية عشرة تماماً.

وقد اجتمعتُ أمس بالمصادفة بالأمير عز الدين وتذاكرنا في هذا الغذاء فقال إنه لم يزل طعمه تحت أضراسه إلى اليوم. فقلت: دخلك قم تمضمض واغسل فمك إذاً لتتخلص من هذا الطعم.

هذه العاصمة من أرقى عواصم أوربا، فيها مدرسة للمستشرقين تسمّى «ترزيانوم». وهي مدرسة عالية لتحصيل اللغات الشرقية. وفيها خمسة مكاتب «إعدادية» تجهيزية. أما جامعتها فلها عدة فروع، منها الطب، وهذا الفرع من أشهر مدارس الدنيا في الطب، وفروع للهندسة بأنواعها، وفيها مدرسة للبيطرة، وعدة مدارس أخرى للصنائع، ومدارس موسيقية. ولها «كونسرڤاتوار» عظيم. وفيها مجمع علمي راقٍ، وفيها مسارح كثيرة أجملها «دار الأوبرا» وحدائقها منسّقة أحسن تنسيق.

وقد رأيت في إحدي الحدائق حائطاً من شجر ارتفاعه أكثر من ارتفاع شجر الحور في بلادنا، ورقه مقصوص مثل ما يقص ورق أوراق أشجار المرجان عندنا قصاً صناعياً. وكان طول هذا الحائط أكثر من خمسمائة متر. وهذا النوع من الشجر يقصّون أغصانه المتفرعة من جهاته الثلاث، ويتركون الجهة التي يريدون تربية أوراقها ويهندسونها بالشكل الذي يريدونه حتى إن الحرش الواقع خلف هذا الحائط فيه طرق كالأنفاق من هذا الشجر المقصوص يحار المرء من حسن صنعه.

أما مصانع ڤيينا فحدّث عنها ولا حرج، لا يمكن للإنسان أن يتصور شيئاً من الأشياء لا يوجد له مصنع أو مصانع في هذه البلدة. وقد اشتهرت فيها مصانع الآلات الموسيقية وصياغة المجوهرات، وفيها مطابع كبيرة جداً من أشهر مطابع الدنيا. ونفوس هذه البلدة كان يقرب من المليون ونصف.

أما الجيش النمسوي فكان مشهوراً بحسن رمي المدافع الثقيلة. وكانت مدفعيته تحسب لها الدول حساباً، ولباس الجيش خصوصاً الرسمي من أجمل أشكال اللباس العسكري في العالم. والجندي النمسوي لطيف بالطبع. ويمكن أن أقول إن الضابط النمسوي أرق ضابط رأيته بين ضباط الدول. وقد عاشرت كثيراً منهم في الحرب العامّة. وسأذكر ذلك عندما أصل إلى بحث الحرب.

وفي أوربا عادةٌ جارية لا يعرفها الشرق آنذاك، وهي إقامة التماثيل للرجال العظام في الباحات العامة والمؤسسات الكبرى والقصُور. ومن البلاد التي اشتهرت بإقامة التماثيل بلاد النمسا. وقد رأيت في فيينا تمثالاً بديعاً للإمبراطور فرانسوا جوزيف غاية في دقة الصنع، وهو من أجمل تماثيل العالم.

وقد جرت حادثة لطيفة أثناء زيارتنا لحديقة الحيوانات، لا بأس من ذكرها هنا. دخلنا هذه الحديقة الجميلة التي تجمعُ أصنافاً وأنواعاً كثيرة من الحيوان. وهي لا تقل عن مثيلاتها في العواصم الأوربية في العظمة، والدخول إليها مباح لمن يشاء. وقد وصلنا الى بناء صغير للقرود والببغاوات. ولم أدرِ الحكمة من جمعها في مكان واحد. وهذا القسم عليه ضريبة دخولية. فمن أراد التفرج يدفع ثلاثة «هيلدرات». والهيلدر واحد من عشرين من المارك النمسوي، وقد دفعتُ ودخلت هذا البناء وحدي، لأن رفقائي امتنعوا عن الدخول بسبب تعبهم، وأرادوا الاستراحة على مقعد في الحديقة قريباً من محل القرود.

في هذا البناء أقفاص كبيرة من الشريط المتين على شكل مربعات ومستطيلات متينة في الجدران. وفي كل قفص قردان أو ثلاثة. والبّبغاوات في أقفاص صغيرة معلَّقة بسلاسل متدلية من السقف.

وبينما أنا أتفرج على قرد كبير، وإذ بقرد إلى جانبه يتأمله بهدوء ويجيل نظره في رفيقه وينقله من أعلى إلى أسفل وبالعكس. ثم مدَّ يده بخفَّة ودفع كتفَه وأرجعهُ بسرعة. وقد حوّل نظره كأنه لم يفعل شيئاً. أما القرد الذي «نُعر» فقد أدار وجهه وتفرَّس في رفيقه ولم تبدر منه أية بادرة. وبعد أن حوَّل نظره عنه عاد الأول، وكان يعاين حركات رفيقه بمؤخر عينه، فدفع رفيقه بسرعة دفعة أشد من الأولى –نعرة قوية– وحوَّل عنه نظره كأنه لم يفعل شيئاً. وأعاد «المنعور» النظر بهدوء. ولم تبدر منه بادرة. وما كاد يحوّل نظره عن رفيقه حتى أعاد الأول «النعرة» بسرعة وبصورة أشد من الأولى. وهنا شب المطعون على رفيقه وتشابكا بعراك شديد. ولم ينفصلا

عن بعضهما حتى تداخل المروّض بينهما، وهددهما بسوطه، وهما ينظران إلى بعضهما نظرات ملؤها الحقدوالعداء.

وقد تأكد لي أن هذه الحركة غير مصطنعة، بل هي بنت ساعتها. ولو لم أرها بعيني لم أصدّق، أن حيواناً يقوم بمثل هذه الحركات. وخرجت وأنا أضحك من ذلك. وحدَّثت رفقائي بها فندموا على حرمانهم من هذا المنظر ومشاهده هذه الرواية الطبيعية.

في ڤيينا متحف من أغنى المتاحف، يضم تحفاً كثيرة لا تُحصى، والذي يلفت النظر فيه جثة محنَّطة أخبرونا أنها هدية الحكومة المصرية إلى الدولة النمسوية. وفي الحقيقة كانت مثل المومياء التي رأيتها في سفري إلى مصر. وكانت زيارتنا لهذا المتحف خاطفة لضيق الوقت. فلم نتمكن من التفرج على جميع محتوياته. واكتفينا بنظرة عابرة أعطتنا عنه فكرة بسيطة، نقدر أن نقول بعدها إننا زرنا متحف فيينا بزماننا. أما بناء المتحف فلم يكن عظيماً بالنسبة للأبنية المشهورة كبناء قصر البلدية الذي قلّ أن يوجد مثله بين القصور العظيمة.

عدنا إلى الفندق وقد أثرَّ التعب فينا لكثرة ما مشينا هذا النهار. وبعد أن استرحنا قليلاً قمنا لإعداد أمتعتناوتهيَّأنا للسفر. وفي الصباح غادرنا ڤيينا بالقطار إلى بودابست عاصمة المجر.

بودابست

في الصباح الباكر صحونا وحاسب الأميرُ الشهابي صاحب الفندق، فكان ما أصاب كل واحد منا أجرة النوم ما يقرب من الليرة الافرنسية ذهباً في الأيام الثلاثة، وأصاب الخدم من الإكرامية «البخشيش» بقية الليرة.

وركبنا القطار إلى المجر. والمسافة بين ڤيينا وبودابست تزيد على المئة كيلومتر قليلاً. وهي واقعة في الجنوب الشرقي من ڤيينا. والزراعة في النمسا تشبه غيرها من زراعة البلاد الأوربية. والفلاح النمسوي كالفلاح الألماني.

ولما دخلنا حُدود المجر تبدَّل معنا شكل اللباس والعادات. وظهر الفرق بين العنصر الهنغاري والنمسوي. والهنغاريون أقرب إلى الشرقيين منهم إلى الغربيين. وهم من ألطف الشعوب وأرقهم. والجمال خارق في كلا الجنسين. وفي بلاد المجر ومابعدها قدِرنا أن نجد مترجمين من أهل البلاد. فبالمجر البوسنويون، أعني أهل البوسنة، وهم مُسلمون متدينون متمسكون بالعوائد الشرقية. ونكاد لانرى رجلاً من البوسنة لايعرف التركية. وأهل البوسنة يؤمّون بلغراد للعمل فيها. وقد وجدنا بعض الراحة بمناسبة الترجمة بعد العذاب الذي لاقيناه في بلاد الألمان والنمسا.

ووصلنا بودابست قبل الظهر، وهي بلدة جميلة جداً، غاية في النظافة وهذه البلدة هي عاصمة بلاد المجر. فهي أصغر من العواصم الغربية، ومن أكبر البلاد الشرقية التي تقع على نهر الطونة. وهي قسمان: بوده وبشته. فبلدة بوده أصبحت محلة من محلات بشتة، ولهذا سمّوا الاثنين: بوده بشته. والعثمانيون يقولون: بودا بسته، بالسين المهملة. وقد أخذناها عنهم.

نزلنا في فندق متوسط، وتناولنا الطعام في مطعم قريب. وتنقلنا في البلدة نتفرج ونحن مشاة. والسيارات لم تكن معروفة في هذه البلدة. والركوب كان بالعربات «الحناتير». ومن الصعب التفاهم مع «العربجية» الحوذيين، خصُوصاً الغريب الذي لايعرف لسان الحوذي. وهذا ليس في المجر بل في جميع البلدان في العالم.

وبعد مسير بضع ساعات على الأقدام تعبنا، فجلسنا في مقهى أمام مجلس «المبعوثان» النواب. وهناك وجدنا أحد البوسنين. ولما عرف أننا عثمانيون عند سماعه كلامنا العربي، لأنه مسلم ويقرأ القرآن، تقدَّم منا بلهفة وسلَّم علينا «سلام الأحباب إذا كانوا غيّاب». وجلس معنا وأرانا بناية المجلس، وهي واقعة في ناحية بشته مع دائرة العدلية وباقي دوائر الحكومة مبنية في ناحية بوده.

المدارس في المجر

كان في المجر مدرسة للفنون الجميلة، ومدرسة حربية، وعدَّة مدارس

«إعدادية» تجهيزية. ومدارسها الابتدائية قليلة بالنسبة لغيرها من البلدان التي تماثلها. وفيها مسارح نظيفة ودار كتب عامرة. وفيها حديقة للنبات، وفيها مصانع كثيرة، وهي مركز مهم للتجارة في أوربا الوسطى.

وفي بودابست جسر على نهر الطونة يسمونه جسر«روتشيلد»، من أجمل جسور العالم. وأهلها قريبون في عاداتهم من عادات سكان الولايات التركية. لأن الأتراك حكموها مدة غير قليلة. ولهذا بقيت الطبائع التركية مطبوعة في السكان. وبالرغم من تغيُّر اللسان فإن الإنسان يحسُّ أنه في بلاد روح أهلها قريبة من روحه.

وبعد الاستراحة عدنا إلى الفندق، وتناولنا شيئاً من الطعام الذي أحضره الدكتور أحمد راتب. وفي المساء ذهبنا إلى مسرح جميل -تياترو- كانت تمثل فيه رواية باللغة المجرية، لم نفهم منها شيئاً، لأنه لايوجد من يترجم لنا الكلام آنذاك والسائح مفتقر بالضروري إلى دليل يتكلم لغة البلد التي يزورها».

قضينا يوماً في بودابست. وركبنا في اليوم الثاني القطار إلى صربيا -يوغوسلافيا اليوم- ووصلنا عاصمتها بلغراد. وكانت واقعة على حدود المجر في الجنوب، وأهلها في طبائعهم وأشكالهم مثل سكان الولايات العثمانية في «الروم إيلي». وفيها كثيرون ممن يتكلمون التركية من أبناء «الكروات» من أهل البوسنة وغيرهم من أبناء الروم إيلي الذين دلفوا إلى بلغراد حتى ومن أهلها أيضاً.

بلغراد

عاصمة مملكة الصرب. حاكمها الملك بطرس[1]، وهو من الملوك المشتهرين بالعقل والحكمة، ومن الذين خدموا بلادهم خدمات عظيمة. وهو محبوب من رعيَّته، ومعنى بلغراد بلسان الصرب القلعة البيضاء أو «الاستحكام الأبيض». وهي واقعة عند ملتقى نهر الطونة بنهر «صاوة».

---

(١) بطرس الأول ١٨٤٤ -١٩٢١، ملك صربيا ثم يوغسلافيا ١٩٠٣ -١٩٢١م خلفه ابنه بطرس الثاني الذي أطاح به تيتو سنة١٩٤٥م.

وفي بلغراد بعض المساجد القديمة، وكلها خربة. والقلعة واقعة على تلة عالية تشرف على ملتقى النهرين. وفي هذه القلعة قبر مصطفى باشا أحد الولاة الأتراك الذين حكموها. والقبر منوّر بقنديل. وقد فهمنا من أحد أبناء البوسنة أن هذا القنديل يبقى مشتعلاً ليل نهار. والحكومة الصربية مجبرة على إشعاله دائماً، لأن هذا العمل داخل في المعاهدة المعقودة بين الأتراك والصرب، هذا ما قاله البوسنوي، والعهدة على الراوي.

وفي صوفيا محلّة للمسلمين ومحلة لليهود، وهم كثر فيها. وأعظم تجارتها في أيديهم. وحيُّهم قريب من الحي الإسلامي. وأهل الصرب أكثريتهم «روم أرثوذكس».

ولمّا تعبنا بعد عودتنا من القلعة، جلسنا في إحدى الباحات على المقاعد العمومية للاستراحة. وإذ بجنازة كبيرة تمرُّ أمامنا. وقد لفت نظري ابنة المتوفى. وهي فتاة في زهرة الربيع، سائرة إلى جانب والدتها وعلى وجهها قماش رفيع من الحرير الأسود. ولباسها مع لباس والدتها كلّه أسود. وكان وجهها كالبدر يعكس نوره على التول فيزيد بهاءه بهاءً. فأخذت بهذا الجمال وقمت حالاً أتبع الجنازة. وبقيت سائراً جانب أهل الميت وأنا بلباس السفر، وفي رقبتي منظار «دوربين»، وتحت إبطي محفظة من جلد، وعلى رأسي «كسكيت»، وهي قبعة معروفة للسفر، ويلبسها العمال أيضاً في أوربا.

ولما وصلنا الكنيسة دخلت مع المشيعين، وجلست في المقعد المقابل لمقعد آل الفقيد. ودامت الصلاة مدة غير قصيرة، وأدركني الوقت وخفت التأخر، فاضطررت أن أخرج من الكنيسة وحيداً، فقمت وكان في حذائي «ميّالة . . كعبية» وضعتها فيه لتحفظه من البلاء لكثرة السير في هذه السياحة. فلما خرجت خرج صوت وقع الحذاء بصورة سمعها جميع القريبين مني. وما وصلت إلى باب الكنيسة حتى «انسلق بدني من الخجل». وما كدت أخرج من الباب حتى نفضت غبار الموت عن كتفي، وأقسمت أن لا أعود إلى مثل هذا العمل.

ووصلت إلى عند رفقائي الذين لاموني على هذه المدة التي غبتها عنهم، وقد قرب موعد القطار. فسرنا إلى المحطة، وقد أودعنا أمتعتنا عند أحد الموظفين فيها.

ثم جلسنا في مقهى المحطة. وكان في المقهى جانب صندوق «القهوجي» صاحب المقهى حاكي «فونوغراف». وإذ بفلاح صربي يتقدم من بوق الحاكي بحذر ويدير الإبرة الدائرة. ثم وقف قليلاً وصلَّب على وجهه وانهزم وهو يصرخ: شيطان شيطان، والنّاس تضحك. ويظهر أن الحاكي كان إدخاله إلى بلغراد في تلك المدة، والناس يجهلونه. وبقينا في بلغراد إلى الساعة العاشرة تقريباً، إلى أن وصل القطار فركبنا إلى بلغاريا.

سار بنا القطار قاصداً بلغاريا، ووصلنا إلى محطة كبرى في بلاد الصّرب. وكان المتفرجون على القطار يقفون في المحطة، فسألت رجلاً منهم باللغة التركية: كم دقيقة يقف القطار في هذه المحطة؟ فأجاب: يقف نصف ساعة. فقمت لقضاء الحاجة. فقال لي الأمير شريف شهاب: املأ لنا الإبريق ماء. وكانت تصحبنا في عربة القطار جوقة موسيقية كبيرة فيها بضع سيدات من المغنيات والراقصات المختلفات الجنسية من مجر وروم، وجميعهن يتكلمن التركية. فطلبت من سيدة وجيهة «من الأرتيستات»، وهي أجملهن، أن أملأ لها إبريقها أيضاً.

ونزلت من القطار وملأت الأباريق ووضعتها جانب المضخة على حافة البئر. وما كدت أدخل بيت الخلاء إلا وصفر القطار. وكنت لم أبدأ العمل، فأسرعت بالخروج من الخلاء. «فتصوروا الحالة وفسّروا كما تشاؤون». وما كدت آخذ الأباريق في يدي حتى تحرك القطار. وكان رفقائي وأفراد الجوقة الموسيقية ينظرون إليّ من نوافذ القطار بتحرق. وكنت تركت ردائي «الجاكيت في الحافلة. وليس معي ولا فلس واحد. وكل دراهمي مع الأمير شريف الشهابي.

وكانت المسافة بيني وبين القطار مقدار ٢٠٠ متر، فركضت، وأسرع القطار بعد خروجه من المحطة وأنا أركض. وقد غبتُ عن أعينهم، وبقيت أركض إلى أن وصلت إلى آخر عربة، فوضعت الأباريق على مرتقى القطار وتعلّقت به وأنا على

آخر نفس . . وبعد أن استرحت قليلاً من الركض دخلت من باب آخر حافلة . وأجلسني الركاب عندهم قليلاً حتى عادت إليّ نفسي من شدة الركض . وجعلت أدخل من حافلة «فركون» إلى حافلة . وكان القطار يسحب ستين حافلة .

وما كدت أدخل الحافلة خاصتنا حتى قامت الضجة بين ركابها ، واستقبلوني بالهتاف . ورأيت صاحبة الإبريق تبكي . فقلت لها : علام تبكي «يا تقبري عيني»؟ قالت : كنت أبكي على انقطاعك عن القطار . قلت : لا وحياة عينك بل كنت تبكين على الإبريق . وهاك إبريقك . وكان الإبريق مملوءاً بالماء . وإني لأعجب كيف تمكنت من المحافظة على بقاء الماء في الأباريق ، وقد ركضت بها مئات الأمتار . ولم أسلّمها الإبريق إلا بعد أن تعهّدت لي بأن تعمل الجوقة لنا فصلاً إكراماً لهذه «التعبة» التي تعبتها في سبيلها .

وهكذا كان . فقد قام الآلاتية إلى آلاتهم ، وأخرجوها من حقائبها و«دوزنوها» أصلحوها ، وأجروا لنا فصلاً ممتعاً كان من أحلى الفصول ، وبعدها وقف كل من كان بين الركاب في الحافلة من نساء ورجال ، وجعلنا نرقص في أمكنتنا على الآلات ، والجميعُ فيَ هرج ومرج . ومضت ساعة تعدُّ في الأعمار ، وكل هذا من أجل إبريق الست .

وإني أنصح كل من يسافر إلى بلدة أن لايكتفي بسؤال الناس في المحطات عن حركة القطار بل يذهب إلى مكتب مدير الحركة ويسأل منه . وبذلك يحفظ نفسه من الوقوع بمثل هذه الخطيئة .

بلغاريا

ومنذ أن أطل القطار على صوفيا ، ظهرت لنا قلعتها عن بعد . ووصلنا المحطة . وهنا سمعنا الضجيج أكثر مما سمعنا في محطة بلغراد . وكنا كلما تقدمنا من الشرق تزداد الفوضى في محطات القطار . ويرتفعُ الصياح حتى يبلغ في بعض محطات الريف حداً يعافُ الإنسان منه «سماه» لشدّة الضجيج . ولم يزل إلى الآن شيء من هذا في قرى المصايف في سورية كالزبداني والجَديْدة يوم يكون الركاب في المحطة كثيرين .

نزلنا في صوفيا، وأبقينا الأغراض عند أحد موظفي المحطة، وركبنا عربة ودرنا البلدة، وهي قسمان: صوفيا الحديثة، وصوفيا القديمة. فالحديثة فيها شيء من التنظيم، وفيها باحات نظيفة. أما القديمة فإنها تشبه قرى الشرق، وعندما يريك الحوذي هذا القسم يكلّمك بافتخار قائلاً: إن القسم الجديد من عمل البلغار، أما هذه البلدة فهي من آثار الترك الذين دخلوا بلغاريا وقضوا فيها العصور وخرجوا دون أن يحسّنوا فيها شيئاً.

دخلنا بلغاريا، وقد تغير معنا شكل السكّان الذين هم من السلاڤيين أيضاً. ويلاحظ السائح في وجوههم بعض الشبّه للعرق التتري. والبلغاريون رجال أشداء مشهورُون بالقوة والجد والنشاط. وبلاد بلغاريا زراعية، سكانها خليط من الشعوب البلقانية. وأكثر من نصف سكانها «أرثوذكس»، وما يقرب من الثلث مُسلمون، والباقي من العناصر المختلفة. واللُّغات السائدة في بلغاريا هما اللغتان البلغارية والتركية. والمسلمون فيها أكثرهم من العنصر البلغاري الذي اعتنق الدين الإسلامي ويسمّون «بومان». ولباس البلغار مشابهٌ لباس أهلِ البلقان، وهو عبارة عن قبعة من جلد الماعز تشبه «الطاقية» التي نلبسها في بيوتنا. ويفضلون الألوان الداكنة وأكثرها الأسود.

والرداء قصير مفتوح، شبه «الدامر»[1] عندنا، مزركش الحواشي تحته صدرية مفلّتة ليس فيها شيء من الأزرار، وزنّار عريض يستخدمونه كالجيوب يضعون فيه حوائجهم الخفيفة مثل المنديل وعلبة الدخان والكبريت وأمثالها.

كما أنهم يضعُون في الزنانير أسلحتهم الخفيفة كالخناجر والسكاكين و«الطبنجات» وهي ما يسميها الدمشقيون «غدارة» وهو نوع من آلات الرمي ذات الطلقة الواحدة. ومن العادة أن يضع الرجل في زناره اثنين منها دائماً. ولا يمكن أن يضع الرجل منهم غدارة واحدة أبداً. ولهذه الغدارات بيوت خاصة يحملها

---

(١) معطف رجّالي قصير، واسع الأكمام، يُلبس فوق القمباز، وهو غالباً ما يكون من الجوخ المقلّم بالقصب، وهو محرّف من «طومار» التركية. بمعنى بردعة الفرس. موسوعة الفولكلور الفلسطيني صفحة ٦٤٩.

الغـاوون من الشبـان، لهـا سـيـور من جلد يدخلونـهـا تحت إبطهم. وترتكز على الكتف. والبيوت تتدلى من الجانب الأيسر إلى تحت الإبط فوق الفخذ. وبعضهم يزين هذه البيوت الجلدية بمسامير من فضة أو من بعض القطع المعدنية اللماعة.

وتحت الزنار يلبسـون السراويل الجـوخ، وهي مـخـتلفـة الأشكال. وهذه السراويل تصل إلى الركبة. يلفون تحتـهـا على قصبات الرجل لفائف من صوف يسميها العسكريون «كيتر» يلف الساق إلى أن يتصل بالحذاء.

هذا اللبـاس البلغـاري القـروي وأهل المحـلات المتطرفـة في المدن. وبعض حكام البلاد البلقانية يرتدون هذا اللباس المحلي أيضاً.

ولبلغاريا ملك حكم بلاده إحدى وعشرين سنة بصفته أميراً، وهو «البرنس فرديناند»[1]. ومَنْ أحسن بالمُلك من هذا الرجل الذي خدم أمَّته خدمة حقيقية صادقة. فأحبه الشَّعْب حباً ليس فيه أي شبهة، وفي سنة ١٨٨٧م انتخبه مجلس البلغار الكبير ملكاً على بلغاريا بعد أن قاومته الدول التي وقَّعت على معاهدة برلين. وهذا الملك كان يسعى لترويج بضائع بلاده، فيرتدي الأقمشة الوطنية التي تُعمل في بلاده مع خشونتها. وكان يحضّ الشعب على ارتدائها، وهذا ما حدثني به البلغاريون الذين يتكلمون اللغة التركية.

وقد قضينا في التفرج مدة غير قليلة. وبعد أن طفنا مقدار ساعات عُدنا إلى المحطَّة، فوجدنا فيها مطعماً خاصاً لشواء اللحم، تناولنا فيه طعام الغداء. ولايفرق في ترتيبه عن مطاعم «الشوَّايين» اليوم في دمشق، وفيه اللبن الرائب المعروف عندنا باللبن. ويسمى هناك «يوغورت»، وهي كلمة تركية كانت تستعمل أيضاً في باريس. وفي المساء غادرنا صوفيا إلى أدرنة.

(١) ولد سنة ١٨٦٠م، تولى العرش سنة١٩٠٨، دخل الحرب الأولى مع ألمانيا والنمسة، فلمَّا هُزِم، تخلَّى عن العرش لابنه بوريس الثالث سنة١٩١٨م. وتوفي بعد ذلك بثلاثين عاماً.

جسر مصطفى باشا

ركبنا القطار ووقفنا نودع البلدة الواقعة في أوربا الوسطى. فكنا ننظر إلى صوفيا ونفكر بمغادرتنا أوربا ونحسب الحسابات البعيدة، وهل نعود إلى أوربا ثانية أم لا؟ وعلى غير انتباه أخرجنا المناديل من جيوبنا وجعلنا نلوّح بها إلى أوربا.

وسار بنا القطار يقطع الحقول والقرى، ودخلنا الحدُود التركية في ولاية أدرنة. ولم يختلف معنا منظر السكان. وكأن جميع سكان البلقان متشابهون في اللباس والعادات، ووقوفهم «للتفرج» على القطار.

وصلنا جسر مصطفى باشا، ونزلنا من القطار، ووضعنا حوائجنا عند موظف القطار. واسترحنا قليلاً واتجهنا نحو بلدة الجسر.

وجسر مصطفى باشا مركز قضاء في ولاية أدرنة يبعد عنها إلى الغرب الشمالي ٣٠كيلو متراً. ويقع على ضفة نهر مريج، وقد سمي باسم الجسر الذي هو من أجمل جُسور الدنيا. وقد بناه مصطفى باشا الصدر الأعظم.

نزلنا في المحطّة -كما قلنا- وركبنا عربة وسرنا إلى القصبة التي تبعد مقدار ساعة عن المحطة. «وتفرَّجنا» على جامعها الكبير. وفيها بعض الجوامع الصغيرة، وثكنة عسكرية كبيرة. وفيها مكتب رشدية متوسطة ومدرستان ابتدائيتان: واحدة للذكور، وواحدة للإناث، وخمس مدارس ابتدائية للروم والبلغار فيها، ومنها للذكور ولليهود مكتب ابتدائي خاص. وفيها حديقة عموميّة صغيرة للبلدية. وقد سميت باسم الجسر الآنف الذكر.

وقد زرنا دار الحكومة فرحَّب بنا القائمقام، وفرح بنا لأننا من رعايا الحكومة العثمانية، وكنا في أوربا، وقدَّم لنا الشاي، وودَّعناه وعدنا إلى المحطة. وبعد ساعتين تقريباً وصل القطار، وركبناه متجهين إلى مدينة أدرنة.

أدرنة

اسم مدينة في أوربا التركية، وهي قصبة ولاية بهذا الاسم من أكبر الولايات

العثمانية وأرقاها. وتعتبر المدينة الثانية للبلاد العثمانية. وتقع على بعد ٢٥ كيلو متراً غرب شمالي الآستانة، في موقع يعدُّ من أجمل بقاع الدنيا عند مجتمع ثلاثة أنهر: نهر الطونجة، ونهر المريج، ونهر الأردا. سكانها خليط من الترك والبلغار والروم اليونان واليهود وغيرهم من العناصر الفعالة المكدّة، لأنها بلدة تجارية صناعية زراعية، مركزها المتوسط من أصلح البلاد للتجارة.

وفي هذه الولاية حمامات معدنيَّة مثل حمامات بادن السويسرية، ومحصولها الزراعي يكفيها، ويُصدرونَ منها الزائد إلى الآستانة وأوربا وبلاد البلغار والصرب وغيرها من بلاد البلقان. فيها جوامع وكنائس وأديرة ومدارس أجنبية كثيرة. وفيها مصانع للحرير والصوف، ومصنع حكومي للأسلحة. وجوامعها تزيد عن الأربعين، أكبرها وأجملها جامع السلطان سليم ويسمى السليميَّة[1]، وفيها سرايا قديمة خربة كانت مقراً للسلطان مراد. وحول أدرنة سور قديم مخرب من أكثر الجوانب.

قضينا فيها يومين، ونزلنا في فندق صغير يشبه الخان، والأجرة بسيطة. دفعنا عن كل غرفة «بَشْلُكْ»، وهو عملة تركية تساوي ثلاثة غروش وسبع بارات ونصف. وركبنا منها صباحاً متجهين إلى الآستانة، وهنا تمَّت معي هذه السياحة.

الآستانة

ركبنا من أدرنة، وسار بنا القطار يقطعُ الحقول والمزارع الجميلة إلى أن بدت لنا إستنبول بمناراتها العالية. ومن الغريب أن ندخل المدينة من باب أدرنة والمحلات التي بعد المدخل من أقذر المحلات التي تُرى في القرى والدور التي مرَّ بها القطار. حيطانها من ألواح القصدير (التنك) الصدّئ. ولم أر شبهاً لهذه الدور إلا في زيارتي لقرية إزرع سنة ١٩٣٠. وقد أعطيت ملاحظتي آنذاك لرئيس بلدية الآستانة ونبهتّه إلى لزوم تحسين مدخل الآستانة، هذه العاصمة العظيمة. وقلت: من العار

(١) يُنسب إلى السلطان سليم الثاني، بناه عبقريّ العمران العثماني العالمي المهندس المعماري سنان، المتوفى سنة ٩٨٦هـ. دائرة المعارف الإسلامية ١٢/ ٢٢٠ ومابعد.

أن يدخل السائح من أوربا وينظر إلى هذه المناظر المؤذية التي تضر بسمعة الدولة، خصوصاً والآستانة عروسة الشرق.

وقد شكرني آنئذ، ولاأدري هل أصلحوا هذه المحلاَّت أم لم تزل على حالها إلى اليوم. ثم وصلنا إلى أدرنة (قبو).

ملاقة موظف الجوازات

كان السفر سنة ١٩١١ لايحتاج إلى جواز (Passport)، ويسميه العوام عندنا (بزابورط). ولذا فلم يسألني أحد في جميع هذه السياحة عن الجواز إلا في الآستانة. وبالرغم من وجود ورقة النفوس التي أبرزتها لم يقتنع الموظف المختص بما في يدي من الأوراق. وشدد بطلب الجواز أو بدفع الجزاء النقدي. ودفعت ليرة عثمانية جزاء نقدياً حتى سمح لي بالدخول بعد أن تأكد أني من سورية، وأن الذين يعرفوني في الآستانة كثيرون، ومنهم نواب دمشق، ويسمَّوْن (مبعوثون).

وما إن تخلّصنا من مأمور الجوازات حتى جاءنا زبانية (الجمرك) صائحين افتحوا هذه (الشنطة) الحقيبة، افتحوا هذا الصندوق، أخرجوا الأشياء من السلّة -الزنبيل- ففتحنا الحقائب وأخرجنا الأشياء من الزنبيل، (وخربطوا) الحوائج بكل فظاظة. وقد أثّرت علينا هذه المعاملة التي لم نرها في أي بلد من بلاد أوربا. وقد مررنا بفرنسا وألمانيا والنمسا والمجر والصرب والبلقان. وكنا نرى من موظفين (الجمرك)، المَكْس، كل لطف وإيناس، خصوصاً في النمسا.

ومع الأسف كان بين موظفي المكس موظف متعجرف، يظهر من حركته أنه يظن كل الناس الذين يدخلون دائرة الجمرك هم من خدامه. فكان يمشي ويتمختر، ويظهر إلى الناس بعين الكبرياء كأنه قائد جيش عظيم ينظر إلى الجنود الذين في معيّته. ويوجد كثيرون مثله في جميع البلاد الشرقية. يظهر أحدهم أمام الشعب بمظهر السيد الآمر مع أنه مستخدم صغير يعيش من الضرائب التي يدفعها أفراد الشعب إلى صندوق الحكومة. ولكن التربية الأساسية التي يتلقاها الموظف في داره لها تأثير كبير على الشخص. وهؤلاء الموظفون ليسوا في دوائر المكوس فقط، بل

يوجد منهم في جميع الدوائر الحكومية. والموظف الذي يظن نفسه محترماً في عيون الناس عندما يظهر بهذا المظهر هو في الحقيقة عرضة للهزء والسخرية، خصوصاً في نظر رفقائه وزملائه، أجارنا الله من الكبرياء.

والوظيفة في الدولة صنعة كبقية الصناعات. فالموظف المتمرّن ولو كان لا يحمل أي شهادة يمكنه أن يقوم بعمله أحسن من حامل شهادة دكتوراه لم يتمرن.

وعند الدول لكل وظيفة قواعد وأُصُول. وكلُّها مسجلّةَ مكتوبة لا يتقدم الموظف إلى عمله قبل أن يدرس القواعد التي يقوم عليها العمل. ومن الأسف كانت ولم تزل أكثردوائر الحكومة العربية تعطي الوظيفة للموظف، وتترك حبله على غاربه، فيتّكل على العوانية، وويل للموظف الجاهل.

شباب العرب في الآستانة

بينما كنا سائرين في (البك أوغلي) وإذ بالصديق يوسف مخيبر حيدر، الملقب عند رفاقه بـ«مظمطه جي»، يُلاقينا ويرحّب بنا ويدعونا إلى زيارة المنتدى العربي، ليعرفني على عبد الكريم الخليل، رئيس النادي، وعلى أعضائه. وهنا بدأ يحدثنا عن التوتر القائم بين الشبيبة العربية والتركية من طلاب المدارس العالية، ويحثّنا على مقاومة الأتراك ويُخبرنا عن الوقائع التي وقعت بين العنصرين، وكيف أحرق العرب إدارة جريدة تركية لطعنها بالعنصر العربي الكريم، إلى آخر ما هنالك من أخبار تُثير النفوس.

ومع علمنا بميول الأخ مخيبر، وانغماسه بالكيف والحظ، لأنه كان أشهر زير نساء بين رفاقه، أثَّر علينا كلامه وتواعدنا معه على زيارة المنتدى في اليوم التالي. وسنأتي في مقال آخر على وصف المنتدى وتأسيسه وما قام به من الأعمال. وقد فهمنا أثناء هذه الزيارة للآستانة مقدار الاستياء من العناصر التركية الحاكمة، ليس عند العرب، بل عند جميع العناصر الأخرى كالأرنؤوط والروم والأرمن وغيرهم من العناصر التركية.

ولإذكاء الروح التركية، كان شبان الأتراك يقومون بالدعايات اللازمة في الجرائد وتمثيل المسرحيات حتى في المدارس الابتدائية.

ولهذا صار العرب يمثلون الروايات العربية. وهذه رواية امرئ القيس يقوم بتمثيلها بعض طلاب العرب في مدارس إستنبول العالية: وهم الشهيد المرحوم سيف الدين الخطيب (دمشق)، وعادل الطايع وزكي التميمي (فلسطين) وبهجت مردم بك (دمشق)، وعلي أبو السُّعود ومسلم العطار (دمشق)، وكامل الحكيم ووصفي الجندي (حمص)، وجميل الحسني ومعين الماضي (فلسطين)، وتوفيق هولو (بعلبك).

ولما قاموا بتمثيل هذه الرواية دعوا إليها وجوه البلاد من جميع العناصر وهيئة الحكومة، فأحدثت ضجة عظيمة وكتبت عنها الجرائد، وأحدثت ردَّ فعلٍ عظيم عند الشبيبة التركية. وقد درَّتْ عليهم أرباحاً طائلة لأنهم مثلوها مرتين إحداهما في الزهرة، والثانية في (الديوان يولي). وقد جمعوا من ريع الأولى (٥٦٠) ليرة عثمانية، ومن الثانية (٨٠٠)ليرة. وتحمَّس نواب العرب وتبرعوا بمبالغ لابأس بها لهذه الروايات. وقد دفع طالب باشا النقيب[1] من البصرة ثمن تذكرة لوج ثلاثين ليرة إنكليزية.

وبعد ذلك بدأت المنازعات بين شباب العنصرين التركي والعربي. وصار لايجتمع عربي وتركي من الطلاب في المدارس العالية حتى التجهيزية إلا ويجري بينهما حوار وجدل ينتهي بخصومة ونفور على الأكثر. وكلما مرَّ الوقت كانت الأحقاد تتأجج في الصدور. ولم تكن الدولة العثمانية تعنى بإرسال البعثات إلى الغرب، اللهم إلا العسكرية التي كانت ترسل إلى ألمانيا. وأول بعثة أرسلت إلى فرنسا كانت بعد إعلان الدستور الثاني عام١٩١٠ . ولما كانت اللغة السائدة في العاصمة بين اللغات الأوربية هي اللغة الفرنسية. لذلك فقد كانت أول بعثة ذهبت

---

(١) طالب بن رجب، زعيم سياسي عراقي من أعيان البصرة، عين حاكماً على الأحساء، وكاد يُعيَّن على عرش العراق بدل فيصل، ومات في ظروف غامضة سنة١٩٢٩ عن ٦٧سنة.

من تركيا إلى فرنسا مؤلفة من ٣١طالباً، على النحو التالي : ٢٥تركياً، ٣أرمن، ٢عرب، ١روم. وقد فاز هؤلاء في الفحص الذي جرى للإيفاد. واللذان فازا من العرب هما المرحوم رستم حيدر (بعلبك) رفيق التميمي (فلسطي)، وكلاهما من طلاب المكتب الملكي. وقد ذهبا إلى باريز فدخلا أولاً مدرسة سانت لويس الثانوية ليتمكّنا من اللغة الفرنسية. وبعد حصولهما على شهادتها دخلا جامعة الصوربون ونالا شهادتها أيضاً.

وفي تلك الأثناء كانت النهضة العلمية في البلاد في بدئها. وكانت بيروت أول البلاد العربية التي انتبهت إلى هذه الناحية، فأرسلت بعثة من الشبان هم: محمد المحمصاني، توفيق الناطور، عبد الغني العريسي، توفيق فايد، اثنان منهما ذهبا شهيدين من شهداء القوميَّة العربية[1]. وسوف يجيء البحث عنهما. ومن هذه البعثات ومن هؤلاء الشبان بدأت اليقظة تتضح وتظهر وتتجسم، حتى مدت شرارة العروبة بالنار. ومن هذه الشرارة اشتعلت الروح الوطنية.

مساجد الآستانة وزواياها

في الآستانة حسب ماتذكر التواريخ ٨٢٤مسجداً، ٥٠٠منها داخل البلدة، ٣٢٤خارج الضواحي. وأشهر هذه المساجد هو آيا صوفيا. وتعدُّ النقطة التي يقوم فيها هذا المسجد مركز البلدة المتوسط. وإليكم تاريخه:

آجيا صوفيا Agia Sophia كلمتان يونانيتان معناهما الحكمة المقدسة، ويسميه الفرنسيون سنت صوفي: Sainte Sophia، وهو اسم جامع في الآستانة من أعظم جوامع الدنيا. كان في أول أمره كنيسة بناها الملك قسطنطين الكبير سنة٣٢٥للميلاد وأسماها على اسم الحكمة الإلهية، ووسعها ابنه. واحترقت سنة٥٣٢ للميلاد، فجدَّد بناءها الإمبراطور لوستنانوس سنة ٥٣٧م[2]، وهو البناء الباقي الآن. وسنة ١٤٥٣ ميلادية فتح السلطان محمَّد الفاتح العثماني الآستانة، وجعل هذه جامعاً.

---

(١) هما محمَّد المحمصاني، وعبد الغني العريسي.

(٢) في الأصل ٥٤٧، وهوسهو.

وفي زمن السلطان مراد الثالث وقع زلزال شديد أثر على جدرانها. فبنى السلطان خلف جدرانها التي أوهنها الزلزال عضائد لتسند الجدران، لاتزال موجودة حتى الآن. وقد شوَّهت منظر الجدران الخارجي. وقد أنشؤوا حول الجامع أربع مآذن. ومدخله فسيح مزيَّن بالفسيفساء المحلاَّة بالذهب. في وسطه باب نحاسي كبير جداً فيه نقوش جميلة، وقبة مبنية على أعمدة من الرخام، وهي كبيرة جداً مزيَّنة أحسن زينة. وقد كان محيط القبَّة مزيناً بالفسيفساء، وفيها من الصور مايشير إلى بعض ما جاء في التوراة والإنجيل من الحوادث التاريخية، فطُليت بعد الفتح بدهان أصفر ذهبي ستراً لهذه الصور لحرمة ذلك عند المسلمين. وقد كتبتْ على جوانبها بخط عربي جميل أسماء الله تعالى والنبي صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي[1]، رضي الله عنهم. وقد وضعوا في الجهة القبلية منبراً للخطيب. وفي الجهة الغربية أقاموا محلاً خاصاً لصلاة السُّلطان. والخلاصة أن في هذا المسجد من الأعمدة والنقوش ما يُحيِّر فكر الإنسان.

وبين مساجد الآستانة مساجد جميلة عمرها السلاطين العظام، لايمكن وصفها بهذه المقالة العارضة، لأن وصف جوامع الآستانة وصورها يحتاج إلى كتاب ضخم. ونكتفي هنا بهذه الإلمامة البسيطة تلميحاً عن أهمية مساجد الآستانة.

والأتراك متديّنون طبعاً. وإذا قلت ذلك فإني أعني أكثرية الشعب التركي، لا الشبيبة الحاكمة في ذلك الوقت، على الخصوص الفلاَّح التركي فإنه من أكثر الناس تديناً، وينظر إلى ابن العرب نظرة الاحترام والإعظام ويتبرَّك بالتمسُّح به، بعكس الشبيبة المثقَّفة التي تضمر الحقد للعرب. وسوف أذكر فصولاً عن هذا البغض الذي لمستهُ بيدي وسمعته بأذني أو حدَّثني عنه ثقاة لايكذبون.

(١) كتبها الخطاط العثماني «بجاقجي زادة مصطفى جلبي» في عهد السلطان مُراد الرابع، وقد بلغ طول حرف الألف مثلاً عشرة أمتار، ثم توالت الإصلاحات عليه، وأخيراً وفي سنة ١٩٣٥م، منع مصطفى كمال الصلاة فيه وحوَّله إلى متحف. دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ١٧١.

ومن شدة اعتقاد الشعب التركي البسيط بالشيوخ فقد أكثر هؤلاء من الزوايات والتكايا. كلُّ فرقة منهم تسمي تكيَّتها أو زاويتها باسمها. والطرق كثيرة أشهرها تكية المولوية، وشيخها شلبي (جلبي) أفندي، وهو الذي يقلّد السلطان العثماني السيف في مراسم التتويج. ويأتي بعدهم البكداشية والقادرية وغيرهم.

وفي الآستانة على ما يقول شمس الدين سامي في أعلامه أكثر من ٣٠٠تكية، أشهرها: طوب قبو مولويخانة سي، وغلطة مولويخانة سي، وطوب قبو قادري تكية سي. كما أن هناك كثيراً من قبور الأولياء. وفي خارج الآستانة مقام جليل للصحابي أبي أيوب الأنصاري. ويؤمُّ الشعب هذه التكايا ويتبرك بها.

جدّي وعبد المجيد الأيوبي

على ذكر التكايا والمزارات، حدثني جدي لوالدتي أمين العلمي الكيلار أميني[1] قال: في زمن السلطان عبد العزيز[2] تشكلت قطعة عسكرية أسموها (سلاح شور)، وعدد أفرادها ستة من كل ولاية، يؤخذون من أبناء الوجهاء في مركز الولايات. وكل ولاية يرتدي أبناء من أفراد هذه الفرقة اللباس المحلي الذي يرتديه سكانها، شريطة أن يكون اللباس مزركشاً بالقصب. أما عمل أفراد الفرقة فهو الوقوف خلف السلطان عند جُلوسه للحكم، فكان يصيب أبناء كل ولاية ساعتين في كل ستة وثلاثين يوماً. ولما كان الأفراد المذكورون من أبناء الأغنياء ومن أجمل شبان الولاية، كانت حياتهم التي يقضونها حياة مرح وسرور.

ثم أضاف جدّي: كنتُ يوماً في السوق الكبير، ويسمونه بيوك شارشي (جارسي) ذاهباً لإصلاح بند السيف عند أحد العقادين. ولم أكن أُحسن اللغة التركية. ورأيت من العقّاد فظاظةً خلاف عادة الإستنبوليين من الباعة، فتكلمت بجملة أثَّرت عليه فشتمني، فصفعته صفعة قوية، ولم أعد أعي ما أعمل، فسحبت

---

(١) يعني أمين المخازن

(٢) عبد العزيز بن محمود الثاني، تولى العرش في حزيران سنة١٨٦١م وعزل في أيار سنة١٨٧٦م، ثم قتل بعد أيام، وهو عم السلطان عبد الحميد الثاني.

السيف وأردتُ ضربه، فرمى نفسه خارج الحانوت وفرَّ من أمامي فلحقته. وبالرغم من أنه شاب يُحسن الركض فإني أدركته لكوني شاباً أيضاً، وضربته بالسيف فجرحته في عضده. وما كدتُ أرجع إلى نفسي حتى رأيت جميع السوق فرغ من الناس، والباعة. ومنهم من أغلق حانوته وفر، ومنهم فرَّ بدون إغلاق.

وقد أثر هذا المنظر عليَّ، ورجع (عقل الرحمن لرأسي)، وتصورت العاقبة الوخيمة التي ستنزل برأسي، فجعلت أصيح: يا كلب يا ابن الكلب أتشتم (السلاحشور) عبد المجيد. وكان عبد المجيد أفندي الأيوبي رفيقي في الفرقة، ويشبهني تماماً، ويرتدي اللباس الذي أرتديه. وغادرت السوق وأنا أنادي: أنا السلاحشور عبد المجيد، أنا السلاحشور عبد المجيد.

وفي اليوم الثاني وصل تقرير (الضبطية)، وهم رجال الأمن آنذاك مثل الدرك اليوم، إلى السراي، ورفع لمقام السلطان، فصدرت الإرادة السنية بنفي عبد المجيد أفندي الأيوبي إلى دمشق. ولم يمض على صدور الإرادة السنية بضع ساعات حتى كان عبد المجيد أفندي في إحدى البواخر المسافرة إلى بيروت. وسافر (مسركناً) منفياً. وبعد مدة أتاني منه كتاب يطلب مني البحث عن أسباب نفيه وإعلامه بها. فكتبت له الحالة التي وقعت معي، وقلت له: إني لما ضربت الرجل بالسيف، ورأيت الدم يسيل من عضده تنبهت لجرمي. وجعلت أنادي باسمك ظناً مني أنَّ جدك الولي صاحب المزار أبو أيوب الأنصاري يمكنه أن يحميك من شر هذا العمل، ويخلصني منه، وإذ به لا يضرّ ولا ينفع، ميت من جملة الأموات.

قال جدي: وبعد عودة الأيوبي إلى دمشق بقوا مدة طويلة يتندَّرون بهذه القضية الغريبة.

ما بين همايون

(ما بين) كلمة عربية أخذها الأتراك اسماً للغرفة التي تقع في الدار ما بين الحرم والسلملك. فتستعمل غرفة الاستقبال من قبل النساء والرجال. ومن هنا

أخذوها اسماً للدائرة الملكية التي يستقبل فيها السلطان وزراءه، وغيرهم من المراجعين، فيقولون: ما بين همايون، وقد يختصرها البعض فيقولون (ما بين) ومع تمادي الزمان أصبحت علماً على مقر الوزارة العثمانية.

خواطر قبل الوداع

ولقد زرت ببيوك آطه والكاغدخانه والشيشلي، وكثيراً من المتنزهات أثناء إقامتي في الآستانة. والحق أن مناظرها من أجمل الدنيا في البر والبحر. وكان ينقصها التجميل. فالآستانة كانت -وأظنها لم تزل- مثلما خلقها الله سبحانه وتعالى ليس ليد الإنسان أي أثر في تجميلها مثل الربوة ودمر في دمشق. وإذا وُجد مقهى للاستراحة فهو على الطراز الشرقي الذي يلذ الجلوس فيه للأجانب من السياح، بعكس المثقفين من الشبان العثمانيين فإنَّهم جميعاً كانوا يشكون من هذه المقاهي الخاصة في البلاد العثمانية التي عندما يدخلها الإنسان في أي وقت يجد فيها الزبائن جالسين على الكراسي مسترخين يشربون (النراجيل) ويلعبون الورق والدومنو.

أما في الليل فالتياترويات تملأ البلدة خصوصاً في جهة الغلطة. فالريختم من أوله إلى آخره مملوء بالمسارح، وكلها مفتَّحة الأبواب من بعد الغروب إلى منتصف الليل. وفيها الأجواق الموسيقية وكلها شرقية. والراقصات التركيات منهن قلَّة، والأكثرية من الروم والمجر وبقية الملل والنحل. ولابد من الشجار في أواخر الليل بين «الزبائن» لأن الرؤوس تكون قد امتلأت آنذاك، ودار بها الغرام أو الانتقام و«هات يا عربدة، وهات يا بوليس». ولابد في كل ليلة من أن يزور «كركون الغلطة» عشرات «القبضايات -كلهان بك».

وكان رجال الشرطة في الآستانة على أقسام، منهم المثقف اللطيف، واتصاله دائماً بالأجانب الأوربيين. والرجل الفظ واتصاله دائماً بطبقة «الزكرت - كلهان بك» كما يسمونهم. وهؤلاء كثيراً ما تراهم في عراك مع أبناء الفتوة يرتدون

السروال أو «البنطلون»، ومن فوقه «الجاكيت»، فيدخلون كُمّاً في إحدى أيديهم، ويتركون اليد الأخرى خارج الكم، بحيث يلقون بالطرف الثاني من «الجاكيت» على كتفهم، ومن هؤلاء تشكل فرق الإطفائية المتطوعة.

يانغين وار[1]: الإطفائية

بنايات الآستانة مشيَّدة جميعها من الأخشاب، خشية الزلازل. وهي قابلة للحريق بسرعة. وفي الآستانة منارات خاصة لرصد الحرائق التي تقع في الأحياء. وفيها دائماً موظفون خصُوصيون يعرفون محلاَّت الآستانة بالدقة. وعندما يقعُ حريق في مكان ما يشعرون دائرة الشرطة بالتلفون. ولا يمرُّ الإنسان في محلّة ما إلا ويسمع كلمة «يانغين وار»، أي يوجد حريق. وكان في البلديات مضخّات «لاأراكم الله مكروهاً»، بالاسم مضخة، وبالفعل «حقنة» مضخات لاتصل المياه من أفواه «برابيشها» الخراطيم إلى أعلى من خمسة عشر متراً، لأن قوة الدَفع فيها تُحرَّك بآلة ضاغطة يحركها أربعة أو ستة رجال.

وهذه المضخات موجودة في دوائر البلديات، ولها موظفون خصوصيون. عندما يصل خبر الحريق في محلّةٍ ما يسرع أفراد «الكلهان بك -الزكرت» الذين ذكرناهم في البلديات ويحملون المضخات على ظهورهم، ويركضون وهم يصرخون بأعلى أصواتهم (يانغين وار) ولا يصلون إلى محل الحريق حتى تكون نصف المحلة احترقت. وهناك ينفردون للإطفاء، فمنهم من يُعبئ الماء، ومنهم من يدير الخراطيم ويحرك الآلة، والبقية يشتغلون بالنهب، وهم شركاء الذين يعملون في الإطفاء، بحيث يتقاسمون المنهوبات التي أخذها رفقاؤهم بعد إخماد النيران. وهذه المضخات كان منها في الولايات واحدة أو اثنتان في كل مركز ولاية.

وكان في دمشق عند حريق الأموي مضختّان لم تكن تصل المياه من خراطيمها (إلى رأس العمد، ولم تفعل هذه المضخات أي شيء تجاه ذلك الحريق، فذهب المسجد الأموي طعمة للنيران. وكانت جميع حيطانه مزدانة بالفسيفساء التي

---

(١) yangin

ذهب بها الحريق. وهذان الرسمان من الرسوم الزاهية مضى عليها عصور عديدة، وهي في جدتها. ولم يزل في الحائط الشمالي وفي مدخل المسجد من ناحية الغرب وفي حائط الرواق الغربي إلى اليوم بعض هذه الرسوم التي تحيِّر الفكر الإنساني.

وإنني لم أزل أذكر أنني كنت في ذلك العهد في إبان طفولتي، وكنت أذهب إلى المسجد لجمع قطع الزجاج الصغيرة الملونة التي تشكل هذه الرسوم. وفيها كثير من القطع المدهونة بماء الذهب، فكنا نجمعها ونلعب بها.

وقد تشكلت لجنة لجمع الإعانات، وإعادة بناء المسجد، سأبحث عنها في عدد قادم إن شاء الله[1].

وعندما دخلتُ في مكتب عنبر ضُرِب البوق في إحدى الليالي وكنّا نياماً فصحونا على نداءات متتالية: يانغين وار! يانغين وار! (حريق! حريق!).

نهض كبار الطلاب، وهرعوا بلباس النوم إلى المضخة الموجودة في مدخل المكتب، وحملوها إلى مكان الحريق في المطبخ حيث أطفؤوه. وبعد ثلاث ساعات تقريباً وصلت فرقة «الإطفائية» البلدية، ومعها مضخة على أربع عجلات يدفعها الناس، وهم يصيحون: حريقة! حريقة!

وجرت العادة يومئذ إذا وقع حريق، أن يخرج موظف الإطفاء في البلدية إلى الساحة، وينادي «حريقة! حريقة!». وكان الرعاع المعروفون باسم: «بابا حسن» أو «كلهان بك» بالتركية، يجتمعون عادة قرب سوق الخيل وساحة المرجة وسوق علي باشا وسوق السنجقدار وزقاق رامي. فعندما يسمعون النداء، يتراكضون إلى البلدية، حتى إذا أصبح عددهم كافياً، حملوا المضخة، أو جرُّوها على العربة، إلى مكان الحريق. وكانوا يفعلون ذلك حباً بالنهب. وليس بينهم من يتقاضى «إكرامية» من صاحب المحل المحروق سوى رئيس الإطفائية.

نهاية القسم الأول

(١) آخر ماوجد في الوثيقة ٨ من الملف٧٩، وبقية صفحات الدفتر (الوثيقة) كلّها بيضاء...

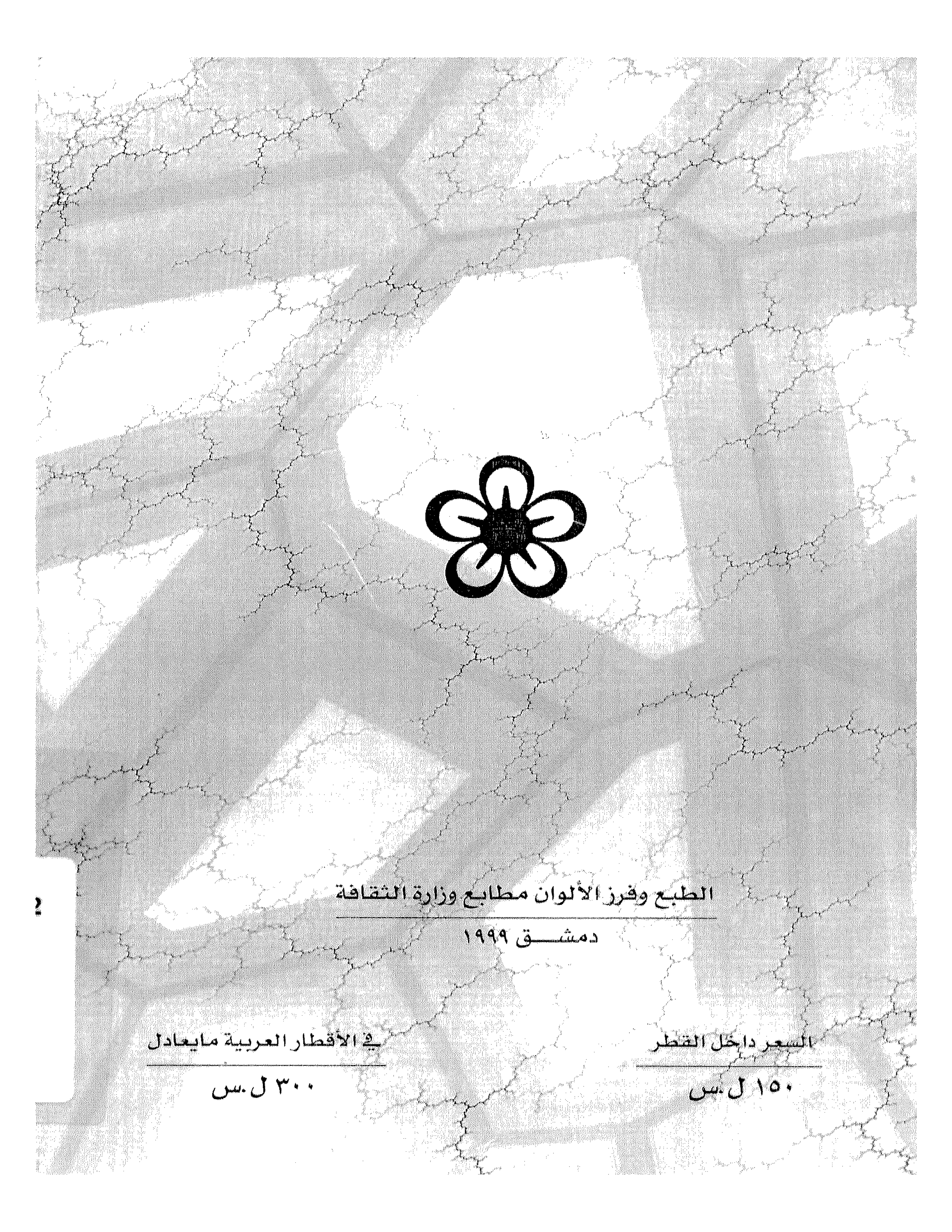


جميل بك الألشي الحاجب لجلالة الملك المعظم

فهرس القسم الأول

القسم الأول
مذكرات البارودي

٣٠٠٠ط١/١٠/١٩٩٩



الطبع وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة
دمشـــق ١٩٩٩
السعر داخل القطر
١٥٠ ل.س
في الأقطار العربية مايعادل
٣٠٠ ل.س

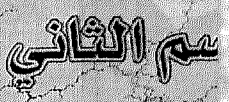
أوراق ومذكرات

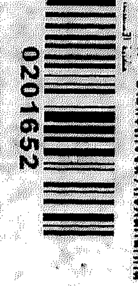
فخري البارودي

١٨٨٧ - ١٩٦٦



خمسون عاماً من حياة الوطن





إعداد وتحقيق: دعد الحكيم

مديرة مركز الوثائق التاريخية

الإشراف الفني زهير الحمو

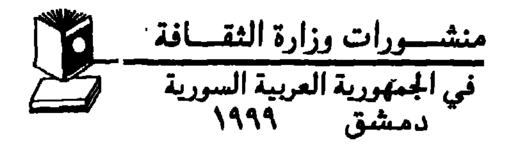
أوراق ومذكرات

فخري البارودي

١٨٨٧ - ١٩٦٦

خمسون عاماً من حياة الوطن

القسم الثاني



أوراق ومـذكـرات فـخـري البـارودي ١٨٨٧ - ١٩٦٦ :
خمسـون عاماً من حياة الوطن/ اعداد وتحقيق دعد الحكيم . -
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٩ . - ٢ج : صور ؛ ٢٤سم .

١- ٩٢٣٫٢ : البـارودي ، فـخـري ب ٢- العنـوان
٣- البارودي ٤- الحكيم مكتبة الأسـد

الايداع القانوني : ع - ١٦٥٩ / ٩ / ١٩٩٩

العرب والأتراك

هذا البحث يحتاج إلى علم وجرأة وإنصاف. والعواطف ليس لها تأثير في هذه الناحية. وفي هذا البحث سأكون منصفاً وصريحاً. وأرجو من القراء أن لايتأثروا من بحثي ويُظهروا استياءهم أو إعجابهم إلا بعد أن أُتمّ هذا الموضوع، و(خطف الكبة من راس الماعون لايجوز)، وقد قال تعالى: (ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة...)، فلا يقف القارئ عند هذه الجملة، بل عليه أن يتمّمها إلى قوله: (... وأنتم سكارى).

وإنني في هذا البحث لاأريد الرجوع إلى استيلاء الأتراك على البلاد، والحوادث التي مرت منذ ذلك الاستيلاء حتى أوائل القرن العشرين، لأنها كتبت في التاريخ، وبإمكان كل قارئ أن يرجع إليها.

والذي سأعالجه في أبحاثي الأسباب التي أطاحت بالدولة العثمانية ومزّقت أطرافها، وأوقدت النعرة القوميّة في قلوب العناصر غير التركية خصوصاً في قلوبنا نحن العرب، ثم الحوادث التي توالت في مطلع هذا العصر حتى اليوم.

مذكرات الباشوات

وقد حصلت على طائفة حسنة من مذكرات كبار رجال الدولة العثمانية، مثل أحمد مدحت باشا (أبو الأحرار) و (أبو الدستور)، وكامل باشا الصدر

الأعظم[1]، ومصطفى باشا أتاتورك[2]، هذه المذكرات التي تطلعنا على سياسة الدولة التي كانت متبعة، والأسباب التي أودت بكيان الدولة العظيمة التي كانت تملك مايقرب من ربع الكرة الأرضية. منها ماهو تحت إدارتها بالفعل، مثل الولايات والمتصرفيات. ومنها ماهو تحت إدارتها معنوياً، مثل الخديوية والإيالات. وهذا غير النفوذ الديني الذي كانت تتمتعُ به وتستعين، باسم الخليفة في البلاد الإسلامية كالهند وإفريقيا الشمالية والصين وغيرها.

ومن الصعب أن يقف الإنسان على حقيقة قضية ما إذا كان مصدرها واحداً. ومن المعلوم أنه (لايوجد من يقول عن زيته عكر). وكل دور من أدوار الدولة يوجد له مجنّدون كما يوجد له منتقدون. فلا كلام المجنّدين يُعتمد عليه، ولاكلام المنتقدين يُركن إليه، لأن كليهما ينظر إلى الموضوع بمنظاره الخاص. وعلى الإنسان أن يفكر بما يُقال، ويدرس روح ذلك العصر، ويرجع إلى عادات أهله وشرائعهم، ويطبّق الوقائع عليها. وبذلك تظهر الحقائق عارية ليس فيها تأثير لمغرض مهما حاول تستيرها.

الولايات العثمانية

في القرن الثالث عشر الهجري كانت الفوضى ضاربة أطنابها في الدولة العثمانية، وتداخل الدول الغربية باسم الحمايات للأقلية ظاهراً، ولجلب المنافع باطناً على أشده. ولذا فكَّر بعض أحرار الأتراك، وعلى رأسهم أحمد مدحت

---

(١) - كامل محمد باشا، تولى الصدارة ثلاث مرات بدءاً من ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م وتوفي في ذي الحجة ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م.

(٢) - أول رئيس لجمهورية تركية، ألغى الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٣ واتبع نهجاً علمانياً خالصاً، وألغى المؤسسات الدينية، وعادى العرب وتقرَّبَ من الغرب، ومازال أفكاره قانوناً مقدّساً لدى المؤسسة الحاكمة في تركية، على الرغم من ثبوت فشلها عملياً على المستوى الشعبي، توفي سنة ١٩٣٨م عن ٥٧عاماً.

باشا[1] بما وصلت إليه الحالة وطرق الخلاص التي تنقذ البلاد العثمانية من الانهيار، فلم يجدوا غير نزع الحكم من أيدي السلاطين ووضعه بيد الشعب. وهذا أمر لايتيسَّر للقائمين به بالهيِّن، والعقبات التي تقف في طريقه عظيمة وكثيرة. وليست العبرة بتغيير شكل الحكم في الدولة، ولكنَّ العِبرة في تنفيذ الأحكام الجديدة، وإيجاد مَن يقوم بتنفيذها من الموظفين الحديثين. لأنَّ الموظف القديم الذي اعتاد تطبيق مواد قانونية، وتمرَّن على أصول إجرائها، وهو مايسمونه بـ(الروتين) يصعب عليه الإقلاع عن هذه العادة. خصوصاً إذا كان الموظف من أصحاب الأدمغة الآلية التي تعمل على وتيرة واحدة دون أن يفكر بغير تمشية المعاملة (ميكانيكاً).

الجهل المخيّم

ولابأس من تصوير حالة البلاد العثمانية آنذاك تصويراً صادقاً. كان الشعب العثماني على اختلاف عناصره غارقاً بالجهل (إلى ذقنه). والذين يقرؤون ويكتبون من أفراده يعدُّون على الأصابع في كل بلدة، حتى في عاصمة الدولة. والشعب الجاهل يسير حسب أهواء زعمائه الذين كانوا يُسيطرون عليه في الماضي لأي سبب. ومن الصعب إقناع الجهلاء بالمنطق إذا تسلَّط عليهم زعيم خبيث.

والزعيم يُسيِّر جماعته حسب أغراضه الخاصة. فكلما كانت الجماعة جاهلة كان التحكم فيها وتسييرها هيِّناً. وكلما تعلّم الشعب وكثر المتعلمون فيه قلَّ التأثير عليه، وعندها تديره القوة ويُسلس قياده الإرهاب.

الإقطاعيون والحكام

تحكم بالشعب العثماني أفراد قلائل، أكثريتهم المطلقة، إن لم نقل جميعهم، من الجهلاء وأنصاف المتعلمين.

---

(١) - ولد سنة ١٩٢٢، وتولى عدَّة مناصب منها ولاية بغداد والصدارة العظمى، ووضع الدستور العثماني ١٨٧٦م، ثم جرَّده السلطان عبد الحميد من صلاحياته وحاكمه، ثم عينه والياً على دمشق فترك فيها آثاراً حسنة، ثم نفاه السُّلطان إلى الطائف، حيث أرسل له مَن قتله ١٨٨٣م.

وحتى الذين يأتون من الآستانة من ولاة وقادة وموظفين كبار، لم يكونوا متخرجين من مدارس مسلكية، بل كانوا من المتمرنين في دوائر الحكومة. والمتمرن يمكنه أن يدير العمل في المكان الذي تمرّن فيه. وأكثر الموظفين إذا كانوا قد نجحوا في ولاية أو محافظة أو قضاء يخونهم الحظ في غيره. وقليل من الولاة من نجحوا في جميع البلاد التي عيُنوا فيها، ذلك لأن الحاكم إذا لم يكن عالماً بأحوال البلد لا يمكنه أن يسوس جميع الناس فيه ويسوقهم بعصا واحدة، لأن لكل منطقة أحوالها، ولكل شعب عادات لاتنطبق عليه الأحكام التي تنطبق على غيره. ولهذا كان الولاة والحكام إذا نزلوا بلدةً اضطروا لمصادقة بعض الأهلين وبعض الزعماء. وبالطبع لايتقدم إلى الحكّام سوى المتزلّفين من الوجهاء ومَن قدر منهم على ركوب الحكام ركب.

وإني أعرف أسرة في قصبة دوما، كان رؤساؤهم من الذين يعيشون كالعلق، يمتصونّ دماء الشعب. فكان كبيرهم يلتزم القائمقام من يوم وصوله. فإن كان هذا القائمقام صالحاً رأينا هذا المتزعّم يسكن المسجد لايخرج منه، ولا يكتفي بالفروض، بل يزيد عليها النوافل. وإذا كان القائمقام فاسقاً رأينا هذا الرجل أصبح بين يديه كالخادم. ولايتأخر أن يقدم له النساء (الفاحشات)، ويقيم له حفلات الطرب، ولايتورع عن الانقياد له. وهذا النوع من الرجال من قليلي النخوة يوجد في أكثر البلدان، ومصيبة البلاد فيهم كبيرة.

ولهؤلاء المتزعّمين زبانية وأعوان ممن يسمَّون بوجوه البلدة، يحرّكون الشعب بواسطتهم، ويسدُّون أفواههم ببعض الرشوات المسروقة، ويُحصّلون لهم الأعشار التي يلتزمونها من الأهلين. ولايذهب (بين أرجلهم) إلا الأيتام والأرامل والمساكين. ومثل هؤلاء المتزعمين يكونون عند وصول الحاكم كالخدم. والخبيث منهم إذا ركب (طوطح) رجليه. وإذا لم يقدر أن يتسلّط على الحاكم، بدأ بالدس والحركات، ودفع الأهلين للشكاية عليه حين لايكون له منافس من أقرانه. ومن المعلوم أن في كل بلدة، كبيرة كانت أم صغيرة، أحزاب تقلّ وتكثر حسب البلدة.

ولكي يدعم رؤساء الأحزاب مكانتهم، يتقربون إلى الحكام ليحوزوا الرضا، إذ لا يمكن لمتنقد أن يسيطر على قرية إذا لم يكن له عون من الحكام. وقد عرفت قائممقام في دوما، لم يُقدَّر له أن يتسلّط على عقله أحد، وفي زمنه ارتاح القضاء وسكن، وهو الأمير أمين أرسلان.

قضاة الشرع

ومن الغريب في حكم العثمانيين طريقة تعيين حكام الشرع في الأقضية والألوية والولايات. ذلك أن القاضي كان يُعيَّن في الوظيفة في بلدة ما لمدة سنتين. وبعد السنتين يُقال حتماً. فإذا كان ممَّن لهم سند في باب المشيخة انتقل رأساً من وظيفة إلى وظيفة ثانية أرقى. وإذا لم يكن له سند فإنه يبقى سنوات عديدة بلا عمل.

ومن المعلوم أنه لم يكن يقبل الوظيفة في الدولة العثمانية إلا اثنان: فقير مُعدم ووجيه متنفذ، هذا ليعيش وذاك ليستطيع بنفوذه إنجاح أعماله وأعمال من يلوذ به.

وكانت الرشوة منتشرة في دوائر الحكومة بشكل مخيف. فلم يكن خمسة موظفين بالألف نزيهين، لأن الرواتب الشهرية لم تكن تدفع في أوقاتها بل كثيراً ماكانت تدفع بعد أربعة أو خمسة شهور إلى مستحقيها. فالشاطر من الموظفين من يحصل على مصروفه (برّاني) ويأخذ رواتبه بكاملها. والمساكين من الموظفين الذين يُؤْثِرون الاستقامة، يضطرون لبيع سندات رواتبهم إلى الصرّافين. وهؤلاء يشترون السند بنصف أو بثلث القيمة (إيلك وماتطول)، وبالاتفاق مع كبار موظفي الولاية أو اللواء أو القضاء، يُحصّلون السندات من الخزينة. وكانت تصرفُ هذه السندات للصرافين من الخزينة قبل تسليم رواتب المساكين إلى أيديهم، وذلك لشراكة الصرافين والموظفين.

وأنا أعرف من صرافي دمشق، صرّافاً يعامِل جدّي، حانوتُه في السنجقدار، في أول مدخل سوق الزرابلية يدعى المعلم رحمون البوشي، كان أشقر الشعر، ليّن

العريكة، يدخل في الموظف مثل داء السل، وكنت أرى بعض الموظفين يستدينون منه الليرة العثمانية لشهر مقابل نصف مجيدي فائدة. وكانت الليرة العثمانية بخمس ريالات وربع. فكانت تبلغ فائدته السنوية ١٦٤ بالمئة، يعني أكثر من ضعف ونصف، وهذا كفر لم يُسمع بمثله في الدنيا. وليعلم القارئ أن هذا القرض مقابل رهن إما (إسوارة) ذهبية أو خاتم أو قطعة من ماس ليبقى صاحب الدين (من جوَّه). وقد دام هذا الحال إلى أن حصل الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨.

النائب

النائب في جميع البلدان هو القاضي الشرعي، وهو معمَّم عادة. وأكثرهم من ذوي الرتب. والتركي الذي يأتي من الآستانة يكون من (الصوفطان)[1] الذين يحملون الأوسمة أيضاً. وكثيراً ما يأتينا نصف عالم، وهذا يحتاج للاستعانة بالمساعدين ورؤساء الكتاب الذين يكونون عادة من أبناء البلاد. ولما كان القاضي الشرعي بيده التصديق على الحجج التي هي سندات التمليك، فقد كان كتّاب المحكمة من ذوي الذمة القليلة يتلاعبون بالحجج ويحرمون كثيراً من الناس من أملاكهم، وخصوصاً الأيتام والأرامل الذين ليس لهم من يساعدهم، ناسين أن الله مطّلع على أعمالهم وأفئدتهم. ولم نر واحداً منهم ممن قام بمثل هذه الأعمال نجح في آخرته. وهذه عواقب أولاد وأحفاد الذين قاموا بمثل هذه الأعمال، يلقون جزاء ماقام به أجدادهم. فالله سبحانه وتعالى يُمهل ولا يهمل. ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون.

تركيا الفتاة

هو اسم أطلق على الفئة الناهضة من الشباب العثمانيين المطالبين بالإصلاح، ممَّن نقموا على رجال الدولة. وقاموا يُطالبون بإرجاع الدستور الملغى عام ١٨٧٨ بأمر

---

(١) - الصوفتة، من الصوفية، وهم الدرجة الدنيا من طلاب العلوم الشرعية في الدولة العثمانية، وإذا رفّعوا إلى الدرجة الأعلى يطلق عليهم اسم: دانشمند، وتلفظ طشمند. المعجم العثماني. حسين المصري.

السلطان عبد الحميد باسم (جون ترك)، هو الاسم الذي أطلقه الإفرنسيون على أحرار العثمانيين الذين هم بحق تلامذة لأمثال مدحت باشا أبي الأحرار، ومنهم رؤوف بك، وإسماعيل بك، وضياء بك، ونامق كمال بك، وحسين فهمي باشا، وسعد الله باشا، ورفعت باشا، وأضرابهم.

هؤلاء الرجال الأحرار هم من أبرز المؤسسين لجمعية الاتحاد والترقّي الذين قاوموا السلطان عبد العزيز، ووقفوا في وجه حكومته، ورفعوا أصواتهم ضد الاستبداد، وهم أول هيئة سياسية طالبت علناً بالإصلاح في دولة بني عثمان، وذلك في زمن السلطان عبد العزيز، وفي أيام أدهى رجاله عادل باشا الصدر الأعظم وحسين حسن باشا ناظر الضابطة.

وقد أصدروا في لندن جريدة أسموها (حُرِّيت) يعني (الحرية). ثم أنشأ علي السبعاوي أحد أحرار الأتراك جريدة ثانية في لندن أسماها (الخبر) وأنشأ مجلّة علمية أسماها (مجلة العلوم)، وهي من أرقى المجلات. وحرَّر مقالاتها السياسية والوطنية الذين عرفوا الوطنية العثمانية آنذاك، وكلّهم فطريون يعد كل واحد منهم البقعة التي ولد فيها وطنه. وفي هذا الزمن، وفي هذه الحالة كان الكاتب نامق كمال بك[1] ينادي أبناء الوطن ويحذّرهم من الغفلة ويحضُّهم على النهوض ويعرّفهم أن وطنهم هو مجموعة أراضي الدولة التي يخفق عليها علمها ويحميها جنودها الذين هم من أبنائها وإخوانهم.

وهكذا كان هؤلاء الرجال هم الذين وضعُوا أسس النهضة العثمانية والانقلاب الأول[2]، وعلى يدي تلامذتهم. وقامت وزارة الانقلاب الثاني[3]. وسيأتي البحث عن قيام أنور ونيازي وأسبابها.

---

(١) - محمد نامق كمال- ١٨٤٠ - ١٨٨٨م، شاعر وكاتب تركي عظيم، وله مؤلفات وأشعار بالتركية والفارسية والعربية.

(٢) - يعني بذلك، عزل السلطان عبد العزيز بالقوة، وقد قام بذلك العمل يوم ٣٠ أيار ١٨٧٦م مجموعة من السياسيين كان منهم: ----->

لمحة عن الدستور العثماني الأول

أعلن القانون الأساسي الأول في تركيا سنة ١٢٩٣هـ: مالية أولى[1]، يوم الخميس من شهر مارت. وداوم المجلس بمذاكرته مدة شهرين، والنواب الذين حضروا الجلسات لم يُنتخبوا من الأهلين، بل عيّنوا من قبل الدولة. وكلهم من أعضاء مجالس إدارة الولايات العثمانية، فلايعني هذا أنه لم يكن يوجد بين النواب من يجهل وظيفة النائب، بل إنه كان بينهم عدد لايستهان به من نواب الولايات والعاصمة يعرفون كيف يتكلمون وكيف يفكرون. ومع هذا فإن قانون المطبوعات الذي صدر آنذاك كان فيه شيء كثير من تقييد الحرية بالرغم من الخطب القيّمة التي ألقاها بعض النواب. خصوصاً خطاب «أستار جيال، كتخداسي أحمد أفندي» ورفقائه من حملة الأقلام. وقد نشرت جريدة «جناق» رسم رجل مغلول الأيدي والأرجل بالسلاسل وكتبت تحت الرسم «المطبوعات حرة في دائرة القانون» فكانت هذه الجملة مدار تندُّر الناس.

ويعد إعلان روسيا الحرب بعشرة أيام سقطت أردهان بعد حرب شديدة بيد الروس، وهي قلعة محصنة جداً، وبسقوطها أخذ الروس مدافعها الخمسين، وبناء

---- مدحت باشا، ومحمد رشدي باشا، وحسين عوني باشا وأحمد باشا قيصرلي، وشيخ الإسلام حسن خير الله وغيرهم، وهم الذين ولّوا السلطان مراد بعد ذلك ثم عزلوه، وولوا أخاه السلطان عبد المجيد الذي فرّق جمعهم، وقضى عليهم واستبد بالسلطة ثُلث قرن.

(٣) - في ١٤ نيسان ١٩٠٩ وبعد استيلاء المشير محمود شوكت باشا على العاصمة ومحاصرة قصر يلدز، قرر أنور نيازي وأشياعهما عزل السلطان عبد الحميد وإقامة أخيه محمد رشاد في السلطنة، وفي يوم ٢١ نيسان شُكّلت وزارة توفيق باشا.

أما السلطان عبد الحميد، فقد توفي معزولاً سنة ١٩١٨م.

(١) - كان هذا يوم ٤ ربيع الأول ١٢٩٤ هجرية الموافق لـ١٩ آذار ١٨٧٧ميلادية. أمّا السنة المالية العثمانية فقد طبقت للمرة الأولى سنة ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م لأسباب إدارية، ولتحويلها إلى سنة ميلادية نضيف الرقم (٥٨٤) إليها، وهو الفرق بين السنة الميلادية والهجرية يوم تطبيق التاريخ المالي المذكور سنة ١٢٥٦هـ.

انظر: تقويم المنهاج القويم. حسن وفقي الخيمي، صفحة ٣٩.

على هذه الأخبار قام رجال الدين الذين يُسميّهم الأتراك «صوفتة»، وهم الطلاب المعمَّمون من طلاب العلوم الدينية الذين يحضرون الدروس في المساجد، وعدد «الصفتات» كثير في الآستانة بنسبة كثرة المساجد فيها- وهذه الكلمة مأخوذة من الصوفية على مايقول شمس الدين سامي في قاموسه- قام هؤلاء بمظاهرة كبرى اتجهوا فيها إلى مجلس «المبعوثان» النواب. ولما بلغوا باب المجلس وقف الحرس في وجُوههم يمنعهم عن الدخول وهم يصرخون بأعلى أصواتهم بقولهم: «إذا سلمنا أقوى قلعة في بلادنا بعد حملة واحدة فما تكون حالنا بعد ذلك؟ نريد الدخول إلى المجلس للشكوى ضد الحكومة».

وقد انتخب رئيس المجلس أحمد وفيق باشا نائبين لإفهام المتظاهرين أنه لايجوز القيام بمثل هذه الأعمال، وعليهم أن ينتخبوا بضعة علماء يحسنون التكلم ليحضروا إلى المجلس ويقدموا شكواهم. فانتخبوا ثلاثة منهم دخلوا المجلس وعرضوا شكايتهم. فقال الرئيس: إن شكايتهم حق، وسوف يبلغها إلى الصدر الأعظم لتتخذ الحكومة الاحتياطات اللازمة للمحافظة على القلاع والبلاد، ولاتدع باباً للروس يتقدمون بعد ذلك. وهذا كل مايمكن لمجلس أن يفعله. فخرج الرسل وبلغوا المتظاهرين أقوال رئيس المجلس. فصاح المتظاهرون بصوت واحد: سننتظر إلى الغد، وسيكون اجتماعنا في جامع الفاتح[1]. وتفرق جمعهم.

ولكن الحكومة أعلنت الأحكام العرفية في ذلك المساء، وبذلك منعت أمثال هذه الاجتماعات التي يدّعي أحرار الترك أنها مفتعلة من تدبير السُّلطان عبد الحميد.

(١) - جامع السُّلطان محمد الفاتح.



علي رضا باشا الركابي رئيس الوزارة السورية

انبعاث الحركة العربية

في سنة ١٩١١ تأسست جمعية العربية الفتاة في باريس. وقبل البحث في تأسيسها ورجالها وأعمالها، لابد لي من الرجوع بالقارئ إلى ماقبل الانقلاب العثماني، والتبسّط قليلاً بالبحث عن العوامل التي أيقظت في العرب روح الوطنية.

وكنت ذكرت شيئاً عن الانقلاب العثماني وعوامله. ولكن البحث كان مقتضباً جداً. ولذا رأيت أن أمهد للأبحاث الآتية بكلمة لابد منها ليقف الشبان الذين لايعرفون عن العهد الحميدي إلا الاسم، وليعرف الحقيقة من يطالع المذكرات من الشعوب المسلمة، خصوصاً المصريين الذين لايزالون يلوموننا لقيامنا على الدولة العثمانية ومحاربتنا إياها، مع أن الأتراك إخواننا في الدين، فأقول:

الدور الحميدي

السُّلطان عبد الحميد الذي تبوأ عرش بني عثمان ثلاثاً وثلاثين سنة لايكفي لذكر دوره عشرات الأجزاء من هذه المذكرات. وفي كتب التاريخ مافيه الكفاية عن ذلك. ولكن الذي يهمني أن يعرفه القراء ماكانت عليه حالة البلاد في عهد هذا السلطان وبعض الأعمال التي قام بها بعد اعتلائه العرش العثماني عقيب خلع عمّه السُّلطان عبد العزيز وأخيه السُّلطان مراد. وقد أخلف بوعده لأحرار الترك وعطّل الدستور للمرة الأولى قبل أن تمر سنة على إعلانه، ونفى شيخ الأحرار مدحت باشا إلى الطائف. وقد قيل إنه أرسل من قتله فيها، وفر الكثيرون من أحرار الأتراك إلى أوربا خوفاً منه.

وفي أوروبا أصدروا الجرائد ونشروا النشرات ضد العهد الحميدي. ساعدهم بهذه الدعايات الدول الأوربية من أصحاب المطامع في الولايات العثمانية، تلك الدول التي كانت تنتظر تقسيم تركة «الرجل المريض»، ويعنون به الدولة العثمانية. وكان انسلاخ بعض الولايات العثمانية عن جسم الدولة قد أثار الرأي العام ضد السلطان عبد الحميد الذي أصبح اسمه مقروناً بالظلم والاستبداد، مما ساعدهم أخيراً على القضاء عليه بإعلان الدستور للمرة الثانية، ثم بخلعه عن العرش العثماني.

والسلطان عبد الحميد قضى أيام حكمه بالخوف والهلع، والإكثار من تعيين الجواسيس، حتى قالوا إن الجواسيس في آخر أيامه كان عددهم يزيد عن الثلاثين ألفاً في الدولة العثمانية. وجميع هؤلاء كانوا يتناولون الرواتب من خزينة الدولة، ويقومون بالتجسس داخل البلاد العثمانية وخارجها. وقد كُمَّت الأفواه وكُسرت الأقلام وحُكمت البلاد بطريقة استبدادية هلعت لها القلوب. والتفَّ حوله بعض شياطين الإنس من جميع الأجناس والعناصر، وجعلوا يزيّنون له البطش بالأحرار، ويفترون على الناس. ومن له خصم يقدم بحقه التقارير الكاذبة، مما يسبب له ولعائلته الشقاء.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن أكثر من ظُلموا في أيامه وسُجنوا كانوا من الأبرياء، وذهبوا ضحية خصومهم الذين وشوا بهم، أو ضحية لفاقدي الأخلاق من الجواسيس الذين يخترعون الوشايات ليحوذوا على رضا السلطان. هذا ماكان يتهم به أخصام العهد.

الجرائد في ذاك العهد

أما الجرائد في عهده فكانت عبارة عن صحف تجارية ليس لها همٌّ إلا كسب الدراهم وتضليل الأمة بالأخبار الكاذبة التي ترضي جلالة السلطان، وتكليل الثناء بالكيل الوافي له ولوزرائه وكبار رجال الدولة، بحيث لم يكن أحد من الناس يقرأ في جريدة واحدة أي انتقادٍ لأصغر موظف. ولاترى في الجرائد إلا المدح والثناء

على السلطان وأعماله المجيدة وتجنيد أعمال الموظفين بحق وبغير حق، وشكر «صاحب الشوكة» يعني السلطان بمناسبة وبغير مناسبة. والجريدة التي تعارض أو تنتقد ولو بالإشارة فجزاؤها الإغلاق وسجن صاحبها ومحرريها.

وليت بالإمكان ذكر بعض ماكانت تكتبه الجرائد من مدح للسلطان عقيب انسلاخ كثير من البلاد عن جسم الدولة في زمن السلطان عبد الحميد خان الثاني! ولكن المجال غير مساعد، والبلاد العثمانية التي سُلخت عن جسم الدولة في عهده هي:

١- ولايتا الفلاخ والبغدان استقلتا بعد تولي عبد الحميد بسنتين، وسميتا دولة رومانيا سنة ١٨٧٨.

٢- ولايات سلسترة وودين ونيش استقلت سنة ١٨٧٨ أيضاً، وسميت دولة بلغاريا.

٣- ولاية الروم إيلي الشرقية، وهي جنوبي بلغاريا.

٤- الجبل الأسود «قرة طاغ»، استقل سنة ١٨٧٨.

٥- الصرب، استقلت سنة ١٨٧٨.

٦- قبرص، احتلها الإنكليز سنة ١٨٧٨.

٧- ولايات أردهان والقارص وباطوم وأرمينيا، دخلت جميعها في حوزة الروس.

٨- تونس الغرب، دخلت تحت سلطة فرنسا سنة ١٨٨١.

٩- تساليا، أضيفت إلى بلاد اليونان سنة ١٨٨١.

١٠- مصر، احتلها الإنكليز سنة ١٨٨٢.

١١- السودان، فتحها الإنكليز سنة ١٨٩٨.

كلُّ هذا جرى بعد انكسار العثمانيين في الحروب الروسية العثمانية سنة ١٨٧٨، فكان لذلك صدى عظيم في جميع البلاد. واتخذ أحرار الأتراك من ذلك سلاحاً لمحاربة السلطان عبد الحميد وحكوماته.

كل هذا كان يجري، والعرب في سبات عميق، قد خدّرهم اسم الدين وطاعة أوامر الخليفة التي أمر اللهُ بها في كتابه العزيز: (وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم)[1]. بهذه العقلية كان الترك يحكمون العرب.

ولما أُعلن الدستور واستولى شبان الأتراك على الحكم، وهم رجال جمعية الاتحاد والترقّي وثبّتوا أقدامهم فيه كما ذكرنا سابقاً، قلبوا ظهر المجن لجميع العناصر غير التركية من المسلمين وغير المسلمين. ومن ذلك التاريخ قامت العناصر العثمانية بتشكيل الجمعيات السرية والعلنية والنوادي العنصرية.

وكان المسيحيون منذ القديم لهم تشكيلات سرية تساعدهم الدول الأوربية وتحميهم. وبعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ظهروا للوجود وأبانوا تشكيلاتهم القديمة. ورغم إظهارهم الفرح والسرور بإعلان الدستور فإنهم كانوا يكيدون له سراً.

وفي وسط هذا التيار تنبَّه أحرار العرب من الشبان، وأحسّوا بالخطر المحدق بالبلاد العثمانية جميعها. وحفظاً للكيان العربي بدؤوا بتشكيل الجمعيات السرية والعلنية في مختلف الولايات. فأول جمعية عربية تأسست بعد الدستور هي:

جمعية الإخاء العربي - العثماني [2]

أسسها في الآستانة كبار رجال الحكومة من أبناء العرب. واجتمع فيها عدد منهم من مختلف الأقطار، من سورية والعراق وطرابلس الغرب وغيرها. والمؤسسون هم: صادق باشا المؤيد من دمشق، قوميسير الدولة العثمانية في إمارة البلغار وإيالة الروم إيلي الشرقي، وشكري بك الحسيني من القدس، مستشار وزارة

(١) - هذا فيما يأمرهم به من الأوامر والنواهي الشرعية فقط. أما إذا استسلم الحاكم لأعداء الإسلام ووالاهم، وعجز عن حماية البلاد الإسلامية منهم، فلا ولاية ولا طاعة له، وهذا ماصرَّح به الخليفة الأول أبو بكر عندما قال: «أطيعوني ماأطعتُ الله فيكم، فإن عصيتُه فلا طاعة لي عليكم».

(٢) - أسَّسها في خريف سنة ١٩٠٨ عارف بك المارديني، وقد حلَّها الاتحاديون في نيسان سنة ١٩٠٩م بعد اتّهامها بتأييد حركة ٣١ آذار سنة ١٩٠٩ المشهورة.

المعارف. وعارف بك المارديني، عضو في مجلس شورى الدولة، وأخيراً والي سورية، أصله من ماردين، تزوّج إحدى «البرنسسات» الأميرات في مصر وعاش فيها مدة طويلة، وقد قابلته، وهو أول والٍ في دمشق كماسيجيء، يتكلم باللهجة المصرية. ومنهم يوسف شتوان بك، أحد المقربين للسلطان، الذي انتخب نائباً عن متصرفية بني غازي في إفريقيا. وهو النائب الوحيد الذي فسخ المجلس النيابي انتخابه، وقام الدكتور أحمد قدري ويوسف مخيبر حيدر، مع بعض شبان العرب بمظاهرة دخلوا فيها إلى المجلس وأجبروا الاتحاديين على تصديق نيابته. ومنهم نخلة بك المطران من وجوه بعلبك. ومنهم المرحوم شفيق بك المؤيد[1] وهو من أبرز الشخصيات العربية وأكثرها حركة، ومن الذين شنقهم الأتراك أيام الحرب كما سيجيء.

العربية الفتاة[2]

هي الجمعية العربية السرية التي تأسست سنة ١٩١١ في باريس، والتي لعبت دوراً مهماً من ابتداء الحرب العامة إلى أن انحلت بعد خروج جلالة الملك فيصل بن الحسين من دمشق.

وسأذكر الآن ماعرفته عن تأسيسها، والمؤسسين. وسوف أذكر فيما بعد بعض الأعمال التي قامت بها قبل وبعد تأسيس الحكومة العربية الفيصلية في دمشق حتى أيام انحلال الجمعية.

كل شيء أساسه الفكرة. وفكرة تأسيس الجمعية العربية المسماة بالفتاة قامت برؤوس ثلاثة من شباننا في الآستانة وهم: عوني عبد الهادي من نابلس (فلسطين)، والدكتور أحمد قدري من دمشق (سورية)، ومحمد رستم حيدر من بعلبك. إن هؤلاء الشبان كانوا أيام الانقلاب العثماني في الآستانة، وقد تحمسوا

(١) – شفيق بن أحمد المؤيد العظم. وُلد في دمشق سنة ١٨٥٧م، وانتخب نائباً عنها، وعارض الاتحاديين في سياسة التتريك. وكان قوياً في الحق، فحقد عليه الأتراك وقدّموه إلى ديوان الحرب العرفي في عاليه، فحكم عليه بالإعدام في دمشق يوم ٦ أيار ١٩١٦م، وهو من أكبر الشهداء سناً.

(٢) – لمزيد من المعلومات عن هذه الجمعية انظر: حول الحركة العربية الحديثة – عزة دروزة ج١/ ٣٠.

للحرية حسبما تقتضيه سنّ الشباب. فكانوا يتتبعون كل مظاهرة تقوم في الآستانة، ويستمعون إلى الخطباء الذين يثيرون الشعور بخطاباتهم. وقد أثر تحامل الشبّان الأتراك على كبار موظفي العرب، كأحمد عزت باشا العابد، الكاتب الثاني في «المابين»[1]، والشيخ أبي الهدى الصيّادي، ونجيب باشا ملحمة... وغيرهم. ومع أن الرجعيين من موظفي الدولة كان أكثرهم من الأتراك، فكان الهجوم على أبناء العرب ٩٠٪ أكثر من غيرهم من موظفي الترك الذين لم يذكر اسمهم إلا عرضاً.

أثّر هذا التهجُّم على هؤلاء الشبان، وجعلوا يفكرون بطريقة للخلاص من الأتراك، فخطر لهم خاطر تأسيس جمعية مثل جمعية «جون تورك» تركيا الفتاة، وهي التي قلبوا اسمها بعد الانقلاب إلى جمعية الاتحاد والترقي.

ومما يجب أن يذكر أن أول يوم فكروا فيه بهذه الجمعية يوم كانوا يمشون فيه بمظاهرة كبرى في حي «البك أوغلي»، وهو أكبر حي في الآستانة يسكنه الأجانب: يظن المار فيه أنه في شارع أوربي. سمعوا من الضابط سرّي بك أحد الخطباء حملة شعواء على أحمد عزت باشا العابد والعرب ووصفهم بالخونة. فتحركت العاطفة العربية بهؤلاء الشبان. وصاروا كلما قرؤوا شيئاً عن رجال العرب في الجرائد أو رأوا رُسومهم «الكاريكاتورية» التي لم يعتادوا عليها وتحتها كلمة «عرب»، ومعناها عند الترك «الكلب الأسود» يحرقون الأرم.

وبدؤوا يفكرون بلزوم تأسيس جمعية عربية تحفظ كيان العرب. ولايستبعد أن يكون للغيرة من شبان الأتراك أعظم الأثر أيضاً في تشكيل الجمعية المذكورة. ومما يجب ذكره أن العوامل التي دفعتهم للسرعة بتأسيس الجمعية هي الدعايات التي حركت النعرة التركية. فصارت تزداد يوماً فيوماً حتى أصبح جميع الأتراك نساء ورجالاً، شيوخاً وأطفالاً، في الشوارع والمساجد، في الأزقة والمدارس، لاينظرون إلى العرب، خصوصاً الموظفين منهم، إلا بعين الازدراء والاحتقار. ولم يمض على هذا الانقلاب مدة حتى رفع الاتحاديون البرقع عن وجوههم وكشفوا عما تكنّه

---

(١) - المابين: الدائرة الخاصة التي يجتمع فيها الوزراء في القصر الملكي العثماني. ومن ثم أصبحت اسماً لسراي الحكومة ومقراً للوزراء.

ضمائرهم نحو العرب وغيرهم من العناصر العثمانية. وجعلوا ينفثون في قومهم سُمّ العنصرية التركية ويحبّذون سياسة التتريك، ويحضون الناس على تتريك جميع العناصر التي تتألف منها الدولة العثمانية. وتبدلت بكلمات عثمان وعثمانية كلمات ترك وتركية.

كل هذا كان يجري في حين كان الخطباء لايفتؤون ينادون بالحرية والاتحاد والمساواة والإخاء والعدالة، حتى أصبحت هذه الجمل «كليشة» ترددها جميع الأفواه. ولكنها كانت عبارة عن أقوال فقط، وأعمال رجال الحكومة على خلافها تماماً. وقد ظهر هذا للجميع وذلك باستيلاء الأتراك على جميع مراكز الحكم، وإبعاد غير عناصرهم عنها، والهيمنة على كل الشؤون في الدولة. وأسسوا لحزب الاتحاد والترقي فروعاً في جميع الولايات، وجعلوا إدارتها في أيدي الموظفين الأتراك الذين عيّنوهم حديثاً، وأكثرهم من الشبان الأغرار الذين يعجزون حتى عن إدارة أنفسهم. وأصبح أصغر موظف اتحادي يعامل الوالي القديم معاملة الآمر للمأمور الصغير.

والتف حولهم الناس وجعلوا يدخلون في الجمعية أفواجاً أفواجاً، ولم يقبلوا بينهم إلا كل من كانوا يتوخّون من ورائه فائدة مادية أو معنوية، خصوصاً الذين بيدهم قوة انتخابية. وأكثر الذين التفّوا حولهم وانتسبوا إليهم المرتزقة من وجوه البلاد ورؤساء الأحياء الذين يعتاشون من أبواب الحكام. حتى إن الزعماء الحقيقيين للبلاد اضطروا للخضوع ومداراة الاتحاديين خوفاً على مصالحهم. وصارت نوادي الحزب من الآستانة والملحقات مركز المراجعة في جميع الأمور. وقد ضعفت قوة الحكومة، واستغنى كثير من الموظفين القدماء من أصحاب الكرامة عن وظائفهم حرصاً على كراماتهم.

وأعظم ناحية ظهرت فيها نواياهم في المدارس العالية، لما كان يظهر من الشبان الأتراك من التهوُّر في المجادلات التي تحصل بين الطلاب، ويفرضها سن الشباب. وكم من مرة جرى النزاع بين شبان العنصرين التركي والعربي عقيب جدال سياسي في الصفوف وباحات المدارس.

ومن الحوادث التي كان لها تأثيرها على الأتراك هو اجتماع أبناء العرب من متخرجي الصف الأخير في مدرسة الملكية ١٩١١ وسحب صورة فوتوغرافية لهم. وهم أول صف دخل في هذه المدرسة بعد الانقلاب وهم السادة:

١- توفيق الطرابلسي - طرابلس الشام.

٢- مسلم العطار - دمشق.

٣- نسيب الأيوبي - دمشق.

٤- مظفر البغدادي - العراق.

٥- عبد الستار السندروسي - طرابلس الشام.

٦- زكي التميمي - نابلس فلسطين.

٧- عبد القادر عوض - دمشق.

٨- توفيق الحياني - حلب.

٩- نسيب النابلسي - دمشق.

١٠-عاكف الجابري - حلب.

١١- عارف الخطيب - حماة.

١٢- عبد المالك الجيرودي - جيرود دمشق.

١٣- عمر زكي الأفيوني - طرابلس الشام.

١٤- معين الماضي - حيفا.

١٥- كاتب السويدي - العراق- بغداد.

وبعد أخذ هذا الرسم علت ضجةٌ بين الطلاب، وبعد أخذ وردّ، ومنعاً للشرّ، وإظهاراً لحسن نيَّة العرب نحو الأتراك. أُخذ رسم عام لجميع الطلاب المأذونين في ذلك العام مع أساتذتهم. وبذلك خففوا شيئاً من حدَّة زملائهم شبان الأتراك الذين استلموا بعد مدَّة أكبر مراكز الدولة، ممّا زاد في حقد مستنيري العرب، خصوصاً رفاقهم في المدرسة الملكية.



صورة ثانية لأعضاء المؤتمر السوري مضاف إليها صور بعض الأعضاء
بسبب غيابهم وقت أخذ الصورة الأولى

مسألة البلقان

شبه جزيرة البلقان

البلقان أو بلكان هي سلسلة جبال متسعة على حدود سهول بلغاريا. ويقال للبلقان كاغ لاتصاله برأس «أمينة بروني» كما يقول شمس الدين سامي[١]. والأراضي العثمانية التي تشكل شبه جزيرة في أوربا الوسطى. يسمونها «أوربا العثمانية» والروم إيلي. وبعد انفصال بعض الشعوب عن تركيا واستقلالها عنها لم يعد هذا الاسم يشمل جميع البلدان العثمانية السابقة. ولهذا أسموا الولايات التي بقيت في أيدي العثمانيين بشبه جزيرة البلقان[٢].

وبما أن الدولة العثمانية استولت على هذه البلاد وبقيت تحت إدارتها مقدار أربعة عصور وكسور فقد أصبحت اللغة العمومية التي يتفاهم بها أهل البلاد هي اللغة العثمانية. والشعوب التي كانت تتكلم التركية في البلقان مشكّلة من العناصر الرومانية والصربية والبلقانية والبوشناقية والبوماقية والأرناؤوطية والتركية والبلغارية.

ومع أن العنصر التركي في «الروم إيلي» هو أقلية، فقد حافظ على الموازنة بمساعدة العناصر الإسلامية التي كانت تسانده باسم الدين. والعنصر الأرناؤوطي

---

(١) - قاموس الأعلام ٢٧٥ و ٨٦٤.

(٢) - في بداية ١٩١٢، كان الروم إيلي يشمل. ألبانيا وبعض أجزاء اليونان وبلغاريا، وبعد حروب البلقان في العام نفسه، خسرت الدولة العثمانية معظم هذه الأراضي.

بالرغم من قلة عدد نفوسه فإن شجاعة شبانه ورجاله وقوتهم الحربية جعلت له مكانة عظيمة بين هذه الشعوب المختلفة. وبما أن لكل شعب من هذه الشعوب لساناً خاصاً وأدباً خاصاً به، أضحى من الطبيعي أن يكون لهذه الأقطار المتداخلة عناصرها بعضها ببعض لغة موحدة يتفاهم بها الجميعُ. فكانت اللُّغة التركية هي اللسان العمومي الذي يتفاهم به السكان. ومن هذا نعرف لماذا كنا نجد في بلاد الصرب والبلغار من يتكلم اللغة التركية.

والحركات الثورية التي تقوم بين آن وآن في البلقان، والتي كانت تشجع أهله على الانفصال كانت حركات أجنبية. فالإصبع الروسية كانت تحرك الروم الأرثوذكس وتحميه في جميع البلاد، والدول الكاثوليكية تحمي العنصر الكاثوليكي، وكذا قل عن البروتستانت الذين كان يحميهم الإنكليز كما هي الحال في سورية. أما المسلمون فكانت من ورائهم الدولة العثمانية التي تعتبر جميع هذه العناصر من رعاياها.

وكما كانت أصابع هذه الدول تلعب في البلاد العربية، وتحرك العناصر غير المسلمة وتنشرُ بينها الرعب والخوف من المسلمين بالدعايات المغرضة، كذلك كانت تقوم بمثل ذلك في البلاد العثمانية نفسها. والعداء الذي استحكم بين العناصر لم يزل أثره إلى اليوم بادياً هنا وهناك، لايعلم إلا الله متى يتمكن البشر من إزالته ومتى نتغلب عليه، وهذا موكول للزمن والظروف[1].

ومع أن روسيا اليوم هي دولة لادينية فإنها لم تزل تحمي الصقالبة والعنصر الأرثوذكسي، كما كانت تفعل روسيا القيصرية آنذاك، مما يدل على أن الدول العظمى تجعل الدين في يدها آلة لجر المنافع على الشعوب الساذجة. كما نرى من تسلُّط بعض الدول في كل ناحية من الدنيا على الشعوب الكسولة الجاهلة[2].

(١) - إن المجازر التي قام بها الصرب في الآونة الأخيرة، وماتشهدهُ ألبانيا اليوم من صربيا يُؤكد ماذهب إليه البارودي.

(٢) -كان ساسة أوربا يُعادون الكنيسة في بلادهم، ويدعمونها في بلاد الآخرين تمهيداً لاستعمارها.

وهانحن اليوم رغم تفتّح أعيننا وتقدمنا في معارج المدنية، وخطونا هذه الخطوة الصغيرة، لم نزل نرى أصابع الدول الخفية تلعب في بلادنا كما كانت تلعب قديماً بل وأكثر. أجارنا الله منها وفتح أعين قادتنا لتلافي خطرها المحدق بنا، إنه سميع مجيب.

مُعاهدة برلين ١٨٧٨

كانت أصابع الدول الأجنبية، كما قلت، تحرّك العناصر غير المسلمة التي وقعت تحت حكم تركيا. وقد ظهر هذا للعيان في الحرب التي أعلنتها روسيا[1] لعبة خفيةً حركت فيها الجمعيات السلافية. وقامت الفتن في البوسنة والهرسك والصرب والجبل الأسود. وكانت النتيجة إعلان روسيا الحرب على تركيا. وبعد محاربة شديدة صمد فيها الجيشان وأظهرا من ضروب الشجاعة ماحيرّ العالم، كانت النتيجة تغلُّب روسيا على العثمانيين. ولولا وقوف الأسطول الإنكليزي في جانب الدولة العثمانية آنذاك لاحتل الروس الآستانة. وعُقدت الهدنة وتصالح الفريقان على مافي معاهدة سان استفانو[2] الموقعة التي تمت بعد طرحها على الدول العظمى التي عقدت المعاهدة الباريسية. فنشأ عن ذلك المؤتمر الدولي في برلين الذي بدل بمعاهدة سان استفانو المعاهدة البرلينية التي أُعطي فيها ماأُعطي إلى الشعوب البلقانية.

ومن هنا يظهر للقارئ مطامع الدول العظمى وأغراضها، وكيف يعمل القوي ليأكل الضعيف. وهذه هي دول البلقان اليوم بعد استقلالها عن تركيا منذ عشرات السنين، لاتزال تشكو من الأصابع الدولية التي لم تزل تلعب بين الشعوب لتصل إلى مآربها. كما نشكو نحن من هذه الأصابع أجارنا الله منها.

---

(١) – في ٢٤ نيسان ١٨٧٧ أعلن القيصر الروسي ألكسندر الثاني الحرب على الدولة العثمانية وبنتيجتها خسرت الدولة معظم ممتلكاتها في أوربة.

(٢) –عقدت في ٣ آذار ١٨٧٨، ثم عُدِّلت في مؤتمر برلين في ١٣ حزيران من العام نفسه.



علاء الدين بك الدروبي رئيس مجلس الشورى

الامتيازات الأجنبيّة في البلاد العثمانيّة(١)

امتيازاتُ دولةِ العجم

في أواخر أيام الدولة العثمانية، وفي دور الانحطاط، كلما غلبت دولة من الدول الأوربية الدولة العثمانية يُصبح للدول الغالبة امتيازات في بعض النواحي تجبر الحكومة العثمانية على مراعاتها. ومن يطالع التاريخ يعرف مقدار ماتحمّله العثمانيون من تعدّي الأجانب على رعاياهم. وكلّما نالت دولة امتيازاً طالبت بقيّة الدول بمثله، حتى جاء يوم في دمشق أصبحت فيه عصا الأجنبي سيفاً، خصوصاً رعايا العجم. لأن الدولة العثمانية بعد انكسارها في الحرب التي قامت بينها وبين الفرس أخيراً، وبعد أن غلُبت على أمرها، رضيت بكل الشروط التي وضعها الفرس على الأتراك. ومن هذه الشروط: حماية الملتجئ إلى دار السفير أو «القنصل» مهما كانت جريمته.

وقد رأيت بأم عيني كيف كان قنصل العجم يحمي المجرمين. وقد كانت دار القنصلية في محلّتنا في محلة «شابكلية- قنوات»، وكنت في سن السابعة تقريباً. وكنت ألعب مع أولاده علي خان وميرزا خان.

---

(١) - كانت البندقية هي أول دولة أوربية تحصل على الامتيازات في الدولة العثمانية، وذلك في عهد السلطان سليمان القانوني، ثم تبعتها فرنسة سنة ١٥٦٩م وإنكلترة سنة ١٥٨٠م، ثم بقية الدول الأوربية، وقد تحولّت هذه الامتيازات في عصر انحطاط الدولة العثمانية إلى مايشبه الاحتلال، ولاسيما في القرن التاسع عشر عندما تقدم محمّد علي في سورية، وقامت حرب الستّين في سورية ولبنان. وكان القنصل الإنكليزي في دمشق بدءاً من سنة ١٨٤٠م هو الحاكم الفعلي فيها.

وكثيراً مايدخل أناس إلى الدار ركضاً، ورجال البوليس وراءهم. ولما يدخل الملتجئ إلى دار القنصل، وشعار دولة العجم معلق على بابها، يقف رجال الشرطة خارج الباب ويعودون أدراجهم خائبين.

ومنذ أوائل القرن الحادي عشر الهجري حتى أواخر القرن الثاني عشر كانت شوكة قناصل العجم قائمة. وكثيرون من الدمشقيين، خصوصاً الجعفريين منهم، كانوا يسعَون للحصول على الجنسية الإيرانية، كم جانٍ من كبار الجناة تخلّص من المشنقة بالتجائه إلى دُور القناصل.

وكانت القنصلية الروسية تأتي بعد القنصلية الإيرانية في الأهمية بدمشق، تليها الإنكليزية فالألمانية فالفرنسية، وهكذا إلى آخر الدول التي لها قناصل أو سفراء في دمشق.

الامتيازات الأجنبية في بلاد الشرق

لم تتوقف هذه الامتيازات على الدولة العثمانية فحسب، بل إنّ الدول الأجنبية، ولاسيّما التي تسمي نفسها بالعظمى كانت تدعم سفراءها ورعاياها حيثما حلّوا. وكان هؤلاء يعيشون في بحبوحة ورغد، بفضل الامتيازات، حتى إنّ مبنى السفارات والقنصليات الأجنبية في بلاد الشرق، كانت شبه مستعمرة في أراضيها، تحمي رعاياها، ومن دخل تحت ظلّهم، فهي دولة ضمن دولة. هذا في بلاد المشرق كالصين واليابان وإيران وأفغانستان والحبشة ومصر وغيرها من الدول الشرقية. ولم يكن للسفراء في البلاد الغربية هذا التأثير. وامتياز السفير فيها لايزيد على مايلزم لقضاء منطوق الأوامر المسلّمة إليه، وحكمه فيها حكم آمره لايتعدّاه. فإنه إذا لزمه دَين حق للدائن أن يصادره بالطرق القانونية.

واليابان بعد حرب سنة ١٩٠٥، وانتصارها على الروس، أصبحت من الدول العظمى. وارتفعت عنها سيطرة الدول الغربية، وصارت مثلهم. وهكذا شأن القوي مع الضعيف. فالضعيف مخذول والقوي ظالم متعسّف. ولله في خلقه شؤون.

إلغاء العثمانيين الامتيازات وإعلان الدستور

بعد الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ خفت وطأة القناصل ورعاياهم. وبعد مدّة ألغت الدولة العثمانية الامتيازات الأجنبية، وأقامت لذلك احتفالات عظيمة وزينت جميع البلاد.

وفي هذا العصر بعد أن وُضعت المعاهدات والمواثيق الدولية حدوداً للسفراء ورجال السلك السياسي، وقفت كل دولة عند حدِّها، وأصبحت الدول في معاملاتها سواسية.

تأثير القبّعة على الشرقيين

من هذه الامتيازات صار للسفراء والقناصل حق بأن يعينوا من أبناء البلاد حراساً باسم «قوّاس»، يرتدون السّراويل الطويلة مع الدوامر[1] المزركشة بالقصب، ويحملون السيوف والعصي المفضضة، ويُنتخبون من أقوى الفتيان، ومن الطبقة المعروفة «بالقبضايات». ولباس رأس القواس قطعاً هو الطربوش. فالقدماء كانوا يلبسون الطربوش العباسي فوق العمامة الأغباني. ومع الزمن بدّلوا به الطربوش العادي، ومازالوا إلى اليوم على هذا اللباس.

وأثناء سير القنصل في البلدة، في غير الأيام الرسمية، يسير القواس أمامه والسوط بيده ليفتح له الطريق ويدفع عنه الأذى. ولم أرَ في حياتي من تجرأ على قنصل بأذى أثناء سيرهم في الأسواق. وإذا ازدحم الطريق وتأخر بعضهم عن فتحه أمام القنصل فإن القواس يستعمل السوط لتفريق الناس. هذا كان قبلاً وفي أوائل القرن العشرين أبطلوا هذه العادة. ومن ذلك الزمن أصبح القواس رمزاً قوة الأجنبي، وعنوان القناصل أثناء السير. وإذا ركبوا في العربات يجلس القواس جانب الحوذي. ومن الشروط المطلوبة في القواس جمال الوجه وقوة القلب والعضلات وكبر الشارب. فلا يؤخذ القواس إلا من أجمل الشبان وأقواهم وأشجعهم.

---

(١) - جمع: دامر.

*ولشـدة مـاكـان يقـاسـيـه أجـدادنا وأباؤنا من تسلُّط الأجنبي ومـسـاعـدة الحكومات المحلية له، صار الخوف متأصلاً في نفوسهم. وانتقل منهم إلينا، وأصبح الخوف من صاحب القبعة عادة ورثناها عنهم. ومن طول الأيام التي تمتَّع الأجنبي فيها بهذه الامتيازات استأصلت عوامل الخوف في نفوس الشرقيين وأصبحوا ينظرون للغربي نظرة الاحترام. ومن عاشر الافرنج في بلادهم وقضى معهم ولو مدةً قصيرة وعرف حقائقهم لاتبقى نظرته إليهم تلك النظرة القديمة، وتصبح معاملته لهم معاملة الند للند. وهانحن اليوم نعيش بهذه النعمة في بلادنا، أدام الله علينا الاستقلال وحفظنا من نوائب الدهر، إنه سميع مجيب.



عوني بك عبد الهادي كاتم أسرار جلالة الملك

الفنادقُ والخاناتُ والتجّار في دمشق

الفنادق

لم تكن دمشق تعرف الفنادق، بل كانت الخانات تقوم مقام الفنادق فيها، وسيأتي بحثها منفرداً. وأول فندق «أوتيل» تأسس في دمشق هو «أوتيل ديمتري». وديمتري هذا رجل نمساوي فتح غير الفندق مقهى في ساحة المرجة على الطرز الجديد مما لاعهد لدمشق به. وشاركه في الفندق رجل يدعى الآغا ممنون. وفتحا الفندق في طلعة جوزة الحدبا[1]. ثم فتح المسيو (بيترو بوليوفيتش) فندقاً أسماه (أوتيل أمريكا)، موقعه مكان «أوتيل أمية» اليوم. وهو ثاني فندق أُسّس في دمشق. ثم فتح الخواجا خوام فندقاً في محلّة القنوات في الدار المعروفة بدار تَمرُ. ثم انتقلوا إلى جانب «أوتيل فيكتوريا»، وبقوا فيه إلى أن بنوا أوتيل «أوريان بالاس» الحالي. واليوم في دمشق أكثر من مائة فندق. وفيها من الفنادق البديعة مايضاهي أجمل فنادق العالم.

وحتى إعلان الدستور العثماني كان أصحاب الفنادق جميعهم من المسيحيين. ويدأ المسلمون بفتح الفنادق منذ ذلك التاريخ، فأسسوا دار الفرح ودار السرور والخديوية، إلى غير ذلك. أما المسيحيون فكانوا يسمون فنادقهم بأسماء أفرنجية. وظل هذا إلى خروج الإفرنسيين من دمشق، حيث قام الأهلون وطلبوا من أصحاب

---

(١) - في سوق ساروجة

الفنادق تغيير الأسماء الأفرنجية بأسماء عربية فبدّلوها، وأصبحت كما هي معروفة به اليوم.

الخانات

الخان كلمة تترية معناها ملك ورئيس، يلقّب بها كل الأمراء الملكيين التتر. وهي من ألقاب ملوك الفرس والسلاطين العثمانيين. ويطلق الخان عند الأتراك على الفندق. وعنهم أخذه العرب. كان قديماً يبنيه الملوك على الطرق العامة لتبيت فيه القوافل وأبناء السبيل. والخان على الأكثر يبنى عادة على هيئة ساحة مربعة في داخلها صفوف من الممّرات، بعضها مبني فوق بعض، فتكون من طابقين، على جوانبها غرف صغيرة. وفي أحد جوانبها إسطبلات، وعلى طول حيطان الإسطبلات من الخارج (معالف) لربط الدواب في الصيف، ويسمى (مَصْيَف).

وكانت هذه الخانات لحماية المسافرين من الأشقياء وقُطّاع الطرق لايدفعون أجراً عن المبيت فيها. هذا في الخانات الواقعة خارج المدن. وتكون هذه الخانات مبنية بالحجر والجص. وهي أقرب إلى الحصون والقلاع منها إلى الدور. يبيت المسافر في الدَّوْر الأعلى، ويضع الحيوانات في الدَّوْر الأسفل.

خانات المدن

خانات المدن، أي التي تبنى في داخل المدينة هي على قسمين: أحدهما خان التجارة، والثاني خان المسافرين.

فخان المسافرين يؤجّره أصحابه إلى أناس مخصوصين بإدارة مصلحة الفنادق، فيأخذون من المسافرين أجر المبيت. والأجور تختلف حسب الزمان والمكان. وعلى كلٍ كانت الأجور طفيفة يتحمّلها كل إنسان. والغرف كان منها المفروش برياش بسيطة، ومنها العاري من الفرش.

والغريب الذي يبيت بالخان لايكون له في البلدة التي ينزلها من يعرفه[1]. أما من كانت له أدنى معرفة بأي شخص كان، فإنه يذهب ويحلُّ ضيفاً في داره.

ولم يزل إلى الآن بعض الخانات في دمشق ينزلها أهل القرى الذي يؤمون دمشق للبيع والشراء[2].

خانات التجارة

والقسم الثاني خانات التجارة المعروفة لدى بعض الأهلين اليوم. ولم تزل على حالها كما كانت قبل عدة قرون. ولابأس من ذكرها ليطلع عليها القراء.

كانت البلاد قديماً على اختلاف العصور، وفي أكثر الأوقات، مرتعاً للأشقياء والزعران. والتجار غير أمينين على أموالهم. ولذلك أقيمت الخانات التجارية على نسق خانات الفنادق التي مرَّ ذكرها. وهي من دورين أيضاً. وفي الآستانة خانات تجارية من ثلاثة أدوار، تكون غرفها حوانيت (دكاكين) للتجار. والغرف صغيرة بطبيعة الحال، يستعملها التاجر مكتباً يضعُ فيها البضائع الثمينة الخفيفة الحمل، كالحرير وأنواع الملابس على اختلاف أشكالها. أما بضائع (مال القبان) يعني الأرز والسكر والسمن والبن والشاي وأمثالها فتوضع في صحن الخان.

ولكل خان بواب يستأجر ساحة الخان. ويأخذ أجره من المشترين بحيث يدفع المشتري إلى البواب عند إخراج البضاعة عن كل وحدة مبلغاً طفيفاً. مثلاً في الزمن الحميدي كان يؤخذ عن الوحدة، يعني كيس أرز أو بن أو غيره، وعن «القفّة» وعن «قصديرة» السمن (تنكة) متليكاً، وهو ربع قرش عثماني صاغ. وسيأتي بحث العملة العثمانية. ثم ارتفعت أجرة الوحدة إلى نصف قرش، ثم إلى القرش، ثم

---

(١) - كان العلماء الأغراب عن دمشق ينزلون في المدارس، ولم يكن ينزل بالخان إلا التجّار ومن في حكمهم.

(٢) - هذا الكلام في الخمسينات.

إلى نصف البشلك أي قرش ونصف. وفي حوالي سنة ١٩٣٠- ١٩٣٥ ميلادية أصبح التجار البائعون يدفعون للبواب أجراً مقطوعاً، وعُدل عن الأخذ من الشاري.

ولكل بوّاب خان مساعدان: أحدهما يسمى الناطور، وظيفته حراسة الأرزاق ليلاً، يبيت داخل الخان، وفي الصباح يسلم البواب مقابل أجر يتفق والحالة الحاضرة. أما المساعد الثاني فكان يقوم بكنس وتنظيم باحة الخان والمحافظة على نظافة الباحة دائماً مقابل أجر معين.

حالة التجار آنذاك

الذي أعرفه وأذكره جيداً أن بعض كبار التجار كان لهم أمام أبواب غرفهم تخوت صغيرة يجلسون عليها، يحيط بها بعض المقاعد من كراسي القش العالية والواطئة، يجلس عليها المشترون في أوقات الفراغ تكون كمجالس سمر يتحدثون فيها مختلف الأحاديث الفكاهية، ويقضون ساعات هنيئة لم نعد نرى مثلها منذ طغيان المادة على المجتمع.

أخلاق التجار

كان التجار في تلك الأيام لهم حالة خاصة. وأكثرهم لايخرج عن عرف طبقته. فلم يكن لتاجرٍ عربة ركوب خصوصيّة من العربات التي كانت مختصة بطبقة الذوات من الزراع. أما التجار الذين يضطرون للركوب فمنهم أصحاب الطواحين وتجار الحبوب فيركبون الرهاوين[1]. كما أن البعض يركبون البغال والبعض لهم عناية خاصة بالخيول الأصايل. والبعض الآخر يركبون الحمير القبرصية البيضاء، وحمير الصليب. والذين ليس لهم حيوان للركوب يستأجرون الحمير من سوق الخيل.

---

(١) - الرهوان: كلمة فارسية، أصلها راهوان، نوع من الخيول سريع السير، له مشية خاصة لايمكن لبقية الخيول مسايرته في الطريق نظراً لسرعته.

والركوب بالقطار كان لعموم التجار تقريباً في الدرجة الثالثة. والتاجر الذي يضطر لركوب عربة الأجرة كان يواري وجهه ويستحيي بنفسه إذا رآه أحد من الناس راكباً في العربة. هذا إن كان من التجار المتوسطين.

أما كبار التجار الذين لهم أملاك عظيمة ومزارع فكانوا يقتنون العربات والخيول. ومنهم من يحمل رتب السلطان ويشترك بالاحتفالات الرسمية في الأعياد ومواسم الحج، فيرتدون لباس «القصب- الصرما»، ويمشون في (الألاي). وهو ماسيأتي ذكره في غير مكان من المذكرات.

وأكثر التجّار كانوا يتاجرون بثلث أموالهم، يضعونه رأس مال، والثلث الثاني يبقونه احتياطاً خوفاً من الأزمات، والثلث الثالث يشترون به أملاكاً تكون لهم ذخراً يحتفظون بها للأيام السوداء. والتاجر الذي يشتغل بثلث ماله أو بنصفه، يكون بعيداً جداً عن الإفلاس، بعكس تجار اليوم، خصوصاً الشبان منهم، الذين يشتغلون بأضعاف رأس مالهم، فيكونون عرضة للطوارئ والأزمات. وكم رأينا تاجراً اشتغل بأضعاف رأس ماله، فكُسر وجلب الشقاء أو الإفلاس لعشرات من التجار الذين يستدين منهم البضائع.

ثم من المستحيل أن يشتغل تاجر صنفاً معيناً بغير أنواع تجارته التي تخصص بها بعكس اليوم. والاختصاص في أي عمل كان هو أُسّ النجاح.

الحزّامون

الحزّام هو الذي يحزم البضائع للتجار، مقابل أجر على الوحدة. وتسمى كل وحدة من البضائع المحزومة «فردة». وحزم البضائع صنعة قائمة بذاتها. ولكل خان من الخانات التجارية حزّامون خصوصيون لايمكن أن يأتي غيرهم إلى خانهم. والأجرة تؤخذ على الفردة. وتختلف باختلاف الزمان. والفردة التي يحزمها الحزام «الأسطة» أي المعلم لايمكن أن تفك في الطريق مهما كانت مسافة السفر طويلة. وكما أن لكل خان حزامين، كذلك فإن لكل خان حمالين خصوصيين أيضاً لايمكن لغيرهم أن يدخل إلى خانهم.

وخانات التجار محصورة في دمشق بين سوق الطويل، وهو الذي يسمى سوق مدحت باشا، وبين سوق الحرير وسوق البزورية. وخانات دمشق المعروفة هي:

اسم الخان	السوق الذي فيه الخان
خان أسعد باشا	البزورية
خان العامود	البزورية
خان الصدرانية	البزورية
خان الصوف	البزورية
خان الذكة	مدحت باشا
خان سليمان باشا، ويسمى الحماصنة	مدحت باشا
خان جقمق	مدحت باشا
خان الزيت، كان قديماً للزيت واليوم لمال الفاتورة	مدحت باشا
خان الحرير[1]	سوق الحرير
خان الزعفرنجي	سوق الحرير
خان الحرمين، وكانوا يسمونه سوق الجواري	سوق الحرير
خان الكمرك	سوق النسوان
خان باب البريد	سوق باب البريد
خان الزيت، ولم يزل للزيت	سوق العتيق
خان الدبس	سوق العتيق
خان البطيخ	أصبح مرآباً

(١) -وهناك خان القاري في مكتب عنبر، وخان السبيعي والتتن في البزورية، وخان الجوخية في الخياطين، وخان السفرجلاني في سوق السلاح، وخان الصنوبر في رأس سوق البزورية، وخان المرادية في سوق الحرير، وغيرها. انظر خطط دمشق، صفحة ٤٧٣ ومابعد.

وقد كانت مراكز أعظم تجارة دمشق في سوق الطويل[١] وخاناته. وهذا السوق يمتدُّ من باب الجابية إلى مأذنة الشحم. والحوانيت على جانبيه. وكان ضيقاً جداً. وعندما تولى مدحت باشا ولاية الشام أمر بإخلاء السوق لتوسيعه، فلم يقبل التجار. فأمر بحرقه فحرقوه بالفعل، وفي مدة قريبة عمَّره أصحابه وأصبح كما هو عليه اليوم.

ولم يكن في زمن تلمذتي في مكتب عنبر من تجار هذا السوق من يعرف الكتابة والقراءة إلا أفراداً قلائل. وكان لهذا السوق بعض الكتاب من المسيحيين واليهود، ومن المسلمين رجل واحد يسمى الشيخ حسن الدسوقي، يحملون في زنارهم دواة من نحاس، لها ذنب طويل. يضعون في الذنب أقلاماً من القصب، وهو اليراع، يبريه الكاتب بموسى رفيعة أو «بقلم تراش». وهو نوع من السكاكين مخصوص لبري الأقلام. وهؤلاء الكتاب يزورون التجار مرة أو مرتين في الأسبوع، ويكتبون لهم المبيعات في دفاترهم.

وكنا كلما مررنا في طريقنا إلى المدرسة الواقعة في حي الخراب ينادينا بعض التجارلقيد بعض «النفدات»[٢] في ورقة تسمى «طيارة» يحفظونها إلى أن يأتي الكاتب فتكون كمفكرة لهم. وكانوا ينادون التلميذ بقولهم: يابني، الله يفتح عليك، «خط لي هل خطين»، فكنا نساعدهم. وأذكر أن ثمن ذراع الخام من معمولات دمشق كان ثلاث «نحاسات»، وهي تساوي سبع بارات ونصف من القرش. ومجموع بارات القرش أربعون بارة.

جناب الأكرم

والذي أذكره تماماً أن ديباجة الكتاب كانت «كالاكليشة المطبوعة» لم أزل أحفظها إلى اليوم. كان يكتبها جميع من كتب رسالة من العلماء إلى الموظفين أو الطلاب أو الأهلين أو التجار، وهي:

---

(١) - سوق الطويل هو جزء من الشارع المستقيم الروماني. يصل باب الجابية بباب شرقي، وطوله ١٥٠٠م. وقد نسب إلى مدحت باشا لأنه هو الذي نظمه.

(٢) - مفردها نفده، يعني بيّعَة.

«جناب الأكرم، والمقام الأفخم، حميد المزايا، كريم الشيم، حضرة أخينا السيد. . . . أفندي المحترم، دام بقاه آمين.

من بعد السلام عليكم، ورحمة الله وبركاته، والسؤال عن شريف الخاطر العاطر أنه إن جاز سؤالكم عنا فإنا لله الحمد بألف خير وعافية. . . إلخ».

هذه الديباجة لم يزل الكثيرون يستعملونها إلى اليوم في مكاتباتهم، خصوصاً المزارعين من الفلاحين، حتى الأفندية منهم.

دام بقاه

بمناسبة هذه الديباجة، وقعت حادثة لطيفة لابأس من ذكرها هنا: كان لأحد التجار عميل في القاهرة، دامت معاملته مع الدمشقي مدة ثلاثين سنة، وهما يتكاتبان دون أن يعرف أحدهما الآخر. واجتمع العميلان بعد ذلك وتعارفا. وبعد التعارف سأل المصري الدمشقي: أرجوك أن «تفش قلبي» بتعريفي عن معنى الجملة التي تأتي منذ ثلاثين سنة في آخر أول سطر من كل كتاب ترسله لي، وهي: «دم بقا» معناها إيه؟ قال الدمشقي: هذه الجملة ليست «دم بقا» بل هي «دام بقاه»، أي بقاء الشخص المرسل إليه الكتاب، أي: دام بقاؤك أنت أيها العميل المحترم. ونظراً للسرعة في الكتابة، وتكرر الديباجة كل مرة جعلها معروفة عند الجميع، وتكتب بهذا الشكل. وهنا صاح المصري: «الله الله ياشيخ، ريَّحت بالي، الله يريّح بالك. وقد هدأتَ فكري الذي ظل يضطرب مدة ثلاثين سنة لفهم الجملة، وأنا أستحيي أن أسألك عنها في كتاب». ا. هـ.

هذه حادثة واقعة، رواها لي السيد أبو درويش سويد المشهور.

التحارير

كان للتجار الدمشقيين، بل السوريين، عادةٌ غير مستحسنة، وهي إرسال التحارير إلى عملائهم صحبة المسافرين. وكان البعض يذهب إلى محطة البرامكة ليرسل تحريراً إلى عميله توفيراً لأجرة البريد التي ماكانت تزيد عن ربع الغرش

(متليك). ومن له عملاء كثيرون في بلدة واحدة يضع لهم عدة تحارير مكتوبة على ورق رقيق جداً في مظروف واحد لايزيد وزن مجموعها عن وزن كتاب واحد يُسطَّر على ورق عادي. والعميل الذي يُرسَل المظروف باسمه يبعث كل تحرير إلى صاحبه، أو يضع التحارير بمظاريف عديدة ويسلمها إلى أحد أصدقائه من ركاب القطار لإيصالها إلى أصحابها.

وتصورّ أيها القارئ ماذا يتحمل حامل هذه التحارير من المشقة لأجل إيصالها إلى أصحابها. خصوصاً في بلدة غير بلدته. والأنكى إذا كانت هذه السفرة أول سفراته إليها.

الكتاب الخصوصيون

كانْ لكبار التجار كآل القوتلي والحلبوني والليموني ودياب والحفّار والربّاط، وغيرهم، كتّاب خصوصيون. وقليل من أولاد التجار من كان يحسن مسك الدفاتر. وقد بدأ بعضهم بتعليم أولادهم اللغة الافرنسية في مدرسة الآباء العازاريين. فكان أول من تخرجوا من هذه المدرسة السيد مسلّم السيوفي والسيد رشدي بن السيد خليل السمان رحمه الله. وكانوا من ألمع شبان التجار في ذلك الزمان. والسيّدان رشدي السكّري وعبده الصبّان من المسلمين أيضاً.

القومسيونجية [1] والمرابون

أما القومسيونجية فلم يكن بين أبناء المسلمين منهم فرد واحد، بل الجميع من المسيحيين. كذلك يمكننا القول عن الصرّافين والمرابين، وأكثرهم يهود، على أنه كان بعض المسلمين يقومون بذلك أيضاً. وبعد الاحتلال الإفرنسي كثر عدد المسلمين حتى أصبح سوق البورصة اليوم بيدهم.

---

(١) - القومسيونجي هو الوسيط التجاري، ويسمّى اليوم سمساراً، أما إذا كان وسيطاً عقارياً فيسمّى دلالاً.

لباس التجار

لباس الرأس الطربوش، و«اللفة الأغباني»[1]. وكان لباسهم الخاص هو الصاية الحريرية و «الساكو». ولم يزل بعضهم يلبسها، ويسمى اليوم «شامي عتيق». وكان الحرير أصلياً لانباتياً. والحرير النباتي لم تعرفه بلادنا إلا عقب حرب ١٩١٤. وكان (الساكو) من الجوخ الإنكليزي المتين، يلبسه الرجل عدة سنوات مع الصاية. أما التجار الصغار وأبناؤهم فكانوا يلبسون (الديمة) والجوخ العربي. وإذا تعدى أحدهم طوره ولبس أو لبَّس ابنه لباس طبقة أعلى من طبقته يكون عرضة للتحقير والتهكمُ.

وكثيراً ماسمعنا أفندي المحلّة قد جلب أحد التجّار الصغار ووبّخه على تعدّيه طوره بارتداء لباس أعلى من لباس طبقته، وأجبره على قلعه والرجوع إلى لباسه الأصلي.

وعلى هذا النحو كانت جميع الطبقات سعيدة في حياتها، مسرورة في اجتماعاتها، فرحة في معيشتها. بعكس اليوم حيث نسمع الشكوى من كل جانب ومن كل طبقة. والسبب هو عدم معرفة الإنسان حدَّه والوقوف عنده. وإنا نرى اليوم أفقر الفقراء يريد أن يقلّد في لباسه ومعيشته ابن التاجر الكبير. وامرأة الصانع تريد أن تجاري امرأة الوزير. وبذا ظهر عدم الرضا بين الناس، وارتفعت الشكوى، لطف الله بعباده.

أمانة التجار

كانت أكثرية التجار المطلقة أمينةً على مايستودعها الناس، صادقة في معاملاتها. والتاجر كان يحافظ على كلمته فمن باع لايرجع، ومن اشترى لايقلب مهما وقع هناك من الخسائر. وكان البيعُ والشراء في الحالات العادية وبالصفقات المتوسطة والصغيرة بالقول فقط. ولم تُعرف معاملات الكتابة في البيع والشراء إلا بالصفقات الكبيرة.

(١) – تسمى: لام ألف، لأنها تشبه ذلك الحرف: لا، وهي صفراء، ولايزال يستعملها اليوم في دمشق عدد محدود جداً من التجار والعلماء.

ومنذ عهد قريب قال لي أحد أصدقائي، وأشار بيده إلى سوق مدحت باشا: قبل خمسين سنة من هذا التاريخ لم يكن في هذا السوق إلا تاجر واحد قليل الأمانة يعرفه التجار ويتحاشَون معاملته. فقلت: واليوم؟ فأخذ بطرف ردائه ونفضه قائلاً: الله أعلم.

أما الأمانة التي ذكرتها آنفاً فكانت عامة، وكم تاجر أرسل مع عميل له ألوف الليرات الذهبية دون وصل! وكان العميل يغيب الأشهر والسنين ويعود بالمال مع الربح أو بالبضائع والتجارة دون أن يمضي ورقة واحدة. واليوم من شاء فليمرَّ على كاتب العدل ويطلع على المعاملات التي تجري بين التجار فيعرف منها الفرق بين الأمس واليوم.

من عجائب تلك الأيام أن الناس كانوا يأتمنون بعضهم عن غير معرفة. فمتى قيل: هذا تاجر، فرضتْ فيه الأمانة. ولذلك كان البعض يرسل أمانة إلى عميله في بيروت أو حلب أو أي بلدة مع راكب لايعرفه. وكثيراً ماتكونَ الأمانة مئات من الليرات العثمانية. يكون الراكب جالساً في عربة القطار قبل تحركه من المحطة فيأتيه أحدهم راجياً منه إيصال أمانة صرة دراهم يعطيه إياها دون عدّ. فيتحمل هذا المسكين همها إلى أن يوصلها إلى صاحبها. وقد حدث حادث طريف لابأس من ذكره هنا.

كان في دمشق أحد كبار التجار من أسرة الحلبوني[1] الكريمة، وهي أسرة من أشهر أسر دمشق، ورجالها كانوا من أكبر تجّارها. سافر كبيرها إلى الآستانة في تجارة، وأعطاه أحد التجار أمانة إلى عميل له، صرةً فيها مائتا ليرة عثمانية. فأخذ الصرة، ولما وصل إلى الآستانة دفعها إلى المرسل إليه فعدَّها وإذا بها مائتا ليرة. فعاد إلى طالب أفندي وقال له: إن الأمانة ناقصة مائة ليرة. لأن عميلي يقول في كتابه:

(١) -من أشهر رجالات هذه الأسرة حسن الحلبوني الذي اشترى أرضاً في بستان الأعجام وبنى فيها قصراً له، مايزال إلى اليوم، ثم بنى مسجداً بجواره، فعرفت المنطقة كلها به: منطقة الحلبوني. وكان ذلك سنة ١٩٣٠م.

إنها ثلاثمائة. فقال الحلبوني: نعم احتجت إليها فتصرفت بها في الطريق، وإليك هيّ. وأعطاه مائة ليرة.

وبعد بضعة أيام عاد الرجل إلى طالب أفندي معتذراً، وأعاد المائة ليرة وقال: كان عميلي كتب لي أنه أرسل المبلغ ثلاثمائة ليرة، ولكنه عاد فأخبرني أنه لم يتمكن من إرساله بأجمعه، فأرسل مائتي ليرة فقط. ولذلك فإني أعتذر عن هذا الخطأ. ولكن أرجوك أن تعرّفني: ماهو سبب دفعك المبلغ من جيبك؟

قال الحلبوني: لو قلت إن المبلغ مائتان فقط لما قنعت، وكنت نشرت الخبر بين الناس. وإلى أن يأتي الخبر الصحيح يكون التجار سمعوا بهذه الحادثة، ومن الصعب إقناعهم ببراءة ذمتي بعد ذلك مهما كان الأمر. ولذا فإني أحببتُ أن أشتري سمعتي بهذا المبلغ. هذه حادثة واقعة، فتأمل أخلاق التجار آنذاك، رحمهم الله.

ومن عجائب الدهر أن الحكومة العثمانية أسست محكمة تجارة في دمشق، وبقيت ثلاث سنوات مفتّحة الأبواب لم يدخلها شاك، فتأمل.



جعفر باشا العسكري رئيس الحجاب لجلالة الملك

عبايــة

منذ مئة سنة تقريباً[1] تعيَّن سرور آغا (قبو قولي) مديراً لشرطة دمشق. وكان شجاعاً، قطع دابر الشقاوة. وكان يلبس العباية. وقد اتخذ أشقياء دمشق آنذاك كلمة العباية دليلاً على صاحبها. وعندما يخرج سرور آغا من دائرة الشرطة، أو من داره، يصرخ أول من يراه بكلمة عباية، فيسمعها أقرب رجل، فينادي بها، وهكذا كل من سمعها يكرّرها. ولا يمضي عشر دقائق حتى يعرف آخر رجل في المدينة أن سرور آغا متوجه نحوه. وكان الأشقياء وأرباب السوابق والمحكومون يفرون عند سماع كلمة العباية ويختبؤن إلى أن يمرَّ سرور آغا. وبعد موته بقيت هذه الكلمة على أفواه الدمشقيين.

وقد استلم بلدية دمشق متسلم[2] ترك يدعى مصطفى بك، وهو رجل شديد، يعامل الناس بالقسوة والشدة. وقد أطلقوا عليه كلمة عباية. وقد وقعت له حادثة مع أحد الوجوه يُعرَف منها مقدار تأثير القناصل في ذلك الزمان. وهي أن السيد أبا الخير تللو، جدُّ صديقي الظريف المعروف السيّد حسني تللو، وهو من أكبر تجار الحبوب، كان جالساً أمام «باكيته»[3] مع بعض عملائه، وإذ بالنداء: عباية عباية. فلم يلتفت إلى ذلك. وبعد برهة وصل مصطفى بك المتسلّم إلى أمام البايكة.

---

(١) – حوالي سنة ١٨٥٠م لأنه كتب المذكرات سنة ١٩٥٠ تقريباً.

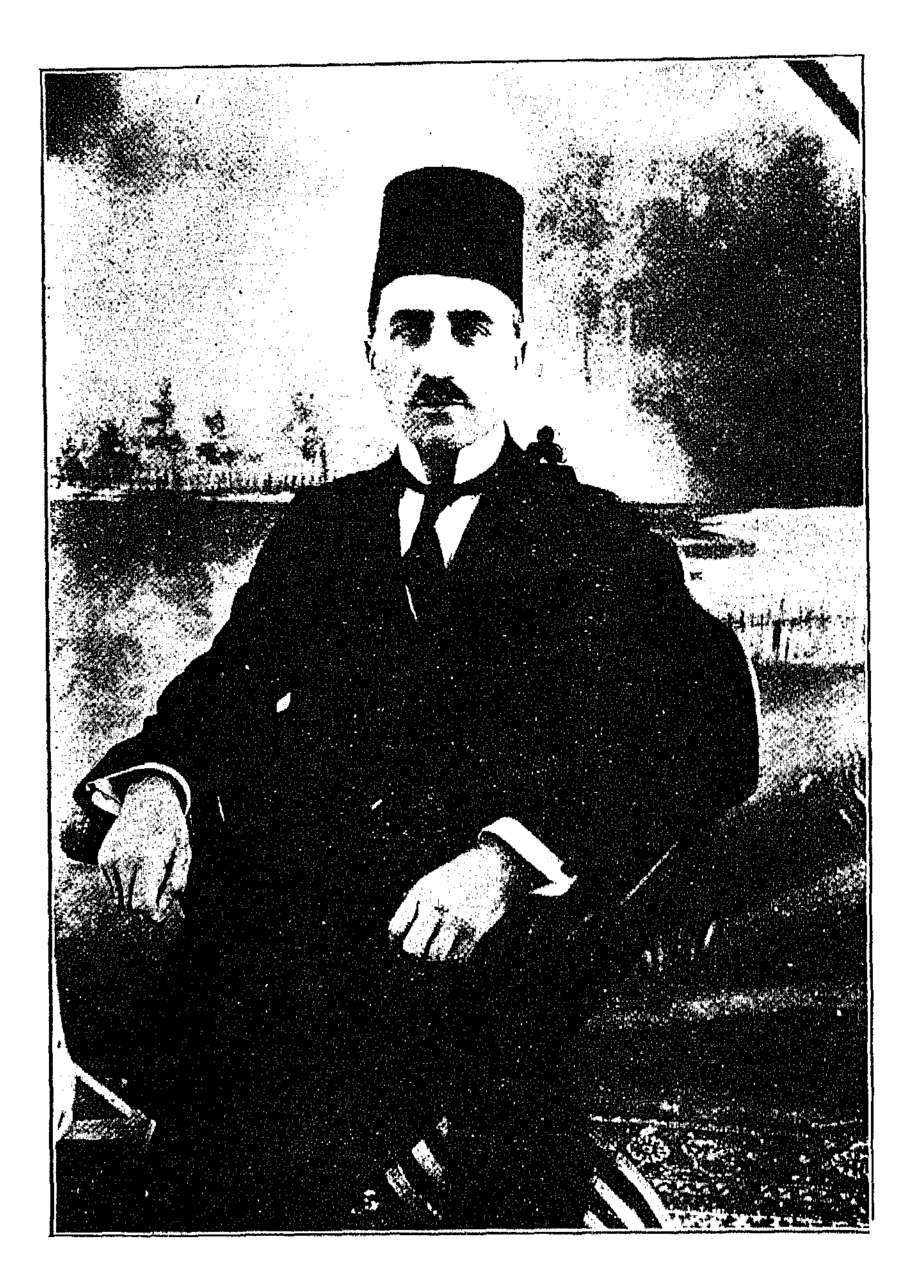
(٢) – المتسلم: موظف يقوم بمهمَّة رئيس البلدية.

(٣) – البايكة: في اصطلاح أهل الشام: مستودع الحبوب.

وكان الوقت شتاء، فوجد أمام بابها شيئاً من الوحول. فقال للسيد أبي الخير: لماذا هذا الوسخ أمام باب مخزنك؟ قال: سننظفه الآن.

وكانت العادة في تلك الأيام أن ينظف الناس الشوارع والحارات والبلدية تنظف الباحات الكبيرة وأطراف دائرة الحكومة فقط. وأمر أحد الخدم أن ينظف المحلّ. فأبى مصطفى بك، وقال: لاينظفه إلا أنت بيدك وبفروتك. وكان يلبس فروة. فتداخل الناس وتوسَّطوا لديه بأن يقوم بالعمل أحد العبيد الواقفين. فأبى وأصر. فما كان من السيد أبي الخير تللو إلا أن أجابه: أمرك مطاع. وتناول المكنسة وهجم على مصطفى بك وأشبعه ضرباً بعصاها، وفرّ من الميدان ودخل محتمياً بدار قنصل العجم. فأجاره من الحكومة، وأعطاه الجنسية العجمية.

وبقي السيد أبو الخير من رعايا الدولة الإيرانية إلى أن اقتضى له أمر احتاج فيه أن يكون متجنساً بالجنسية العثمانية. وكانت الأسباب التي دعته للتجنُّس قد زالت، فرجع إلى جنسيته الأصلية. ولله الحمد أنّ حفيده السيد حسني هو اليوم من رعايا الدولة السورية.



احسان بك الجابري رئيس الامناء لجلالة الملك

وفاءُ الكلاب

عناية الإفرنج بالكلاب مشهورة، وفي فرنسا كما في غيرها من البلدان جمعيات متعددة خصوصية. ومنها جمعيات عمومية لتحسين أنواع الكلاب. وتشترك هذه الجمعيات في المعارض الدولية، أو تقيمُ معارض خاصة لعرض أنواع الكلاب. والحكومات تعطي الكلاب الفائزة أوسمة. كما أن هذه الجمعيات تعطي «الأنواط» مداليات وشهادات للأنواع الممتازة.

وأصناف الكلاب عديدة منها: للحراسة في الريف. ومنها للحراسة في المنازل، ومنها لحراسة المواشي. ومنها الكلب الأليف الجليس «مثل المسيو لولدوك»، ومنها المصاحب الصديق، ومنها للزينة والزخرفة، ومنها لجلب الحاجات من الأسواق. وكلاب الصيد والقنص، والسلوقي وقانص الذئاب وقاتل الثيران.

وللكلاب أثمان تختلف باختلاف الأنواع. وتتراوح أثمانها بين ٥ فرنكات ذهباً إلى ٥٠٠ ليرة إنكليزية ذهبية. وأصحابها يعرفون كيف يربونها. وقد جعلوا تجارتهم منها. وأكثر أصحاب الكلاب هم من السيدات. وللكلاب تجار خصوصيون معروفون يرسلون الكلاب المبيعة إلى أقاصي الأرض إذا وُضع الثمن المطلوب.

طلبت شرف كلبها

حدثني السيد خير الدين الزركلي[1] أن أحد أصدقائه كتب له من نيويورك أن سيدة تركت كلبها في الشارع دون سلسلة. وكان هذا الرجل يجلس في إحدى الحدائق، فاحتكّ الكلب به فطرده وضربه بالعصا «البستون». فقامت قيامة صاحبته وشكته للشرطي الذي أخذهما إلى مخفر الشرطة. وهناك حوّلوه إلى المحكمة، وعيّنت له يوماً خاصاً.

وفي يوم المحاكمة طلبت السيدة شرف الكلب. فقال الرجل: إني مسلم، والكلب نجس في مذهبي. وقد طردته فلم يذهب. وخوفاً من أن تلحقني النجاسة وتمنعني عن صلاتي اضطررت لضربه. وعلى السيدة إذا كان لكلبها شرف تخاف عليه فلتربطه بسلسلة ولاتدعه يؤذي الناس.

ولما تثبتت المحكمة من الخبراء أن الكلب نجس عند الإسلام حكمت على السيدة بأن تعطيه أجرة أسبوع جزاء نقدياً تعويضاً عن عطلته. وعلى ذكر الكلاب التي تجلب الحاجات أذكر هذه القصة.

الكلب الأعمى

حدّث عابدين بك والد الدكتور مطاع بك عابدين قال: كان له صديق يدعى أديب أفندي مفتي ألاي، يسكن في السنجقدار، في حارة المملوك[2]، وكان لهذا الرجل كلب كبير من نوع ممتاز من كلاب أوربا. هذا الكلب كان يُحضر لصاحبه لوازم المنزل من عند اللحام والسمان والبقال. كما أنه يحضر كل يوم التعيين من فرن القلعة. والتعيين في زمن الحكومة العثمانية كان يُعطى للضباط والمتقاعدين، لكل

---

(١) - في المكتبة العربية كتاب: «تفضيل الكلاب على كثير ممّن لبس الثياب» لابن المرزبان. وقد نشر في بيروت - دار التضامن سنة ١٩٩٢م.

(٢) - احترقت منطقة السنجقدار حريقاً هائلاً سنة ١٩٢٨، أزال معالمها القديمة كلّها، وحلّت محلها السنجقدار الجديدة.

واحد مقدار مخصوص من اللحم والخبز غير الراتب، يؤخذ عيناً. فكان تعيين الملازم ستة أرغفة «طوب خانة»، والرئيس تسعة أرغفة من خبز الأرمن الكبير. وكان للمفتي آلاي أميني ثلاثة تعايين، أي تسعة أرغفة، يذهب الكلب يومياً إلى فرن العسكرية في قلعة دمشق فيضع له الفران تسعة أرغفة في السل، ويعود به إلى دار صاحبه. ومضت مدة على هذا الحال.

وفي أحد الأيام جاء بثمانية أرغفة. فظن صاحبه أنه أكل الرغيف، فلم يأبه للأمر. وفي اليوم الثاني والثالث والرابع جعل يأتي بالخبز ناقصاً. فتعقبه صاحبه يوماً عن بعد، فرآه حمل السل وفيه الأرغفة التسعة ومشى نحو الشرق، في حين أن دار صاحبه غربي القلعة. فتعقَّبه إلى أن وصل إلى باب السلام، وهناك وقف الكلبُ وأخذ الرغيف ووضعه أمام كلبٍ أعمى، ووقف يحرسه إلى أن أكله، وعاد إلى الدار.

فتعجّب صاحبه وتحيَّر بصنع الله في خلقه، وكيف سخَّرَ اللهُ الناس والحيوان ليخدم بعضهم بعضاً. سبحانه وتعالى وهو أصدق القائلين:

(وكأيِّن من دابَّةٍ لاتحمل رزقها، اللّهُ يرزقها وإياكم، وهو السميع العليم)[1].

---

(١) - الآية ٦٠ من سورة العنكبوت.

كتابي إلى مخطوبتي، وماجرّهُ عليّ

كنت ذكـرت في الجـزء الثـاني أن والدي عـقـد لي على ابنة أحـمـد أفندي الدالاتي، كنت لم أرها حسب العادات في تلك الأيام، ولم يكن يُسمح للخطيب حتى بعد عقد النكاح أن يجتمع إلى خطيبته، فقد سافرت تبعاً لهذه القاعدة دون أن أخبر زوجتي بسفري.

ولكن بعد سفري أحببت أن أكاتبها، وماكنت أدري أن كتابي سيحدث ثورة في رأس المرحوم عمّي، كما فهمتُ بعد عودتي. ولقد كتبت إلى رفيقتي كتاباً بسيطاً أعلمها فيه بأنني سافرت للتحصيل لا للعب، وأنني باقٍ على عهدي، ولايمكن أن أفكر بغيرها مهما طال الفراق. وشجعتها على انتظاري إلى أن أعود. ثم مضت مدة غير قليلة على الكتاب إلى أن أتاني الجواب. ولكن مع الأسف لم يكن من رفيقتي بل كان من والدها. وهذا هو الكتاب بحروفه:

جواب الكتاب:

ولدنا العزيز!

سلام وتحية وبعد. وصل كتابكم إلى ابنة عمكم، وحمدنا الباري على سلامتكم. وليس لنا مانقول إلا: لاحول ولاقوة إلا بالله.

أما قضية إكمال تحصيلكم فهذا لايتوقف على ذهابكم إلى باريس. فإن كان مرادك زيادة تحصيل العلوم والفنون فهذا لايتوقف على السفر. فالعلم لايحصر في

مكان، ولايختّص بزمان، وإن كان مرادك شم الهواء والسياحة فهذا عائد إليك. وفي الختام تحية وسلام.

عمكم: أحمد الدالاتي

وقد فهمتُ من صديقي السيد عبد الغني العسلي، أنَّ والده السيد سعيد قد تعرّض إلى حوادث مزعجة بسبب هذا الكتاب، لأنه كان الواسطة في خطبتي هذه، وأخيراً نجح في إقناع عمّي أن لاعار على آل الدالاتي في مكاتبتي لمخطوبتي وزوجتي!!



المرحوم محمد فوزي باشا العظم الرئيس السابق للمؤتمر السوري

حمّام العرس سنة ١٩١٢

قبل عرسي بأسبوع، دعاني صديقي عبد الغني أفندي العسلي إلى الحمّام، قبل الدخلة بيوم. ودعوةُ الأصدقاء إلى الحمام عادة لم تكن معروفة في دمشق. ولكنها جارية في حماة. وهذه الدعوة كانت الوحيدة أولاً وآخراً. فاستأجر حمام القناطر(١) يوماً كاملاً.

دعوة كل طبقة في ساعة معينة

وترك لي أمر دعوة أصدقائي، كل طبقة منهم في ساعة معينة. ودعا جوقة «عمر الجراح»(٢) الموسيقية. وهي مركبة من عمر الجراح بالقانون، وأخيه محمد بالكمان، والشيخ رشيد عرفة بالرق. ودعا عدة مغنين من الشيوخ والشباب. منهم الشيخ عبد الله أبو حرب، والشيخ جميل الإدلبي وديب القابوني وأبو سليمان الدبّاس وغيرهم من الموسيقيين المشهورين آنذاك.

وقد فتح الحمام أبوابه لاستقبال المدعوين في الساعة الخامسة صباحاً. وجلست الفرقة الموسيقية على المصطبة «الصدرانية». وبدأ العزف والغناء منذ

---

(١) -كان في غربي القنوات، وقدهُدم في الخمسينات ولاأثر له اليوم.

(٢) - فنان دمشقي كان يقيم في تلّة القاضي بالقيمرية، ألف مع إخوته الثلاثة فرقة فنيَّة، سافر إلى مصر واجتمع بعبده الحامولي فأعجب به، توفي بدمشق سنة ١٩٢١م.

انظر: أعلام الأدب والفن لأدهم الجندي ١/ ٢٥٦- ٢٦٧، وفيه تراجم رشيد عرفة وعبد الله أبو حرب والآخرين.

الصباح حتى المساء. وبما أن الجوقة تعبت فقد اضطر الداعي أن يحضر جوقتين أخريين. فكانت إحداهما جوقة محسن وأولاده: بديع بالعود، وأخيه شكري بالقانون، والكليخان تحسين بك بالناي. والثانية جوقة مصرية يرأسها أحمد خلف المغني.

طرب وطعام في الحمام

وجعلت هذه الجوقات الثلاث تتناوب العزف، والمغنون يتبدلون كلما تعب مغنٍ نزل وصعد مكانه آخر. وكانت الطبقة المدعوة تأتي مجتمعة، فالشيوخ العلماء من الساعة الخامسة إلى السابعة، والموظفون من الساعة السابعة إلى التاسعة، والتجار من الساعة التاسعة إلى الحادية عشرة، والشبان من رفقائي الخصوصيين من الحادية عشرة إلى العصر. وقد تناولوا الطعام في الحمام. ثم جاء دور الأكابر، ثم رجال الأحياء. وكان المدعوون منهم من يغتسل، ومنهم من يكتفي بالجلوس على «المصاطب» وسماع شيء من النوبة... وهكذا دواليك.

الرقص والألعاب

وقد أجرى في هذا اليوم الشبان الرفقاء من الألعاب الخصوصية المرتجلة ماأثار حماسة المدعوين أو الذين أفاضوا المرح على المدعوين أكثر من غيرهم ثلاثة من ألطف أبناء حي القنوات وهم: أبو عثمان الدعاس وأبو دعاس المخللاتي وأبو عدنان تللو، الذين بقوا يرقصون من الصباح الباكر إلى منتصف الليل. ولايخفى على القارئ أن رقصهم كان «بالزلط» طبعاً. أما أبو عدنان فلم يقلع الفوطة بل كان يرقص وهي على وسطه. وأسباب عدم قلعه إياها أنه كان لم يزل آنذاك في مقتبل الشباب، وأبو عدنان حسني تللو المشهور من لايعرفه في هذه البلدة؟ بل في جميع البلاد العربية؟ فقد كان أمرح شاب. ولم يزل أمرح شيخ حتى اليوم. هذا الرجل كان ومازال يضفي السرور على إخوانه وأصدقائه، بل على من يعرفه، ومن لايعرفه حتى على أعدائه. ففي كل مجلس يستولي على الحاضرين بدعاباته ورقائقه وخفة روحه «لاجسمه». وهكذا فإن حسني تللو هو خفة روح الزمان في كل آن.

أما أبو عثمان وأبو دعاس فكانا في سن الشيخوخة. وكلاهما سمين بدين لا يقل أحدهما عن المائة والخمسين كيلو. فكان منظرهما يجبر المتفرج على الضحك. وبذلك غدا الحمام حمام سرور وفرح. وبقي حديث دمشق مدة طويلة.

لبستُ القنباز والقبقاب!

ولما كان العريس في أيامنا تلك يخجل من أن يرفع نظره إلى أحد حياءً من الناس، خصوصاً الذين هم أكبر منه سناً وأرفع منه مكانة، فإنني ضربت ذلك اليوم بهذه العادة عرض الحائط.

ولبستُ قُنبازاً «صاية حرير»، وقبقاباً عالياً كان يلبسه صناع الحمام، ووقفت كأنني صاحب الحمام أستقبلُ الناس، وأُعطي الشبان منهم خاصة المناشف والفوط. وعند اللزوم أدخل إلى الداخل وأغسّل وأفرك، وأفرك وأكيّس، وأنظف رفقائي وألعب وأضحك... إلى أن انتهى اليوم. ولم تزل خواطر هذا الحمام تطربني كلما مرت بخاطري.

وسوف أصف في الفصل القادم حمامات دمشق في ذلك الزمان، والعادات التي كان يتبعها الأهلون، نساءً ورجالاً، لنصور للقراء أطرف صورة عن حمامات دمشق في ذلك العهد، كي تبقى صورة ناطقة على كر الليالي والأيام.

لا، لمؤتمر باريس سنة ١٩١٣م[1]

أبرق أمس جماعة من علماء دمشق وأعيانها وتجارها ومفكريها إلى الصدارة العظمى، وإلى جريدة «إقدام»، بالبرقية الآتية انتصاراً للإصلاح والمصلحين:

«نشر بعض السوريين المعروفين في أوربا بياناً صرَّحوا فيه أنهم سيعقدون مؤتمراً للوقوف في وجه الاحتلال الأجنبي في سورية وفي فلسطين الذي تلمّح إليه جرائد أوربا. ودعوا لمعونتهم من يهمه وقاية الوطن العثماني من هذا الاحتلال. فاستحسن مسعاهم كل صادق لوطنه، مخلص لدولته[2].

وقد بلغنا أن جماعة في دمشق قاموا يُقبِّحون مناهضة هؤلاء لاحتلال الأجانب كأنه سرَّهم ما حلَّ بإخوانهم في طرابلس الغرب والروم إيلي من النكبات المؤلمة، فساء عملهم هذا كل محبٍّ للخلافة الإسلامية والسلطنة العثمانية، مبغضٍ للسيطرة الأجنبية.

فنحن بصفتنا من أفراد الأمة العثمانية المخلصين، نحتجُّ على أولئك الجماعة المعاكسين لمسعى مواطنينا في أوربا المبني على خلوص النيَّة للدولة والوطن،

---

(١) - نُشرت في جريدة المقتبس عدد (١٢٠٥) - السبت ٣١ أيار ١٩١٣م

(٢) - قامت هذه الجهود رداً على الدعوة الى عقد مؤتمر عربي في باريز ترعاه فرنسة وبريطانيا، وقد عُقد المؤتمر رسمياً يوم ١٨ حزيران سنة ١٩١٣م، بهمّة جمعيَّة «العربية الفتاة»، وكان عقده شؤماً على الأمّة العربية، تجلّى ذلك بمعاهدة سايكس بيكو وتصريح بلفور، واتفاق سان ريمو، وأخيراً إنذار

ونعرض لفخامتكم أننا بريئون من هذه المعاكسة المريبة، ونسترحم إنفاذ اللائحة الإصلاحية المتقدمة قبلاً لمقامكم السامي من المجلس العمومي، بواسطة ولاية سورية. والأمر لوليه[1].

على العسلي، متري قندلفت، خورشيد وهبي، عثمان العظم، محمد سليم النجاري، كزبري زاده محمد زكي، بكري زاده محمد فوزي، توفيق الميداني، رشدي الشمعة، عبد الوهاب إنكليزي، شكري العسلي، سليم الشمعة، محمد كرد علي، محمد علي الدالاتي، شكري الجندي، وجيه الكيلاني، صلاح الدين منصور، عمر الشمعة، محمد عيد القاسمي، عظم زادة صفوح المؤيّد، مهايني زادة محمَّد منير[2]، خليل مردم بك، عارف الشهابي، أحمد خانجي، حسام الدين عمري، أحمد حلمي خيمي، عبد الفتاح السكري، علي الغبرة، الدكتور صالح شورى، محمد توفيق الداوودي، حسني الفرا، محمود حيدر، جرجي الحداد، نصوح المؤيد العظم، محمد فخري البارودي، لطفي الحفار، صبحي سامي العيطة، محيي الدين شمدين، جمال حفار، عبد القادر سكر، رشدي الحكيم، فريد الغزي، فائز الغصين صاحب جريدة «السيف»، سالم الأمير صاحب «المفيد»، فؤاد حنتس، أحمد كرد علي، الصيدلي خليل سنكي، مصطفى العجلاني، مصطفى شورى، الصيدلي صادق شورى، الطبيب عز الدين شهاب، الطبيب شريف شهاب، بمحمد صبحي الجلاد، عبد القادر خولة، توفيق الحلبي، الدكتور صلاح الدين القاسمي، نجم الدين منصور، محمد سعيد السادات، إبراهيم خالد الجزائري، عبده الصباغ، قدسي زاده محمد رشدي، الصيدلي منير محايري، خير الدين الزركلي، خليل القباني، الصيدلي إحسان حمدي، حبيب إلياس، محمد العسلي، محمد أديب مردم بك، حمدي الكيلاني، الدكتور عبد الرحمن

---

(١) - في الخامس من أيار سنة ١٩١٣م نشرت الدولة العثمانية قانوناً جديداً للولايات العربية يمنحها مزيداً من السلطات، لكن جمعية العربية الفتاة رفضته . . .

(٢) - زاده، لفظ تركي يعني (آل)، وهو يأتي عادة قبل الاسم، والمعنى: محمد منير المهايني وصفوح المؤيد العظم إلـ . . . خ.

الشهبندر، محمد المفتي المحامي، عادل المصطفى، عثمان خير، إبراهيم المزنّر، علي تقي الدين، محمد بدر الطاغستاني، نعيم جديّ، رضا مردم بك، محمد صادق البحصلي، محمد سعيد الرجلة، محمد كامل القصاب، محمد توفيق عبد ربه، محمد إسكندراني، مصطفى الفحل، إسماعيل اسكندراني، عبد الرزاق غيبة، منير زادة محمد شريف، محمد شكري الحسيني، مارديني زادة توفيق، محمد سليم اللحام».

يرى القارئ[1] أن الموقعين على هذه البرقية يملكون ثروة لاتقدر، فهم من خيرة العلماء والأعيان والتجار والسراة والأطباء والصيادلة والمحامين وأرباب الصحافة والمتخرجين من المدارس العالية وأرباب الثروات الطائلات. وكلهم يعلمون مايكتبون، ويوقعون على مايفهمون. والحمد لله أن ليس فيهم عضو في دائرة رسمية أو موظف أو صاحب راتب، يخاف على راتبه، فهؤلاء هم مفكرو الأمة الذين يهمهم نجاح البلاد وراحة العباد، ويعتقدون أن سعادتهم تتوقف على سعادة الأمة، وأن شقاء الأمة يشقيهم. فلذلك نؤمّل من الحكومة أن تهتم لبرقيتهم وتسارع لإجابة طلبهم المحق الذي ليس فيه إلا طلب الحياة السعيدة لهذه الأمة الحزينة. وجلُّ آمالهم حفظ الخلافة الإسلامية والسلطة العثمانية لتبقى البلاد عثمانية. والله ولي المخلصين.

(١) - يعني قارئ المقتبس.



سمو الأمير زيد شقيق جلالة ملك سوريا المعظم



رسم دار الملك

علي الزركلي، الشاب الوطني[1]

من غرائب الحوادث ماحدثني به علي أفندي الزركلي أحد أصدقائي، قال: بعد دخول الجيوش العربية دمشق بيومين وإذ بصديق لي من الشبان القوميين الذين التحقوا بجيش الحجاز أثناء الثورة العربية الكبرى يزورني في داري ويقول:

بما أنك من الأكراد الذين يعتمد عليهم في الرجولة بإمكانك أن تذهب إلى حلب وتقوم بخدمة وطنك، بأن توصل كتاباً إلى رجل في حلب مقابل أجرة مائتي جنيه مصري تتناولها مقدماً مع ثمن راحلة لك وراحلة لمعاون تختاره أنت، على أن تمشي غداً صباحاً، متنكراً بصفة تاجر أغنام، وأنك ذاهب إلى حلب لإتمام صفقة. وبإمكانك الذهاب عن طريق بعلبك - حمص - حلب.

قال صديقي: استهوتني الأجرة وقلت: مائتا دينار لم أحلم بها طيلة حياتي. وعوّلتُ على القيام بهذا العمل. ولما رأى قبولي قال: قم. فقمت وسرتُ معه إلى أوتيل فيكتوريا، ودخلت وإياه. وهناك أبقاني ودخل بمفرده قائلاً إنه سيقابلُ أحد الضباط الإنكليز الكبار الذين نزلوا في هذا الفندق. ثم لم يلبث أن عاد ودعاني إلى مقابلة الكولونيل - الذي لايحضرني اسمه الآن - وكان يتكلم اللغة التركية جيداً بطلاقة. وقام بمهمة تقديمي إليه، ثم قفل عائداً وتركني بمفردي عنده.

ولما كانت لغتي التركية ركيكة جداً لم أقدر على التفاهم معه، فأحضر ترجماناً، وجرى بيننا الحديث الآتي:

---

(١) - ٨٤/ ٥٧٨.

قال العقيد - الكولونيل - هل عرفت المهمة التي جاء بك الشاب من أجلها؟ قلت: نعم، هي إيصال رسالة إلى رجل في حلب. قال: هل وافقت على القيام بهذا العمل؟ قلت: نعم. قال: وعن طيبة خاطر؟ قلت: نعم، قال فأخرج لي ثلاثمائة جنيه مصري وناولني إياها، وقال: خذ هذه على الحساب، واشتر اليوم راحلتين لك ولمعاونك، وتعال غداً لأدلك على عميلنا اليهودي في حلب وأُعطيك الرسالة. ويجب أن تكون عندي في الساعة الثامنة تماماً لتتحرك من دمشق في التاسعة عن طريق صيدنايا - يحفوفه - بعلبك. ونهض ماداً يده لوداعي، فصافحته.

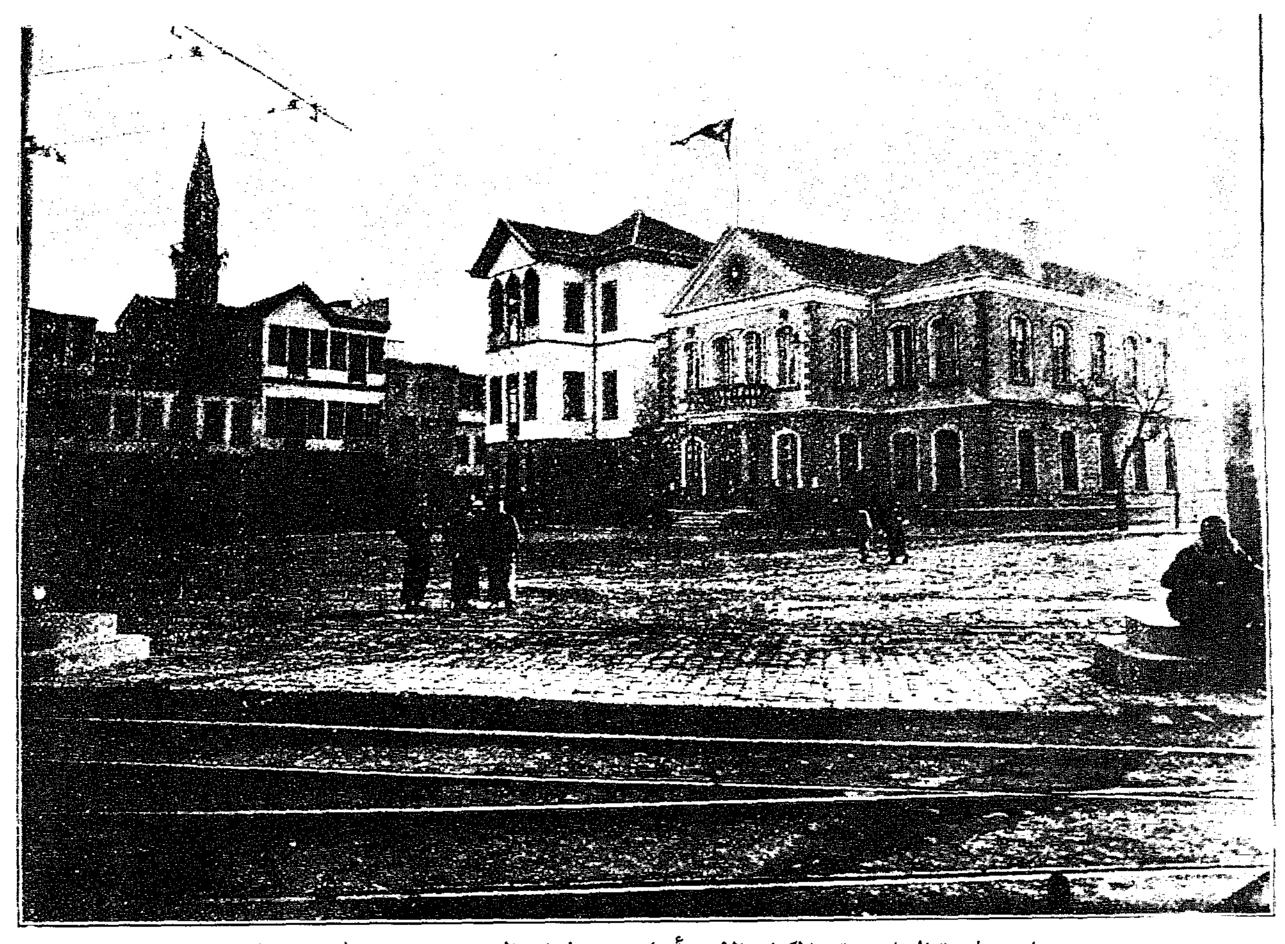
وخرجت وأنا باضطراب زائد، والعرق ينصبُّ من جميع جسمي، وأحسست بنفسي أنني أصبحت جاسوساً بدون أن أعرف. وبدلاً من أن أذهب إلى السوق لشراء الراحلتين عدتُ إلى داري. ولم أخرج إلى اليوم الثاني. وفي الساعة الثامنة والربع تماماً طُرق بابي، فخرجت وإذا بشرطي إنكليزي عسكري بيده خريطة صغيرة استدل منها على موقع داري دون أن يسأل أحداً من أهل الحي الذين رآهم.

والعجيبة في دخوله إلى محلتنا «السَّمانة»[1]، وهي المعروفة بأن القرد أضاع ابنه فيها لكثرة التعاريج في أزقتها الضيقة، والتي تُضيِّع الخبير من أبناء دمشق، والمعروفة بالسمانة. ولما رآني قال: تفضَّل، العقيد يريدك. فقلت: حاضر. ودخلت فارتديت ملابسي وأخذت المبلغ وذهبت إلى فندق فيكتوريا، وقابلت العقيد وأعدت له المبلغ معتذراً عن عدم تمكني من إيجاد رفيق يصاحبني في هذه السفرة، وعدم سماح والدي لي بمغادرة دمشق في هذه الظروف.

وخرجت أنفض غبار الموت والعار عن أكتافي، وسقط من عيني هذا الشاب القومي الذي يدَّعي الوطنية ويتبجح بها في المجالس، وهو السيد ع. ش. والذي أخذ كنيته أخيراً: عز الدين آل علم الدين.

---

(١) - كانت تعرف بالجديدة وداوراغا، وهو تحريف دولار آغا. وقد هُدم مُعظمها اليوم.



رسم دائرة بلدية العاصمة والمكان الذي أعلن فيه المؤتمر السوري استقلال سوريا

رسالة من صالح جودت

أخي وصديقي العزيز فخري بك[1]!

نعمة الله عليَّ بشرف صداقتك من عوامل سعادتي. واهتمامك بخدمة العلم والشرق من أسباب غبطتي، وثقتك بي من دواعي افتخاري، فحيَّاك الله وبيَّاك، وأنالك متمنَّاك.

وصلني خطابك الأخير، الرقيم ٥ الماضي، فوصل الله بك أسباب السرور بما أدخلته إلى قلبي من الفرح بالاطمئنان عليك.

أما ماسألتني عنه من المعلومات المتممة لرحلتك المباركة فقد اهتممت به فأرسلت لك بالبريد التقويم الذي وضعته الحكومة المصرية عن مصر سنة ١٩٢٢ لأول مرة. وفيه من البيانات العامة الهامة مايساعدك كثيراً في فصول رحلتك.

وفيه باب مطوَّل عن التعليم في مصر وإحصاءاته. وتجد طيَّ خطابي هذا ملخصاً عن التعليم والمدارس، ضمَّنتُه آرائي وإجاباتي فيما سألتني عنه في خطابك الأول الرقيم ٨ يناير (كانون الثاني) من العام الماضي. وتجد مع ذلك أيضاً كلمة جامعة عن «العائلة المصرية»، وكلمة موجزة عن «الكشافة المصرية» كطلبك، فأرجو أن يروق لك ذلك.

وأنا مستعد لأن أرسل لك ماتحتاجه من البيانات الأخرى.

وأرجو أن يوفقك الله إلى إتمام رحلتك بما يكون فيه الفائدة لقرائها.

---

(١) - ٨٢/ ٤٢٢

- الأزمة السياسية عندنا مشتدة، وفّق الله بلادنا وبلادكم لتحقيق أمانيها الوطنية.

- تشرّفتُ في مصر في الشهر الفائت، بمعرفة الأمير عبد الله، أمير شرق الأردن، ودعاني لزيارته فيها. وأتحدث مبدئياً مع سيادة معتمد حكومة الحجاز بمصر (السيد عبد الله الخطيب) على السفر معاً لشرق الأردن في النصف الثاني من شعبان القادم إن شاء الله، وفقنا الله. فإذا تيسَّر ذلك فستكون لي فرصة سعيدة في زيارتك بدمشق لأحظى برؤيتك، فقد طال اشتياقي إليك.

- من أخبارنا العلمية هنا تأسيس مجمع لغوي، لوضع الألفاظ المستحدثة للعلوم العصرية. وقد انقسم إلى لجان، اختصَّت كل لجنة بوضع ألفاظ فن مخصوص، وفقها الله في أعمالها.

- سأبلغ سلامكم لصديقي زكي باشا[1]. وأهديكم تحيات كل من عرفكم لدينا.

- وأرجو إفادتي: هل لايزال يوجد بدمشق العباءات الحريرية الخفيفة التي تشبه (الستاكروتا). وهي مطرزة عند العنق بخيوط فضية مذهبة خفيفة وتصلح للصيف. إن كان موجوداً هذا الصنف فأرجوكم إفادتي عن ثمنه لأنه كان استُحضر لي منه منذ بضع سنين عباءة، وأرغب بمثلها، وسأرجوكم انتقاءها. وشكر الله همتكم وبارك في مودتكم لأخيكم المخلص:

مصر في أول مارس ١٩٢٣

صالح جودت[2]

مدير مكتب وزير الحقانية بمصر

---

(١) -زكي مبارك، ابن عبد السلام، من كبار كتاب مصر المعاصرين، حصل على لقب دكتور في الآداب، وله مؤلفات عديدة. توفي في القاهرة سنة ١٩٥٢ عن ٦١ عاماً.

(٢) - صالح بن اسماعيل جودت، قانوني وسياسي ووطني وشاعر مصري ومؤلف، توفي في مصر سنة ١٩٤٥ عن سبعين عاماً تقريباً.



ساطع بك الحصري وزير المعارف

معتقلو الإفرنسيين كرهائن من أجل إخماد الثورة السورية في سنة ١٩٢٥

١ – الشيخ عبد الغني أفندي الأسطواني[1].
٢ – الشيخ حمدي أفندي الأسطواني الشهير بالسفرجلاني.
٣ – الشيخ سعيد أفندي الحمزاوي.
٤ – الشيخ قاسم أفندي التل.
٥ – السيد سليم قدعة.
٦ – السيد أبو شكر الطباع.
٧ – السيد أبو أنيس الصباغ.
٨ – السيد كمال حبّاب.
٩ – السيد ممدوح حبّاب.
١٠ – السيد أبو صياح حبّاب.
١١ – السيد حسن حبّاب.
١٢ – السيد رضا حبّاب.

---

(١) – لمعرفة تراجم هؤلاء انظر:
– تاريخ علماء دمشق للحافظ وأباظة.
– أعلام دمشق. عبد اللطيف الفرفور.
– أعلام الأدب والفن. أدهم الجندي.

١٣- نسيب بك الحمزاوي .
١٤- محمود بك الحمزاوي .
١٥- أيمن بك الحشتيمي .
١٦- فخري بك البارودي .
١٧- عادل بك حتاحت .
١٨- الأمير بهجت الشهابي .
١٩- زكي بك الركابي .
٢٠- رأفت بك الركابي .
٢١- السيد مهدي المرتضى .
٢٢- السيد صالح الحفار .
٢٣- السيد أبو سعدو النوري .
٢٤- السيد ياسين رحمون .
٢٥- السيد إبراهيم المهايني .
٢٦- السيد أبو عزت حتاحت .
٢٧- السيد مكّي حتاحت .
٢٨- السيد أبو توفيق الحكم .
٢٩- السيد أبو فياض الشملي .
٣٠- السيد أبو طالب بيضون .
٣١- السيد محيي الدين النحلاوي أبو محمد .
٣٢- السيد أبو هاشم اللحام .
٣٣- السيد حسين صندوق .
٣٤- السيد عبد الله شموط .
٣٥- السيد عارف الطواشي .

٣٦- السيد أديب الصفدي .

٣٧- السيد أبو حبيب الشويري .

٣٨- السيد جريس عفلق .

٣٩- السيد حسن الرز .

٤٠- السيد أبو أنيس المعلم .

٤١- الشيخ عبد الرحمن القصار .

٤٢- السيد سليمان القصار .

٤٣- الشيخ عبد الرزاق مختار باب سريجة .

٤٤- السيد منير الصعيدي .

٤٥- السيد أبو منير الصعيدي .



عبد الحميد باشا القلطقجي وزير الحربية

نادي الفنون الجميلة - أنطاكية- سوريَّة

حضرة الوطني الغيور فخري بك البارودي المحترم[1].

تشـرَّفتُ ببطاقـتكم اللطيـفـة المعـربة عن ارتيـاحكم من زيارة نادي الفنون الجميلة. فشكرت لكم هذه العاطفة الطيبة التي تنظر على الدوام إلى الأمور، مهما كان نوعـها، بعينٍ صـافيـة يشع منهـا الحب والأمل. وهذه، والحق يقـال، هي عين الرجل القـدير الخبيـر الذي يرى الخير والفـائدة في جـميع مـايحيط به، ويعلم كيف يستغلهما للبنيان.

أراني مضطراً وأنا أكتب إليكم أن أطلعكم عن أحوال النادي بعد زيارتكم له، وأقول إنه كان لتلك الزيارة أثران:

الأول: أثر سرور وافتخار في نفوس أعضاء النادي يبقى أثرهما زمناً طويلاً.

والثاني: أثر اضطراب ووسيلة للانتقام في نفوس الخصوم، فقاموا يعملون كل مـافي وسـعـهم لإبادة النادي، واسـتـخـدموا لذلك طرقـاً كنا نجلُّهم عن اتباعـهـا. فراحوا يترجَّوْنَ ويهددون من يلوذ بهم من أعضاء النادي، وانداروا للأهالي يبثون في رؤوسهم أفكاراً وتعاليم فاسدة عن النادي، ويطلبون منهم أن يقطعوا المدد المالي عن أولادهم.

ولاننكر أنه كـان لهـذا الهـجـوم خـدوش في النادي، إذ انسـحب عـدد من

---

(١) - ٨٢/ ٤٣٩.

الأعضاء. ولكنه قد برهن لنا في الوقت ذاته عن متانة تمسُّك الآخرين بالمبدأ السامي ومقاومتهم ذوي النفوذ حتى والأهل.

أما الذين تأثروا من جرآء ذلك، فهم الرئيس السابق السيد باسيل خوري، والأستاذ أرسوزي[1] نقل من أنطاكية إلى تجهيز دير الزور. وكذلك رئيس النادي الشرف اضطر بسبب وظيفته، كما نظن، أن ينسحب.

قلت: إنه كان لهذا الهجوم خدوش في جسم النادي، ونرجو أن لايتمكنوا بأكثر من ذلك من حيث إن الحكومة طلبت قائمة المشتركين، وهي الآن تدقق في سن الأعضاء. وربما ستتذرع بأمرين للإضرار بالنادي إضراراً هاماً:

الأول: أن النادي قبل أعضاء دون العشرين من العمر.

والثاني: أنه قبل طلاب المدارس بدون اطلاع الحكومة على ذلك.

وإذا ماتسنَّى لنا الخروج من هذا المأزق فسيكون النادي أقوى من السنين الماضية بكل معنى الكلمة.

ولم يكتفِ الخصوم بهذه المناوأة بل أسَّسوا نادياً جديداً، ومدُّوه بالمال وقدَّموا له منزلاً مجاناً.

على أني أعتقد أن هذا لايؤثر بنا البتة، وسنكون قادرين السنة القادمة على إيجاد كل الوسائل لتنشيط الأعضاء وتوسيع الدعاية.

بسبب استقالة الرئيس وبعض الأعضاء الإداريين صار بالطبع انتخاب جديد للهيئة الإدارية، نرجو أنها تسد الفراغ وتعمل إلى مايؤول لخير النادي.

هذا وتفضلوا بقبول أخلص تحياتي وسلامي، سيدي.

انطاكية في ١٤ تشرين الثاني سنة ١٩٣٢.

أخوكم

. . . قربان

---

(١) – سياسي سوري، أقام في أنطاكية، ومارس التدريس، ونادى بالوحدة العربية، نشرت وزارة الثقافة في دمشق أعماله كاملة. توفي في دمشق سنة ١٩٦٨ عن ٦٨ عاماً.



الأمير زيد الأطرش يؤدي قسم الحديد وبجانبه فخري البارودي ونزهة المملوك



فخري البارودي عند عودته من منفاه في الحسكة ١٩٣٥

حزب الاستقلال الجمهوري- بيروت[1]

سيدي الزعيم الكريم فخري بك!

تحية وإكرام، وبعد فقد كان لتشريفك بيروت ووفرة حظنا في الاجتماع بك مراراً عديدة ماشجعني على الكتابة إليك في هذه الفرصة في نادي الحزب. وأرجو أن يكون لي حظ الحصول على جواب منك، به أستعلم عن أحوالك وصحتك الغالية، وأتلقى أوامرك وإرشاداتك علّي أتمكن من القيام بخدمة لي فيها شرف وللوطن منها نفع.

لقد أبعدوك عنا - أبعد الله عنهم السوء- قبل أن أتعرف على وكيل المشروع. وقد سمعت أن هذا انتحر، ولاأعلم مبلغ هذا الخبر من الصحة، لذلك أنا أرجوك أن تتفضل بإفادتي.

لقد أقفلت بيروت نهار السبت الماضي إقفالاً، لولا بعض المعاكسات لكان تاماً. فقد عاكس الإقفال فئتان: فئة إكراماً لمركز موظف كبير عندنا، وأخرى رغبة في بقاء جو المفاوضة سليماً- سلم الله أمورنا. وأما الجماعة الذين يخدمون الأمة من

---

(١) - أسّس سنة ١٩٣١م في بيروت، عارض الانتداب، ودعا إلى استقلال لبنان وعروبته، وعمل على تنسيق مواقفه مع الكتلة الوطنية في دمشق، وعارض معاهدتي سنة ١٩٣٦ في سورية ولبنان. وفي آخر شهر تموز سنة ١٩٣٩ أصدر إميل إدّه مرسوماً بحلّ الحزب بموجب أمر تلقّاه من المفوّض السامي الفرنسي.

وراء (الكواليس) فقد تمنيت كثيراً لو حلَّ عليهم شيء من روح فخري بك، لكن آمالي لم ولن تتحقق لسوء الحظ، ومع ذلك هم الذين أقفلوا البلد على زعمهم!

لقد دُعي رئيس الحزب إلى دائرة الأمن العام، اعتقاداً من الجماعة أن الحزب هو الذي سيقفل البلد، وسيقوم بمظاهرات فظيعة، فأجابهم على تهديدهم بما أراح بالهم نوعاً. ثم عرضوا لمسألة تكريم الحزب لوفد الكتلة الوطنية، وقالوا إن هذا يُفسر تفسيراً سيئاً عندهم، سيما في هذه الظروف، ورجوه العدول عن هذه الفكرة، فأجاب إننا نكرم وفد الكتلة اعترافاً بجميل مناصرتهم لنا بقضية المونوبول، وأن الحزب قرّر ذلك، ولايمكن الرجوع عنه. لكن يظهر أن الظروف تخدم أسيادنا، بدليل أن الصديق نصري، وهو أمين سر الحزب، مريض منذ بضعة أيام. ورئيس الحزب عمل عملية جراحية هذا الصباح.

أما أنا فأتساءل: هل نكرِّمُ وفد الكتلة وفخري بك بعيد؟ أرجو غض النظر لضعف لغتي في الكتابة، فما أوتيت أكثر من هذا. كما أرجو غض النظر أيضاً لإرسال كتابي بواسطة الصديق العزيز الأستاذ سمارة، لأني أخشى المراقبة.

وختاماً اقبلوا تحياتي العاطرة، وقبلة شوق، رغم وفرة المسلّمين، ودمتم للمخلص.

بيروت ١٨/ ٢/ ١٩٣٥

جان. . . .[١]

(١) - ملف ٨٢/ وثيقة ٤٠٦.



فرقة القمصان الحديدية

تأبين الشيخ عبد المحسن الكاظمي

أخي العزيز فخري بك

سلاماً وتحية، وبعد فإن النية اتجهت في بغداد لإقامة حفلة تأبينية كبرى لفقيد العرب المرحوم الشيخ عبد المحسن الكاظمي[1]. وقد علمت أن إخواننا الفلسطينيين برعاية سماحة الحاج أمين الحسيني سيقيمون حفلة مثلها في يوم الأربعين (١٢ حزيران).

وكتب الأخ أسعد داغر[2] إلى صديق كبير له ببغداد بأن أدباء وادي النيل، وأدباء الجالية العربية، سيقيمون حفلة أيضاً. ولهذا رأيت واجباً عليّ أن أطلعكم على ذلك لكيلا تتخلّف دمشق عن مشاطرة عواصم الأقطار العربية الأخرى شعورها. فإقامة حفلة تأبينية في يوم واحد في بغداد ودمشق والقدس والقاهرة يدل دلالة واضحة على مابين هذه العواصم والأقطار من صلات لاتنفصم وشعور صميم.

فأرجو من الأخ الكريم أن يتفضل بتحقيق هذه الفكرة التي لاشك في أنكم ترون فيها رأي إخوانكم في بغداد من معنى بليغ وإشارة سامية ومن تقدير لشاعر ماانفك يشدو بحرية العرب واستقلالهم، حتى وافاه المنون.

---

(١) - كان يلقب بشاعر العرب. ولد في بغداد، ومات في مصر فقيراً سنة ١٩٣٥ عن سبعين عاماً، وقيل إنه يأتي في الأهمية بعد مهيار الديلمي والشريف الرضي.

(٢) - أديب لبناني، له مؤلفات شتى، مات في مصر سنة ١٩٣٥ أيضاً.

وتفضلوا بقبول فائق الإحترام

بغداد في ٢٥/ ٥/ ١٩٣٥

المخلص

إبراهيم حلمي العمر[١]

ولدنا مدحت بك!

جاوبوا الكاتب، وهو مدير المطبوعات في بغداد عن كتابه، وادعوا نخبة الشبان المتعلمين في اليوم المذكور، مع جميع الجرائد، لحفلة تأبين تقام عندنا، واحفظوا هذا الكتاب.

أرسل الجواب بالإيجاب في ٢٧/ ٥/ ١٩٣٥

(١) - صحفي عراقي مشهور، له مؤلفات، مات في بغداد سنة ١٩٤٢ عن ٥٢ عاماً.



الأمير عادل ارسلان أحد أعضاء الهيئة الاستشارية لجلالة الملك المعظم

رسالة إلى بطرك الموارنة

أبرق النائب البارودي إلى غبطة البطريارك الماروني بمناسبة تصريحاته الأخيرة المنشورة في «قبس» الأمس من أن غبطته يتمسك باستقلال البلاد وسيادتها، البرقية الآتية:

بكركي - غبطة البطريارك المعظم

تصريحاتكم الأخيرة المعبرة عن أماني الأمة السورية جمعاء بطلب الاستقلال أثلجت صدور الجميع. الشعب السوري بأسره يؤيدكم مسجلاً لكم مواقفكم المشرفة، وحقق الله مسعاكم.

١٦ أيار ١٩٣٥

نائب دمشق

فخري البارودي[١]

(١) -نُشرت في جريدة «القبس» يوم ١٧ أيار ١٩٣٥.

رسالة إلى رئيس الوزارة الفرنسية

أبرق صباح أمس نائب دمشق المحترم فخري بك البارودي بصفته رئيساً للجنة الدفاع عن الحياة النيابية البرقية الآتية : إلى فخامة رئيس الوزارة الافرنسية ، بمناسبة اجتماع مؤتمر ماوراء البحار ووضع سورية بمصاف بلدان الحماية .

باريس – فخامة رئيس الوزراء .

إن سورية التي تبحث لجنتكم اليوم في شؤونها ، ونوع ارتباطها بكم ومداه ، لن تكون صديقة لكم في حالتي السلم والحرب إلا إذا نالت حقوقها المشروعة . إن إدخال سورية في مصاف المستعمرات جاء ضربة عنيفة على الصداقة المرغوبة ، نلفت نظركم إلى وضع سورية الشاذ وإدارتها بصورة كيفية غير دستورية بعيدة عن روح الحق الدولي ، وهو مناف للمصلحتين الافرنسية والسورية ومنذر بأوخم العواقب .

رئيس لجنة الدفاع عن الحياة النيابية

فخري البارودي[1]

برقية إلى رئيس جمعية التجار في بيروت .

بيروت – ألفريد بك نصر

أضرب تجار دمشق اليوم ساعتين تضامناً مع بيروت للاحتجاج على السياسة الجمركية وفداحة الضرائب والاحتكارات الممنوعة ، وإعلاماً لاستيائها وقلقها أبرقت إلى مراجع باريز تؤيدكم ، وطلب إرسال لجنة التحقيق البرلمانية .

نائب دمشق

فخري البارودي[1]

(١) -نُشرتا في جريدة القبس يوم ١٧ أيار ١٩٣٥ .

برقية إلى رئيس جمعية التجار في بيروت

بيروت- ألفريد بك نصر .

أضرب تجار دمشق اليوم ساعتين تضامناً مع بيروت للاحتجاج على السياسة الجمركية وفداحة الضرائب والاحتكارات الممنوعة، وإعلاناً لاستيائها وقلقها أبرقت إلى مراجع باريز تؤيدكم، وطلب إرسال لجنة التحقيق البرلمانية .

نائب دمشق

فخري البارودي

تلقى فخري بك البارودي برقية من ألفريد بك نصر، رئيس جمعية التجار في بيروت، جواباً على برقيته، هذا نصها :

دمشق - النائب الكبير فخري بك البارودي

إني مع أعضاء لجنة جمعيتنا نحيي بإعجاب إخلاصكم . نفاخر بتضامن تجار دمشق معنا . نرجوكم قبول وإبلاغهم شكرنا .

الرئيس : ألفريد نصر[1]

الإضراب في دمشق

كان موعد إضراب التجار في دمشق الساعة العاشرة قبل ظهر أمس الخميس، وفي الموعد المعين ابتدأت المحلات في أسواق الحميدية والخياطين ومدحت باشا ومايجاورها تغلق بالتتابع . ولم تتم عشر دقائق حتى عمّ الإضراب جميع هذه

---

(١) - القبس يوم ٢٤ أيار ١٩٣٥ .

الأسواق. وقد امتد حتى الساعة الواحدة بعد الظهر حسب قرار تجار المدينة أمس وفي خلال هذه الفترة احتشدت جموع من التجار والأهلين في الأسواق، وظلت تتجول بسكون وهدوء، إلى أن انتهى أمد الإضراب، ولم يقع أي حادث مكدرٍ حتى ساعة كتابة هذه الأسطر.

وقد أرسل سعادة نائب دمشق فخري البارودي برقيات احتجاج إلى فخامة رئيس الوزراء الإفرنسية، ورئيس مجلس النواب والشيوخ، ورئيسي لجنتي الخارجية في المجلسين، وإلى رئاسة الغرفة التجارية في باريس، جاء فيها مايلي:

أتشرف أن أبلغكم أن متاجر دمشق ودور صناعاتها أضربت عن الأعمال ساعتين اثنتين يوم الخميس في ٢٣ أيار سنة ١٩٣٥ تضامناً وتأييداً للإضراب الذي عمدت إليه مدينة بيروت في نفس اليوم احتجاجاً على السياسة الاقتصادية التي تساس فيها مرافق البلاد وشؤونها التجارية والصناعية، وإعلاناً لشعور القلق من المصير الذي تساق إليه البلاد. لقد بلغت أحوال البلاد العامة تجارة وصناعة وزراعة الحدّ الخطر بفعل السياسة الجمركية التي توالت احتجاجاتنا عليها وكثرت بياناتنا عن أخطائها ومخالفتها وصالح البلاد التي تعمل على تزويد صندوق المصالح المشتركة بأعلى رقم من المداخل وانفاقها في وجوه لاتفيد البلاد اقتصادياً وصناعياً أية فائدة، وسياسة منح الاحتكارات، وتجديد بعضها بقرارات تصدرها المفوضية الافرنسية في بيروت. كل ذلك عاون على جر البلاد إلى الحالة المؤسفة التي تعانيها الآن بقلق وألم. نكرر احتجاجاتنا السابقة ونؤيد طلب جمعية تجار بيروت بإرسال لجنة تحقيقية برلمانية مزودة بصلاحية التحقيق، واقتراح الوسائل الواقية.

السكون عن العناية بإصلاح هذه الأحوال يقود البلاد إلى التفكير بوسائل جديدة للاحتفاظ بثروتها العامة ومايبقى لها من أسباب التجارة والصناعة المتلاشية. نرجو الإسراع في إيجاد الحلول الناجعة لهذه الحالة[1].

---

(١) - القبس الجمعة ٢٤ أيار ١٩٣٥.

برقية إلى المفوض السامي بدمشق

أرسل النائبان فخري بك البارودي ونسيب بك البكري، باسم مدينة دمشق، برقية إلى فخامة المفوض السامي يعلنان فيها احتجاج المدينة على رحلة رئيس الوزراء (الشيخ تاج الدين) إلى باريز، ويقولان إن هذه الرحلة لاتعترف بها البلاد بصفة تمثيلية إذا كانت لغرض سياسي. وإذا كانت للنزهة فأموال الشعب لاتفي بمصاريف النزهات. ويكرران القول بأن الإصرار على هذه الأساليب السياسية والتخبُّط بهذه التجارب ليس في صالح فرنسا ولاسورية ويطلبان إبلاغ احتجاجهما باسم دمشق إلى وزارة الخارجية وعصبة الأمم[1].

---

(١) - القبس ٢٤ حزيران ١٩٣٥.

الدعاية التركيةُ ضد سورية(1)

حضرة الفاضل الغيور السيد فخري البارودي المحترم!

نائب دمشق ورئيس لجنة الدعاية والنشر بدمشق.

سيدي الفاضل!

بعد السلام أعرفكم أني سُررت سروراً جماً لما اتصل بي من أن حكومتنا السورية الرشيدة شمّرت عن ساعد النشاط لمحاربة الدعايات الضارة ببلادنا العزيزة، ولتعيينكم رئيساً للجنة الدعاية والنشر، فأصبح للسوريين كل الأمل في تغلُّب سورية على الأكاذيب الضارة بالقضية الوطنية- سورية من طوروس لصحراء العريش، ومن البحر للبادية- وذلك لما لكم من قوة الحق وطول الباع في مضمار النضال، فالله يكون بعونكم.

إني أشعر أنه من واجبي أن أرسل لكم بطريق البريد نسخة من كتيِّب نشرَتْهُ ووزعته الجمعية المسماة: جمعية المخادنة (علّها المخادعة!) التركية العربية بمصر. وهو مجموعة أكاذيب ضدنا. فالرجاء الاطلاع عليه وبالأخص حيث أشرت بالمواد. صحائف 7 و8 و15 و16، واتخاذ التدابير اللازمة لمحاربته. وبالأخص لأنه نُشِر بل دُسَّ بين أعضاء النادي السوري الكاثوليكي بمصر، وقد أهملتْه الأعضاء لما فيه من الأكاذيب.

هذا وإذا وجدتم من المستحسن الانتفاع بخدماتي للدعاية السورية لما لي من

---

(1) - 84/ 693.

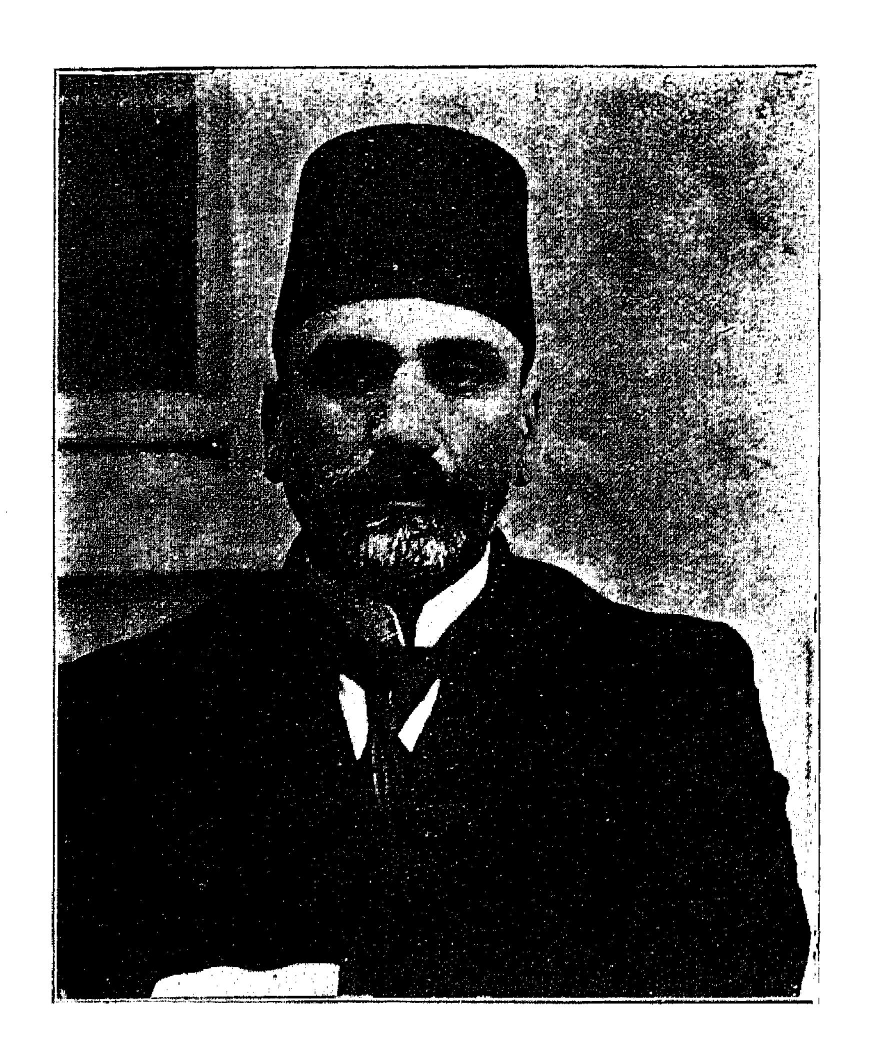
الخبرة في ذلك لأني درستها عن أربابها في أمريكا وألمانيا وأوربا، فإني رهن إشارة سورية بلادنا، أخذ الله بيدها وأعانها على أعدائها. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام، والسلام.

٣٠/ ٤/ ١٩٣٧

إسكندر خوري

بشركة المطبوعات العالمية بالفجالة ص. ب. ٥

بمصر



هاشم بك الاتاسي رئيس المؤتمر السوري

طلبت مدّعي عام المحكمة الاستئنائية الإفرنسية إلى المبارزة[1]

في عام ١٩٣٧ اشتدت الاضطرابات في سورية عامة، وفي دمشق خاصة. وقامت قيامة السلطة الافرنسية المحتلة وطاشت عقول الموظفين الافرنسيين. وخرجت نساء دمشق بمظاهرات شديدة[2] كان لها وقع عظيم عند الأهلين، اضطرت السلطة أن تلقي القبض على طائفة كبيرة من النساء، سجنتهنّ في دائرة الشرطة، وقدّمتهنّ في اليوم الثاني إلى المحكمة الاستئنائية.

وقد تطوّع للدفاع عنهنّ من المحامين السادة سيف الدين المأمون وآخرون، وبعد أن استجوبت المحكمة المسجونات المتّهمات، وجاء دور الإدعاء العام، وقف المسيو مورغان المدعي العام الإفرنسي، وهاجم الموقوفات هجوماً شديداً، وطلب من المحكمة الحكم عليهن بأقصى العقوبات لردع أمثالهنّ من مقاومة السلطة الإفرنسية. وأهان السوريين بكلامه الذي تهجّم فيه عليهم. وقد نقلت جريدة «القبس» بعض الجمل التي أهان بها السوريين. منها جملة بذيئة قال فيها: إن السوريين أنذال، يختبئون في دورهم ويرسلون نساءهم للمظاهرات في الشوارع. وكنت آنذاك نائباً عن دمشق وزعيماً للشباب، فكتبتُ إليه كتاباً هذا نصه:

---

(١) - ٧٩/ ١٢.

(٢) - قامت هذه المظاهرات في تموز سنة ١٩٣٧، وبدأت بمهاجمة دار البلدية في المرجة، ثم تحولت إلى مبنى الحكومة بجوارها في السّرايا، وكان سببها شحّ الخبز في الأسواق، وهي تشبه مظاهرة النساء التي قامت في مصر إبّان ثورة سنة ١٩١٩م.

إلى السيد مورغان، مدَّعي عام المحكمة الاستئنائية في دمشق، بما أني نائب سورية، وواجبي الدفاع عنها في داخل المجلس النيابي وخارجه، وبما أنكم أهنتم العرب الذين لاينامون على الضيم، وهم منذ عرف التاريخ، نساؤهم يساعدون الرجال في جميع مرافق الحياة، خصوصاً في الحروب. والمرأة العربية لم تكن تكتفي بتضميد الجراح، والقيام على سقاية المحاربين وإطعامهم وتقديم السلاح والعتاد لهم، بل كنَّ يحاربن معهم جنباً إلى جنب، ودخول العرب بلاد الشام من أسباب صمود نساء العرب في تلك الحرب التي قامت بينهم وبين الرومان في موقعة اليرموك، ولولا نساء العرب في تلك الوقعة لبقي الرومان إلى اليوم في بلاد الشام.

والنساء اللواتي يشاركن رجالهنَّ في الحروب يوجد منهن في جميع الأمم، وهذه فرنسا مازالت تفخر بجان دارك التي أنهت حرب المائة سنة وخلّصت بلادها من الأعداء، وهذي جان هاشيت التي خلصت بلدها من أعدائها، وهؤلاء نساء باريز عام ١٨٧٠ اللائي خلَّصن باريز من الألمان ببيع حليّهن لفكها من الجزية التي ضربت عليها، كل هذا صار ولم يقل أحد إن رجال فرنسا أنذال لأن نساءهم دافعن عن بلادهنَّ.

وإني قد أتيت بهذا الكتاب طالباً منكم سحب كلمتكم التي أهنتم بها السوريين على صفحات الجرائد، والاعتذار لهم عن الإهانة التي وجهتموها الى شعبي الكريم. . . وإلا فإني أدعوكم إلى المبارزة بالسلاح الذي ترغبونه. وشهودي على المبارزة هما الأمير خالد الجزائري وحسين بك الإيبش. وإني بانتظار الجواب. وإذا رفضت المبارزة ولم تجبني على كتابي بالاعتذار ونشره في الصحف فإني أعدُّك جباناً، والسلام على من اتبع الهدى.

نائب دمشق

فخري البارودي

وأرسلتُ الكتاب مع شاهدين من الشبان هما: أديب أفندي الصفدي، والدكتور منير العجلاني[1]، بصفتهما شهود تبليغ كتاب المبارزة.

انتشر الخبر في دمشق، وقامت قيامة الإفرنسيين، واجتمع كبار رجال السلطة والقواد. وأحضروا جميع القضاة الإفرنسيين، وتشاوروا فيما يفعلون، ولم يقروا على شيء.

وجاءني في صباح اليوم الثاني حسام الدين الصلاحي، ترجمان مدير المكتب الثاني آنذاك، وسألني عن السلاح الذي أفضله، قلت: لافرق عندي بين السيف والمسدس. فالسلاح الذي يروق للمدعي العام أقبل به مع أن حقّ اختيار السلاح لي، لأني أدافع عن الإهانة. وسألني عن استعمال المسدس، وهل يمكنني المبارزة فيه. فقلت: إني منذ دخول الإفرنسيين إلى سورية لم استعمل المسدس، وهذا نقص كبير ربما يؤثر على تمريني الذي كنت أتمرّنه أيام الحكومة العربية، حين كنت مرافقاً لجلالة الملك فيصل، والمرافق مجبر على أن يتمرن على رمي المسدس والبندقية. وكنت أكتب اسمي على الحائط على بُعد عشرين متراً، ولاأدري هل أتمكن من ذلك اليوم. على أني سوف أتمرَّن من الآن إلى أن يحين وقت المبارزة، إذا قبلها المسيو مورغان.

فذهب ولم يعد. والذي فهمته أن الإفرنسيين بحثوا في اجتماعهم الذي أجروه في دار المشيرية[2] - وكانت مركزاً للبعثة الإفرنسية- جميع الوجوه التي

---

(١) - ولد في سنة ١٩٠٥م، وحصل على درجة الدكتور في الحقوق من باريز، وانضمّ إلى حزب الكتلة، وانتخب نائباً عن دمشق منذ سنة ١٩٣٦ عدّة مرات، ثم انقلب على الكتلة، وتولى عدّة وزارات، واتهم سنة ١٩٥٧ بالتآمر على الوطن، فسجن، ثم أفرج عنه وأمضى حياته في السعوديّة.

(١) - سياسي سوري، ولد سنة ١٩٠٥، وأصبح زعيماً للقمصان الحديدية سنة ١٩٣٦م، انتخب نائباً عن دمشق مرات، واتّهم بالتآمر على البلاد سنة ١٩٥٧، فغادرها بعد ذلك إلى السعودية.

(٢) - كانت في موقع القصر العدلي اليوم، احترقت سنة ١٩٤٥م. وسمّيت بالمشيرية لجلوسِ مشير الشام فيها في العصر العثماني.

يحتمل وقوعها من هذه المبارزة. وكانت آراؤهم مختلفة. وقد قرر الجميع أن هذا الطلب هو عمل جنوني قام به شاب لايعرف معنى الحياة. وقال بعضهم: إذا قتل المدعي العام فويل لفرنسا من العار. وإذا قتل هذا المجنون (يعني أنا) فويل لها أيضاً مما يقعُ في البلاد من الاضطرابات. وبعد تداول الرأي قرّ القرار على أن يعتذر المدعي العام بكلمة نشرتها الجرائد. وهذا نصها:

«إن السيد مورغان، مدعي عام المحكمة الاستئنائية الإفرنسية، يعلن للرأي العام السوري أن الجرائد المحلية حرّفت مطالعته في محاكمة سيدات دمشق تحريفاً سيئاً هيّج الرأي العام. والحقيقة هي أن المسيو مورغان لم يقل «إن السوريين آنذال يختبئون في دورهم ويرسلون نساءهم إلى الشوارع». ولكنه قال: «إن الرجل الذي يرسل زوجته إلى الشارع للاشتراك بالمظاهرات ويختبيء في داره هو نذل جبان. أما السوريون فإنهم أبطال في جميع مواقفهم، كما أنهم رجال أشراف أثبتوا للعالم رجولتهم في جميع مواقفهم. فليطمئن الشعب السوري، وليتق الله كتاب الجرائد فيما ينقلون».

وبهذا الاعتذار كفى الله المؤمنين القتال، وكفاني مبارزة هذا الرجل الأحمق. وإلى اليوم ورجال دمشق يتندّرون بهذه الحادثة التي كتب عنها صاحب جريدة «البيان» في نيويورك كلمة قال فيها، بعد أن ذكر قصة المبارزة، قال: فارس لفارس، اثنان لفارس، عشرة لفارس، ألف لفارس، فرنسا لفخري البارودي.



البارودي في زي القمصان الحديدية

معالي الأخ الكريم مكرم باشا عبيد، حفظه الله![1]

تحية صادقة، وبعد:

فقد كتبت لكم سابقاً في شؤون متعددة هامة. ومع أنني لم أستلم بعد جواباً فقد رأيت من الضروري أن أكتب لكم الآن بشأن خطير له الأثر الأكبر في مستقبل هذه البلاد وحياتها.

لقد درستم دون شك تقرير اللجنة الملكية بخصوص تقسيم فلسطين، ورأيتم ما فيه من ضربة قاصمة للأماني وتفكيك للوحدة الوطنية التي نسعى إلى تقويتها وإنمائها بشتى الطرق والأساليب.

وقد رأيتم أيضاً هذا الإجماع في الرأي على رفض القرار في داخل فلسطين وخارجها، وموقف الحكومات العربية من هذا الأمر. وإني لأشك في أنكم تشاركون إخوانكم العرب في شعورهم القومي. ولكني أرجو منكم أن تعبروا عن هذا الشعور بشكل واضح وقوي، كما أرجو أن توعزوا إلى جرائدكم بتأييد موقف العرب بدلاً من تأييد التقسيم. وإنكم بهذا العمل تضعون الحجر الأساسي القوي الأول في بناء علاقاتكم الأخويَّة المستقبلية مع سائر إخوانكم العرب في آسيا.

---

(١)- ٨٤/ ٧٦٣.

وإن أملي لوطيد بأنكم ستعيرون ملاحظاتي المخلصة هذه اهتمامكم وعطفكم.

واسلم طويلاً للمخلص[1].

دمشق في ١٧/ ٧/ ١٩٣٧

فخري البارودي

(١) - مكرم عبيد ١٨٨٩ - ١٩٦١، سياسي مصري قبطي، كان سكرتيراً لحزب الوفد في عهد النحاس باشا، ثم فُصل من الحزب وشكل حزباً آخر، ونشر «الكتاب الأسود» ضد النحاس، وأصدر صحيفة «الكتلة» ثم انزوى في عصر الثورة ومات بعيداً عن الأضواء.

تقرير مقدم لسعد الله بك – من الكتلة الوطنية.

ونسخ عنه لبعض الأعضاء البارزين: الأتاسي، شكري بك القوتلي، سعد الله بك الجابري، مظهر باشا الكيالي، لطفي الحفار، جميل مردم، توفيق جيجكلي، عفيف الصلح، إحسان الشريف.

«مكتوم»

إلى معالي الأخ السيد سعد الله الجابري، رئيس الكتلة الوطنية المحترم!

أقدم لكم المذكرة التالية التي ضمنتُها آرائي الصريحة في الوضعيَّة الحاضرة للبلاد، من ناحيتها الشعبية والحكومية، راجياً أن تكون موقع اهتمامكم واهتمام الإخوان أعضاء الكتلة الوطنية. كما أرجو أن يكون في مطالعتها شيء من التوجيه نحو بعض الأمور التي أرى تحقيقها ضرورياً لمستقبل البلاد التي أولتنا ثقتها، ووضعت في يدنا مقاليد أمورها، لنقودها إلى ميناء السعادة والرفاهة، خصوصاً والدور الإنشائي في الدولة لا يشبه بوجه من الوجوه أدوار الكفاح السلبية السابقة.

وقبل أن أدخل في صلب الموضوع لابدَّ لي من ذكر كلمة مخلصة أرجو أن تتقبلوها بنفس النية الحسنة التي أقولها بها.

تعلمون أيها الأخوان أنني بالرغم من حرصي الشديد على القضية الوطنية لم

أكن أتدخل في شؤون الكتلة السياسية تدخلاً فعلياً[1]، بل كنت أقدم ملاحظاتي إلى الإخوان المنصرفين إلى الاهتمام بهذه الشؤون، إما مجتمعين أو منفردين بصورة شفهية فقط. وإني آسف جداً لأنني لم أدوّن تلك الملاحظات في حينها، لأتمكن من العودة إليها والتفكير بها عند اللزوم. ولكنني بعد اليوم سأقدم جميع ملاحظاتي بصورة كتابية واضحة، نظراً لكوني مسؤولاً عن سياسة الأمة والحكومة أمام الرأي العام والتاريخ ككل فرد من رجال الكتلة الوطنية البارزين.

القصد من هذه المذكرة

إن من العناصر الأولية التي يتميز بها رجل الدولة عن السياسي العادي هي مقدرة رجل الدولة على رؤية المستقبل من جهة، ووضع الخطط التي تؤدي حتماً إلى تحقيق الأهداف والغايات التي يرمي إليها من جهة أخرى. وإن من المزايا التي تكفل النجاح للناس في هذه الحياة، سواء كانوا أفراداً أو جماعات متكتلة، هي مزية انتقاد النفس والرجوع عن الخطأ.

وإنّ الملاحظات التالية التي سأبديها في هذه المذكرة هي من باب انتقاد النفس والسعي لتلافي بعض النقائص الملاحظ وجودها في الكتلة الوطنية بصفتها ممثّلة للأمة، وفي الحكومة بصفتها ممثلة للكتلة، والتي حان وقت إكمالها وتلافيها توصلاً إلى الغاية الوطنية السامية التي نرمي إليها، وتوطيداً لدعائم الحكم الوطني الذي يكفل صيانة حقوق الشعب وإقامة العدل والمساواة أساساً للدولة وللحكومة.

كفاحنا القومي- نقائصه وأسبابها

لقد سرنا حتى اليوم في كفاحنا القومي ضد الاستعمار الأجنبي على طريقة عشائرية. يقع حادث ما فندعوا الأمة للمقاومة فتهبُّ لتلبية النداء بصورة رد فعلٍ

(١) - كنا قبل عام ١٩٣٩ نعمل في الكتلة مجتمعين. وكل رجل منا يقوم بالناحية المختص بها. وكانت الأعمال التي أقوم بها هي الدعاية والاتصال بالشعب والجماعات. وكان كل فرد من رجال الكتلة الوطنية يقوم بأعماله، فمنهم الحقوقي ومنهم الإداري، ومنهم السياسي، ومنهم الإجتماعي... الخ.

ذاتية. وبعد زوال الأزمة يعود كل إنسان إلى عمله وينسى واجبه القومي حتى يأتي دور الأزمة الثانية أو النكبة التالية فنهبُ كما فعلنا في المرة الأولى لرد العدوان ولمقاومة المعتدي. ولاأظن أن غير هذه الطريقة كانت مجدية أو ممكنة في الزمن الماضي، لأن الشعب كان لايزال فاقد الروح الوطنية، منعدم الثقافة، مشوّش الفكرة والعقيدة بحيث إنه لم يكن ليُعير انتباهه للأعمال النظامية الأساسية.

غير أن الكفاح الوطني في العشرين سنةً الماضية، مع ماوقع في هذه الفترة من الأخذ والرد والسلب والإيجاب قد نبَّه الأذهان وأيقظ الوعي في الصدور إلى حدٍّ ما وجعل الأمور التي كانت مستحيلة عام ١٩٢٠ ممكنة اليوم في حالة وجود الإرادة لتحقيقها.

ومما لايخفى على كل صاحب تفكير جدّي مخلص في الشؤون القومية أنَّ ماكان يصلح لزمن الكفاح السلبي في وضعية الشعب وطريقة تحريكه لايصلح اليوم. بل نذهب إلى أبعد من هذا فنقول إن الأخلاق السياسية التي غرسناها في الشعب طيلة فترة الكفاح تصبح خطراً على كيان الدولة نفسها إذا لم ينظر إليها نظرة التدبير الحكيم والتوجيه الصالح. زد على هذا أن العاطفة الوطنية التي كانت تكفي أن تكون عاطفة مناسبات في عهد النضال السلبي لايمكن أن يُستند عليها باطمئنان في عهد الإنشاء الذي يحتاج إلى عصبة قومية مستمرة واعية.

ضعف العصبية الحزبية[1]

ويلاحظ أن العصبية الحزبية الكتلوية في سواد الشعب ضعيفة بالرغم مما تظهر فيه، بحيث إنها لاتشكّل قوة ارتباط تذوب فيها شخصية المتسبين بشكل صوفي يبلغ في ذروته درجة اللاوعي. وسبب ذلك على ماأرى يعود إلى ثلاثة أمور:

---

(١) -كانت حالة الكتلة وقوتها في أوجها بذلك التاريخ.

١- فقدان التعليم الكتلوي:

بماذا يختلف المنتسب إلى الكتلة في عقيدته عن المنتمين إلي بقية الهيئات . أقصد بهذا السؤال : ماهي التعاليم القومية التي تشكل جميع نواحي الحياة السياسية منها والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي تقوم بها الكتلة الوطنية والتي تعمل على ترسيخها في نفوس الشعب وتربية العصبية لها عندهم؟

إن الولاء الحزبي الصحيح يجب أن يقوم على أساس الفكرة الواضحة والعقيدة المحددة تحديداً جلياً، اللتين تختلفان عن باقي الفِكَر السائدة والعقائد التي يقول بها الناس الآخرون، والاختلاف عن غير الضروري لمنع الميعان الحزبي الذي يؤدي إلى الشلل والتفكك. وكلما زادت الفكرة تحديداً ووضوحاً زادت العصبيةً الحزبية قوةً وصحَّ الاستناد عليها والركون إليها .

٢- فقدان التنظيم الكتلوي الصحيح:

يزاد إلى السبب الأول، وهو عدم وجود التعليم الكتلوي الموحد هذا السبب الثاني الذي لايقل أهمية عنه، وهو فقدان التنظيم الكتلوي الصحيح . إن من الطبيعي أن لايكون التنظيم صحيحاً مادام لايقوم على فكرة واضحة. وإن كلٍّ الحركات التنظيمية التي وُجدت إلى اليوم لم تكن سوى حركات سطحية فقاقيعية لأسباب شتى في طليعتها ميعان الفكرة القومية عند المنتظمين فيها قبل انضمامهم إليها وعدم العمل على إكسابهم العقيدة الصحيحة وتمتين وطنيتهم وتوضيحها بعد انتسابهم إلى تلك المنظمات. والواقع أن القوة الجاذبة لكل عمل تنظيمي ومادة الالتصاق فيه هي العقيدة الموحدة الجلية. والتنظيم في ذاته نتيجة العقيدة، ولكنه يكون من أقوى العوامل في خلقها أيضاً.

ولايخفى أن التنظيم فضلاً عن أنه يشعّب الفكرة الوطنية ويوصلها إلى الجماهير، فهو يربّي روح الانضباط في الناس وإطاعة القوانين واستساغة النظم. كما أنه يسلس قُياد الأمة لزعمائها المخلصين ويقطع دابر الدس والتفريق وبث

الدعايات الفاسدة بينهم. يزاد إلى ذلك أنه يفتح أمام أصحاب الكفاءات باباً لإظهار كفاءتهم بالوسائل السلمية المشروعة بإحداث أقل قدر ممكن من الاحتكاك والمنافسة.

٣- فقدان التآلف الكتلوي:

إني لاأفضح سراً إذا قلت إن كل فرد من أفراد الكتلة يشكل حزباً بنفسه. وهذه ظاهرة من ظاهرات السببين الأولين. أعني عدم وجود فكرة موحدة صريحة، وعدم وجود تنظيم منضبط صحيح. ولكنها ككل النتائج تصبح بدورها سبباً، فتحول دون التوضيح والتنظيم، بعد أن كانت هي نفسها بنت الغموض والفوضى. ولاحاجة لي بأن أبين أضرار هذه الظاهرة. فقد قلت سابقاً إنها تؤخر أعمال التنظيم، وتقف حاجزاً دون توحيد الرأي.

وأزيد على ذلك أنها فضلاً عما تحدثه من ضياع الجهود بسببماينجم عنها من الاحتكاك بين أفراد الكتلة وتبادل المقاومة. فهي تقلل من هيبة الكتلة في عيون الجمهور وتبث روح التمرد عليها بين طبقات الناس. كما توزع الشعب شيعاً وأحزاباً على الأساس الشخصي الصرف، وتهدد نهائياً بالتفسُّخ والتفكُّك اللذين لايعودان بالخير على أحد من الناس أو على البلاد بمجموعها.

وعلى هذا الأساس يصبح أفراد الكتلة مجبرين على اتباع سياسة الاسترخاء والمحسوبيات مع الناس، سواء كانوا خارج الحكم أو في كراسي المسؤولية استجلاباً لهم، حتى يؤيد كل إنسان نفسه ويقوي مركزه الخاص بالنسبة إلى إخوانه. وهذا الأمر لايجوز في حركة قومية صحيحة كالتي نزعمها ونحمل عبأها.

الكتلة كحكومة

هذا فيما يختص بالكتلة كحزب تتجسم فيه الأمة وتقوم على أساسه الدولة. أما الكتلة كحكومة فإن كل ماتقع فيه من خطأ، أو كل مايبقى عليها من نقص

فمصدره ضعفها حزبياً. وأسبابه ماأشرت إليه سابقاً في بحث الحالة الشعبية الراهنة.

وقد كانت الحوادث المؤسفة[١] التي وقعت منذ أيام في دمشق على بساطتها دليلاً واضحاً على هذا الضعف الملازم الذي نحن بصدده فقد تجلّى بهذا الحادث تراخي تنظيمنا الحزبي، كما ظهر إهمالنا لتثقيف الشعب وعدم استمرارنا في الاتصال به بواسطة الدعاية المنظمة التي توضح له العقبات التي تواجهها الحكومة وتفهمه أعذار زعمائه في عدم زيادة السرعة في تخفيف مايريد إلى ماهنالك من الأمور التثقيفية الحزبية المعروفة[٢].

تطهير الجهاز الحكومي

وقد أظهر هذا الحادث البسيط أيضاً مع ماسبقه من حوادث أن العبرة في انقلاب الحكم ليست في تغيير الرؤوس فقط، والرئيس يمكنه أن يصدر الأمر، ولكنه لاينفذه بنفسه، والمنفذ إذا لم يكن بنفسه صالحاً فباستطاعته أن يخرج من تطبيق الأوامر عكس مايراد منها. كما أنه يقلل من هيبة الحكومة ويضعف معنويات الجهاز الحكومي. ويلاحظ الوزراء هذه النقطة في هذا الازدحام الذي يشاهدونه على أبوابهم من قبل أصحاب المراجعات التافهة الذين يأبون عرض شكايتهم تبعاً للتسلسل الإداري لأنهم لايثقون بغير الوزير أو المدير الوطني اللذين جاءا إلى السراي حديثاً[٣].

---

(١) - هذه الحوادث هي هجوم النساء على دار البلدية بدعوى طلب الخبز، وقيام بعض الرجعيين بالهجوم من خلفهن على البلدية، ثم دار الحكومة في شهر تموز سنة ١٩٣٧، وهرب الشرطة. ولولا وجود بعض أنصار الكتلة لدخل المعارضون ورموا برجال الحكومة من النوافذ.

(٢) - من المعلوم أن الشعب السوري بعد الانقلاب الذي حصل عام ١٩٣٦ كان يتأمل أن تصطلح الدولة وتستلم الحكومة الوطنية من السلطة الافرنسية كل شيء في مدة قصيرة. وكان يجهل مايُحاكُ في الخفاء لعرقلة إتمام هذا الانقلاب فتنبه.

(٣) - وقد أصبحت هذه الحالة عادة عند الأهلين بقوة الاستمرار وتراخي بعض الوزراء في استقبال الناس، خصوصاً الذين يدّعون الوطنية من المنتمين إلى الكتلة الوطنية.

وفي هذا مافيه من العبرة ومن الدلالة الجازمة على عدم ثقة الشعب بالجهاز الحكومي الحاضر.

وفي هذا مافيه من إعاقة الرؤساء عن أعمالهم الأساسية الهامة. وإذا كان الوضع الحاضر لايساعد على تحقيق مانريد فلا أقل من أن تُملأ الدوائرُ بالشباب الوطنيين ليحوزوا على التدريب المسلكي الكافي، حتى إذا دقت الساعة وجدنا من الشباب من يتمتع بالكفاءة والتمرين الضروريين لملء دوائر الدولة والقيام بأعبائها.

وهذا يعني أن تطهير الجهاز الحكومي يجب أن لا يعقبه دور استبدال الموظفين الحزبيين بموظفين لايتمتعون بالكفاءات الشخصية المقنعة. والجهاز الحكومي كالسلسلة، قوتها قوة أضعف حلقة فيها، وإنَّ موظفاً واحداً في مركز دقيق يُسيء التصرف، بإمكانه أن يقضي على الحكومة بكاملها.

إن حسن الانتقاء على أساس الكفاءات الشخصية من شأنه أن يقوي الحكومة ويوطّد سلطتها ويكسبها عطف السواد الأعظم من الناس واحترامهم.

أضف إلى ذلك أن وجود أمثال هؤلاء الأشخاص الأكفاء من شأنه أن يمكّن الحكومة من وضع البرامج الإصلاحية المبنية على العلم الصحيح، كما يمكّنها من تطبيقها في مختلف الدوائر وسائر أنحاء الحياة العامة. وأهم هذه الدوائر التي يجب أن يضاعَف الانتباه إليها هي: الداخلية، البلديات، الأمن العام، الدفاع، المالية، الأشغال العامة، المعارف التي يجب أن يوجَّه التعليم فيها توجيهاً وطنياً صحيحاً، وأن يُنتبه إلى الذين ينخرطون في سلكها انتباهاً خاصاً حتى نؤمن قيام نشءٍ صحيح العقيدة الوطنية.

طريق الخلاص

أما وقد أبنَّا بصراحة كليَّة جميع مايشوب حركتنا القومية من نقائص وهفوات بشكل يظهر فيه الداء جلياً، فلابد من تدوين عدد من الملاحظات بشأن العلاجات التي نرى أنها تكفل إيصالنا إلى الغايات الكبرى التي نستهدفها، وسأضع هذه

الاقتراحات بشكل مختصر متسلسل نظراً للتطويل الذي وصفنا به الحالة، مقتصراً في ذلك على الشؤون الأساسية التي تتبعها الأمور الفرعية بصورة طبيعية:

١- التآلف في الكتلة:

قبل كل شيء يجب نزع الحزازات الداخلية بين أفراد الكتلة. لقد قضت الظروف في الماضي أن يكون بين البعض منّا شيءٌ من الفتور للاحتكاك مع البعض الآخر. وقد أدَّت هذه الوضعية الشاذة إلى مانحن فيه اليوم من الحالة غير المرضية.

إن مصلحة البلاد العليا تقتضي بأن ينسى كلّ واحد منّا عداوته الصغيرة الخاصة مع إخوانه، وأن يغسل قلبه بالصفح ويذيب جميع شهواته في الشهوة الوطنية الكبرى، ويعمل مع إخوانه يداً واحدة وقد زالت من بينهم الشكوك والمخاوف.

إنَّ مثل هذا العمل يقتضي كثيراً من الشجاعة والإرادة. ولكن ألا نقول نحن أنفسنا إننا وطنيون؟ فإذا كنا حقيقة كذلك فلنسمع نداء الوطن ونعمل على تحقيق مايطلبه الواجب. أما الذي يتخلَّف عن مثل هذا الأمر فليس وطنياً صحيحاً، وستزيّفه الأيام، ولاحاجة لنا به أصلاً. ولايكون هذا بالقول فقط بل هو يرتكز على العمل أولاً، ودليله أن يعمل كل واحد منا على شد أزر الآخر في أعماله المفيدة، وأن يدافع عنه ويخلص له النصح، وفي هذا ما يكفل صفاء القلوب وزوال الأحقاد.

وإذا فعلنا هذا، وأنا واثق من أننا سنفعل، فما زلنا نخلص لمصلحة البلاد ويصبح بإمكاننا أن نوجه انتباهنا إلى الخطوات التي تلي، وفي طليعتها التنظيم والدعاية.

٢- التنظيم والدعاية:

يجب أن يكون في الكتلة، تنظيم شامل في الأعمال كما في الدولة تماماً، فيعهد إلى فرد أو هيئة من الكتلة أن تعمل على تنظيم الشعب تنظيماً دقيقاً متواصلاً مع العلم أن الحزب يجب أن يكون مدرسةً، ويجب أن يشمل التنظيم جميع أنحاء

البلاد، وفي طليعتها العاصمة. لأن الحكومة إذا اكتسحت في العاصمة فقد اكتسحت في كل مكان. ويجب أن نسعى في إدخال العناصر الطيبة العائدة من المنفى في سلك تنظيمنا هذا، كما يجب إدخال بعضهم مع نفر من الشبان النابهين في مجلس الكتلة حتى يكونوا بمثابة صفوف احتياطية لتتسلم القيادة عند شغور أحد مقاعدها لسبب من الأسباب. ولاحاجة لي أن أتبسط في تفاصيل التنظيم، فقد أصبحت هذه التفاصيل معروفة بعد أن قامت في العالم هذه الحركات النظامية المتعددة. فهو يجب أن يبنى على أساس السلطة المركزية الموحدة والانضباط التام والتسلسل الدقيق المرتبط.

والأهم من هذا كله أن هذا التنظيم يجب أن يكون مدرسة، بحيث يتولى مكتب دعاية الكتلة بالخطب والمحاضرات والنشرات والمقالات وماإلى ذلك من تثقيف المنخرطين في المنظمة تثقيفاً قومياً عربياً واضحاً وتثقيفاً حزبياً سديداً تتضح معه العقائد وتشتد العصبية ويتضاعف الولاء وتزيد الفعالية، ويُقضى على العناصر الرجعية المفسدة في صفوف الأمَّة. ولايخفى أن فقدان العصبية الحزبية التي أشرتُ إليها قد كاد يفقدنا الكثيرين ممن كانوا يعملون معنا قبل عهد الانقلاب[1]. ومن أسباب هذا الانفضاض في بعض الجهات أننا أهملنا شأنهم وأكثرنا من مراعاة من كانوا حرباً علينا. ومن الواجب أن تقترن الدعاية بإيعاز يصدر إلى جميع النواحي بمساعدة الوطنيين المقتدرين وتفضيلهم على غيرهم في كل الإدارات وفي شتى نواحي الحياة.

يضاف إلى هذا أن ماتخلقه الدعاية في النفوس الوطنية الإيجابية كفيل بأن يجعل الناس يفهمون الحركة الوطنية بمعنى أوسع من معناها السياسي الضعيف، فيزيد دفع الجهود نحو الأعمال الإصلاحية التي تساعد الحكومة في مهمتها وتحقيق غايات البعث القومي، وبعد ذلك يصبح بمقدور الحكومة أن تعمد إلى الإصلاح،

---

(١) -يعني الانقلاب السياسي في البلاد ١٩٣٦م عندما استلمت الكتلة الحكم.

وقد ضمنت التأييد المتواصل الصلب الحقيقي، فتطهرّ الدواوين والسرايات، وتضرب على أيدي السارقين، وتسير في تنفيذ سياستها الإصلاحية مرتكزة على قوة الأمة المنظمة التي لايمكن أن تمتد الأيدي إلى صفوفها لتعيث فيها فساداً وتفرقة.

وإني لاأرى في غير هذا سبيلاً أو طريقاً للخلاص لنا شعباً وحكومة أو طريقاً نحو وحدة الصفوف التي ننشدها.

وإني أرجو الله أن يأخذ بيدنا جميعاً إلى مافيه خير هذه البلاد وخير العرب أجمعين.

دمشق ٢٦ تموز ١٩٣٧.

لقد كانت لي الشجاعة الكافية لإيقاظ كبار رجال الكتلة وتنبيههم إلى الهاوية المفتوحة تحت أقدامهم بمذكراتي التي قدمتُها إلى كل فرد مسؤول منهم. ولكن ماالفائدة وقد نظروا إليّ أنذاك بعين الهزء، حتى إن فارس الخوري، رئيس المجلس النيابي، ومعتمد الكتلة سماني الشكاء لكثرة شكاياتي، ومع هذا فقد وقع المقدور رغم تنبيهي إياهم. وماذلك إلا من عناد الرؤساء والخصومة الشخصية والنزاع الدائم بينهم، وعدم الكفاءة في العمل لقلة المتخصصين في الإدارة والسياسة والاقتصاد والإجتماع وغير ذلك. ولم يلتفت أحد إلى الإصلاح الإنشائي اللازم لبلادنا التي سبحت عدة قرون في بحر الجهالة، حتى أصبحت خراباً.

ومن سوء حظ سورية أنها لم تجد رجلاً قديراً ينقذها من الوهدة التي سقطت فيها، ومع أنه كان بين رجالنا بعض السياسيين الأذكياء، إلا أنهم كانوا غير متمرنين على الحكم. والدور الإنشائي هو غير أدوار الكفاح. ولهذا فشلت الكتلة، وفشلت قضية سورية، فنفرت البلاد السوريّة خاصةً وبلاد العرب عامةً من هذا الفشل.

لقد ذهبت الكتلة في التسامح مع أخصامها إلى أقصى حد، وتركت الحبل على الغارب للصحف المخالفة. وبالرغم من معرفتها بالعراقيل التي تضعها السلطة الإفرنسية في طريقها، والأعمال التي يقوم بها بعض الموظفين السوريين الذين هم من صنائع الافرنسيين وعيونهم. فإنها لم تحرك ساكناً، وكانت تُبعد عنها أعوانها وتفتح صدرها لكل خصم ظناً منها أنها بذلك تكسب أنصاراً. فكانت العاقبة عليها وخيمة، وامتدَّ النزاع الحزبي واشتد النفع الشخصي. ونسيت الكتلة أنها كالريشة في مهبِّ الريح معلَّقة بين السَّماء والفضاء. وأظهرت للعالم أنها قاصرة النظر في أمور الإدارة والسياسة الخارجية. وبعدما كنا نحن سادة الموقف، وكانت فرنسا - على الرغم من ضعفنا الحربي- ميَّالةً لإعطائنا المعاهدة التي صدَّقها المجلس النيابي، لو بقيت الكتلة متكاتفة متراصةً، والشعب يدعمها. ولكن القدر أعمى البصر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تقرير مقدم إلى جميل بك مردم بك

سيدي الأخ جميل بك!

ذكرت لك بالأمس في اجتماعنا عما يخامرني من الشك في الأحوال الحاضرة، ولم أتمكن من الاستفاضة في البحث لأنك لم تترك لي مجالاً للاسترسال على عادتك. كما أنني عذرتك من جهة ثانية لكثرة أشغالك ومراجعة الناس.

والذي فهمته منك أنكم عازمون على الإصلاح، وأنكم قريباً ستباشرون بالعمل. وهذا ماكنت أسمعه دائماً. ولقد قدمت للأخ سعد الله بك كتاباً قبل أسبوع أفهمته فيه أنه آخر كتاب من نوعه، وأنني عازم على مغادرة دمشق إلى قريتي. فكلمني تلفونياً، وطلب إليَّ البقاء، وأنه بعد بضعة أيام سيريني مايسرني. ولكن ظواهر الحال دلتني على أنكم لاتريدون عمل أي تنظيم. وربما أكون مخطئاً بنظرياتي، وربما تكونون على حق في نظرياتكم، وربما يكون الحال أوفق للبلاد إذا

بقيتم على هذه الخطة. ولذا رأيت من الأنسب أن أنسحب إلى قريتي منتظراً النتائج التي تحصل من البقاء على هذا الحال.

إنك تعلم شدة محبتي لك وإخلاصي، وإنك تعرف جيداً أنني ليس لي أقل غرض من التنظيم الذي أدعو إليه إلا الخدمة الخالصة. وبقائي في دمشق في هذا الدور الذي ماكنت أحلم أننا سنكون عرضة له سيكون سبباً لإزعاجي وسلب راحتي لأن عيني تبقى بصيرة ويدي قصيرة، والذي أظنه بل أتأكده أن اليد الرجعية التي تلعب في البلاد اليوم وراءها قوة خارجية أجنبية تدفعها إلى العمل، وتدفع لها دراهم تغذيها فيها. وأبواق الافرنسيين والرجعيين والمدَّعين الوطنية اتفقت كلها على نغمة واحدة، وهي محاربة هذا الوضع، ونحن نائمون، والماء يجري من تحتنا. ولذلك أتيت بهذا الكتاب راجياً منكم أن لاتظنوا انسحابي هو عداء لكم أو معاكسة. وأن تعتبروني دائماً الأخ الصادق إن كنت في دمشق، أو إن كنت في الحربا.

وأرجو الله أن يوفقكم إلى مافيه خير البلاد، والسلام عليكم، من أخيكم المخلص.

فاتني أن أذكر لكم أن في حوران حركة غير عادية وأصابع تلعب بطلب حوران مطالب كمطالب جبل الدروز، واليوم في طفس بعض حوادث تتحيَّز الحكومة لناحية ضد الأخرى. الرجاء أمر من يلزم في حوران أن يعامل جميع الأهلين بالسواء قطعاً للدس، خصوصاً في حادث طفس.

دمشق في ١٦ تشرين الأول ١٩٣٧

فخري البارودي



العقيد فخري البارودي

أحوال القضاء والجَزيرة وحَوران

سيدي الأخ الكريم السيد سعد الله الجابري، رئيس الكتلة الوطنية المحترم!

١- بلغني أن الشيخ تاج الحسني اجتمع إلى المفوض السامي ثلاث مرات متتالية في باريس. وأنه في اجتماعاته بيّن له أن الكتلة الوطنية لا يمكنها أن تحافظ على كيانها أكثر من سنة، وأنه قادر على إثبات ذلك بالعمل، وأنه مستعد للعمل معهم على الصورة التي يرغبونها. والشيخ تاج يعمل اليوم مع بعض الأفرنسيين هنا، هو من الخارج وهم من الداخل، على عرقلة سير المعاهدة بما يأتيه أعوانه من الدس. وأرجو أن تقوموا بتحقيق لمعرفة علاقة المفوّض السامي بهذا الأمر الذي أرجو أن لا يكون موجوداً. وأرجو أن تتنبّهوا لهذا الخطر.

٢- إني أشرت في تقريري الذي قدمته لرئيس الوزراء، وقدّمت لكم نسخة عنه عن حوران أن هناك أيادٍ تلعب لفصل حوران عن الحكومة السورية. وقلت إنه وإن كان ثبت أن حوران هادئة الآن فإني لا أضمن بقاء هذا الهدوء زمناً طويلاً. واقترحتُ بعض مقترحات، منها ما يمكن تحقيقه الآن، ومنها ما يمكن تحقيقه عندما تتوفر له الأسباب. والذي يمكن تحقيقه الآن هو تعين محافظ حازم تعطى له صلاحية واسعة لتدبير الأمر، وهذا واجب بل فرض الإسراع به، فتدبّروا أمركم.

٣- إن تشكيلات الأحزاب في العاصمة والملحقات سائرة بصورة غريبة، فجميعُ الناس ينظّمون أنفسهم إلا نحن. وأحوال العاصمة على ما يرام. فهناك

دسائس تحاك بالخفاء، يساعد القائمين بها هبوط الفرنك ووقوف الحال وعدم وجود دائرة شرطة منظمة. ولذا أقترح تعيين مدير أمن عام حازم يعطى صلاحية واسعة وإطلاق يده بصورة فعلية ليقدر على تنظيم الدائرة والوقوف سدّاً منيعاً بوجه الدساسين والقضاء عليهم.

٤- توقيف المرسوم الاشتراعي الأخير القاضي بإطلاق يد الوزير الكيالي، أحدث أسوأ تأثير في دوائر العدل، وألقى الرعب في قلوب القضاة ومُوظفي العدلية، بسبب إطلاق يده في شؤون العدلية إطلاقاً تاماً.

٥- إن إخواننا الذين شاركونا في جهادنا، أكثرهم مستاء من الحالة الحاضرة. وقد وضعوا تقريراً أرسلوا لكل عضوٍ منا نسخة عنه. ولا بد أنكم اطلعتم عليه. يشكون فيه حالتنا والحالة العامة وينذروننا فيه بسوء العاقبة. فأرجو التبصُّر بهذا التقرير والعمل على جمع شمل الكتلة وإعادتها سيرتها الأولى. وإلا فإني أرى حلها وفرط عقدها حفظاً لكرامة الكتلة.

٦- إذا رأيتم أن وجود الكتلة ضروري ولا لزوم لحَلّها، أرى أنه يجب الإسراع بتشكيل مكتب لفرع الكتلة في دمشق، يتولى إدارة المدينة ويربط الناس بالكتلة، ويبث الدعاية ضد الدعايات الخبيثة التي يقوم بها أخصامنا. وهذا يجب أن يكون بأسرع ما يمكن، كما يجب تعميم هذا التنظيم في جميع البلاد.

٧- الجزيرة لم تزل مضطربة، وجميع الأخبار التي تأتيني منها تنبئ بأن الحالة وخيمة فيها [١]. وهذا يحتاج إلى موقف حازم مع الإفرنسيين، فتدبروا الأمر.

---

(١) - في سنة ١٩٣٥م أصدر المفوض السامي الفرنسي «دومارتل» قراراً بإسكان (٥٠٠) أسرة من الآشوريين الفارّين من العراق في منظمة الجزيرة، وقد أثار هذا القرار حفيظة الوطنيين لمعرفتهم الكاملة بنوايا فرنسة الحقيقة تجاه سُورية. وقد أعلن هؤلاء الآشوريون الانفصال عن حكومة دمشق، ورفضوا استقبال المحافظ «توفيق شامية» كما أنّهم رفضوا استقبال سعد الله الجابري الذي كان وزيراً للداخلية والخارجيّة.

انظر: صحافة وسياسة. نصوح بابيل صفحة ٩٨

٨- إن هذا التقرير المختصر الذي أقدمه لكم، والذي قدمت مثله قبلاً، إذا لم يجد أذناً صاغية، ويُعمل على تنفيذ مافيه بسرعة وحزم، فإني أتخذ من ذلك دليلاً على فقدان الكتلة الحيوية الصحيحة التي يجب أن تتوفر في حزب يقبض على مقدَّرات الدولة ويُدير شؤونها. وإني أخاف أن يقع مالم يكن في الحسبان فنعجز عن الوقوف في وجه هذا التيار. وهذا ما أتوقعه إذا ظل الحال على هذا المنوال.

وأرجو الله أن يوفقنا وإياكم إلى مافيه خير البلاد، والسلام.

دمشق ٨/ ١٠/ ١٩٣٧

فخري البارودي

الدعايات
الشيوعية والفاشستيّة والتركيّة
في حلب سـ ١٩٣٧ـنة م

سيّدي الأخ سعد الله بك الجابري

في المدة القليلة التي قضيتها في حلب رأيت وسمعت من عدة نواحٍ أشياء لم يسعني إلا أن أذكرها لك بصفتك رئيساً للكتلة الوطنية ووزيراً للداخلية ولك رأيك بعد أن تطَّلع على هذا التقرير الذي أكتبه إليك بملء الإخلاص والصراحة.

إن الحالة في حلب فوضى أكثر منها في دمشق بالنظر لعدم وجود أحد من معتمدي رجالنا. وقد بدأ نفوذ الكتلة بالتناقص بالرغم من تنظيماتها السابقة، وعدم وجود من يدير دفة الشعب بصورة حازمة غير مغرضة. وقد نشطت الأحزاب بالعمل، وأخصُّ منها الحزب الفاشستي والحزب الشيوعي. وإذا خلا الجو لهؤلاء يوماً من الأيام فالكارثة واقعة على رأس الكتلة بلا شك ولامبالغة لكثرة الدس من جميع الجهات الرجعية وتنظيم هذه الأحزاب ومساعدتها على ترويج هذه الإشاعات دون أن يوجد للكتلة دعاة يردون هذه الافتراءات ويفتحون أعين الناس. أضف إلى ذلك فساد أخلاق الشبان لانتشار البطالة بينهم حيث لم يعد ثمة شباب يقدر معنى الإخلاص والتفاني في حفظ القومية العربية. ولا أغالي إذا قلت إن كثيراً منهم أصبح بلا خجل عندما يجادلون بعضهم لايتورعون عن التصريح باستعدادهم لتقديم أنفسهم كسلع تسخر لشتى العناصر الرجعية بل الاستعمارية أيضاً. وأرى من

اللازب إرسال رجل مخلص قادر يندس بين الطبقات يمكنه أن يطلع بمدة قليلة على ماسأذكره لكم بهذا التقرير .

١ - **الشيوعية:**

تعتبر الهيئة الأولى المنظمة في حلب تنظيماً شعبياً وصل بها إلى قوة تستطيع أن تهدد بها المصالح والأهداف الوطنية السامية. وبرغم التفكك الذي حصل فيهابانسحاب بعض القادة والشباب النشيط لاتزال حركتها في استمرار. فقد أقامت منذ ثلاثة أسابيع حفلة تذكارية للثورة الروسية لوحظ فيها أن اثنين من خطبائها كانا من طلاب معهد التجهيز في حلب. ويجب أن نشير هنا إلى أن تحقيقات أجريت منذ أشهر قليلة في هذا المعهد حول وجود دعاية شيوعية أُخرج في أثنائها بعض التلامذة رهن التحقيق، ثم تبرأت ساحتهم رغم مصادرة الناظر بعض كتب شيوعية محضة تدل على وجود دعاية شيوعية فظيعة بين صفوف الطلاب.

وفي الحركة الأخيرة التي قامت باسم العمال فأنتجت إضراب ماينوف عن خمسة آلاف عامل من عمال حلب الذين أوفدوا نقباءهم إلى دمشق لمفاوضة الحكومة تحت رئاسة نقيب عمال الميكانيك سعيد السوّاس السكرتير العام للحزب الشيوعي في حلب. ثم إن في تشكيل النقابات في حلب اليوم حركة واسعة يرمي بها بعض الشيوعيين إلى بذر روح المبادىء الشيوعيّة بين صفوف العمال.

وأما عمال الأرمن ومؤسساتهم فكلها شيوعية. ويوجد للشباب الأرمني ناديان شيوعيان، أحدهما يتخذ لنفسه اسم أصدقاء الاتحاد السوفييتي، والثاني يتخذ اسم النادي الشيوعي الأرمني، وأعضاؤهما يعملون علناً.

وينبثُّ الشباب الشيوعي العاطل بين الناس للتبشير بمبادئه مدعماً قوله ببراهين وحجج قوية لايمكن لعمالنا إنكارها أو الرد عليها.

٢ - **الفاشستية:**

ولانعني بالفاشستية اعتناق المبدأ الفاشستي الدكتاتوري، لأنه لا يوجد بين الشباب من يخطر على باله اليوم أن يقوم كما قام موسوليني، وإنما نعني بها دعايات

القنصل الإيطالي المفضوحة وإقامته الحفلات لذلك بصورة علنية أمام مرأى ومسمع الكتلة الوطنية.

أما الدعاية الإيطالية فحدِّث عنها ولا حرج. فمجيء أحد زعماء الفاشست قبل ثلاثة أشهر. وإقامة القنصل حفلة خطابية ألقيت فيها الخطب والبيانات المسهبة عن حب إيطاليا للعرب [خذ بالك لعيونهم السود] والإسلام، وعن اتحاد العادات العربية مع المبادىء والعادات الفاشستية، ثم الدعاية التي يقوم بها أكثر الصحافيين في حلب لإيطاليا التي تغذّيهم بأموالها، ثم استئجار قنصل إيطاليا سينما الأمبير منذ شهر عرض فيه فلماً إيطالياً فاشستياً يمثل انتصار الثورة الفاشستية.

خلِّ عنك النادي الإيطالي (كازا إيطاليانا) الذي يقبلُ شباناً على اختلاف درجات ثقافتهم وطبقاتهم الاجتماعية، حيث يجتمع فيه المثقَّف والأمي والقصّاب والتلميذوالزعيم والصحافي. . . إلخ، وتوزع عليهم المشروبات الروحيَّة مجاناً وتقام لهم الحفلات الراقصة التي يتخللها الرقص والأناشيد الإيطالية الحماسية. ولا يخفى مالهذا النوع من الدعاية من التأثير في نفوس الشبان والشابات، خصوصاً الأغرار منهم أمثال شباننا.

خلِّ عنك المدرسة الإيطالية الليلية التابعة للقنصلية التي تُعلِّم مجاناً كل مؤيدي الفاشست ويغشاها شبان وفتيات كثيرون، ويقوم على إدارتها راهبات يُحْسنَّ اللغة العربية، وأكثر دروسهنَّ دعاية إيطالية. ثم المدارس التبشيرية (تيراسانتا) بفروعها الثلاثة، ومدرسة الكازا، اللتان تدأبان على عملهما ليل نهار. ثم المستشفى الإيطالي الذي تحول في المدة الأخيرة إلى دار دعاية، والذي أخذ على عاتقه أخيراً توليد النساء مجاناً، ودعايات أطبائه أصبحت بالعلن، ودار عيادة مديره هي اليوم أقرب إلى ناد سياسي منها إلى عيادة طبيب.

أما بتكو دي روما فإذا روقب مستخدموه من أبناء العرب مراقبة دقيقة تعرفون منها شيئاً من الأموال التي توزّع على أنصاره وإرغام كل من يمكن التأثير عليهم ممن له معهم علاقة مالية بوضع الصور في واجهات محلاتهم ليُظْهروا للشعب العربي

التحسينات التي أجراها الإيطاليون وأدخلوها في طرابلس الغرب والحبشة، والكتب التي تشير إلى ذلك. ككتاب الحبشة المسلمة، وكتاب هذا مالا تريد أن تراه عصبة الأمم في ليبيا، وكتاب إيطاليا في الحرب العالمية، وكتاب الشبيبة الفاشستية، وصوراً تمثل الدوتشي بمظاهر الإنسانية والحنان.

أما البعثات التي تذهب كل عام لإيطاليا فلا تقل خطراً عن هذه المؤسسات. ومما يؤلم أن أكثر الأفراد الذين يعودون يصبحون دعاةً خطرين.

أما توزيع القنصلية الإيطالية ثلاثين كيساً من الطحين على الفقراء حركة باب النيرب، فهذا أتركه لفطنتكم. وأخيراً فقد وصلت أصابعها إلى المدارس بواسطة الحزب السوري القومي. وقد أصبح في مدرسة التجهيز مقدار أربعين تلميذاً من هذا الحزب. وعددهم كل يوم بازدياد، حتى إن بعض العناصر النسائية حتى المسلمة منها دخلت في هذا الحزب.

٣ - الدعاية التركية:

ولا تقل الدعاية التركية خطراً عن الدعاية الإيطالية، مع قلة مؤسسات الأتراك في حلب. ولكن الخطر هنا من الأتراك هو ضعف النفوس في الطبقة العامة حتى المثقفة من أبنائنا. وقد وزّعت منذ شهر مجموعة لأجمل مناظر ولأفخم بنايات وأكبر مؤسسات ومدارس تركيا. وهذه المجموعة تضم أكثر من خمسمائة رسم. وقد انتشرت الكتب التركية بالأحرف اللاتينية بصورة فظيعة في المناطق الأرمنية على الأكثر. ومع أني لا أخاف على الأرمن من هذه الدعاية ولكنني أوجس شراً من زيادة انتشارها.

كل هذا يجري في حلب والكتلة نائمة، كما كانت نائمة في دمشق. وإذا دام الحال على هذا فحلب ستخرج من يدنا شئنا أم أبينا:

ومن رعى غنماً في أرضٍ مسبعةٍ ونام عنها، تولّى رعيها الأسدُ

دمشق ٢٣ كانون الأول ١٩٣٧

فخري البارودي

المكتب العربيُّ القوميُّ للدعاية والنشر[1]
١٩٣٤م

أهدافه ومراميه

المكتب العربي القومي للدعاية والنشر هو مؤسسة قومية ترمي إلى غايات ثلاث:

١- الدعاية الداخلية: وهدفها إيقاظ الوعي القومي وتوضيح الفكرة العربية القومية الصحيحة في أذهان الشعب، وإيصالها إلى مختلف الطبقات والأنحاء، وإذابة جميع العصبيات المجزِّئة من طائفية وقطرية وقبلية في بوتقة القومية الجامعة، وربط أجزاء الوطن العربي بعضها بالبعض الآخر برباط الشعور القومي المتين.

٢- الدعاية الخارجية: وغايتها تعريف حقيقة القضية العربية للشعوب والحكومات الأجنبية، والعمل على خلق جو مشبع بروح التقدير والعطف بين الأجانب نحو النهضة القومية في الوطن العربي.

٣- البحث العلمي: وذلك لوضع الدروس العلمية والأبحاث الدقيقة في شتى نواحي الإنشاء والإصلاح القوميين، لتغذية الدول العربية الناشئة والجماعات العاملة بمواد البناء الصحيح المرتكز على العقلية الحديثة التي يقوم معظمها على أساس النظام والعلم.

---

(١) - ٨٤/ ٥٦٥ مكرر.

منشؤه

نشأت هذه المؤسسة في زمن الكفاح السلبي، يوم كانت الحريات تقمع وتحارب، ويوم كانت المؤسسات القومية محظوراً وجودها. فكان لابد للقائمين عليه من أن يتذرعوا بشتى الأساليب لصيانتها. ومن تلك الأساليب ظهور المؤسسة بمظهر خاص في إدارتها وموازنتها، لأن سلوك غير هذا الطريق في ذلك العهد كان من شأنه أن يشلّ أعمال المؤسسة ويقضي على فكرتها في مهدها.

وماإن دخلت البلاد السورية في طور استقرار نسبي حتى ظهرت هذه المؤسسة بمظهرها الحقيقي كمؤسسة عربية قومية كبرى، تعمل لقضية الوطن العربي وللفكرة القومية بإخلاص وتجرُّد ونزاهة وعلم، دون أن ترمي لبث الدعاية لأي حزب من الأحزاب، وهو ماكانت تطمح إليه منذ اليوم الأول من تأسيسها ولاتزال. فنظمت مكتبها المركزي وإدارتها وأعمالها على الأسس العلمية الصحيحة ومضت تؤدي رسالتها على هدى العقيدة العربية القومية.

إدارة المكتب

يشرف على إدارة المكتب مجلس عام مؤلف من ثلاثين عضواً يمثلون عنصر الشباب المتحرر العامل، كما يمثلون أكثر الأقطار العربية. وهذه أسماء عدد منهم:

فخري البارودي- نائب دمشق. بشير السعداوي- رئيس الجمعية الطرابلسية البرقاوية في سورية. سليمان المعصراني- نائب حمص. إدمون رباط- دكتور في الحقوق ونائب حلب. فريد زين الدين- دكتور في الحقوق. شوكت العباس- نائب محافظة اللاذقية. محمود عبد الرزاق- نائب محافظة اللاذقية. كاظم الصلح- صاحب جريدة النداء. شوقي الشريف الدندشي- محام. بولص ذيبة- محام. أكرم زعيتر- أستاذ. فؤاد خليل مفرج- أحد أساتذة العلوم السياسية في جامعة بيروت الأمريكية. واصف كمال - أستاذ. عارف غميان- تاجر. منير الريس- من المجاهدين. عز الدين الشوا- قائم مقام جنين سابقاً. أحمد السمان- دكتور في الحقوق. بشير رمضان- تاجر. أحمد عبد الجواد- مدير إدارة المكتب.

ويضاف إلى هؤلاء مندوبون عن كل الأقطار العربية .

وهذا المجلس العام هو صاحب السلطة العليا في المكتب على أنه يفوّض سلطته أثناء عدم انعقاده إلى (هيئة إدارية) مؤلفة من سبعة أشخاص ، يُنتخب من بينهم رئيس وأمين سر عام لمدة خمس سنوات ، ويجدّد انتخاب الباقين كل سنة .

ويجتمعُ المجلس العام في دورة عادية مرة كل عام على الأقل ، يسمع في خلالها تقرير الهيئة الإدارية عن أعمال المكتب خلال السنة ومشروع السنة المقبلة ، كما يدقق موازنة السنة المنصرمة ومشروع موازنة السنة التي تليها ، ثم يقرر إذاعة هذا التقرير على الفروع والمشتركين .

أما الهيئة الإدارية فتجتمع مرة كل أسبوعين لتدرس وتقرر أعمال المكتب الإدارية والمالية وسياسته العامة .

فروعه

وتتشكل للمكتب فروع في جميع أنحاء الوطن العربي وفي المهاجر وفقاً لنظام خاص ، وبموجب تفويض خطي يبلغ إلى الراغبين في القيام بهذا العمل . وقد شرع في الواقع بتأسيس مثل هذه الفروع في بعض أنحاء الوطن وفي المهاجر . وهي تعمل كما يعمل المركز على تأدية رسالتها للحركة القومية .

تنظيمه

المكتب المركزي في دمشق منظم على أحدث الطرق والأساليب .

فمكتبته تضم ألوف المجلدات من الكتب باللغات المختلفة التي تبحث في شؤون الوطن العربي العامة ، مفهرسة بدقة حسب مواضيع المؤلفات وأسماء المؤلفين ، كما تحتوي على ملفات خاصة في جميع المواضيع العامة التي تهم الوطن .

وغرفة الجرائد والمجلات تتلقى أكثر مايصدر في الوطن العربي وفي المهاجر من نشريات فتحفظها وتجلد المهم منها وتفهرسه ليكون مرجعاً للبحث .

وفي المكتب غرفة للطباعة مجهزة بالآلات الكاتبة وآلات الاستنساخ الحديثة مع الموظفين الضروريين لتشغيلها.

ولكل ناحية من نواحي الحياة العامة، ولكل قطر من الأقطار العربية غرفة ولجنة تهتم بشؤون الدعاية له وموظفون يقومون على إدارة العمل، كما أنه بدأ يكون للمكتب مراسلون في جميع الأنحاء يوافونه بأخبار كل مايهم العرب ويتلقَّوْن نشراته ويذيعونها.

إنتاجه

وقد دخل المكتب في دور الإنتاج بعد دور التأسيس، وأصبحت النشريات من كتب ورسائل ونشرات وأخبار تصدر عنه باستمرار في مختلف اللغات. كما أن صلاته بالشخصيات والهيئات العربية والأجنبية ذات الأثر قد أخذت تنمو وتتوطد لما فيه خير العرب.

وهو يقوم بوضع المشاريع المختلفة التي تؤمن تنفيذ غاياته، كما يعمل على مساعدة كل فئة تسعى لتحقيق الغايات نفسها.

وقد اتخذ مجلس النواب السوري قراراً بإعفاء منشورات المكتب من الرسوم البريدية، فكان هذا القرار تقديراً من مجلس الأمة لأعماله ومساعداً كبيراً على إيصال نشراته إلى مختلف أنحاء الوطن والأفراد.

ماليته

يتألف دخل المكتب العربي من:

١- الاشتراكات السنوية التي يدفعها المشتركون الذين يؤمنون بالنهضة العربية القومية. وقيمة الاشتراك تحدد بقرار من هيئة الإدارة.

٢- المنح والتبرعات.

٣- ريع المنشورات التي يصدرها المكتب للبيع، وهي غير نشراته المجانية العادية.

وينفق من هذا الدخل على أجرة البناية الكبيرة التي يشغلها، وجمع الوثائق والمعلومات، ومرتبات الموظفين، ونفقات طباعة ونشر، ومساعدات للهيئات القومية التي تحقق بعض الأهداف التي يعمل لها.

ويُصدر المكتبُ في نهاية كل عام في عهده الجديد تقريراً عن أعماله، وموازنة مفصَّلة عن دخله وخرجه.

المكتب العربي للدعاية والنشر[1]
في حلب

حضرة الأخ الكريم السيد خالد حمدي، حفظه الله!

تحية العروبة!

وبعد فقد تلقيت رسالتك الأخيرة. ولاأكتمك أنني - مع ملاحظة الشيء الكثير فيها من حب السرعة والقلق- قد لمستُ فيها الإخلاص والاندفاع المطلوبين للعمل الذي نحن بصدده. ويسوءني أن يكون حبُّك للبدء في العمل قد جعلك تسيء فهم كثير مما كتب لك وتهمل اعتبار أمر واحد، وهو ضرورة النظام قبل البدء في العمل حتى تأتي الأعمال منظمة منذ البداية فلا نحتاج معها إلى كثير من الجهد لإعادة تنظيمها.

والمكتب منذ أربعة شهور يعمل على إعادة تنظيم نفسه حسب مقتضيات الوضع الجديد لأنك تعلم أن الوضع قبل المعاهدة كان يقضي بأن يظهر العمل على غير حقيقته حتى لايسمح للسلطة بالبطش به والقضاء عليه. وإن الأوضاع التي نشأت عن إعادة التنظيم هي مايلي:

١ - اسم المكتب: المكتب العربي القومي للدعاية والنشر.

---

(١) - ٨٠/٩٨.

٢- إدارة المكتب: يقوم عليها مجلس أعلى مؤلف من ثلاثين عضواً يمثلون جميع الأقطار العربية، يجتمعون مرة في السنة في دورة عادية لسماع تقريرٍ عن أعمال المكتب خلال السنة، وعن مشاريعه للسنة المقبلة، وتقريراً عن موازنته الداخل منها والخارج، مع المشاريع المالية للمستقبل. ثم ينشر التقرير والموازنة على الفروع والمشتركين بقرار من المجلس العام.

٣- ينتخب المجلس العام هيئة إدارية مؤلفة من سبعة أشخاص: رئيس، نائب رئيس، أمين سر عام، خازن، وثلاثة أعضاء آخرين، ويُنتخب الرئيس وأمين السر العام لمدة خمس سنوات. أما الباقون فيعاد انتخابهم كل سنة.

٤- تكون للمكتب فروع تحدد علاقتها بالمركز بموجب نظام خاص، كما يكون له معتمدون في الأمكنة التي ليست فيها فروع.

وقد كان مجلس الإدارة منهمكاً بدرس النظام الأخير، ولهذا تأخرنا عليك بالجواب. وقد حاولَتْ جريدة «الحزب السوري القومي»[1] الذي يحمل على المكتب لأن المكتب يدين بالفكرة العربية القومية بينما هذا الحزب يحارب الوحدة العربية، فيختلق الأباطيل والأضاليل عنها وعن المؤسسات التي تعمل لها، كما فعل مع المكتب العربي، أن تستغل فترة انعقاد مجلس الإدارة فخلق الإشاعات التي لم نردَّ عليها، لأن الأعمال هي أكبر رد على المفترين. وإن حملات كاذبة ملفقّة كهذه تزيد المكتب قوة بدلاً من أن تضعفه أو تمسه بسوء.

ونحن مرسلون لك بالبريد نُسخاً عن جريدة «الاستقلال العربي» التي نشرت عدة مقالات لمندوبها بوصف المكتب مع أقوال رجال البلاد فيه، ومنهم الدكتور

(١) - أسسه أنطون سعادة في بيروت سنة ١٩٣٢م، وينادي بشعار «الأمّة السورية» ومبدأ فصل الدين عن الحكم. وقد اصطدم الحزب مع حزب الكتائب في ١١ حزيران سنة ١٩٤٩، فالتجأ مؤسسه إلى حسني الزعيم في سورية الذي مالبث أن سلّمه إلى الحكومة اللبنانية فأعدم في ٨ تموز سنة ١٩٤٩، ومايزال الحزب قائماً في لبنان بعد أن عدَّل سياسته والتزم بمقاومة اسرائيل وعملائها.

أما الجريدة المذكورة فهي جريدة النهضة، وقد رفع عليها البارودي دعوى قضائية، كما هو آت.

كيالي، وإحسان بك الجابري، نرسلها لك لتستعملها في عملك كشاهد عدل على المشروع الذي تشتغل له. وإني لم أكن لأسوق هذه الكلمة إليك لولا إشارتك إلى هذه القضية واستفسارك عنها.

وإليك بعض أعضاء المجلس العام للمكتب:

فخري البارودي، بشير السعداوي، سليمان المعصراني، ناظم القدسي، إدمون رباط، فريد زين الدين، كاظم الصلح، شوقي الشريف الدندشي، شوكت العباس، منير الريس، بشير رمضان، بولص ذيبه، محمود عبدالرزاق، فؤاد مفرّج، عارف غميان، أحمد السمان، أكرم زعيتر، واصف كمال، عز الدين الشوا.

فأنت ترى أن هذا المجلس يضم نخبة من شباب البلاد القوميين الذين يمكنهم أن يعملوا بإخلاص وتجرد لإدراك الهدف العظيم الذي يعمل له العرب، والذي قد وقف هذا المكتب جهود القائمين عليه على خدمته وتمهيد السبل وإعداد النفوس والعقول والأرواح لتحققه.

وإني مرسل لك طيه نسخة من نظام ارتباط فروع المكتب العربي القومي بالمكتب المركزي: أرجو أن تطالعه لتدرك معنى ماقاله لك السيد عبد الجواد في رسالته.

أما الآن، فبما أن تشكيل فرع المكتب حسب هذه الأصول ليس متيسراً فإننا نطلب إليك أن تكون «معتمداً» للمكتب في حلب. وأعمال المعتمد تلخص فيما يلي:

أ) يؤمن المعتمد أعمال الفرع بشكل مبدئي فيجمع الاشتراكات والتبرعات لقاء وصولات صادرة من المركز الرئيسي ومختومة بخاتمه، ويبقي له منها ٢٥٪ لتأمين أعمال المعتمدية.

الاشتراك السنوي ليرة سورية، على أن الذي يود الحصول على جميع نشرات المكتب عليه أن يدفع ليرتين سوريتين على الأقل. أما المشترك العادي فيصله جزء من النشرات حسب الإمكان. أما المنشورات التي يذيعها المكتب للبيع للمشترك أن يطلبها من المكتب بحسم ٣٥٪ من ثمنها الأصلي.

ب) المعلومات والأخبار القومية عن منطقته، فيصف الوضع العام ونواحي القوة والضعف في الفكرة العربية عنده، ويصف العلاج الذي يرى بإمكان المكتب القيام به من حيث الدعاية وماشاكلها.

ويتصل المعتمد بالمركز، كما يتصل به المركز في كل أمر يهم المكتب أو يمسّ القضية القومية. كما يحق للمعتمد أن يطّلع على حسابات المكتب وأعماله.

غير أنه لايحق للمعتمد أن يذيع أي شيء باسم المكتب، أو باسمه الخاص، يشتمّ منه علاقة بالمكتب دون مصادقة المكتب المركزي عليه.

وسيصلك بالبريد المضمون دفتر إيصالات فيه مئة وصل، بعد أن تقوم بالأمور التالية:

١) تحضير لائحة بأسماء وعناوين الأشخاص الذين ترى فيهم قابلية للاشتراك حتى نرسل لهم رسالة عامة نحثهم فيها على ذلك، ونخبرهم بأننا اعتمدناك لهذا الأمر.

٢) لائحة بأسماء وعناوين عدد صغير من الشباب العرب المخلصين الذين تستطيع أن تتعاون معهم، وتريد منا أن نرسل لهم رسالة خاصة ليعاونوك.

٣) وضع تقرير مفصّل عن الوضعية السياسية العامة في حلب، والأحزاب والشخصيات ومبادئها وميولها وعلاقاتها ومقدار انتشارها ونفودها وأعمالها، وماإلى ذلك من الشؤون.

ثم نريد أن نطلب إليكم عدداً من الأمور التي تعدّها إدارة المكتب أساسية في العمل، وهي:

١) إيحاء الثقة بالعمل الى الناس، الخاصة والعامة، وذلك بانتظام المعاملة وقانونيتها والحصول على موافقة وحسن التفات رجالات حلب.

٢) عدم تدخُّل المكتب في السياسات المحلية في حلب إطلاقاً، وعدم انحيازه لفريق دون آخر. بل الاقتصار على الدعاية القومية للبلاد عموماً، وللفكرة القومية العربية فقط.

هذه هي أهم التعليمات التي أردنا أن نبديها لكم الآن. ولكن مايجب أن تتأكدوا منه قبل الشروع في العمل هو موافقة الأشخاص الذين تهمكم موافقتهم في حلب. وأن لايُبدأ بالعمل قبل الحصول على رأي عام مؤيد له، وإعلامنا عن ذلك بأقرب مايمكن، وعمّا تريدون منا عمله من هذا القبيل. بعد أن تشرحوا أنتم لمن يلزم عن غايات المكتب وأهدافه وأعماله ونظامه، وماإلى ذلك من الشؤون.

هذا وأرجو من الله أن يأخذ بيدكم لخدمة وطنكم عن هذا الطريق، وأطلب إليه أن يمدكم بقوة منه للثبات إلى النهاية في حقل الجهاد القومي.

وتفضَّل ياحضرة الأخ بقبول فائق التحية والاحترام.

دمشق في ٢٧/ ١١/ ١٩٣٧

فخري البارودي

حول فرع المكتب في حلب

حضرة الأخ الكريم السيد خالد حمدي، حفظه الله[1]!

تحية العروبة!

وبعد، فقد تلقيت رسالتك الأولى والثانية، ولا أكتمك أنني أصبحت معجباً جد العجب بهذه الروح القومية الوثابة التي ألمسها بين سطور الرسائل التي أتلقاها منك.

وقد قرأت التقرير بإمعان. وإني أهنئك عليه من صميم فؤادي، ولا أرى ذلك غريباً من شاب يشعر بالمسؤولية القومية ويعمل لمستقبل الوطن. وجواباً عن الأسئلة التي وجهتموها في الرسالتين الأولى والثانية، فإني أجيبكم عليها بمايلي:

١ - تجدون طيه رسالة رسمية من المكتب بتوقيع رئيسه وأمين سره العام يعتمدانكم بها لتعملوا في حلب لتحقيق غاياته وأهدافه، وهي الهوية الرسمية التي طلبتموها.

٢ - بخصوص النشرات التي أُرسلت، فقد كان القصد منها تعريف المكتب إلى الحلبين قبل أن يُطلب إليهم العمل له. وليست هذه النشرة بالإذاعة التي ذكرتها لكم في رسالتي السابقة، والتي سأطلب فيها إلى الذين أرسلتم لنا عناوينهم أن يعتمدوكم في منطقة حلب، ويعملوا وإياكم لما فيه المصلحة العربية القومية العامة.

---

(١) - ملف ٨٠/٧٢.

وفي الوقت الذي أُقدّر فيه الدوافع التي تقودكم إلى الإلحاح فيما تطلبون، أريد أن أؤكد لكم مرة ثانية أن الإسراع والجزم في الأمور التي تريدونها يأتيان بعد التأسيس الذي يجب أن يسير بخطا ثابتة ولو كان فيها بعض البطء. وهذا ماكان يقودنا دائماً إلى التريُّث الذي تريدونه أن ينقلب إلى إسراع، وسينقلب بعد بدء العمل إلى الأُسس الثابتة.

٣ - تجدون طيّه نظام ارتباط فروع المكتب بالمركز الرئيسي الذي ذكرناه لكم سابقاً، ولم يصلكم على مايظهر. فأرجو أن تطالعوه بدقة، وأن تعملوا على تطبيقه بأن تنتخبوا لكم لجنة إدارية من الشباب المثقفين المعروفين بقوميتهم وعدم تلوثهم بالسياسة الحزبية المحلية والمتحلّين بالسمعة الطيبة في أوساط المدينة، ومثل هذا الأمر ضروري لكسب احترام الجمهور وثقته.

فإذا تمّ ذلك فأرجو أن تعلمونا حالاً به. ولا أرى نفسي بحاجة لأستحثكم في ذلك لأنَّا اعتدنا حتى الآن أن تستحثونا أنتم، حيَّاكم الله.

٤ - نرسل لكم بالبريد أوراقاً وظروفاً رسمية باسم المكتب لتستعملوها في عملكم. ويمكنكم أن تصنعوا خاتماً من الكاوجوك على نمط الخاتم الذي تجدون بصمته طيَّ هذه الرسالة بعد أن تضيفوا إليه بدل (دمشق) كلمة (فرع حلب). كما نرسل لكم أيضاً ٥٠٠ نسخة من النشرات التي كنا أرسلناها للذين رشحتّموهم لنا، وذلك حسب طلبكم.

٥ - قضية الاشتراكات كنا قد أبنَّا لكم أنها يجب أن تكون سنوية، كما تذكرون في القسيمة التي أرسلتم لنا أنموذجاً عنها. وتذكرون في رسالتكم الثانية أن أكثر المشتركين سيدفعون بدل الاشتراك شهرياً. وإنَّا نرى في الاشتراك الشهري الذي جربناه مدة من الزمن مالا يتفق مع حسن انتظام العمل، لأنه كثير الارتباك يقود إلى ملل من يجبيه ومن يدفعه، كما أن جبايته تكلف من الجهود مالا يتفق مع قيمته.

فأرجو منكم إذن أن تعدُّوا العدة للاشتراك السنوي. وفيه مايسهل عملكم ويجعله مضموناً ومستمراً. أما الوصولات فتكون من المركز. وسبب تأخر وصول هذه القسائم إليكم هو أننا اليوم في آخر سنتنا المالية، وعلينا أن نصفّي حسابات هذه السنة، بما فيها قسائمها لنبدأ في مطلع السنة الجديدة بقسائم مسجلة متسلسلة جديدة خاصة لعام ١٩٣٨. وستصلكم هذه القسائم في مطلع كانون الثاني.

وإني إن شاء الله سأزوركم بعد أسبوعين لأجتمع بكم وبالإخوان الذين سيعاونونكم وستكونون في هذه المدة قد أنجزتم تنظيمكم المنصوص عنه في نظام الفروع المرفق. وحينئذٍ يمكننا أن نتحدث شفهياً بجميع ما أشرتم إليه والبت في جميع المسائل التي تحتاج إلى البتّ. وتبدؤون بعد ذلك بتنفيذ برنامجكم الذي أرسلتموه.

٦ - البرنامج الذي وصلنا جيد في روحه، ولكنه يحتاج إلى شيء من المباحثة وإعادة الصياغة. فهل لي أن أطلب إليكم عدم إعلانه حتى أكون قد زرتكم في حلب فنضعه معاً هناك وتطبعونه في حلب وتوزعونه وتشرعون في تطبيقه.

٧ - سنرسل اليوم رسالة إلى معالي محافظ حلب نرجوه فيها أن يشمل الفرع بنظره وأن يساعدنا هناك ما استطاع.

٨ - أرجو أن تعدّ العدّة وتُحضِّرَ مشروعاً لافتتاح الفرع حتى نقرُّه عندما نجتمع في مطلع كانون الثاني.

٩ - إن الإعفاء البريدي الذي يتمتع به المكتب سيشمل إذاعات فرع حلب التي يصدقها المركز ومراسلاته العامة بعد زيارتي لكم، وإنهاء دور التأسيس والدخول في دور الإنتاج. وسيعدُّ لكم المكتب عدداً من الملفات والكتب المحتوية على أهم الوثائق التي يحتاج إليها فرع حلب. وإن من الأمور التي سنتباحث بها جعل فرع المكتب شبه نادٍ لدرس الشؤون العربية يقرأ فيه الشباب القوميون مايختصُّ بالقضية العربية وعلاقاتها الدولية ويتناقشون فيها، كما يدعون بعض الشخصيات

القومية العاملة للتحدث إليهم في شتى شؤون العرب ومعاضلهم، فيزيد بذلك الشباب فهماً لقضيتهم القومية ووضوحاً في عقيدتهم العربية.

وفي الواقع إن من أقدس الرسالات التي يجب أن يؤديها المكتب العربي القومي وفروعه هي رسالة القومية الواضحة في حقيقتها ومراميها بين مختلف العرب على تنوُّع مذاهبهم وأديانهم، فيجتمع الجميع على قدم المساواة والاحترام والحب التامين في ظل الفكرة العربية القومية الخالدة.

وإني واثق من أنكم ستعملون لتأدية هذه الرسالة بأمانة وتجرُّد وجدٍّ على الأخص. ومدينة حلب كما يترامى إلينا هي في أمسّ الحاجة لمن يعملون فيها لتقريب القلوب وإعلاء كلمة القومية وجمع العرب فيها من مختلف الطوائف في أخوَّة الوطن. وكم أكون مسروراً إذا تمكنتم من الاشتراك في عملكم مع عدد من إخوانكم العرب من مختلف الطوائف. وإني سأطلب إلى الأخ نعيم الأنطاكي أن يعاونكم في ذلك. ويمكنكم أن تعتمدوا عليه في تعضيد المشروع ومساعدته هناك. وإني أكرر لكم القول، ولاأظن أنني بحاجة إلى ذلك، بأن الفرع يجب أن يعمل في الحقل القومي الأعلى مترفِّعاً عن السياسات المحلية الضيّقة، لأن هدف القوميين العرب أبعد وأسمى من الأهداف الشخصية القديمة الضيقة التي طبعت بها مع الأسف سياسة هذه البلاد منذ أمد. فكونوا قوميين عرباً قبل كل شيء واجعلوا محيطكم يشعر أن العروبة تطبع معتنقها بطابع يُميِّزه عن بقية الناس ويرتفع به فوق مستوى الفرد العادي ليمسحه بمسحة مقُدسة من الرسالة.

١٠ – في حلب شيخ من الشباب عرفناه في دمشق وطنياً عاملاً بإخلاص في الحقل القومي، اسمه الشيخ معروف الدواليبي[1]. فأرجو أن تسألوا عنه وتتصلوا به ليكون من العاملين معكم، ولا أظنه يتردد في ذلك.

(١) – ولد في حلب سنة ١٩٠٧م، وحصل سنة ١٩٤١ على دكتوراه دولة في الحقوق من باريس، كان من أقطاب الكتلة الوطنية في حلب. دخل المجلس النيابي مرات، وتولى رئاسة الوزراء سنة ١٩٥١ و ١٩٦١، عارض الوحدة مع مصر، وأمضى حياته بعد ذلك في السعودية مستشاراً سياسياً لحكومتها.

فإذا مارأيتم ذلك ممكناً فأرجو إعلامنا لنكتب له رأساً. وأرجو أن لاتخاف بعد اليوم من تأخرنا في الإجابة.

ثم أرجو أن تدرسوا قضية مساعدة أحمد بك الرفاعي لكم وغيره من الأشخاص الطيبين في حلب. كما أرجو منك أن تتصل أثناء عطلة عيد الميلاد بالسيدين فاتح المدرس ورأفت قطر غاسي، وهما من تلاميذي في الجامعة. ويمكنك أن تعتمد عليهما في مساعدتكَ.

١١- لابأس من استعمال قسائم طلب الاشتراك التي طبعتموها. وإني أرجو منكم في المستقبل أن تعرضوا علينا مشاريعكم قبل إنجازها. وإني معيد لكم القسيمة طيه.

هذا ماأردت أن ألاحظ به على رسائلكم الآن، فأرجو أن تهتموا بذلك وتكونوا على استعداد تام من حيث إنجاز الترتيبات الأولية عندما أزوركم قريباً إن شاء الله.

وتقبّل في الختام تحية العروبة.

ملاحظة: أرجو أن يبقى خبر قدومي لعندكم خاصاً بكم وببعض الإخوان الذين تتعاون وإياهم ريثما أحضر.

دمشق ٢٢/ ١٢/ ١٩٣٧

فخري البارودي

فرع المكتب العربي في إدلب

لحضرة السيدين نعمان نعمة والأستاذ محمد نافع الشامي المحترمين[1]!

تحية العروبة!

وبعد، فاعتماداً على إخلاصكم للفكرة القومية العربية، وجدارتكم في العمل وثقتنا التامة، فقد قدمنا إليكم كتاباً نعتمدكم فيه لتأسيس فرع للمكتب العربي القومي للدعاية والنشر، لتعملوا معنا على توسيع نطاق الدعوة للفكرة القومية، وإيقاظ الوعي القومي، وتنمية الشعور في نفس الشعب، شعور القيام بالواجب الوطني، وليشعر الفرد أنه جزء من بناء هذا الوطن العربي المقدس، وأن اشتراكه في العمل يزيد شعبه قوة ويرفع من شأنه وشأن أمته، وأن عزَّه بعزّ قومه وسعادته بسعادة أمته.

ليس العمل في السياسة وحده هو الذي يربط الشعوب العربية، بعضها مع بعض، ويؤلف قلوبها ويوجهها نحو الاتحاد والثقافة، فإن هناك أموراً كثيرة لو مشى عليها الشعب واتبعها لعادت على وطنه بما لم تعد عليه السياسة من الخير والرفاه. لذلك أرجو أن يتبع فرعكم الأمور الآتية ويعمل لتحقيقها مع الزمن:

١ - أن لايتدخَّل فرعكم في السياسة المحلية، وأن لايدعو إلى حزب من الأحزاب، بل هو وقفٌ على خدمة العرب عامة.

---

(١) - ملف ٨٠/٦٨.

٢ - كتابة تقرير مفصل عن :

أ - موقع المكتب وعدد غرفه .

ب - عن مفروشاته التي تبرع بها الإخوان ، وعما ينقصه .

ج - عن الكتب التي تقدم للفرع ليرسل إليكم المكتب مايراه ضرورياً للمطالعة .

د - عن المصاريف التي يحتاجها المكتب في دور التأسيس والإنشاء .

٣ - أن تقضوا ما استطعتم على الأمية القتالة والجهل المميت ، وذلك بإنشاء مدرسة ليلية لتعليم الأميين وهديهم وإرشادهم .

٤ - إلقاء المحاضرات الثقافية من علمية واجتماعية وصحية لتنوير الأذهان وإيقاظ الوجدان الحسي والتعاوني الذي يربط المرء بأخيه .

٥ - موافاة المكتب المركزي في كل شهر بتقارير عن حالة إدلب وقراها من الناحية الاقتصادية : الزراعية والصناعية والتجارية . ثم من الناحية الاجتماعية والصحية والمشاريع التي ترتؤونها صالحة لإدلب ، ليعمل المركز لتحقيقها مع الزمن .

٦ - إنشاء ناد رياضي لتقوية أجسام الشباب الذين سيكونون جنود الوطن ، وعلى سواعدهم وقوتهم وصبرهم يتوقف نصرهم وفوزهم يوم الجهاد .

٧ - تعهُّد النواحي والقرى التابعة لمنطقتكم وربطها بفرعكم ، وتفقدها من حيث الصحة ، والعمل لإرشاد أهلها من الناحية الاقتصادية ، لينعم الشعب بالرفاه والاطمئنان .

٨ - سيعمل المكتب لإعفاء فرعكم من الرسوم البريدية على النشرات والإذاعات التي ترسلونها إلى الجهات الداخلية والخارجية بعد أن يقرها المركز الرئيسي ويوافق عليها .

٩ - نرسل لكم بالبريد عدداً من الأوراق والمغلفات المطبوعة باسم المكتب لتستعملوها للمراسلات ريثما تطبعون أوراقاً باسم الفرع.

١٠ - إرسال أسماء من ترجون منهم مؤازرتكم بالاشتراك ليرسل إليهم المكتب كتباً يدعوهم لمؤازرتكم وتعضيدكم.

١١ - كنا أبنّا لكم أن الاشتراك السنوي ليرة سورية يحتفظ منها الفرع خمسة وعشرين، ويرسل الباقي للمركز الرئيسي. ولما كان فرع إدلب قد أنشىء حديثاً ولا بدَّ له من مصاريف كثيرة ليتم تأسيسه وإنشاؤه بصورة قوية منظمة. وبالنظر لما رآه المركز من تعضيد للمشروع في الماضي ونشاطكم من أجله فقد خصكم المركز بصورة استثنائية بخمسة وسبعين بالمئة في السنة الأولى.

١٢ - سيرسل إليكم المركز عدداً من الكتب والمغلفات المحتوية على أهم الوثائق التي يحتاج إليها الفرع.

١٣ - من الأمور التي نرجو أن تولوها عنايتكم واهتمامكم جعل الفرع عندكم شبه نادٍ لدرس الشؤون العربية يقرأ فيه الشباب القوميون مايختص بالقضية العربية وعلاقاتها الدولية ويتناقشون فيها، كما يدعون الشخصيات القومية العالمية للتحدث إليهم في شتى شؤون العرب ومعاضلهم، فيزيد بذلك الشباب فهماً لقضيتهم القومية ووضوحاً في عقيدتهم العربية.

وفي الواقع إن من أقدس الرسالات التي يجب أن يؤديها المكتب العربي القومي وفروعه هي رسالته القومية الواضحة في حقيقتها ومراميها بين مختلف العرب على تنوُّع مذاهبهم وأديانهم، فيجتمع الجميع على قدم المساواة والاحترام والحب التامَّين في ظل الفكرة العربية القومية الخالدة.

وأنني واثق بأنكم ستعملون لتأدية هذه الرسالة بأمانة وتجرُّد، وأن تعملوا بكل ما وسعتم لتقريب القلوب وإعلاء كلمة القومية، وجمع العرب من مختلف

الطوائف في أخوَّة الوطن. وإني سأطلب إلى عطوفة المحافظ بحلب، وسعادة القائمقام بإدلب أن يساعداكم في هذا المشروع ليكون نجاحكم فيه موثوقاً.

وإني أكرر لكم القول بأن الفرع يجب أن يعمل في الحقل القومي الأعلى مترفعاً عن السياسات المحلية الضيقة و لأن هدف القوميين العرب أبعد وأسمى من الأهداف الشخصية القديمة الضيقة التي طبعت بها مع الأسف سياسة هذه البلاد منذ أمد، فكونوا كعهدنا بكم قوميين قبل كل شيء، واجعلوا محيطكم يشعر أن العروبة تطبع معتنقيها بطابع يميزه عن بقية الناس ويرتفع به فوق مستوى الفرد العادي ليمسحه بمسحة مقدسة من الرسالة. وتفضلوا بقبول التحيات الخالصة أعزائي.

دمشق ٢٨/ ١٢/ ١٩٣٧

فخري البارودي

الدعوى على جريدة النهضة البيروتية
لسان حال الحزب السوري القومي

لجانب معالي رئاسة محكمة بداية بيروت الموقرة! غرفتها الجزائية.

سعادة الرئيس المحترم!

المدَّعي: فخري بك البارودي. وكلاؤه: دندشي، صايغ، ومعلوف، وشوقي.

المدَّعى عليه: السيد أحمد دمشقية، بصفته صاحب الامتياز المسؤول عن جريدة «النهضة». إقامته: شارع المطران - بناية الصغير.

الموضوع: إن المدَّعى عليه نشر مقالاً في الصفحة الأولى من جريدته «النهضة» تحت عنوان: (مقال مفتوح للسيد فخري البارودي)، بإمضاء دمشقي صريح في العدد رقم ٥٠، نسب فيه إلى ألموكل تقاضي مبالغ مالية من شركة الكهرباء الأجنبية في دمشق بصفته رئيساً أولاً للجنة المقاطعة، حيث قال:

«إن فخري البارودي ماتولى رئاسة هذه اللجنة إلا تحت تأثير تهديد الشباب. تولاها على أن يخدمها بكل إخلاص وأمانة «كما نحن نظن»، غير أن الأيام أثبتت عكس ذلك تماماً»...

إلى أن يقول:

«ونعود فنسأل البارودي: هل قيمة القيمة التي يتقاضاها في غرة كل شهر من الشركة سبب يمنعه عن إيقاف الشركة على حدها؟ نريد منك جواباً صريحاً على هذا، وعلى المبلغ الذي تقبضه من الشركة بصفتك مراقباً على أعمال الشركة».

فبعث له الموكل رداً ينشره في جريدته وفقاً للمادة ١٩ من القرار ٢٤٦٤. فما كان منه، بدلاً من إنفاذ أحكام القانون، إلا أن نشر مقالاً آخر في الصفحة الثانية من جريدته عدد ٥٥، تحت عنوان ضخم: (محمد فخري البارودي يجرد حسامه. نائب دمشق يهدد «النهضة» رسمياً)، يقول فيه:

«والكتاب على مابه من إسهاب لايتضمن شيئاً يفيد قراءنا، ويفيد السيد فخري البارودي. فهو ينفي ما كتبه «دمشقي صريح» عن تقاضي البارودي راتباً شهرياً من شركة الكهرباء، وهذا النفي لم يأتِ مصحوباً بوثيقة مشروعة ولا ببرهان قاطع».

بناء عليه ونظراً إلى ماتقدم، ونظراً إلى أن المدَّعى عليه قد ارتكب جريمة القدح والذم بما وجهه إلى الموكل من إسناده تقاضي مبالغ من شركة الكهرباء، وهو فعل من شأنه أن يمس بشرف الموكل وينقص من حرمته، وهو من الرجال المخلصين، وأحد نواب الأمة السورية، وله مقامه الرفيع لدى الشعب والحكومة والأجانب.

ونظراً إلى أن المدّعى عليه لم يكتفِ بمقاله الأول، وإنما عززه بعدم نشره الرد، وفي عمله هذا احتقار للقانون الواجب الاتباع.

من أجل ذلك كله:

نطلب إجراء التعقيبات القانونية بحقه، والحكم عليه بألفي ليرة لبنانية سورية، بدل عطل وضرر معنوي، وتضمينه كل الرسوم والمصارفات، وأجرة الوكالة.

دمشق ١٤/ ١/ ١٩٣٨

فخري البارودي

سيدي الأخ الكريم فخري بك، أناله الله مبتغاه!

سلام واحترام وبعد،

فإن كتابك الكريم المؤرخ في ١٤ / ١ / ١٩٣٨ قد وصلني متأخراً جداً. ولكن على كل حال قبل فوات الوقت على إقامة الدعوى ضد «النهضة». لأنه لايزال معنا متسع من الوقت لغاية ١٧ مارس (آذار) ١٩٣٨. وقد استشرت الإخوان الوكلاء، فمنهم من شاركني في الرأي ووجوب إقامة الدعوى، ومنهم نجيب بك الصايغ أصرَّ على عدم الموافقة بزعم أننا نعطيهم أهمية لايستحقونها.

أما أنا فأقمت الدعوى، وهي كما ترون صورتها. وهي متينة ورابحة من كل الوجوه. أعني به: أولاً بيان ماهية «النهضة» ومن ورائها القومي السوري، وتشريحهما معاً تشريحاً يشرشحهما.

ثانياً: إثبات مركزنا.

ثالثاً: بيان أسباب طلبنا للألفي ليرة، وهو ليس لأجل المال وإنما لمعرفتنا أنهم لايملكون هذا المبلغ فيسجنونه به. إلى آخر ماهنالك.

ولكني اصطدمت بقرار العفو عن الجرائم الصحفية الواقعة قبل ٢٧ كانون الثاني ١٩٣٨. وبما أن هذا لايمنع من المطالبة بالحقوق الشخصية إلا أن حقنا الشخصي هو حق معنوي، وليس بحق مادي. وربما لانستفيد إلا من (بهدلتهم) على الخاطر. فإذاً: أراني مضطراً ترك الأمر لرأيك الصائب ياروح. وفي الختام تراني مستعداً للقيام بكل إشارة تومىء بها. واسلم لأخيك.

بيروت ١٦ شباط ١٩٣٨

رامز شوقي(١)

---

(١) - ٨٤/٦٦٩.

الخَطرُ المحدِقُ بالكتلة والوطن

سيدي الأخ سعد الله بك!

أنتهز فرصة اجتماع المكتب الدائم للكتلة هذا المساء وأتقدم بهذا الكتاب الأخير من نوعه ليقرأ على الإخوان، عسى أن يكون فيه فائدة للبلاد.

بعد أن انتهت دورة المجلس النيابي التي كنا نتذرع بها وكدنا نفرغ من الأعمال النيابية الرسمية المضنية، أصبح من اللازم أن نعمل بجد ونشاط لمكافحة الروح الرجعية التي تفشت في البلاد منذ عقد المعاهدة. وهي كل يوم بازدياد. ولا أبالغ إذا قلت: إننا إذا بقينا على مانحن عليه من الرخاوة، ودام هذا التفككُ في صفوف الكتلة خصوصاً الصفوف الأولى منها كان مصير البلاد إلى الخراب. ولذا لابد لي من مصارحتكم بكل مافي الصراحة من معنى إذ لم يعد للصبر مكان.

لاتظنوا أن هذا السكون دائم، ولاتظنوا أن الهبَّة التي هبَّت بعد رجوع الأخ جميل بك[1] دائمة أيضاً. فطالما الدعايات السيئة التي تغذيها الأيدي الأجنبية سائرة بسرعة، وطالما أن دعاية الكتلة بطيئة، أو قُلْ مفقودة تماماً، بالرغم من الحركة التي يقوم بها أنصارنا هذا اليوم، وطالما أنّ النظام معدومٌ بيننا، والشباب مفكَّك العرى، والدسائس تسري في الأمة سرَيَان الكهرباء، والحكومة متراخية، فليس لنا إلا

---

(١) - رجُوعه من باريز مع الوفد السوري الذي عقد معاهدة سنة ١٩٣٦م والذي كان برئاسة هاشم الأتاسي وعضوية فارس الخوري وسعد الله الجابري وجميل مردم وغيرهم...

الاندحار حتماً، شئنا أم أبينا، غداً أو بعد غد. وهاهي البيانات التي تصدر كل يوم من أشخاص معلومين توجه فيها الضربات إلى صدر هذا الدور، وإن كانت هذه البيانات لاتستند إلى حقيقة، ولكن الدعايات الفاسدة تجعلها حقيقية من تكرارها، فتؤثر على الشعب الجاهل، والمغرضون يندسّون بين الناس ويستفيدون من الفرص ويُروّجون بهذه البيانات، ولاتُدرى العواقب التي تجرُّها فيما بعد. وليس من المعقول أن نترك الميدان لغيرنا يلعب فيه كما يشاء ونحن متغافلون غافلون. وإذا لم تكن لنا خطة صريحةً واتجاه واحد ونظام صارم يحدّد لكل واحد منا عمله ويعرّفه مايجب القيام به في هذا الدور العصيب فقُل على الاستقلال السلام.

وقد قلتُ لك في قصيدتي، التي قدمتُها لك قبل شهر تقريباً، هذه الأبيات:

أسعدَ اللهِ إن تبقوا سكارى — بخمرِ الوهمِ غالهمُ الأعادي
فهبُّوا واحزموا وامضوا جميعاً — بعزم صادقٍ نحو الرشادِ
وولّوا الأمرَ من صدقوا وكانوا — بيوم النقع أربابَ الجلادِ
وإلاّ رحمةُ المولى علينا — وعظّمَ أجرَكُمْ في ذي البلادِ

وبالنتيجة فإني أرجو أن نسرع بكل مالدينا من قوة بتشكيل مكتب دمشق، ونُعيِّن مفتشاً عاماً حازماً للتنقُّل في جميع أنحاء الدولة للاتصال بجميع الفروع وبجميع الطبقات وتقديم التقارير الكافية عن كل ناحية من نواحي الحياة، لأن تقارير مأموري الحكومة هي مغلوطة، وأكثرها غير صحيح. وأرجو الإسراع بتشكيل دائرة الاستخبارات والمطبوعات للاطلاع على مايجري في البلاد وفي الخارج وفي كلّ ناحية، ولتوجيه الصحف وإرشادها إلى الطرق التي يجب السير عليها.

وأرجو أن لاتقولوا إني دائماً أشكو، فإن شكايتي هي دائماً حرص على المصلحة، وإذا كان في قولي مغالاة، وكنتم ترون غير ماأرى، وأن الحال الذي نحن

فيه هو حسن، وأن الكتلة ستبقى سائرة في خطتها الأولى، وليس من لزوم لتغيير الحال، إذ ربما كنتم أوسع مني علماً بما يجري في البلاد، فعندها أرى نفسي مضطراً لمغادرة دمشق إلى قريتي للاشتغال بأعمالي الزراعية الخاصة والانقطاع عن غيرها من الأعمال وترك الميدان لكم تفعلون فيه ماتشاؤون دون أن أتحمل في أية مسؤولية بعد اليوم لأن كثيراً من الأعمال التي تجري ليس لي فيها رأي. وقد جرت حسب مايرتئيه كل فرد من بعض أفراد الكتلة. وإني أنتظر الجواب لغاية مساء السبت القادم.

وختاماً أرجو الله أن يلهمكم الخير، ويوفقكم إلى مافيه مصلحة البلاد، والسلام.

دمشق ١٤/ ١/ ١٩٣٨

فخري البارودي

تقرير مقدم إلى رئيس وأعضاء الكتلة الوطنية

حضرات الإخوان، رئيس وأعضاء الكتلة الوطنية المحترمة!

اسمحوا لي بمصارحتكم بهذا التقرير الذي ضمنته رأيي الصريح في الوضع الحاضر لأن الحالة أصبحت حرجة، والبلبلة فاشية، والبلاد تعصف بها الأهواء، ويتسرَّب إليها الانشقاق. ونحن لاهون وغيرنا جاد في تنظيم عمله. كل منا يرى ويسمع ويشكو ويعمل على انفراد، في حين كان يجب علينا أن نعمل مجتمعين متكاتفين كما تدعو الحاجة الماسة. لقد أصبحنا مضغة في الأفواه وسهام النقد تُسَدَّدُ إلينا. نُلام بحق وبغير حق، ولكنَّ أعمالنا لاتشرفنا.

والآن وقد قرب موعد الدورة البرلمانية أرى أننا إذا دخلنا البرلمان، ونحن على مانحن عليه من التفكُّك والتفسُّخ إزاء الروح الخبيئة المتغلغلة في صفوف الأمة سينكشف أمرنا ويبدو ضعفنا للملأ ونثبت بالفعل أننا غير أكفاء لاستلام مقاليد الحكم وتصريف شؤون الأمة وقيادتها. والويل يومئذٍ لنا وللأمة معاً. إن من بين إخواننا من لايرى رأيي، حتى إنه قد يخطئني بتشاؤمي هذا، ولكنْ هي الحقيقة التي أراها. وأرجو الله أن لايصدِّقها.

ربما تستاؤون من كلامي الجارح. ولكن هذه هي الحقيقة كما يمليها عليَّ وجداني. وكل منا يعرفها ويعرف إلى أين ينتهي سيرنا في هذه الطريق الضالة.

إني أفهم كيف أن الفرد إذا فشل في حياته ويئس يصيبه شبه خبال يدفعه إلى الانتحار. ولكنني لاأفهم كيف أن كتلة تدعي أنها أصلح هيئة في البلاد تسوق نفسها إلى الهلاك بل تئدها وأداً. وفي وسعها الخلاص من المأزق الذي وقعت فيه. وإذا كنا ونحن نخبة الأمة على رأينا لانعتبر بما مرَّ علينا فالأحرى بنا أن نُعلن إفلاسنا السياسي والاجتماعي، وننفك بعضنا عن بعض ليسلك كل منا السبيل الذي يختارها. فنرفع عن عواتقنا تبعة مايأتيه كلٌّ منا من الأمور المتضاربة دون أن يكون للآخرين العلم به. ولعمري هذا هو الجبن والانتحار الأدبي الذي لاتقوم لنا من بعده قائمة، لذلك أقدم اقتراحات أرى أننا إذا درسناها وطبقناها يتسنى لنا استعادة المكانة التي كانت تتمتع بها الكتلة من قبل، والوقوف في وجه الدعايات الخبيثة التي يبثها بنشاط أعداء البلاد وأعداؤنا، بل أعداء أنفسهم.

وقبل تقديم اقتراحاتي، لابد من لفت نظركم إلى التقارير التي قدمتها إلى رئيس الكتلة، وقدمت صور بعضها إلى بعض الإخوان بتاريخ ٢٦/ ٧/ ١٩٣٧ و ٢٣/ ١٢/ ١٩٣٧ و ١١/ ٤/ ١٩٣٨ و ٢/ ١٠/ ١٩٣٧. وفي نظري أننا لو عملنا على ضوء هذه التقارير، ما وصلنا إلى هذه الحالة المؤسفة التي أنذرتكم بها قبل حلولها ببضعة شهور، ولا لزوم لتعداد الخطيئات التي ارتكبناها في الماضي في هذا التقرير، فكلُّنا عارف بها، ولا أريد أن أفتح باباً للحساب، فالأخطاء مشتركة والمحاسبة لاتفيد شيئاً بل تزيدنا بلبلة على بلبلة. وليس هذا في مصلحتنا الآن. وكل مايجب عمله هو أن نعتبر بما مضى، ونتناسى الهفوات ونعمل يداً واحدة لإنقاذ الوطن.

إنَّ الله سيسألنا، والشعب سيحاسبنا على كل خطيئة نأتيها وكلُّ ضرر يصيب هذا الوطن المسكين من تخاذلنا وتقصيرنا، فالرجوع عن الخطأ اليوم خير لنا من التمادي فيه. وأسأله تعالى أن يوفقنا وإياكم.

١ - لقدلازمت الأنانية كل فرد منا، واستولى عليه الغرور والادعاء والاستئثار بالرأي. فيجب أن نبدأ بإنفسنا فنصلحها، نصلح بذلك الكتلة الوطنية

ونجعلها قدوة صالحة لجميع الشعب ومصلحة له جماعاتٍ وأفراداً. إن هذا الإصلاح أساس نجاحنا ونضوج سياستنا.

٢ - إعطاء كل منا العمل الذي يقدر أن يقوم به ضمن دائرة اختصاصه وأهليته، وبهذا يتم التعاون النشيط وتوزّع المسؤوليات ويشتد الدفاع عن كياننا وكرامتنا ونفوذنا.

٣ - تأسيس غرفة للشباب لتنظيمهم تنظيماً صحيحاً تحت إشراف الكتلة الوطنية، ويكون لها أمناء سر، يتولى أحدهم أمور الفتيان بين سن ٨ - ١٢، وآخر لمن هم بين الـ ١٢ - ١٦ سنة، وآخر لمن هم فوق هذه السنّ.

٤ - إن انفراد بعضنا بأعمال لايعرف إخوانه عنها شيئاً قد أورث الباقين خمولاً وأدخل على نفوسهم شكوكاً، فكاد ينفرط عقدنا لأنه لايُنتظر أن يدافع المرء عن أعمال سواه دون أن يدرك كنهها والعوامل التي أدت إليها.

٥ - لقد أقصي المخلصون عن الأعمال الفرعية، والاختصاصيون عن الأعمال الأساسية، فيجب الاستعانة بهم بشتى الطرق والأساليب كلٌ ضمن دوائر اقتداره وبهذه الاستعانة يمكن الاستفادة من جهود الأمة المخزونة وقواها الكامنة. فالتعاون بذلك سرُّ نجاحنا والوسيلة التي تظهر بها كفاءتنا وأهليتنا لتصريف شؤون الأمة. وفي الأمة والحمد الله رجال وإن لم ينتسبوا إلينا يمكن الاستفادة من أعمالهم وبإمكاننا دمجهم فينا من الناحية العملية. وإننا نقوم الآن بتأسيس دولة وإنشاء أمة مضى على نومها زمن طويل. فإذا لم نتخذ الأساليب العملية التي تتخذها الأمم الحية ونعطي كل صاحب اختصاص عمله سواء في الكتلة أو الحكومة أثبتنا أننا غير أهل للحياة.

٦ - إن للكتلة نظاماً موضوعاً، وإن كان فيه بعض النقص. فعلينا اتباعه والتشدد في تنفيذه ليزداد الشعور بوجوده والاحترام له وتأثير الأمة به. ومن يخالف منا نصوص النظام ولاينزل على رأي الأكثرية ينسحب من الكتلة أو يطرد منها.

٧ - لابدَّ من اعتماد الصراحة التي تكاد تكون مفقودة بين الإخوان، تلك الصراحة التي تنبهنا إلى نقائصنا فنصلحها. لأنه لايصح السكوت عن الأخطاء لئلا يؤدي ذلك إلى الإدمان عليها والتساهل فيها. وليس يوصلنا إلى الكمال مثل الإصلاح والرجوع إلى الصواب، ولايتم ذلك إلابعد أن نعرف أنفسنا وما هي عليه، فالانتقاد الصريح وإن أوجع، خير من الثناء المخدر. وقد استشهدُ في تقريري الأول بقول أحد أكابر العلماء في تعليل نجاح الأمة البريطانية.

٨ - لقد ابتعدنا كثيراً عن الشعب وموّهنا عليه، ووعدناه وعوداً كثيرة لم نحققها. فيجب أن نبادر إليه بفوزنا وانخذالنا لأننا منه نستمد القوة ورضاه ويثبّت أقدامنا، ومشاركته تقوّينا، والبرُّ به يبرر عملنا ناجحاً كان أم خاسراً، فنصارحه لأنه يدرك أننا باسمه نناضل في سبيل الصلاحيات التي يشفع نقصانها أو فقدانها لديه يعجزنا عن تحقيق الوعود والوصول إلى الغايات التي نرمي إليها. من الشعب قوتنا، ومنه يجب استمداد هذه القوة في ساعات ضعفنا ومتنا، فإذا كان علينا أن لاننسى الشعب عند القوة فأولى بنا أن نذكره عند الضعف.

٩ - يجب علينا الإقلاع عن التردُّد المستحوذ علينا في أعمالنا لأنه يهدم ثقتنا بأنفسنا وثقة الشعب بنا ويغري بنا أخصامنا المتربّصين الفرص. فإذا نزع الشعبُ ثقته منّا بعد أن عقد عليها الآمال الكبار فلن يمنحها فيما بعد أحداً مهما عظم شأنه. وبذلك نكون السبب في حركة رجعية، ونمكِّن برد الفعل نير الاستعباد الذي أزحناه عن أعناقنا، ثم نضطر بعد ذلك إلى جهود جبارة لإزالته.

١٠ - إننا نهدد في الاجتماعات العامة أخصامنا، ونقف عند ذلك التهديد دون أن نفعل شيئاً، فعلينا إما الإقلاع عن هذا المنهج، أو تنفيذ التهديد، وفي كلا الحالين حفظ كرامتنا وشوكتنا. وخير لنا أن يسبق عملُنا قولَنا، أو أن يكون العمل هو وحده المعوَّل عليه في توطيد أمرنا.

١١ - يجب إصلاح الإدارة في أكثر دوائرنا، ولاسيما دوائر الشرطة، لأنها أكثر تماساً مع الأهلين.

١٢ - الانتباه إلى الصحافة وعدم إلقاء حبلها على الغارب، ووجوب معرفة كيفية الاستفادة منها وتوحيد منهاجها، فهي القوة التي لايجوز إغفال توجيهها لمصلحتنا، لذلك أرى أن يعيَّن موظف خاص في مكتب الكتلة يقوم بتوجيه الصحف والمطبوعات حسب سياسة الكتلة.

١٣ - إنَّ إساءة إنفاقنا المال - بالطرق التي لايعرفها إلا البعض مما أدى إلى استمرار فراغ صندوق الكتلة - خطأ يجب تلافيه، فإن الحكمة في الإنفاق تفوق الحكمة في الجمع. ولاينفع المال مهما كان مجموعه إذا ساء إنفاقه.

١٤ - يجب وضع حد لكل من رجالنا، وتنظيم علاقتنا بالحكومة وتحديد وظيفة رجال الكتلة ودرجة اتصالها بالحكومة، من ذلك تعيين دائرة خاصة في الكتلة تكون على اتصال تام مع الحكومة للقيام بأمر الاستخبارات، على أن تتوسع في المستقبل فيصبح فيها فرع للاستخبارات الخارجية.

١٥ - الانصراف إلى المسائل الأساسية والإعراض عن الاشتغال بصغائر الأمور. فقد أكثرنا من الخروج عن طريقنا المرسُومة، والانحراف عن الخطة الموضوعة، فبعدنا عن الغاية وفاتنا القصد. وأرى أن يوكل إلى كل رجل من رجال الكتلة البارزين منطقة خاصة يكون مسؤولاً عن سياستنا فيها لاداخل المدن وأحيائها والأرياف بجملتها والنواحي فحسب، كالجزيرة وجبل الدروز والعلويين وحلب وحمص وحماة ودير الزور، بل في لبنان أيضاً والعراق والمملكة السعودية ومصر وتركيا. وهذا تقسيم مبدئي نبني عليه خططنا على مانستفيده منه من أصدق الأخبار والإحصاءات، حتى إذا اعتزل أحد هؤلاء الرجال عمله في منطقة ما وجد خلفه سياسة ثابتة يسير عليها.

١٦ - أن نجمع رجال الكتلة في دمشق، ونبسط آراءنا بصراحة، ونتباحث في تجديد تكويننا، وإصلاح موقفنا الذي تبلبل بعد مؤتكر قدسياً، لعدم احترام جميع الأعضاء مقرّراته، وانفراد بعض الأعضاء بأعمال ليست في شيء من المصلحة العامة، وبنسبة الحاجة إلى هذا الاجتماع يجب أن يكون الإسراع لعقده.

١٧ - دعوة نواب الكتلة للاجتماع قبل الدورة البرلمانية بيومين على الأقل، لتنظيم عملنا في المجلس. وهذا من الخطورة بمكان. وعلينا أن نشكل لجنة كتلوية برلمانية تعمل على توجيه النواب وتوحيد خططهم ومحادثاتهم قبل انعقاد كل جلسة من الجلسات البرلمانية.

إن الشام مركز إشعاع النهضة العربيةّ، ومنارتُه الكتلة الوطنية. فكيف نصبو إلى اتحاد عربي هو هدفنا الأسمى إذا لم نتَّقِ الله، ونعمد إلى العمل كما كنا سابقاً، ونمحُ من نفوسنا ما علق بها من الأدران فنتلافى هذا التفكُّك الذي أصاب الإخوان، وتسرَّب إلى طبقات الشعب. فإنَّ الروح الرجعية التي تفشَّتْ في البلاد في هذه الفترة بسبب تأخّر عقد المعاهدة[1] قد استفحل أمرها، حتى كاد يستعصي علينا، وامتدَّت إلى أصدق عناصر الشعب، ومنهم الشباب الذين هم عدتنا. فهذه أشد السَّاعات محنةً وخطراً علينا وعلى الوطن بجملته. ولا أغالي إذا شبهتها بساعة السكون الذي يشبه العاصفة.

ثقوا ياإخواني تحاشيتُ أن أصوّر الحالة بأبشع صورها، ولست من الانخذاليين الذين يستولي عليهم اليأس. ولكن من حق الوطن عليَّ أن أنذركم بما أحسُّ بقرب وقوعه لنأخذ له الحيطة، وندفعه قبل أن تلتصق ظهورنا بالجدران. مناضلين مدافعين ضد خصمين: خصم خارجي وخصم داخلي. فقد طال قعودنا وتراخت عزائمنا. ويؤلمني ويحز في نفسي تصوري أنه سيأتي يوم نؤخذ فيه على حين غرة فنقول: ياليتنا أعددنا له العدةّ.

دمشق ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٨

فخري البارودي

---

(١) - تراجعت شعبيةّ الكتلة بعد عقد مُعاهدة سنة ١٩٣٦م، وتراخي الفرنسيين في التصديق عليها وتصويت عصبة الأمم على قرار فصل لواء الاسكندرون سنة ١٩٣٧. وكان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر آنذاك رجل الشارع القوي في دمشق، وكان يردد دائماً أنه ضدّ الأحزاب، وأنه من الكتلة الوطنية، وليس من حزب الكتلة. صحافة وسياسة، صفحة ١٠٣.

التقرير الأخير إلى سعد الله الجابري

لحضرة الأخ السيد سعد الله الجابري، رئيس الكتلة الوطنية المحترم!

كنت فيما مضى حادثتكم شفاهاً مرات عديدة، وقدمت إليكم تقارير خطية، بحثت فيها عن الفوضى المتفشية في صفوفنا التي لاأبالغ إذا قلت لكم إنها تسوقنا إلى الخراب.

ربما تستغربون قولي وجرأتي هذه، ولكنني أعلم علم اليقين أنكم ستحملون قولي على إخلاصي، لأنني أكتب إليكم وأنا أضطرب جزعاً من النتيجة التي تصيب الكيان الوطني، فينهار لاسمح الله البنيان الذي بنيناه طيلة هذه المدة، وتذهب أتعاب الأمة والدماء التي سفكها أبناؤها هدراً إذا لم تتدارك الكتلة الوطنية الأمر.

ربما لاترون ماأراه، وربما تقولون إن فخري يشكو حسب عادته. ولكن هذا القول لايخفي الحقائق. فجميع ماكنت أقوله، إن كان شفاهاً أو كتابة، قد وقع، الأمر الذي لايمكن لأحد إنكاره.

نحن مسؤولون جميعاً عن هذا الدور، وعدم معرفة أحدنا بما يقوم به الآخر لا يبرئ ساحته ويرفع عنه المسؤولية فيما إذا وقعت الواقعة. ولذا فأنا مضطر لمصارحتكم بما يخالج ضميري. وهذه آخر كلمة أوجهها إليكم لتتدبروا الأمر قبل خروجه من البلد، إذ بالإمكان تدارك ومعالجة الأمور، وإرجاع كيان الكتلة إلى حاله إذا سرنا على طريقة منظمة واضحة.

تعلمون أننا نقوم اليوم بتأسيس دولة وإنشاء أمة مضى على نومها ردح من الزمن، فإذا لم نمشِ كما تمشي الأمم الحيَّة بالأساليب العلمية الحديثة، ونعطي كل ذي اختصاص اختصاصه في مكتب الكتلة أو في الحكومة. فمعنى هذا أننا غير أهل للحياة. وإذا عرفنا أن الاتحاد العربي منشؤه، كان وسيظل، في الشام في هذه المنطقة المسكينة، أدركتم عظم الكارثة التي ستقع على العرب من دوام الحال في هذه البلاد، بعدما رأيناه في مصر والعراق من التناحر والشقاق، لأنني على اعتقادي الحازم أن لاحياة للعرب إلا بحياة الشام، ولاحياة للشام إلا بحياة الكتلة. وعلى رجال الكتلة، وأنا منهم، أن يتَّقوا الله في هذا الوطن ويعودوا إلى العمل كما كنا نعمل سابقاً، ويمحوا من نفوسهم ماعلق بها من الأدران التي لاترتكز على حقائق راهنة، والتي تراكمت على مدى الأيام من عوامل تافهة سببها انقطاع الإخوان عن بعضهم، حيث أصبح رجال الكتلة في وضعيةٍ مفككة لايدري أحدهم مايعمله الآخر، ويصرّح أحدهم بخلاف مايصرح به رفيقه. وكل واحد منا في وادٍ، وأخصامنا يتربَّصون بنا الدوائر، ويُحكمون أمرهم وينظمون أنفسهم على طرق حديثة إذا قُدِّر لهم الاستمرار عليها مدة ثلاث سنوات على الأكثر، فنحن مكتسَحون في عقر دارنا، والله أعلم بالمصير. هذه الجزيرة لا يصلنا عنها إلا كل طويل عمر من الأخبار، وهذه حركة عنزة والولدة، وهذه محركات الأتراك في أنطاكية واللواء. كل هذا لايعرف أحدنا إذا سئل عنه بماذا يجيب.

ياأخي هؤلاء العمال وهؤلاء التلامذة وهؤلاء الزراع هؤلاء وهؤلاء يلعب بهم رجالٌ لايتقون الله في وطنهم، فيغرونهم باسم الوطنية ويبدلّون آراءهم وعقائدهم فينا، وهم على حق. ولكنهم على حد المثل: «كلمة حق أريد بها باطل». وبعد أن تنسلب ثقة الأمة منا، هذه الثقة التي أخذ يتزعزع أكثرها من قلوبهم. ولاأدري بعد فقدانها بمن ستثق الأمة فيما بعد. أظن أنها لاتعود تعطي ثقتها إلى أي كان مهما عظم شأنه. ولايعلم إلا الله مقدار المدة التي ستقضيها البلاد تحت نير الاستعباد فيما إذا فقدنا هذه الثقة نهائياً.

قلت لكم إنكم ستقولون إنني أشكو، والله يعلم أنَّ شكواي ناشئةٌ عن خوفي الذي أرجو الله أن لايحققه. ولما كانت شكواي لاتقترن بدواء ناجع كانت تبقى حبراً على ورق. ولذا فقد رأيت هذه المرة أن أقرنها بهذا التقرير، ووصف الدَّواء الذي أظن أن فيه الشفاء لهذا الداء العضال.

وإليكم ذلك عسى أن تجدوا فيه ماينقذنا من هذه البلبلة:

أولاً - تخصيص أعمال الكتلة بأفراد يستطيعون القيام بها، حيث يوكل إلى كل رجل من الرجال البارزين منطقة خاصة يكون مسؤولاً عن جميع الأعمال فيها. والمناطق التي أرى ضرورة تخصيص عمال لها منا هي: الجزيرة، جبل الدروز، العلويون، لبنان، حلب، دمشق، حمص، حماه، دير الزور، العراق، نجد والحجاز، مصر، تركيا.

هذا التقسيم هو تقسيم مبدئي، وعليه يتوقف نجاح العمل بمعرفة كل ناحية من هذه النواحي بجميع فروعها ومايتعلّق بها من معرفة أحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ورجال المنطقة المؤثرين وأغراض كل واحد منهم وعمل دوسيات، لذلك تجمع أصدق الأخبار والإحصاءات والخطط اللازم اتباعها في كل منطقة على حدة، حتى إذا اعتزل أحد الرجال عمله في هذه المنطقة وأتى غيره وجد سياسة ثابتة لاتتغير بتغيُّر الرجال.

ثانياً - يجب تعديل نظام الكتلة بصورة تحدد أعمال الرجال القائمين بها، وتوزع المسؤوليات على الأفراد ليعرف كل واحد منا ماله وما عليه.

ثالثاً - تعيين موظف خاص في مكتب الكتلة بمرتب كاف يقوم بتوجيه الصحافة والمطبوعات حسب سياسة الكتلة.

رابعاً - تأسيس غرفة للشباب برئاسة عالم قدير يرافقه ثلاثة أمناء سر للاتصال بالفتيان والشباب لتنظيمهم تنظيماً حقيقياً تحت إشراف الكتلة والحكومة. هؤلاء الثلاثة أحدهم يختص بتنظيم الفتيان من سن ٨ - ١٢، والثاني من ١٢ - ١٦، والثالث من ١٦ إلى مافوق.

خامساً - تعيين دائرة خاصة في الكتلة تكون باتصال تام مع الحكومة للقيام بأمر الاستخبارات على أن تتوسع في المستقبل، فيكون لها فرع في الاستخبارات الخارجية.

سادساً - تشكيل لجنة كتلوية برلمانية تعمل على توجيه النواب وتوحيد خططهم ومحادثاتهم قبل انعقاد كل جلسة من الجلسات.

سابعاً - تخصيص رجل قادر يهتم بتنظيم الأحياء تنظيماً جدياً بحيث يجعل مناطق البلدة مربوطة بمكتب الكتلة ارتباطاً وثيقاً خاصاً تأخذ عنه في كل يوم مايلزم من التعليمات لرد الدعامات التي يقوم بها الخصوم.

هذا مايلزم من الأسس الصالحة التي تحافظ على كيان الكتلة. فإذا لم يكن في رجال الكتلة المنسوبين الآن إليها من يقوم بمثل هذه الأعمال إذا فليذهب كل رجل منا إلى حال سبيله، وليعمل كل بمفرده حسبما يوحيه إليه ضميره وبذلك يخلص من التبعات والمسؤوليات التي تحمّلُنا إياها الأمة.

وعليه فأرجوكم إحالة تقريري هذا إلى حضرة الأخ السيد شكري القوتلي القائم بأعمال الكتلة اليوم للاطلاع عليه، وللمذاكرة معه بهذا الشأن. وأرى بعد ذلك أن تعقد الكتلة مجلساً عاماً للمذاكرة في خلال هذا الأسبوع. وإذا كان تقريري هذا أيضاً سيلحق بتقاريري السابقة، ويبقى حبراً على ورق، فأرجو من حضرتكم قبول استقالتي من عضوية الكتلة، والله تعالى يلهمنا وإياكم الرشد والصواب(١).

دمشق ١١/ ١٢/ ١٩٣٨

فخري البارودي

---

(١) - هذا التقرير لايختلف كثيراً عن سابقه، إلا بتهديده بالاستقالة.

رسالة إلى حسني تللو

عمان في ١٥ أيلول ١٩٤٠[1]

أخي حسني[2]

قبلات.

مضى عليَّ زمن مديد لم أكاتبك فيه، فقل عني ماشئت. بيدك الحق، وأنت على شتمي قدير.

أما تقصيرك في مكاتبتي فسامحك الله، وعفا عنك وعمَّا مضى. فهل لك أن تكتب إليَّ كتاباً مُفصّلاً عن أحوالكم داخلاً وخارجاً، تصف فيه حياتكم تفصيلاً تاماً، وكيف تعيشون، وماذا تعملون في النوادي والأسواق، في الدور والملاهي، في المقاهي ومحالّ الاجتماعات؟ وتذكر لي فيه حياتكم الخاصة والعامة، حتى اجتماعاتك بالوليَّة أم عدنان، عسى أن تخفف عني ما ألقاه من الملل الذي ألاقيه في وحدتي التي أرغمت عليها.

(١) - في ١٦ آب سنة ١٩٣٩م ضبطت أسلحة في دار البارودي في دوما، كان وضعها عملاء فرنسة، فاختفى البارودي يومين في دمشق، ثم التجأ إلى شرق الاردن حيث أقام ٢٢ شهراً. تاريخ يتكلم صفحة ١٣٥.

(٢) - صديقه الحميم وتوءم روحه، وهو واحد من ظرفاء دمشق المعروفين، وقد دامت صداقتهما ستين عاماً على الرغم من اختلافهما في كلّ شيء. وتوفي حسني سنة ١٩٦٩م عن خمسةٍ وسبعين عاماً. انظر: عبقريات شامية، عبد الغني العطري ٩٧ - ٩٩.

وهذه الرسالة مدونّة في الملف ٧٩، الوثيقة ٦ و ٧ من المذكرات المحفوظة في مركز الوثائق.

أكتب إليك هذه الرسالة أصور لك فيها الحياة التي أقضيها في شرقيّ الأردن، وهي صفحة من صفحات حياتي، فاحفظها عندك إلى حين عودتي إذا قدّر الله واجتمعنا مرة ثانية لأشرح لك ماغمض، وما أشكل عليك منها. والذي دعاني إلى كتابتها أنك تعتب عليّ كلما رأيت أحد قُطّان شرقي الأردن في دمشق، تدّعي أني مقصرّ جداً في مكاتبتك، وأنك أهل الفضل بمواصلتك إيايَ بالتحارير، فسامحك الله، فليست هذه أول مرة تعمل بقول المثل العامي: «ضربني وبكى وسبقني وشكا».

ولو تعلم مقدار شوقي إليك لما «أكلت هوا». ورغم أنك قليل الأدب، «وأقصد أنك لست بالأديب الكامل»، أكتب إليك هذه الرسالة، لأن الأصحاب ماتوا رحمهم الله ولم يبق لي من صديق غيرك، فأنا راضٍ بك صديقاً لي، على رغم مافيك من علل. ورحم الله القائل:

ياموريَ الزندِ قد أعيت قوادحُهُ	اقبسْ إذا شئت من قلبي بمقباسِ
ماأقبح الناس في عيني وأسمجهم	إذا نظرتُ فلم أبْصِرْكَ في الناسِ

فلا تطمع إذا صارحتكَ بهذه المحبة فأنت أدرى بقلبي.

غادرت دمشق إلى عمان فراراً من الحَيف، على ماتعلم، وخلّفتُ فيها العدوَّ والصديق، هذا فرح بتشرُّدي، وذاك فرح بنجاتي. وقد ودعتُكَ في درعا وأنا أردّدُ قول المتنبي:

ومـا منزلُ اللذّات عندي بمنزلٍ	إذا لم أُبَجَّلْ عنده وأُكرَمِ
رحلتُ فكم باكٍ بأجفانِ شادنٍ	عليَّ، وكم باكٍ بأجفانِ ضيغمِ[1]

وسأبدأ كتابي من ساعة وصولي إلى شرقي الأردن، إلى الساعة التي أُودِع بها كتابي البريد.

---

(١) - ديوان المتنبي بشرح البرقوقي ٤ / ٢٦٣، ومطلع القصيدة:

فِراقٌ ومن فارقتُ غير مذمَّمِ	وأَمٌّ ومن يمّمتُ خيرُ مُيَمَّمِ

بعد أن عدتَ أنت والصديق محمد المفلح من الحدود رأيت شاباً نقل لي الحقيبة الكبرى، وأنا حملت الصغرى و«السَّلّ». ووصلتُ إلى الرمتة في الساعة الثامنة صباحاً. وذهبتُ رأساً إلى المخفر وأخبرتُ القائد أنني فررتُ من دمشق مُلتجئاً إلى شرقي الأردن. فخابر معاون قائد الجيش عبد القادر باشا الجندي بالهاتف، وهو أحد رفقائي ضباط الأتراك الذين عرفتهم في الحرب العامة، وأخبره بوصولي. وحادثته بالهاتف وأعلمته أنني التجأت إلى هذه المنطقة، وأني في طريقي إلى العراق. فرحَّب بي، وأمر قائد المخفر أن يأخذ مني مائة وعشرة غروش فلسطيني، جزاء لمخالفتي القانون بدخولي إلى المنطقة دون تأشيرةٍ على الجواز. فدفعت المبلغ بعد التأشير على الجواز، واستأجرت سيارة. وفي الساعة الواحدة ونصف وصلت إلى عمّان.



الأمير عبد الله بن الحسين

أنا والأمير عبدُ الله

وصلتها وأنا تعب لأني لم أسترح منذ أيام. وبينما أنا أبحث عن فندق أرتاح فيه وإذ بسائق سيارة دمشقي، وهو علي حتاحت، ركض عندما رآني وسلَّم عليَّ. فسألته عن شبّان العصبة في أي فندق هم؟ فأخذني بسيارته إلى المكان الذي يسكنونه. وماكدت أصل إلى الباب حتى رأيت عبد الكريم العائدي وفهمي المحايري والدكتور رشدي الجابي وشفيق سليمان وأبا الهدى اليافي وإحسان البزرة ونزار نصري خارجين من الباب. وكانوا في دعوة الشيخ فؤاد الخطيب، وهم في طريقهم إليه. وبعد السلام والقبلات طبعاً دعوني للذهاب معهم. ولما كنت مضعضع الجسم اعتذرت وطلبت إليهم أن يرشدوني إلى فراش أرتاح فيه. وحالاً صعد الأخ عبد الكريم العائدي وقدَّم لي فراشه. ولم يكد يُرِيَني الفراش حتى قلعتُ ثيابي وانطرحتُ فيه. ولم أصحُ إلا بعد غروب الشمس، «وليعلم القارىء أني بطولي لم أصل إلى نصف الفراش السرير».

صحوتُ فوجدت الأصحاب بانتظاري، فجلسنا وتحدثنا. وبعد تناول الطعام حضر بعض الشبان الذين سمعوا بحضوري للسلام عليَّ. ومنهم السيد عيد الطباع أحد تجار عمان. وبعد السلام والكلام غمزني بعينه وخرج، فتبعتهُ. ولما اختلينا قال: ألا تحبُّ أن تذهب إلى زيارة سمو الأمير عبد الله؟ قلت: لا. قال: لماذا؟ قلت: بما أنني من الرجال المعروفين بحبي للبيت الهاشمي ومحافظتي على الذمام، وانتمائي لأخيه المرحوم جلالة فيصل الأول كان من اللّازم أن يرسلَ أحداً من رجاله للترحيب بي، كما يفعل بالقادمين إليه. فإنه كان يرسل لأقل من يأتيه الوفودَ إلى قرية صويلح أو السلط من يستقبلهم. وبما أنه لم يسأل عني فإني لايمكن

أن أزوره. خصوصاً وأني سأغادر عمان في أول سيارة تقوم إلى العراق. فحاول إقناعي بلزوم الزيارة لئلا يحصل من بعض الأمور أمور، فلم أقبل. وبعد ذهابه خرجنا جميعاً إلى مقهى المنشية في عمان. ولم أكد أجلس حتى أتاني الأمير فايز عجاج الشهابي. وبعد السلام غمزني بعينه. فتنحَّينا جانباً وسألني على انفراد: ألا نذهب إلى زيارة سمو الأمير عبد الله غداً؟ قلت: لا. فحاول إقناعي، وأفهمته عذري. وشدَّد الطلب والمحاولة. ولكنني أبيتُ وقلت: لايمكن أن أزوره قبل أن يأتي أحد رجاله البارزين للترحيب بي. فذهب الأمير فائز وهو صاخب، وحذّرني عاقبة عنادي. ومضى اليوم الثاني، والناس تروح وترجع، وكلهم يطلب إليَّ أن أزور الأمير، وأنا مصرٌّ على موقفي. وفي اليوم الثالث جاءني صباحاً قبل أن أصحو من النوم السيد صبري الطباع، وناداني من الزقاق، فردَّ عليه شفيق سليمان، وقال له: ماذا تريد؟ قال: أريد أن أذهب مع فخري لزيارة سمو الأمير. فأجابه: إن فخري لم يزل نائماً. ولم يكن صبري فاتحني بهذا الخصوص.

وبعد نصف ساعة أو ساعة صحوت. وبينما أنا أغسل وجهي وإذا بخادم صبري يقول: إن السيد صبري بانتظارك. قلت: إني الآن صحوت، فسأغسل وجهي، وأزيِّن لحيتي، وأتناول الإفطار وأنزل إليه. وظننت أنه يطلبني من حانوته، لأن الدار التي كنا بها هي فوق الحانوت. ولم أكد أبدأ بتزيين لحيتي حتى عاد الخادم يَعجلني. قلت: لم أُتمم حلاقة ذقني بعد، فذهب وعاد يقول: إن صبري يقول: إن الأمير يريد الخروج، وهما بانتظارك. قلت: أي أمير؟ قال: سمو الأمير عبد الله. قلت: أين؟ قال: في الديوان. قلت: وصبري؟ قال: في الديوان أيضاً. قلت: إذاً من الصباح وهو يطلبني من هناك؟ قال: نعم. قلت: اذهب وقل له: إني لاأذهب إلى الديوان. فذهب الخادم. ولم يمض بضع دقائق حتى جاء صبري، وجعل يرجوني بكل خضوع الذهاب معه خوفاً من سواد وجهه أمام الأمير، لأنه قال له: إنني سأحضر. وإذا لم أحضر فإنه سيغضب عليه. فقلت له: من الذي كلّفك أن تقوم بهذا العمل؟ قال: حبّاً بكَ. قلت: ألم يقل لك ابن عمك عيد إنني لا أزور

الأمير إذا لم يرسل من يرحّبُ بي. وطال الجدال وأنا مُصرٌّ. ونزلنا من الدار إلى حانوته. وكان في الحانوت كثير من الناس. وأحدهم ماجد باشا بن سلطان العدوان شيخ مشايخ العدوان. وهناك عاود صبري الطباع الكرَّة، وأراد إقناعي فلم أقبل وتركته وخرجت.

ولم يمض ساعة حتى رأيتُ شرطياً بلباسه الرسمي يتعقّبني، إن وقفتُ وقف، وإن سرتُ سار. وانتقلتُ إلى فندق فيلادلفيا، ورأيت الناس ينظرون إليَّ بعيونٍ فيها شيء من الفضول. وأينما سرتُ سار الشرطي خلفي، بل بجانبي والهمس بين الناس. كل هذا وأنا لم أفهم شيئاً، ولم يخبرني أحد من رفاقي بما يجري.

وإني لا أخفيك أنني شعرت بتغيُّر نظرات الناس نحوي، خصوصاً الموظفين ومن يمتّون بصلة للديوان وللحكومة. شعرتُ بهذا ولم أقف على حقيقة الحال. وكان أحد شبان عمان السيد بهاء طوقان دعاني لتناول الطعام عنده قبل يوم، وأجبته بالقبول. وقبل حلول الدعوة بثلاث أو أربع ساعات صادفته عدة مرار، وهو يذهب ويعود في السوق، وهو في اضطراب لامزيد عليه. وقبل موعد الدعوة بساعة واحدة تقريباً جاءني السيد حمدي الصفدي[1] وأخبرني بلطف أن سمو الأمير أوعز إلى بهاء طوقان أن يستقيل من الديوان الأميري، وهو أحد كتّابه، إذا كنتُ أحضر دعوته. ولما فهمت ذلك ضحكت وقلت لحمدي: اذهب واعتذر لي من بهاء الدين وقل له: إنني أصابتني وعكة، ولايمكنني الحضور دون أن تُفهمه أنني عرفت بالأمر. ولما أخبره باعتذاري تنفّس بهاء الدين الصعداء ورُدَّتْ إليه الروح.

من هذا فهمت أن هناك دسائس تحاك حولي. وبعد التقصّي فهمت أن إرادة مطاعة صدرت من الأمير إلى عُموم الموظفين بأن كل من يحضر للسلام عليَّ يكون عُرضةً لغضبه، ومن يدعوني إلى داره يكون عرضةً للإقالة.

---

(١) - حمدي الصفدي، أخو أديب: شاب وطني كان مديراً لشركة كهرباء عمان.

ولما كانت ميول الأمير عبد الله للجبهة الشعبية الدمشقية[1]، والناس على دين ملوكهم، فأكثر من تناول راتباً من حكومته، وكل تاجر له مصالح تحت يد موظفيه كان شعبياً. والجميع يتظاهرون بالعداء للكتلة الوطنية لاعن بغض حقيقي لها بل عن مجاراة أولي الأمر خوفاً على مصالحهم. ولم أجد واحداً من الناس يتبع الجبهة الشعبية عن إيمان حقيقي، بل كان الجميع يتظاهرون بذلك تحبُّباً للأمير ابتغاء التقرُّب منه نفاقاً له.

ولم يمض ثلاثة أيام على هذا الحال حتى أصبحت أُحسُّ بنظر العداء من كل من يراني من أناس أعرفهم، ومن أناس لا أعرفهم. وفي هذه المدة كلها لم تأتِ سيارة من السيَّارات التي تسافر إلى العراق. ولهذا اضطررت أن أنتظر على مضض.

وبينما أنا في الفندق وإذ بنائب الشرطة السيد نديم رجب، وهو أحد موظفي التحرّي يطلبني. فنزلت من غرفتي. فأخبرني أن مدير الشرطة يريد مقابلتي. فذهبت وإياه دون تأخُّر. وتبعني الشرطي المكلَّف بمراقبتي، والناس تنظر إليَّ بنظرات ذات معان: منها من ينظر بنظرة الفضول، ومنهم من ينظر إليَّ شزراً، وقليل من ينظر إليَّ بعطف. ولم أحفل بجميع هذه النظرات.

دخلتُ إلى غرفة المدير، وهو طارق بك الجندي، شقيق عبد القادر باشا الجندي الذي ذكرت آنفاً أني خابرته بالهاتف عند دخولي أراضي شرقي الأردن، وكنت وإياه ضباطاً في مقر الفرقة السابعة والعشرين في الجيش العثماني، في الحرب الكبرى الأولى. كان ضابطاً لأمر قائد الفرقة، وكنت قائد مقرها. فرحَّب

---

(١) - في سنة ١٩٣٩م وصل إلى دمشق المفوض السامي الفرنسي «بيو» واتفق مع عدد من أعوانه على تدبير اغتيال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في ٦ تموز سنة ١٩٤٠م. واتهموا أعضاء الكتلة الوطنية بتدبير هذه المؤامرة، وانقسم الشعب السوري قسمين:
- شعبي، أي من رجال الشهبندر، اختبأ وراءهم جميع الرجعين والجواسيس.
- كتلويّ، وهم أنصار الكتلة الوطنية المتهمة.
انظر ماذكرهُ البارودي في ديوانه: تاريخ يتكلم صفحة ٣٣.

بي مدير الشرطة طارق. وبعد أن شربنا القهوة بلّغني بلطف أنني مُجبَر على الإقامة في عمان، ولا يمكنني مغادرتها دون أمر الحكومة. فلم أجادله، وقلت له: خبِّر سموّ الأمير أنني لا أخرج عن طاعة الحكومة، وأنني أتقبل هذا التوقيف بكل رضا، وأنني إذا سجنت في حكومة عبد الله بن الحسين، حفيد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أحسن عندي من أن أكون مسجوناً في سجن الإفرنسيين. وقلت له: قل لسموّه ماقاله الشاعر العربي:

«إذا كنتُ مأكولاً فكنْ أنت آكلي[1]»

وخرجتُ والشرطي يتبعني. ومضى يومان والحالة تزاد حراجة، وانقطع عن زيارتي جميعُ الناس إلا نفراً قليلاً ممن يمتّون إلى الكتلة الوطنية بصلة، أو ممن يعطفون عليها، ومنهم: حمدي الصفدي، شفيق المرحوم أديب الصفدي.

وفي هذه المدة التي قضيتها جعل أهل الأغراض، ممن يحيطون بالأمير، ينقلون عن لساني أشياء لم تخطر لي على بال. ولم يزالوا يغرون الأمير بي، ويحرّضونه عليَّ، وينسبون إليَّ أشياء ماأنزل الله بها من سلطان.

ولما كان سموّ الأمير صريحاً إلى آخر حدود الصراحة، لم يتمالك نفسه من إظهار غضبه عليَّ. وبدأ يحمل عليَّ بكل مجلس، والمنافقون يؤمّنون على كلامه، حتى زادت الحال وتجرأ بعضهم لطلب إخراجي من المنطقة أو توقيفي. كل هذا وأنا غير عارف بما يجري لانقطاع الناس عن زيارتي. وبينما الحال هكذا. إذ بحمدي الصفدي يأتي ويقول: إن الحالة إذا بقيت هكذا، وأنا بعيد عن الأمير فالعاقبة وخيمة. وعليه يجب أن أذهب إليه لإزالة سوء التفاهم.

فقلت: اسمع، أنا خرجتُ من بلادي بهذه الحال بعد أن أضعت كل شيء في سبيل عزّة النفس. وعليه فإنني لاأذهب إذا لم يحضر أحد من قبله للسلام عليَّ، ومهما جرى يجري.

---

(١) - «إذا كنتُ مأكولاً فكن خير آكلٍ وإلاّ فأدركني ولـمّا أمزّقِ»
والبيتُ للممزّق العبدي: شأس بن نهار. الأعلام

فغاب وعاد إلي بصورة حلٍّ اتفق هو ورئيس الوزراء السيد توفيق باشا أبو الهدى[1]، رأياها أقرب طريقة للحل، وهي أن أذهب إلى الديوان وآقيِّد اسمي في الدفتر، أي دفتر التشريفات. وبعد ذلك يأتي رئيس الديوان لزيارتي، وأعود بعد خروجه منْ عندي إلى الديوان لزيارة سمو الأمير. فقبلت بذلك، وحلَّت مشكلة «دانزيغ» بيني وبين حكومة شرقي الأردن على هذا الشكل.

في اليوم التالي صباحاً ذهبت حسب الاتفاق إلى الديوان، فاستقبلني رئيسه محمد باشا الأنسي بكل لطف وبشاشة. وبعد شُرب القهوة استأذنت بالذهاب، فقام وودَّعني بكل إيناس إلى الباب، على أن يزورني بعد قليل. ولم أكد أصل إلى باب الفناء الخارجي حتى رأيت صديقي القديم، شاعر الثورة العربية الشيخ فؤاد الخطيب[2]، فرحَّب بي وطلب إليَّ العودة لشرب فنجان قهوة معه. ولم يسعني المخالفة، وعدت وإياه إلى الديوان. وماكدت أجلس حتى قالوا لي: هيا، إن سموَّ الأمير يطلبُكَ. فصرت تحت أمر واقع. ولم يبق بالإمكان التنصُّل من الزيارة. وقلت: «إذا لم يكن ماتريدُ فأردْ مايكون». وقمت إلى غرفة سموّ الأمير الخاصة، وإذ به واقف أمام مكتبه، فمدَّ إليَّ ذراعيه آخذاً بيدي، وبادرني بقوله (قبل أن أبدأ السلام) باللغة التركية: «نه در نيو ياهو!!! بزي نبه جفا إيدبورسك». ومعناه: ماهذا ياشيخ؟ لماذا أنت تجفونا؟

فقلت له: هذا دلال ياسيدي، فإذا أنا لم أدلَّ على أهلي فعلى من أدل؟

فقال: أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً ومرحباً.

فقبَّلت كتفهُ، وقبَّل خدي (على عادتي مع أهله من الأشراف الهاشميين). وجلسنا فقلت: بلغني يامولاي أنَّكَ غاضب علي. فقال: حاشا. قلت: بلى،

---

(١) - ولُد في عكا سنة ١٨٩٢م. وتولَّى رياسة الوزارة في الأردن أكثر من ١٢ مرةً، وأتهم بعمالته لبريطانيا، ومات منتحراً سنة ١٩٥٦م.

(٢) - ولد في بيروت سنة ١٨٧٩م. وكان شاعر الثورة العربية، التجأ إلى الأردن سنة ١٩٢٤م، ثم غادرها إلى السعودية، وتوفي سنة ١٩٥٧م، ودفُن في مسقط رأسه.

وليس بيدك حق أن تغضب عليَّ، بل الحق أن أتأثر أنا من إهمالكم إيّاي، فلستُ بأرملة تدخل عمان ولا يدري بها أحد. وسموكُم أدرى بالحقوق التي لي على بيتكم الكريم، وأنا من خاصة رجال المرحوم أخيكم جلالة الملك فيصل. وكان من اللازم أن أرى واحداً على الأقل من رجال معيَّتكم يقول لي: الحمد الله على السلامة، ليجبر خاطري، خصوصاً وأنا ملتجيء إلى رحابكم. ولو لم أكن أحمل لكم في قلبي كثيراً من الحب والاحترام لما لجأت إلى حكومتكم. فإذا ظهر مني بعض الدلال فأرجو أن تحملوه على محمَل الود. والإنسان إذا لم يدلّ على أهله فعلى من يدل؟

فقام إليَّ وقبَّلني وقال: أنت عند أهلك وفي بيتك. وأقسمَ بالله أنه لم يبلغه حضوري ليرسل إليَّ من يستقبلني. وقال: أنا أحقُّ باستقبالك. وعلى هذا انتهت المقابلة بيننا. وقام وودّعني وداعاً حاراً، ودعاني لتناول طعام العشاء في الغد على مائدته، فشكرته وخرجت.

ولم أكد أصل إلى «الأوتيل» الفندق حتى جاء محمد باشا الأنسي لزيارتي، فاستقبلتُه استقبالاً حسناً وودعته مثلما استقبلتُه، وفهمت منه أثناء الحديث أن لي أعداء بسعون لرمي الفساد بيني وبين سمو الأمير، وأفهمني بعض عادات الأمير التي تخفاني لأعرفها وأتّقي شرّ أعدائي. وهكذا تم هذا الدور الذي ولّدهُ دعاةُ السوء بيني وبين الأمير. وخوفاً من أن يستفيد أولاد الحرام من الفرص ويعودوا للدسّ بيننا أحببتُ قطع ألسنتهم، فذهبتُ إلى غرفتي ونظمت القصيدة الآتية.

ولما صار وقت الطعام ذهبت إلى المقر العالي، فاستقبلوني ببشاشة. وبعد قليل دخلنا إلى المائدة فجلس سموُّه وأمامه وليُّ عهده سموّ الأمير طلال، ودعاني إلى يمينه. وجلس رجال المعية كل واحد في مكانه. وقضينا مدة الطعام بأحاديث فكهة أزالت من قلبه كلّ حقد.

وخرجنا إلى الصالون الكبير، وبعد صلاة العشاء جلسنا نتحدث فأخرجت القصيدة وقلت: أيسمح لي سيدي بأن أسمعه قصيدة نظمتها اليوم، فرحَّب بذلك.

والأمير ممَّن يتذوَّقون الشعر، وله شعر جيّد وقريحة فياضة، وله بعض الأحيان شعر ارتجالي متين. فقلت:

لجأتُ لعمانَ فراراً من الأذى . . .   إلى آخر القصيدة[1].

فطرب لها وقال: أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً. إنَّكَ في دارك وبين أهلك، لست بالملتجىء، وكل مايصيب عبد الله بن الحسين يصيبك. فأنت بذمتي وأماني، فخرجتُ بعد أن ودعتُهُ.

وفهمت أن سموَّه يريد أن لايقطعه الناس. ومن يقطع زيارته ينظر إليه بعين الجفاء. وكان رجال الدولة يزورونه يوم الجمعة من كل أسبوع قبل الظهر، ولهم مواسم مخصوصة، فذهبت يوم الجمعة وجلست في الديوان. وكان الموظفون يدخلون مجتمعين، كل سلك له دور يدخل رجاله في دورهم. وماكدتُ أجلس إلاّ ودعوني لمقابلة سموّه فدخلت فرحَّب بي ترحيباً قلبياً. وكانت العادة أن يُقَبِّلَ الداخلون عليه يده. وقد مدَّ إليَّ يديه أثناء الترحيب. فقبَّلتُ عَضده، فقبلني وجلست. وبعد انتهاء الزيارة دعاني لتناول طعام الغداء عنده، وكان في دعوته قنصل تركيا في فلسطين الباي عبد الرحمن. وبعد أن خرجتُ، ولم أكد أجلس في الديوان حتى دخل خدم الأمير الخاص وألبسني عباءةً مزوية من عباءات الأمير، ووضع أمامي كوفية وعقالاً، وخرجت ثم عدت وقت الطعام، وعرّفني على القنصل، وقضينا وقتاً بديعاً وعدتُ إلى الفندق.

وفي هذه المدة كنت استأجرت داراً، فنقلت حوائجي إليها. وما هي حوائجي؟ هي حوائج مهاجر (خُرْج، وإبريق، وحقيبة، وزنبيل، وقبقاب. . . وبس).

---

(١) - لجأتُ إلى عمّان فراراً من الأذى   وخوفاً من التوقيف من غير طائلِ
تاريخ يتكلم/ ١٣٧.

وبعد أن أخذت العباءة رأيت من اللازم إرسال شكر للأمير، فكتبت إليه هذه الأبيات وأرسلتها إليه في ٣/ ٩/ ١٩٣٩ :

إذا الحسّادُ ماتوا اليوم قهراً وأعدائي إذا ذاقوا الحماما[١]

إلى آخر الأبيات . . . فطرب طرباً شديداً وقال: أتدري ماهي جائزة هذه الأبيات؟

قلت: فيأمر الأمير، قال: نشرها في الجرائد. قلت: هذا عائد لسموكم. فأمر رئيس الديوان بإرسالها إلى «ألف باء». فأرسلها ونشرت.

وعلى هذا أصبحت صداقتي مع الأمير تزداد يوماً فيوماً. وانقطعت ألسنة الدساسين عني حتى أصبحوا يخشون شري. ولازمتُ داري، وانقطعت عن الخروج إلى السوق، وأخفيت ألمي. وجعلتُ أظهر البسط والانشراح عندما يزورني أحد الأصدقاء وفي قلبي من الأسى ما اللهُ به عليم. ولله درُّ تميم بن المعزّ، المكنى بأبي علي صاحب مصر[٢] حيث قال:

أما والذي لايملك الأمر غيره ومن هو بالسرِّ المكتّم أعلمُ
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً لإعلانُها عندي أشدّ آلم
وبي كلُّ مايُبكي العيونَ أقلّهُ وإن كنتُ منه دائماً أتبسّمُ

وجعل الناس يزورونني، وانقلبت الحال تماماً، ولم يبق أحد ينظر إليّ إلا بعين الاحترام. وكلما زاد الأمير بإكرامي وتلطيفي زاد الناس تقرُّباً مني، حتى لم أعد أشعر بوحشة. وهنا ظهر لي بعض الإخوان الصميميين الذين لم يجرؤوا على الظهور يوم مجيئي خوفاً من نقمةِ الأمير.

---

(١) - تاريخ يتكلم/ ١٥٢.
(٢) - تميم بن المعزّ الفاطمي، شاعر من طبقة ابن المعتزّ، توفي سنة ٣٧٤هـ، وله ديوان شعر مطبوع بتحقيق محمد حسن الأعظمي، والشعر المذكور أعلاه في الصفحة ٣٩٨.

بعد ما أطمأن بالي أحببتُ أن أخابر الأمير بما يدور بخاطري للقيام بعمل مثمر نقدمه للأمة العربية، للاستفادة من الفرص، لأن الحرب كانت على الأبواب. فلم أتمكن من الاجتماع إلى الأمير اجتماعاً خاصاً، واستطلاع رأيه إلا بعد مدة طويلة.



الملك طلال بن عبد الله

الأمير والكتلة والإنكليز

كان الأمير يحمل على الكتلة الوطنيَّة حملات شديدة في مجالسه الخاصة، وأنا أدافع عنها بالشكل اللائق. ولكنني لم أتمكن من تغيير رأي الأمير بها سريعاً. وكان ندماؤه الذين يحضرون مجالسه الخاصة، ولاأريد التسمية، كلهم منافقون. فإذا قال في منتصف الليل إن الشمس طالعة يقسم له هذا: بأنه رآها بأم عينه، ويقول له ذاك: إن حر الشمس كاد يقتله لما وقف أمام الباب، ويقول الآخر: إنه لم يقدر أن يفتح عينيه أمامها. وإذا قال يوماً في الظهر إن الليل حالك والظلام منتشر تراهم بدؤوا بالنفاق وجعلوا الدنيا ظلاماً.

على هذا كانت تسير المعيَّة، ولم أجد من اللائق أن أتكلم بما يُسيئه. فكنت أسكت إذا كان الحديث لايوافقني. . . إلى ليلة كنا في دعوته مساءً، وبعد تناول الطعام خرجنا إلى الصالون الكبير لشرب الشاي، وكانت الحرب أُعلنت بين إنكلترا وألمانيا وفرنسا(1)، التفتَ إليَّ الأمير وقال: ماهذه التصريحات التي يصرّحُها زعماء سورية؟ وكانت جرائد دمشق نشرت تصريحات بعض زعماء سورية بتأييد الديمقراطيات(2). وكان هذا الحديث أمام جمع كبير، منهم ولي العهد الأمير طلال(3)، وإبراهيم باشا هاشم رئيس الوزارة السابق، وسمير بك الرفاعي مدير

(1) – كان هذا في أيلول سنة ١٩٣٩م.

(2) – يقصد بالديمقراطيات الدول الاستعمارية التي تدَّعي الديموقراطية مثل أمريكا وبريطانيا وفرنسة.

(3) – ولُد سنة ١٩٠٩ في مكة المكرمة، تلقى دراسته العسكرية في بريطانيا، ورافق جدّه الحسين في منفاه إلى قبرص، ونال رتبة فريق ١٩٤٨، تولى العرش في تموز سنة ١٩٥١، ونحّي عن العرش في آب سنة ١٩٥٢. بحجج واهية تمهيداً لجلوس ابنه الحسين، وقد أمضى عمره محجوراً عليه في تركية، وتوفي فيها سنة ١٩٧٢ ودفن في عمان.

المعارف، وعبد السلام بك كمال الأمين الأول، وبهاء الدين بك طوقان الكاتب الأول في الديوان، وغيرهم ممَّن لست أذكرهم. فقلت: أي تصريحات ياسيدي؟

قال: تصريحات رجالكم بتأييد الديمقراطيات. قلت: مالها؟ قال: أليس من العار عليهم أن يصرحوا هذه التصريحات؟

فالتفَت إليه سمير الرفاعي[1] وقال: إنَّ عملَهم هذا هو سفالة ونذالة ودناءة ياسيدنا.

وكان في ذلك الوقت مديراً للمعارف.

فلم أتمالك نفسي والتفتُّ إلى سمير وقلت: من أنت يارجل حتى تهين زعماء سورية؟ وماهي أعمالك الوطنية؟ وما هي خدماتك للعرب حتى تتجرأ على شتم رجالنا؟ ألا تخجل من التكلُّم بحضور سموّ الأمير بمثل هذا الكلام الذي أرفعُ مجالس الأمراء عنه؟ كيف تلوم رجالاً وقفوا أنفسهم منذ نشأتهم للدفاع عن القضية العربية؟ ولم يبق غيرهم واقفاً في وجه الأجنبي؟ هل تعرف الدوافع التي دفعتهم إلى هذه التصريحات؟ وماهي العوامل التي أجبرتهم على تلك التصريحات؟ وعسى أن تكون السلطة الإفرنسية هدَّدت جميل مردم بك ولطفي الحفار وفارس الخوري وشكري القوتلي بالنفي، إذا لم يصرحوا بتأييد الديمقراطيات، وعسى أنها هي أوعزت إلى بعض الصحافيين بكتابة تصاريح عن لسان بعض الرجال من الذين لم يجرؤوا على التكذيب خوفاً من بطش السلطة الإفرنسية. فلماذا تلوم أناساً لاتدري حقيقة تصريحهم، وهم عنا غائبون. وعسى أن يكون لهم شيء من العذر. ولماذا لاتلوم سموّ هذا الأمير الذي بزَّ جميع الناس الذين أيّدوا الحلفاء بإعلانه الحرب على دول المحور في جانب الحلفاء. وكان عليك أن تفطن إلى هذا قبل أن تتكلَّم، وأنت موظف صغير لايحقّ لك التكلم بحضور الأمير. والتفتُّ إلى الأمير وقلت: رحم الله النابغة الجعدي بقوله:

---

(١) - سياسي أردني ولد في فلسطين، تولى رئاسة الوزارة سنة ١٩٤٤ خلفاً لتوفيق أبي الهدى، كما شكلها عدة مرات في عهد الملك حسين. توفي سنة ١٩٦٥ عن ٦٦ سنة.

صبــــورٌ علــى مايكــرهُ المــرءُ كــلُّهُ

سوى الظلم إني إنْ ظُلُمتُ سأغضبُ

يامولاي إني تحمَّلتُ من غمزاتك على الكتلة الشيء الكثير ودافعت ماقدرت عن جماعتي. وسموُّك كلما سنحت لك فرصة تعود إلى الغمز من قناتنا، وعدتُ لا أتحمَّلُ أكثر من هذا. فإذا كنت تدعوني للنيل من جماعتي بحضوري، وفي ذلك مافيه من الإهانة لي، فإذا لم أدافع عنهم فُلجت، وإذا دافعت فإنك تغضب، وهذا ليس من شأني أن أفعله، لأني ملتجىء إلى هذه البلاد وأنت حاكمها. والذي أخرجني من بلدي وألقاني عندك هي عزة النفس، فإذا كنت تتعمَّد إهانتي بمثل هذه المواضيع فقد غلطت، وإذا كنت تحترمني أرجوك بعد اليوم أن لاتفتح الأبحاث السياسية بحضوري محافظة على كرامتي وصوناً لكرامتك. وأنت تخدم الإنكليز عرفتَ أم لم تعرف. ونحن نحارب جميع الأجانب. ونحن الضعفاء وهم الأقوياء. ونحن شركاء في هذا الوطن، وشركتنا شركة «آنونيم» فالأسهم التي يحملها فخري البارودي هي غير الأسهم التي يحملها عبد الله بن الحسين. فإذا كانت الأسهم التي أحملها عشرة فأسهمك مليون، لأنك أمير ابن ملك حفيد محمد صلى الله عليه وسلم. وماذا تنتظر مني ومن إخواني أن نعمل أكثر مما عملنا في سبيل هذه الأمة؟ في حين أنك كنت في صفوف أعدائنا، تساعد أسافل الكتاب وأصحاب الجرائد المأجورة بأموالك أو أموال الإنكليز ليشتمونا ويحطّوا من كرامتنا، بدلاً من أن تضع يدك بيدنا وتكون عوناً لنا على أعدائنا والطامعين في بلادنا.

أنت تتناول راتبك من الإنكليز، أما أنا فأصرف على القضية من مالي الخاص. إن جميع أبناء الوطن من ملوك وأمراء وزعماء وسواد الشعب مقصرون في حق وطنهم. وكلهم مخطئون في أعمالهم. فإذا زردت الحساب فتفضَّل، إنني مستعد لمحاسبتك لترى من هو أكثر خطأ وأكثر تقصيراً من الثاني؟

ماذا تنتظر من رجال الكتلة أن يعملوا أكثر مما عملوا حتى اليوم. فماذا فعلتم أنتم ياأمراءُ ويالملوكَ العرب! هذه الحرب قامت، ونحن من أول أهدافها. فلمَ لاتتفَّق أنت وابن سعود وملك مصر وإمام اليمن ووصي العراق ورؤساء بقية الحكومات العربية على خطة معينة، وتضعوا لنا برنامجاً صريحاً تمشون عليه جميكم، وتدعون جميع العرب للسير على خطتكم المتفق عليها. فمن مشى عليها فهو منا، ومن خالف فهو عدونا، وجميع العرب تكون عليه.

كفاني ماقلته الآن، وأرى أن لايجري الحساب بيننا لأنه يخرج للوطنيين بذمتكم أشياء كثيرة لايمكنكم التملُّص منها. وأرى أن نطوي هذا البحث الآن ولانعود إليه في المستقبل.

وقمتُ بعد أن أنهيت حديثي وخرجت وأنا أنتفض من زَعَلي انتفاضاً.

وبعد أن خرجت تناولني الحضُور بألسنة لاذعة، ولكن الأمير أسكتهم وقال: إن فخري محقٌ بكلامه. وأنت ياسمير كان عليك أن تكون أكثر أدباً، ولايحقُّ لك أن تتكلم بمثل هذه اللهجة مع ضيفنا.

وعلى هذا أُسبل الستار، ولم أعد أرى في مجلسه شيئاً يزعجني. وكان حديثي هذا في رمضان ١٣٥٩[١]. عدت إلى داري ألعن الساعة التي أهاجتني، وألعن الظروف التي جعلتني أتحمل هذا العذاب في سبيل وطن لايوجد واحد بالمئة ألف من أبنائه يفكر بما أفكر فيه.

قلعت ثيابي وارتميت على مقعد أفكر. ومر في مخيلتي مناظر مؤلمة استعرضت فيها حياتي منذ التحاقي بالشيخ طاهر المغربي[٢]، شيخنا بالوطنية إلى اليوم.

فكرتُ بالمعاهدة[٣] والأدوار التي مرت علينا. فكرت باشتغالنا، بعضنا في

---

(١) - تشرين الأول سنة ١٩٤٠م.

(٢) - الشيخ طاهر الجزائري سنة ١٨٥٢ - ١٩٢٠م، رائد النهضة العربية في الشام ومؤسس دار الكتب الظاهرية بدمشق، وقد وضعت فيه عدة مصنَّفات.

(٣) - معاهدة سنة ١٩٣٦م التي انقسم الشعبُ حيالها بين مؤيّد ومعارض.

بعض. تفكرت بالعز، تفكرت بالذل، فكرت بالتخاذل، فكرت بالإنقلاب، فكرت، فكرت، ثم قلت: ﴿إنَّ الله لايُغيِّر مابقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم﴾[1] صدق الله العظيم.

أي والله، إن الله لايغيِّر مابنا حتى نغيِّر مابأنفسنا ياحُسني.

كلما فكرت بما يمرُّ علينا، والفرصة التي سنحت لنا ولم نستفد من اقتناصها يكاد قلبي ينفطر ألماً لما أصابنا. كل واحد منا تحت نجم، بينما كنا نحن أهل الحول والطول، نعلّق الآمال ونبني القصور والعلالي بالخيال، حكومة، ملك، إعادة مجد، كل هذا طار بلحظة، لماذا؟ لأننا لم نحسن التدبير. سموني البكّاء لكثرة ماأشكو. نعتوني بالنقّاق لكثرة مانبّهتهم إلى الخطيئات. وأنا أقلُّ الجماعة تحصيلاً.

كان أحد أركاننا العلماء عفيف الصلح يقول لي: إنني من العوام. صحيح أنني عامي لأن الله أعمى قلبي، وصبرت معهم إلى النهاية، فهل استفدنا من هذا الدرس الأليم بعد سلب النعمة عنا وعن البلاد؟ فهل لم يزل في القدر شيء مخبوء لنا من التعاسة؟ أم أن الله سيرأف بنا بعدما وصلنا إلى هذه المذلّة؟ أرجوه تعالى أن يعفو عنا، وينظر لهذه الأمة بعين عنايته، ويلْهمنا الخير، ويهدينا سواء السبيل. ورحم الله القائل:

وإذا أراد اللـــه رحلـةَ نعميــةٍ   عن دارِ قومٍ، أخطؤوا التدبيرا

ربِّ اهدنا الصراط المستقيم، واعصمنا عن الخطأ في المستقبل، عسانا نتمكن من إنقاذ أُمتنا من هذا الشقاء، إنك على كل شيء قدير.

عدتُ لنفسي وقلت: يجب أن نعمل، ماذا نعمل؟ لاشيء. البريد بيد الأجانب، الوطنيون متفرقون، المسافرون بين الأقطار العربية جميعهم من التجار، والعوام لايُمكنُ تحميلهم أيُّ كتابٍ خوفاً من التفتيش الذي كان على أشده في جميع المحطَّات والطرق. انقطعت عني أخبار جماعتي، ليس باليد دراهم لاستئجار رسول، حتى لو وُجدتْ فليس لديَّ رسول أمين. صبرتُ وسلَّمتُ أمري إلى الله.

(١) - الآية /١١ من صورة الرعد.

حكايتي مع عبد اللطيف لايقة

يقول المثل العامي: (في الناس من يطلع صيته، وفيهم من يطلع صرمه). ولا أدري ممن أنا منهما. كل الناس تعرفني، وكل الناس تسمع بي. والدعايات التي قامت ضد الكتلة أصابتني برشاشها، فظن الناس الذين لا يُمحّصون ما يسمعون أني غنيٌّ. ولذا ترى كل فقير في شرقي الأردن انقطع ترك الناس ونحوي اندفع حتى عفت نفسي. فلا أنا قادر أن أعترف لهم بالحقيقة، ولا أنا قادر أن أقوم بما يطلبون.

يأتيني القاصد من عمّان إلى صويلح أو إلى الشونة، طالباً مساعدته عند الحكومة أو الأمير، ظناً منهم أنني المقرّب المحبوب وكلمتي نافذة. فهذا مراده السفر إلى إفريقيا للالتحاق بالسنوسي دفاعاً عن الوطن، وهو يحتاج إلى نفقة السفر وأجرة الطريق ومصارف الجواز، وهو يطلبها من الأمير العربي الذي لم يبقَ للعرب غيره في هذه البلاد، وإذا لم يجد أذناً صاغية يعود وهو يشتمني، إنْ لم يكن بوجهي فبالقفا بعد أن ينال ضيافتي. وهذا صحافي خدم الأمير ولم يلقَ منه ما يحبّ، يعود بعد أن أقوم بما يجب عليّ من حق الضيافة. وهذا فقير مُعدِم حضر إلى الشرق العربي لإيجاد عمل ومن الواجب عليّ مساعدته، وبعد الضيافة لا بد من أجرة النقل إلى عمان أو فلسطين مع كم قرش «خرْج» جيبه، والقروش لا يخفاك فلسطينية.

وهذا درويش من بلاد الله سمع باسم فخري البارودي، وقصدني بعد الله، ولا يمكنه أن يعود إلا بشيء، حتى ضجرت بشكل مزعج من هذا البشر الذي لا

يفهم ولا يمكن أن يفهم. وكيف يفهمون؟ وأنا صاحب مشروع الفرنك، وحامل أموال أمريكا، وعضو شركة الشمينتو، وقابض رواتب شركة الكهرباء (الكليشة) المعلومة التي اخترعها دعاة السوء، ولم يجدوا ما يحاربوني فيه إلا هذا السلاح. وكم كنت أستدين بعض القروش لأدفعها إلى قاصد، يأخذها بتأفّف كأنه، وهو يتناول ما فيه النصيب، صاحبُ الفضل عليّ. كل هذا وأنا متجلّد أُظهِر الغنى وأشتم الدنا، وأردّد قول الشاعر:

ألا ربّ ذئبٍ مرّ بالقوم طاوياً فقالوا: عَلاهُ البهرُ من كثرةِ الأكلِ

ومن أغرب ما وقع لي في قرية الشونة: جاءني يوماً أحد أهالي قرية التل[1]، يطلب إليّ مساعدته بقضية بسيطة، وهي أنه قاول أحد القائممقامين على بناء جامع لقريةٍ في شرقي الاردن. وبعد أن تمم الشروط وأخذ أجرَهُ طلب إليه القائمقام عملاً إضافياً قام به. ولما تمّ، تمنّعَ أهل القرية عن الدفع بدعوى أنه متبرّع بالعمل، لأن العمل كان زيادة عن الشرط. ولما لم يجد فائدة راجع الأمير عبد الله. فأصدر أمره بإعطاء الرجل حقّه. وقد جمع القائممقام أهل القرية بعد صدور أمر الأمير ووفّقهم مع المتعهد المذكور على أن يدفعوا له مائة مدّ حنطة مقابل أتعابه، وأنه ذهب إلى القرية عدّة مرار ولم يتمكنّ من تحصيل هذا المبلغ، وأنه أتى لأتوسط له بإعطاء حقه. فرحبت بالرجل وقدّمت له القهوة، وكتبت كتاباً إلى عبد السلام بك كمال طلبت إليه مساعدة الرجل. وبالفعل، فإن عبد السلام بك أعطاه كتاباً إلى القائممقام ليسرع بحله القضية وإعطائه حقه، فذهب الرجل شاكراً.

وبعد بضعة أيام أتاني رجل لا أدري هل هو التلي الذي جاءني أولاً أم غيره لانشغال فكري، حيث وصلني ذلك اليوم عدد جريدة دمشقية، وهي «ألف باء» فيها إعلان الدائن «أصفر وسارة»، يعلن تنزيل دار سكني في دمشق بالمزاد العلني، مطروحة لاستيفاء الدين الذي عليّ. وكنت أقرأ الإعلان عند دخول الرجل عليّ.

---

(١) – من قرى دمشق المعروفة.

دخل وسلم وجلس. ثم مدّ يده وناولني دفتراً متوسط الحجم مملوءاً بالأشعار والكتابة، يشرح فيه حالته التي كان أفهمني إياها. ولما كنت مشغول البال فتحت الدفتر ومررت عليه بنظري، فوجدته يبحث عن هذه القضية. ولما كنت مشغول البال أعدت الدفتر إليه وقلت له: ألم تأخذ كتاباً من عبد السلام بك الى القائممقام؟ قال: بلى أخذت الكتاب، وذهبت إلى القضاء، فرأيت القائممقام منقولاً إلى قضاء آخر. فأعطيت الكتاب إلى القائممقام الجديد فوعدني أنه سيبحث عن القضية. وطلب إليّ أن أعود بعد بضعة أيام ليرى ماذا يتم معه. ولما كنت صاحب أعمال لا يمكنني أن أعطلها فأريد أمراً قاطعاً من الأمير، بأن يدفعوا لي حالاً. فقلت له: إن الرجل وعدك أن سيحقق ف يالأمر، ولا لزوم لمراجعة الأمير مادام القائممقام هو حديث في الوظيفة. فعدْ إليه حسب الوعد. فقال: هؤلاء كذابون لا يمكن أن يدفعوا لي شيئاً لأن الأهلين لا يريدون أن يدفعوا، وهم يعدّونني متبرعاً. حتى إنهم قالوا: لو أمر أبو الملك من تحت التراب لا ندفع. قلت: وأنا ماذا أفعل؟ قال: أنت تقدر أن تقنع الأمير بلزوم مساعدتي نظراً لمالك عنده من الكرامة. قلت: أأشتكي على قائممقام قبل أن يظهر منه معاكسة؟ ألم يعدك أن تعود بعد بضعة أيام لدرس القضية؟ قال: إنه كذاب. قلت: من أين عرفت ذلك؟ هل عاملته قديماً؟ قال: لا. قلت: هل عرفته ورأيت معاملته للغير؟ قال: لا. قلت: إذاً كيف تحكم عليه؟ قال: على كل حال أنت نائبنا، مجبر فينا. قلت: تدّعي أنك شاعر، يظن أنك عديم الشعور، اسمح لي أن أصارحك أنك قليل الذوق. وأطلب إليك أن تعفيني من هذه القضية، فما أنا (بالتحصلدار) ولا أجد مبرراً لمراجعة الأمير بمثل هذه القضية التافهة قبل أن تأخذ الجواب من القائممقام الجديد. وكان عليك قبل المباشرة بالعمل الإضافي أن تكتب بينك وبينهم مقاولة ثانية حتى لا تقع بمثل ما وقعت فيه. خصوصاً وأنت شاعر لا يخفاك مثل هذا الأمر، فذهب غاضباً. ولم يمض بضعة أيام حتى تناولت كتاباً عليه طابع بريد عمّان، هذا نصُّه بالحرف، أثبته بغَلَطِه كما جاء لتطلع عليه:

قصيدتي لنائب الشعب

يا صاحب الندوى أيا فخري الأبرْ   يا نائبَ الشعب الذي بلغ الوطرْ
حققت آمالاً فكنت زعيمنا   يامن رفعت الضد أو زلت العسرْ
قارنت... في سبيل كفاحه   وإذا ذكرت فأي شيء ينذكرْ
فعساك لا تقضي الليالي ساهراً   إلا على ضرف العناية والحذرْ
أو قد تركت الشام في أشواقها   تزداد من وله عليك ومن ضجرْ
هيهات ما نبغي وأزود أنتمو   فقتم بهذا الدهر أرباب الفكر
عجباً بذاك اليوم كيف هياجُنا   لم ندري (كذا) فالبرهان فيكم والخبرْ
أو كلٌّ حزب الكتلوي كمثلكم   شغفٌ إلى حزب الدَّرْبك والوترْ
وغرامكم قرعُ الدفوف ومثله   بُزُقٌ وحفلاتٌ بها رقص النَّوَرْ
ولقد أرى المزمار يصلح عندكم   حتى نراكم قد غدوتم في سكرْ
داوي الكؤوس إذا شربت من الذي   قد ملس في قد ترعرعَ وانهصرْ
ماضركم ذاتُ اللحاظ فإنه   ذاد القريحة دأبكم نكحُ الذكرْ
ما حالكم (أوحالكم) في غمرة   إكليل فخري عندما يطفي الزفرْ
يا ويح قومٍ قلدوكم أمرهم   ضاعت فراستهم بأذيال البقرْ
كنتم وبنتم والخبايا حُقِّقَتْ   نوابنا بالفعل عشاق النَّوَرْ
تُفٍّ على الأوطان إن عرفت لكم   شخصاً يمثّل حقها في المؤتمر
لا تقربوا نحو الأمير بل ارحلوا   وإذا زواكم في الحديقة أو أمرْ

أنا الذي قابلتكم بذاتي عبد اللطيف محمّد لايقه، وعرفتكم وعرفت ما أنتم عليه بناءً على ذلك، أبعث بهذه القصيدة معُرفكم أنني مقيم في عمان في قهوة المنشية كاسم شقير، وربما صادف ذهابي إلى سورية فيكون ذلك شيء قد لا يسركم أو يسرّكم طالما عرفتم أو أعرفكم أنني وقفت من أجلكم موقف الموت نحن وغيرنا

حتى بلغتم لهذا الحد، مع أنكم لم تبالوا بكسر العواطف ولا تقدّروا خدمة الشعب لكم دون أن تعرفوا نفسكم فقط، والسلام على من اتبع الهدى.

١٦/٣/١٩٤١

عبد اللطيف

محمد لايقة

اسمع يا حسني هذا نموذج مما وقع لي، أكتبه إليك. ولو كان أحد في مكاني ما أبه لهذا، ولم يذكره. ولكنني بالعكس أحببت إثباته ليكون دليلاً على الأخلاق. وهذا كلام رجل يعدّ نفسه في الشعراء. وإذا وقفت على هذه الروح عرفت لماذا الأمة العربية وصلت الى ماهي فيه.

هذا الرجل لا أعرفه، ولم أجتمع إليه مرةً في حياتي، وهو من أخصامنا السياسيين كما فهمت أخيراً، لأنه من جماعة مرشح التل في انتخابات سنة ١٩٣٦ الذي رشح نفسه ضد مرشحي الكتلة. وهذا ما فهمته من محمد علي الطباع الذي اطلع على كتابه صدفة. فهل تدري ماذا كان جوابي له؟ إنك ربما لمتني كما لامني الذين اطلعوا على كتابه، لأنني تنازلت وأجبته على كتابه. حتى إن بعضهم طلب إليّ إقامة الدعوى عليه، لأن كتابه دليل كاف للحكم عليه. لالا لا تلمني على معاملتي، فنحن مجبرون أن نتحمّل من الناس برادتهم، لأننا نصّبنا أنفسنا للدفاع عنهم، وأخذنا على عاتقنا أمر تعليمهم وإنقاذهم من الذل. وقد أرسلت إليه كتاباً، وإن لم يكن هو بالحرف لأني لم أحفظ منه نسخة، ولكنني أذكر المعنى تماماً وهو:

لحضرة السيد عبد اللطيف محمد لايقة.

أخذت كتابك المملوء بالأدب، ومامَثَلي ومَثَلُك إلا كما قال الشاعر:

وإن الـذي بيني وبينَ بني أبي ... وبين بني عمّي لمختلفٌ جدا

فإن أكلوا لحمي وفرتُ لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيتُ لهم مجدا

يا رجل إنني لا أعرفك ولم أجتمع إليك مرة في حياتي، وقد استقبلتك في داري وقدمت لك قهوتي عن غير معرفة، وصحبتك بكتاب إلى عبد السلام بك

كمال الذي زوّدك بتوصية، فإذا تبدل القائممقام بغيره فما هو ذنبي؟ وما هي صلتي بالحكومة الأردنية وتأثيري عليها؟ فهل تريد أن أقطع رأسهم لأنهم لم يعطوك حقوقك، وماأنا إلا دخيل في هذه البلاد.

تقول: إنك سوف تذهب الى دمشق وتُسمعني ما يسر وما لا يسر. فإن كانت حاتي بيدك فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإن كانت حياتي بيد الله فإنني أترك أمري إلى الله. وإني أهنئكَ على هذا الأدب، لأنني رأيت كتابك بالنسبة إلى الكتب التي أخذتها في زماني من أخصامي السياسيين هو آدب كتاب رأيته في حياتي من ناخب ناقم.

وختاماً أقول: اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعقلون.

أرسلت له هذا الكتاب بالبريد. وبعد بضعة أيام طلعت إلى عمان، وإذا بالقصيدة منشورة فيها، ومنها نسخة عند التاجر المحترم السيد صبري الطباع، وضعها على مكتبه، يُطّلع عليها كل من زاره. ولما بلغني الخبر ضحكتُ وقلت:

إنْ عقّني صبري سيعلم بعدها — أني بهذا العصر أصبرُ مَن صبرْ
وبأنني مهما لقيتُ من الأذى — من ذي الجهالة لا أدي الشرّ بشرْ
إن كان في شتمي سلامة أمتي — فليرسلوا حُمَم الشتائم كالمطرْ
أو أنهم يرجون فيه تنقّصي — خسئوا فما بالشتم شيءٌ من خطرْ
والشتم من أهل السفاهة دائماً — لذوي الكمال أقلّ شيء ينتظر
وأنا رفيعُ القدرِ أزهد في الدنى — وجميعنا منها العشيُّ على سفرْ
وإذا نبتْ بي من دياري محنةٌ — والدهرُ بي من أجل قومي قد عذَرْ
سأظل أحفظُ عهد قومي راضياً — فيما ألاقي من شقاء أو ضررْ
صبري تنبّه أنت شخص عاقل — أدهى الورى يُعمي إذا نزل القدرْ
عبد اللطيف إذا هجاني مرةً — بقصيدةٍ وهو الغبيُّ المحتقرْ
لا يلتقي مني الجواب فما أنا — ممنّ يجازي الكلبَ حتى لو عقرْ

نبحُ الكلابِ على اللصوصِ مؤثّرٌ ... ماضرّ نبحُ الكلبِ يوماً بالقمرْ
وقصيدة الهجوِ التي أعطاكها ... لم ألقَ ما بين الكرام لها أثرْ
ليستْ بلائقةٍ أهاجي حاقد ... تتلى بناديكم كما تُتلى السّور
تقرا وتعرض في ذرا حانوتكم ... مثلَ البضاعةِ بينَ بدوٍ أو حضرْ
إنّ الزمالةَ في النيابة دائماً ... تقضي على الزملاء إسبال السُّتُرْ
إن لاحظوا عيباً يضيرُ زميلهم ... حتى ولو عيبُ الزميل لهم ظهرْ أنقى
هذا فكيف بمن غدتْ أعمالُهُ ... منَ النسمِ المعطّر في السحرْ
مهلاً أبا حسنٍ وأنت حبيبنا ... ولا عهودٌ لا تُبدِّلها الغيرْ
ما كان أحرى بالصديق أخي النُّهى ... أن يخرس العاوي ويلقمه حجرْ
جبلان ماالتقيا بدرٍ والفتى ... بأخيه يلتقيان إن طال العُمُرْ
والمرءُ في الدنيا يعاتبُ صحبهُ ... بلباقةِ الأدباء إن كانوا بشرْ
ويغضُّ عن أهل السفاهة طرفَهُ ... مترفّعاً عنهم، وهل يُلحى البقرْ
وطنُ العروبة من تخاصُم أهله ... من جنّة الفردوسِ عاد إلى سقرْ
فلإلامَ نمعنُ بالجفاء وخصمنا ... من ذا الشجار بأرضنا اليوم استقرّ
صبري ولو ثأر لنا مع بعضنا ... فلنُبقه حتى يوالينا الظّفرْ
صفح الإله عن المُسيء لخلّه ... والحرُّ لا يجني من البغضِ الثمرْ
فلنعتبر فيما أصاب بلادَنا ... ولنا بما قد فات يا صبري عبرْ


دمشق
نواب
السيد فارس الخوري
السيد فخري البارودي
السيد جميل مردم بك
السيد فائز الخوري
السيد احسان الشريف
السيد لطفي الحفار
السيد عفيف الصلح
السيد منير العجلاني
السيد احمد اللحام
السيد شكري القوتلي
السيد جورج صحناوي
السيد يوسف لنيادو
السيد رشيد البكري

الهموم تحاصرني

تركتُ[1] الشونَة الى صُويلح وصيّفتُ فيها، ثم انتقلت الى عمّان واستأجرتُ داراً عالية جانب دار الزعيم الجركسي.

وقضيت فيها بضعة شهور. هذه الدار شبه صالحة للسكن تدخلها الشمس من الصباح إلى الظهر. مرتفعة جداً، يُصعَد رليها بمائة وأربع وخمسين درجة غير الطرق المنبسطة. فكنت لا أصل إلى آخر درجة إلا وروحي في التراق. وعند وصولي إلى الدار كنت أغير قميصي لتبلله بالعرق، ثم أرمي بنفسي على المقعد لأرتاح من الجهد الذي أبذله في الصعود. ورجلي مكسورة على ماتعلم.

جاء الشتاء بخيله ورَجْلِه، وإذ بالدار تكف (تدلف) من أربعة أقطارها، حتى إني كنت أضطر لفتح المظلة داخل الغرفة. فهل سمعتَ بأعجب من هذا. فقلت فيها من قصيدة:

حياتي كلُّها تعبٌ وهمٌّ ... وتشريدٌ، عناءٌ في عناءِ[2]
وداري كلُّ ما فيها مخيفٌ ... محطّمةُ النوافذ كالفناءِ
كدار جحا عضائدها وقوفٌ ... بلا حيطانِ أطرافِ البناءِ
وأركانٌ مضعضعة ركوعٌ ... تُهيّأ للسجود من العياءِ
ثقوبُ سقوفها كالزمر دوماً ... تصفّر عندَ تحريك الهواءِ
فإنْ جادَ السحابُ ولو بطلٍّ ... تقول مناخلاً ملئت بماءِ
وليل الصّحو من أثقاب سقفي ... أراعي النجم في كبد السماءِ

---

(١) - الملف ٧٩، الوثيقة ٧.

(٢) - القصيدة منشورة في ديوانه: تاريخ يتكلم صفحة ٣٦.

هذه هي الدار التي قضيت فيها ستة شهور، تحمّلت فيها من الأسى ماالله به أعلم، والذي كان يخفف عني ألم الوحدة فيها كتبي، وديكٌ ربيّته على يدي وأسميته طاوساً. كلما صحَت الدنيا جلستُ في باحة الدار وناديته فيأتي إليّ ركضاً ليتناول ما أحضره له من الحبوب من يدي حتى ألفني بشكل غريب. ويوم موته- رحمه الله- حزنت عليه حزناً شديداً. وهذا الديك هو الذي قلت فيه القصيدة التي أرسلتها لإبراهيم باشا هاشم (١)، الذي شرفني بمصاهرته بأربع دجاجات أرسلها لطاوس، شكرته فيها على هذه الهدية. وإليك بعض الأبيات منها:

وديكٍ يشبه الطاوس ظرفاً ... جميل الشكل يهزأ بالغزالِ
بديع الصوت من أصل زكيٍّ ... تَحدَّرَ من دجاج بني هلالِ
وليس له بعمّانٍ شبيهٌ ... تربّى بالرفاهةِ والدلالِ
له عرفٌ هو المرجان لوناً ... كتاجٍ صيغ في شكل الهلالِ
وعفرته إذا رصفت حسبتم ... شعاع الشمس يعكس باللآلي
فإن يْمشِ تبختر مستعزاً ... بمشيته كربّاتِ الحجالِ
وإن غنّى فصوتٌ لا يبارى ... كأم كلثومٍ تُشجي بالليالي
يؤذّننا قريب الصبح دوماً ... بصوت فيه روح من بلالِ
فنصحوا باكراً ونقوم حالاً ... إلى الصلوات نعبدُ ذي الجلالِ
له عينٌ صفتْ لصفاء قلبي ... لأوطاني أو الماء الزُلالِ

ولما اشتد برد الشتاء، ولم أعد أصبر على احتماله، رأيت من المناسب أن أذهب إلى مشتى الشونة الذي ليس له نظير في الدنيا. فذهبتُ واستأجرت غرفة. وهي الغرفة العالية الوحيدة في الشونة. كأنها قمرة مكشوفة الأطراف الأربعة

---

(١) - ابراهيم محمد هاشم، سياسي أردني، ولد في نابلس سنة ١٨٨٦م، ومارس المحاماة ورأس عدّة وزارات في الأردن، ثم أصبح نائباً لنوري السعيد في الاتحاد الهاشمي الذي شمل العراق والأردن. اعتقل في ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨م، ومزّقه الثائرون إرباً، وضاعت جثته في بغداد. الأعلام.

والشمس لاتفارقها من الصبح للمساء، تحيط بها الجنائن، في أسفلها غرفة استعملتُها مطبخاً ينام فيها الخادم، والبلابل في الشونة تغرِّد دائماً على الأغصان صبح مساء، وهي أكثر من عصافير الدوري هناك، والشونة عاصمة البلابل. وإليك أغنية البلبل التي قلتها. وأسباب وضعها، أنني صحوت في أحد الأيام باكراً جداً، وسمعت بُلبلاً يشدو على شجرة أمام باب الغرفة فأصغيت إليه وأنا داخل الغرفة مدة غير قصيرة. ثم أحببت أن أخرج إلى السقيفة التي أمام الباب لأسمعه وأنظره معاً. ولكنه مع الأسف لما خرجت سكت ولم يعد ينبس بنغمة. فجعلت أخاطبه وأصفّر له، ولكنه ظلّ على سكوته، فقلت:

لازمــــة

يا بلبل الشــــونة	غــرِّد على الأغـصـانْ
فــالروح مــفــتــونة	بطيِّب الألحـــان
غــــنّي غـــنـــي	وسلّيــــنـــي

دور

أنت بهــــذا الروض	مــــابين إخـــوانكْ
والواجب المفـــروض	إكـــرام جـــيـــرانك
غــــنّي غــــنّي	وســــلّيــــنــــي

دور

غــــــرّد وردّد لـي	بـالـلـه ألحــــانك
غـــرّد فــمــا مــثلي	تخـفـاه أشـجـانكْ
غـــنّي غـــنّي	وســــلّيـــنـــي

دور

نحن هنا أشــبــاهْ	لكنْ معَ الفـــارقْ
غـــنّي إذنْ بـــالـــلــهْ	يابلبلي الصـــادقْ
غـــنّي غـــنّي	وســـلّيـــنـــي

دور

مع أنني بالغـــور	حـــرٌّ طليقٌ مـــثلك
لكن أنت مـــسرور	بالقـــرب من أهلك
غـــنّي غـــنّي	وســـلـــيـــنـــي

دور

يا طيّب الوجـــدانْ	اصـــحى تخلّيني
وحـــدي هنا زعـــلان	فالبـــعد يشجيني
غـــنّي غـــنـــي	وســـلّيـــنـــي

دور

غـــرّد أنت خـــالي	ورفـــرف بجنْحـــاتك
لو عـــرفك حـــالي	لا هزّ وجـــدانك
غـــنّي غـــنـــي	وســـلّيـــنـــي

دور

إنـــي عـــلـــى دهـــري	صـــابر وحـــسبي الله
عطفك على فـــخـــري	بالعـــمـــر لا أنســـاه
غـــنّي غـــنّي	وســـلّيـــنـــي

ويقيت في الشونة مدة أربعة شهور قضيتها وحيداً، وفي الأسبوع أزور سمو الأمير مرةً، وربما طلبني غيرها فأذهب إليه وأقضي عنده بضع ساعات. ورغم أنه كان يكلفني أن أكثر التردد على ناديه، كنت أعتذر بالأعذار المختلفة خوفاً من ملله. وقد قال المثل: «زُرْ غباً تزددْ حباً». وما أبدع قول الحسين بن محمد القرطبي:

إذا ماكثرتَ على صاحبٍ	وقد كان يدنيك من نفسهِ
فلا بدَّ من مللٍ واقـــعٍ	يـغـيـرُ مـاكـان من أُنسهِ

فالقرطبي يقول هذا خوفاً من إكثار التردد على صاحب أو صديق، فكيف بي وأن ترددي على أمير خطير؟ ألا يخشى من أن يُغيِّر شيئاً من أنسه إذا أكثرت عليه التردد. ولذا فضّلتُ الابتعاد عنه على قدر الإمكان، واكتفيت بعزلتي وكتبي. وأنا راضٍ بهذه الحياة المنفردة قانع بما أتقوّت به من الطعام الذي أطبخه لنفسي بيدي، إذ ليس في الشونة طاهٍ ولا مطعم، لا أراك الله مكروهاً، فتحملّتُ ذلك وعملت بقول أبي ذؤيب الهذلي الشاعر:

والنفس راغبةٌ إذا رغّبتَها ... وإذا تردُّ إلى قليلٍ تقنعُ

ورغبتُ عن الدنيا أنتظر الفرج عملاً بقول الحسين بن عبدالله البغدادي الشاعر:

تلقَّ بالصبرِ ضيفَ الهمّ حيثُ أتى ... إن الهموم ضيوفٌ أكلُها المهجُ

فالخطبُ إن زاد يوماً فهو منتقصٌ ... والأمر إن ضاق يوماً فهو منفرجُ

فروِّحِ النفسَ بالتعليل ترضَ به ... واعلم إلى ساعة من ساعةٍ فرجُ

وقال فيه الطغرائي:

أُعلّلُ النفس بالآمال أرقبُها ... ما أضيقَ العيش لولا فسحةُ الأملِ

ولولا هذا التعليل، والأمل، نعم يا حسني، الأمل في المستقبل لما تحمّلت هذي الحياة ولتركت الدار تنعي من بناها، وذهبت إلى قرية بعيدة في آخر الدنيا أقضي فيها ما تبقّى من هذا العمر التعسِ، أنا وكتبي، ولكن ماذا أقول بالأمل. الأمل وحده هو الذي يُصبِّرني.

لا بأس، تحمَّلتُ كثيراً، وسأتحمل أكثر، ولِمَ لا أتحمَّلُ وأنا من أخذ على عاتقه خدمة أمته؟ هذه الأمّة التي أناخ الدهر عليها بكلكله، وهي بحاجة لأبنائها. ومَن أحقُّ منّي بسماع ندائها. فإذا أُصبتُ في سبيلها فما هو العجب، فلست بأول حرٍ تحمل الشقاء في سبيل أوطانه. وماأبدع قول الشاعر:

وأيٌّ قناة لم ترنّح كعوبها وأيٌّ حسام لم تصبْهُ فلولُ

ومع هذا ورغم هياجي عند ضيق النفس أعود هدأت نفسي أفكر بهذه الأمة النائحة، وأتحرق لعدم تمكّني من الإتيان بأي عمل لقلة ما بيدي من المال وهذا هو يوم العمل.

ماذا أعمل؟ وهل باليد حيلة؟ هل أبقى مكتوف اليدين؟ لنجرّب عملاً بسيطاً إلى النظم يا فخري؟ ومن ألمي قلت:

علامَ قوميَ في نومٍ وفي كسلٍ والغربُ كاد ينيخ الرَّحل في زُحَلِ

إلى آخر القصيدة[1].

أرسلت من هذه القصيدة نسخاً عديدة بوسائط مختلفة إلى جميع الجهات. ولم يجرؤ على نشرها إلا السيد نجيب نصّار، فنشرها في جريدته «الكرمل».

مضى شهور وشهور، ولم يتحرك أحد من رجالات العرب. أين المؤتمر؟ من هو الذي يدعو إليه؟ ما هذا النوم؟ قرأت القصيدة على الأمير عبدالله، أعتذر عن القيام بدعوة المؤتمر، لأن هناك من هو أحق منه من رجال العرب بذلك. ماذا أعمل؟ فلنصبر والبلاد بحاجة للعمل اليوم. لا أقدر أن أصف لك العواطف التي تجيش في صدري عندما أسمع خبراً مهيجاً، فتراني كالأسد المحصور في قفص من حديد. ألم أك ذلك العامل النشيط الذي لا يمل العمل ليل نهار؟ ألستُ ذلك الرجل الذي لا يترك فرصة تذهب من يده في خدمة بلاده؟ أليس ما قاله الحسين بن علي، الوزير المغربي[2]، وهو لسان حالي؟

سأنفق ريعان الشبيبة آنفاً على طلب العلياءِ أو طلب الأجرِ
أليسَ من الخسران أنَّ لياليا تمرُّ بلا نفعٍ وتحسبُ من عمري

(١) - تاريخ يتكلم ص١٣١.

(٢) - شاعر معاصر للمعرّي، ولد سنة ٩٨٠ مـ وتنقل بين مصر والشام والعراق وتوفي بميا فارقين سنة ١٠٢٧ مـ ودُفن بالكوفة. معجم الأدباء ١٠/ ٧٩، والبيتان المذكوران، في الصفحة ٨٨.

إي والله، إن الليالي التي أقضيها في هذا المنفى الاختياري لا تحسب من عمري لأنني كنت عاطلاً فيها عن العمل. ألا تتعجّب إذا سمعتَ أنني أعمل في بناء مسجد في مشتى الشونة، مع ست غرف للإمام والمؤذن والمعلّم والمسافرين، مع ثلاثة دكاكين وقفتها على المسجد. أجّرنا كل دكان بخمسة عشر ديناراً في العام، وذلك لأنني لم أحبّ أن أبقى عاطلاً من العمل. وقد ألهيتُ نفسي. بهذا، وفي نظري أجلّ من ذلك تأسيس مدرسة ابتدائية. وقد سعيت لدى الأمير حتى تمكنت من أخذ المخفر القديم وتسليمه لوزارة المعارف لجعله مدرسة. وقد نجحتُ بذلك بإذن الله ومساعدة سمو الأمير. وهي اليوم تضم إليها عشرات الصغار، يدرسون مبادئ العلوم. وهذا بعض ما يعزّيني عن أيام عطالتي التي قضيتها في بلاد شرقي الأردن.

أما الدعايات التي قام بها أعضاء، بل أذناب الجبهة المتحدّة ضدي، فإني أمرّ بها مر الكرام. ولا بأس من أن أخبرك بأنهم افتروا عليّ افتراءات ليس لها شيء من الحقيقة، وأقل ما يقال فيهم أنهم جُهلاء، أصلحهم الله. وينطبق عليهم قول طريح الثقفي:

إن يسمعوا الخير يخفوه، وإن سمعوا
شراً أذاعوا، وإن لم يسمعوا كذبوا

وليست هذه المرة الأولى التي يحمل عليّ فيها خصوم الكتلة. ورحم الله القائل:

إذا اعتاد الفتى خوضَ المنايا   فأهونُ ما تمرُّ به الوحولُ

وهذه الدعايات التي يقومون بها هنا هي كالوحول بالنسبة لما قام به أضدادنا في دمشق. ولا بدّ لهؤلاء المأجورين من أن ينالوا جزاءهم من الله، ومن أحرار البلاد. ولله درُّ القائل:

تدرّعوا بدروع البغي سابغة   والمرء يحصد من دنياهُ ما زرعا

ما لنا ولهم، قل معي: ربي أصلح قومي فإنهم لا يعلمون.

مضى فصل الشتاء، وجاء فصل الربيع، وإذ بالغور تيبس أعشابه، وتذوي زروعة. ويهجم جيش الحر. فأسرعت إلى قرية تسمى صويلح، وهي قريبة من عمّان. هواؤها جيد، وماؤها أجود، وأهلها من الششن الصلحاء. من بعد الغروب لا تسمع فيها حساً ولا أنساً، ولا تنتهي صلاة العشاء حتى لا يبقى في أزقتها رجلٌ يمشي غير الحراس. وتنقطع السيارات عنها إلا سيارة تفتيش، أو سيارة جيش. وقضيت فيها شهرين بسكون وركون أنا والكتاب.

وقد نظمت لك قصيدة، ولم أتمكّن من ررسالها، لأنه لا يمكن إطلاع أحد عليها، حتى أقرب المقرّبين لك، لأنها من القصائد الفريدة التي إذا قرأتها لا تلبث أن تشمر عن ساقيك وتهرول إلى شرقي الأردن. وهذا ما أخافه لأنك إذا وقعتَ في الحدود بين أيدي الجنود السنكال السود ذهب عرضك. وهذا ما فعلوه بعدة أشخاص، ألقوا عليهم القبض، حتى إن بعضهم تجاوز الستين من عمره. فإياك والمجازفة صوناً لعفتّك وخوفاً على بقجتك.

لنعد إلى موضوعنا. بعد أن مضى عليَّ مدة في قرية صويلح جعلتُ أفكر بهذه الحرب، وماذا يكون نصيبي إذا طالت؟ وهل يتمكّن أهلي من الدوام على إرسال مصروفي الشهري؟ وأنا أعلم حالة الزراعة المنحطة، وأثمان الحبوب ووارداتنا كله من أثمانها. ففكرت بهذا وخطر لي أن أقوم بعمل يكفيني وارده مصروفي الضروريَ. ولما لم يكن لديَّ شيء من المال اقترضتُ من بعض أصدقائي مقدار ثلاثمائة جنيه، وكتبت إلى كثير من الذين أعرف يسارهم، وهم من أصدقائي، فلم آخذ الجواب. وبالثلاثمائة جنيه التي اقترضتها فتحت محلاً في عمان أسميتهُ «الندوة»، ونظّمته حسب الإمكان، وفرشته بأبدع الفرش البسيط. وبدأت العمل، ولم أحفل بأقوال الناس. وقلت ما يدريني متى تنتهي الحرب؟ إذ ربما دامت ثلاث أو أربع سنوات. وعليه يجب عليَّ أن أحصّل مصروفي من ذراعي، آخذاً بقول البيغاء الشاعر:

وليس عليَّ غير الجدِّ فيما سعيتُ له لأستغني وأغني
فإن أُحرم فلم أُحرم لعجزٍ وإن أنجح فنفسي بلّغتني

والمحلُّ الذي فتحته هو ندوة لبيع الحلويات والمشروبات الباردة والسندويش. ثم زدت عليه بعد ذلك مطعماً صغيراً، وقلت: إن كل الأعمال يمكن أن تقف في أيام الحرب غير المَعدة فإنها لا تقف. ولذا قمت بهذا العمل، واخترتُ للمحل اسم الندوة لأجعله مكَاناً لاجتماع الشباب المثقفين، عسى أن نتعارف. ويمكننا أن نؤسس للمستقبل نواة في هذه المنطقة من الشباب لنستند عليهم ونستعين بهم عند عودة الحال إلى مجراها الطبيعي وفتح المكتب العربي، فيكون لنا في عمان أو في شرقي الأردن أنصار وأعوان. ولكن سوء الحظ لم يساعد على بقاء هذه الندوة سائرة كما أحب. ولم يمضِ شهر على فتح المحل حتى سقطت بلاد الفرنسيس بأيدي الألمان (١).

وقد سار عملي في البدء سيراً متوسطاً يبشر بالنجاح. وقد عاكسني أخصامي السياسيون، وقام بعض أذناب خصومي السوريين من أعداء الكتلة بدعايات كاذبة ضد الندوة، وقاطعوها جميعهم، حتى إنني لم أر من السّوريين، وخصوصاً الدمشقيين، إلا الذين يمتّون إلينا بصلة أو أصدقائي الخصوصيين منهم، وهم قلة في عمّان. فلم أحفل وقلت: الرزق على الله. وبحمده تعالى، بمدة لا تزيد عن الثلاثة شهور وأعدت الديون إلى أصحابها تماماً. وكنت مع خصومي على حد قول الشاعر:

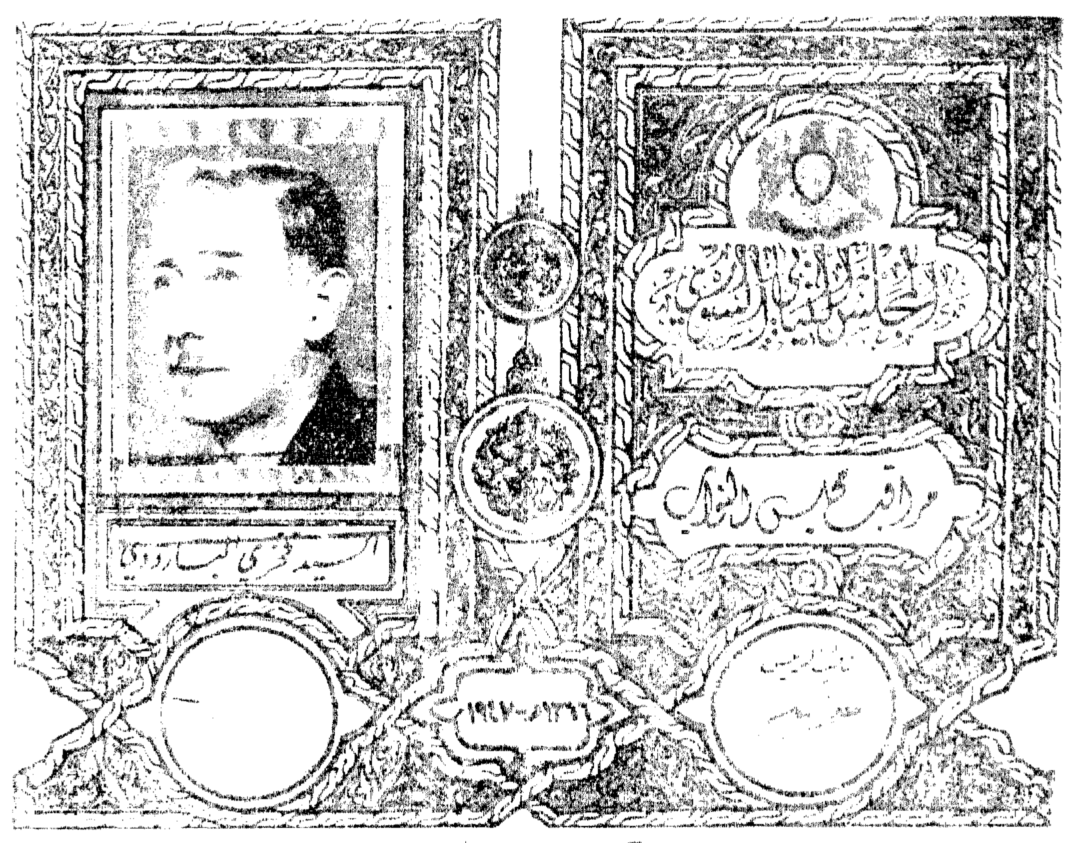
غيري جنى وأنا المعذَّب فيكمُ فكأنني سبَّابةُ المتندِّمِ

وأنا أداوم على عملي حتى يفرِّجها اللهُ.

وقد شاركتُ رجلاً يُدير الندوة بالفعل، وأنا ألاحظه من بعيد. وسارت الندوة سيراً حسناً بإدارة شريكي صادق أفندي زكريا. وهو رجل طيبٌ جداً من أبناء دمشق المستورين.

---

(١) في ٢٥ حزيران ١٩٤٠م، انهارت فرنسة أمام قوات هتلر.



صورة عن هوية النيابة

أخلاق الناس

أما أخلاق الناس فما رأيته منهم في هذا العام كافٍ لأن يكون درساً بليغاً لكل رجل عاقل.

فإني بعد مغادرتي دمشق لم آخذ من أحد من أصدقائي كتاباً، حتى من أوفى الأوفياء، يسألني فيه عن صحتي وأحوالي، إلا منك ومن أهلي ومن أحمد عبد الجواد، واثنان أو ثلاثة من الشبّان الذين لم أكن أفكر بإخلاصهم لي. وكتاب من فخري النشاشيبي الذي تعرفه وتعرف ما بيني وبينه من اختلاف في المبدأ دعاني فيه أن أكون ضيفه في دارهِ مدة غيابي عن سورية فأنعمْ به من صديق كريم، رغم مافيه من علات.

فكان شأني مع قومي كما قال أبو فراس الحمداني:

أراني وقومي فرّقتنا مذاهبُ ... وإن جمعتنا في الأصول المناسِبُ

فأقصاهم ُأقصاهم من مساءتي ... وأقربهمْ مما كرهتُ الأقاربُ

غريبٌ وأهلي حيث ماكرَّ ناظري ... وحيدٌ وحولي من رجالي عصائبُ

ومع معرفتي بأخلاق الناس لم أكُ أتوقع من إخواني وبني قومي هذا الجفاء الذي لا أعلم هل هو ناشئ عن خوف أو عن قلّة حياء.

وما أبدع قول أبي فراس أيضاً بهذا المعنى:

لمن أعاتبُ؟ مالي؟ أينَ يَذْهَبُ بي؟ قدْ صرَّح الدهرُ لي بالمنعِ واليأسِ
أبغي الوفاءَ بدهرٍ لا وفاءَ له كأنني جاهلٌ بالدهرِ والناسِ

وبكل أسفٍ أقول لك: إن قطْع المكاتبة عني لم يكن من البلاد الشامية فقط، بل من جميع بلاد العرب. وأنت تعرف كم لي من أصدقاء فيها. فلا العراقيون ولا المصريون ولا الفلسطينيون ولا الحجازيون ولا النجديون كاتبني منهم أحد يسألني عن حالي، إلا فخري النشاشيبي كما ذكرت لك آنفاً.

والذين كاتبتهم أنا كانت أجوبتهم مقتضبة تحمل عاطفة يظهر فيها التكلف. وقد سخّر الله لي رجلاً لم أكن أعرفه قبلاً، وهو السيد صبحي الحلبي، من أصحاب المروءات ساعدني مساعدة طيبة فقلت:

بين المروءة والإباءِ نسابةٌ أقوى من الأحسابِ والأنسابِ
كم من غريبٍ يرتجى للملمَّةِ وكم ابنِ أمٍّ عُدَّ في الأغرابِ
فدعِ الجميعَ ولا تكنْ متُمسكاً إلا بحبلِ الرازقِ الوهّابِ

وما أبدع قول أبي نصر الروزباذي، وهو ينطبق عليَّ:

لي خمسون صديقاً بينَ قاضٍ وشريفِ
وأميرٍ ووزيرٍ وفقيهٍ وظريفِ
فإذا احتجتُ إليهم لا يفوني برغيفِ

وزدتُ على أبياته قولي- وأرجوك أن تبلغها إلى عفيف الصلح، وتسأله: هل أوفى له أحدٌ من أصحابه أيام المحنة، واقرأ له قولي هذا:

حسني تللّو رُحْ وسلْ لي يا صديقي من عفيفْ
أترى هذا صحيحٌ أم هُو قولٌ سخيفْ
قلْ لهُ مهلاً فهذا حسبَ تحويل الظروفْ
فهو لا يشملُ إلا سيئَ الحظِّ الضعيفْ

وانزويتُ بعد هذا في داري الصغيرة جانب المقبرة في عمان، وقضيت فيها ستة شهور، مضت عليَّ وأنا تعبُ الفكر وإن كنت مرتاح الجسم.

هذه الدار أحسن من الأولى. فيها باحة كأنها واحة، وإن كانت صغيرة، تغطّيها الأشجار، من عنب ومشمش. وغرفتان شماليتان لا تدخل الشمْس إليهما أبداً. والدار صالحة لأيام الصيِّف. فكنتُ أقبع فيها الأسبوع والأسبوعين لا أخرج إلى السوق. وكان يزورني الشيخ فؤاد الخطيب بين حين وحين، فنتجاذب أطراف الحديث. وداوم على زيارتي مصطفى وهبي التل [1] مدة غير قليلة، حيث كان يأتي صباح بعض الأيام، فيقضي عندي مدَّة نصف ساعة. وهكذا بقيت إلى أن جاء خريف عام ١٩٤٠. وهنا بدأت أحس بالرطوبة، ولم أعد أقدر أن أداوم على السكن فيها لأن الروماتيزم أثّر عليَّ فانتقلت منها إلى الفندق العربي، وقضيت فيه مدة خمسة عشر يوماً، إلى أن تمكنتُ من استئجار محل في الشونة. وهي الغرفة التي سكنتُها في العام السابق.

ولا بد لي من أن أذكر لك بعض العوامل النفسانية التي ساورتني أثناء هذه المدة، واليأس الذي استحوذ عليَّ. وأرجو أن أتمكّن من وصف ذلك بدقة عساك أن تطّلع على العذاب النفسي الذي قضيته هذه المدة، ومع هذا صبرت وصبرت.

أنت تعلم حالتي المالية، وتعلم أن أهلي لا يمكنهم الدوام على إعالتي. ولذا منذ وصولي إلى عمان في العام الماضي كتبت إلى طه باشا الهاشمي [2] كتاباً أطلب فيه قبولي متطوعاً في الجيش العربي العراقي الذي يُعدونه للطوارئ، حسبما بلغني، والعهدة على المبلّغ.

---

(١) – شاعر أردني من إربد، وُلد سنة ١٨٩٧مـ وأمضى حياته في فوضى واستهتار حتى وفاته سنة ١٩٤٩مـ، وهو والد وصفي التل.

(٢) – طه الهاشمي: ١٨٨٨ / ١٩٦١مـ قائد عسكري من بغداد، نصّب وزيراً للدفاع سنة ١٩٣٨، وترأس الوزارة سنة ١٩٤١مـ، وخاض حرب فلسطين، ثم انزوى في داره حتى وفاته.

كما أنني كتبت إلى بشير بك السعداوي[1]، أرسلته بواسطة غير البريد، أعرض نفسي للتطوع في الجيش العربي السعودي، إذ كان في الجيش العربي السعودي تشكيلات عسكرية حديثة، وهم بحاجة إلى الضباط. كما أنني أرسلت له خبراً مع السيد أحمد عبد الجواد مدير المكتب العربي القومي الذي تعيّن في مكتب الدعاية والنشر في الحكومة السعودية. كل هذا خوفاً من أن تطول الحرب ويعجز أهلي عن الدوام في إرسال مصروفي وعن مساعدتي المادية، وخوفاً من أن يصيب رشاش الحرب أمتنا العربية.

والحربُ كما تعلم بين الإنكليز والألمان، لتحقق كلُّ دولة منهما غايتها وهي حياة شعبها برفاه، وهذا لا يكون إذا لم يكن لهما مُستعمرات. ونحن في أول الأهداف. إذاً فمن الواجب علينا أن نتحضَّر. والحكومتان العراقية والسعودية هما الحكومتان العربيتان الوحيدتان اللتان أملتُ فيهما الخير. وقلت: عسى أن أقوم بشيء من الخدمة لأمتي إذا خاضت الحرب، لأنني لم يزل فيَّ بقية باقية أقدر أن أخدمها فيها بالجيش، وأنت تعرف أنني خرجت من الحرب الماضية برتبة رئيس (كبتن- يوزباشي)، وقلت: إنني إذا دخلت في الجيش يمكنني أن أخفف عن أهلي مؤونة العذاب وإرسال الراتب الشهري الذي يرسلونه لي، وهو خمسة عشر جنيهاً فلسطينياً، يساوي مائة وخمسين ليرة سورية تحصيلها من وارداتنا يعسر في هذه الأيام، لأن السلطة الافرنسية حدّدت الأسعار كما تشاء ووضعت المحاصيل تحت تصرفها، وأصبح الوارد لا يكفي مصروف العائلة.

انتظرت الأجوبة مدة، فلم يصلني من بشير السعداوي شيء، ووصلني من طه باشا الهاشمي كتاب مملوء بالشكر والثناء. وبس. لماذا؟ لأن الجيش العراقي، وإن كان جيشاً عربياً، فقانونه لا يبيح قبول غير العراقيين فيه. ومع أنني من ضباط الجيش العربي الذي قام بالثورة العربية الكبرى سنة ١٩١٦ مع الحسين بن علي لا يحق لي دخول الجيش العراقي.

---

(١) - مجاهد ليبي عمل في تدريب الجيش السعودي في عهد الملك عبد العزيز، توفي سنة ١٩٥٧ م.

لا بأس، سكتُّ على مضض، وعلمت أن بعض إخواني ضحكوا من فكرتي، فقلت من قصيدة وجهتها إلى عادل العظمة وأكرم زعيتر اللذين كانا أول من انتقدني على هذا العمل:

عجبت وزاد بي عجبي	ازدراء الصحب في طلبي
علامَ الهزءُ في رجلٍ	كثيرِ الهمِّ والتعبِ
أهُزءٌ دونما سببٍ	إذا فتشتُ عن سببِ
أيشقى الحرُّ في وطنٍ	به الدخلاءُ في طربِ
أأُقصى اليومَ عن وطني	وعن أهلي وعن نشبي
وأُلحى إن تطوَّعتُ	بجيش الأمة العربي
من الاخوانِ أصحابي	ذوي الأفهامِ والأدبِ
أعادل أنت ظالمني	وأكرمُ زاد بالشغب
فلا عدلٌ ولا كرمٌ	أرى بكما فواعجبي
فإن تزعل إلى . . .(١)	وإن يغضب إلى ذَنَبي

صبرتُ وصبرت وطال الحال، فكتبت إلى صديقي إبراهيم طوقان(٢) مدير قسم الإذاعة العربي في فلسطين أطلب إليه قبول بعض أحاديث الأطفال لتذاع من المحطة باسم مستعار، أحصِّل من أجره شيئاً أخفف فيه عن أهلي. وبالفعل رحَّب بالفكرة، وتعاقدنا على عدة أحاديث، كل حديث مقابل جنيه ونصف.

وقد أرسلتُ إليه أول حديث تحت عنوان: «زهرة الشارع» للعم المجهول، كما اتفقنا وأُذيعَ الحديثُ. وكان له وقعٌ جميلٌ على سامعيه. ولكن الأقدار شاءت أن تعاكسني، وذلك أنني بلّغت والدتي تلفونياً أن تُنصت إلى الحديث الذي سيُلقى

---

(١) - كلمة نابية حذفناها.

(٢) - شاعر من نابلس. ولد سنة ١٩٠٥م وتُوفي سنة ١٩٤١م.

في الساعة . . . من يوم . . . الواقع في سنة ١٩٤٠م، وما كاد الخبر يصل إلى دمشق حتى انتشر بصُورة غريبة، ووصل إلى السُّلطة العسكريَّة التي أمرت شركة الكهرباء أنْ تقطع النور عن دمشق مدَّة المحاضرة. وفعلاً قُطع النور عن جميع دمشق طيلة مدَّة المحاضرة.

مضى على ذلك أيام وأيام. والمحاضرة الثانية التي أرسلتها وعنوانها: حديث الأطفال: «الستّ والستيتيَّة» لم يُعلَن عنها «كتبتُ إلى الاذاعة ولم آخذ الجواب. كررت الكتابة والجواب السكوت. وبعد مدة وصلني بالبريد حوالة بجنيه ونصف عن المحاضرة الأولى وبس.

ماذا جرى يا ترى؟ لماذا لم يذيعوا الحديث الثاني؟ لا أعلم. تساءلت وتساءلت. فلم أفلح بسماع جواب. كل ذلك ظل غامضاً عندي إلى أن أقامت الإذاعة حفلة غنائية في عمَّان. جاء إبراهيم طوقان على رأس الجوقة. فسألتُه عن الأسباب فلم أحظ منه بجواب، واعتذر عن الحديث لشدَّة أشغاله واعداً إياي أنه سوف يزورني بعد الحفلة ليطلعني على السبب. ولكنه «ملص» وفرّ من مقابلتي.

وبعد البحث والتنقيب فهمتُ أنَّ السُّلطة الافرنسية كتبتْ إلى السلطة الإنكليزية عاتبة عليها كيف تقبل من رجلٍ مثلي هو عدوّ الانتداب أحاديث تذاع في الإذاعة الفلسطينية. والإنكليز حلفاء الإفرنسيين بهذه الحرب. ولم تكن حصون ماجينو [1] قد سقطت بعد، ولم يكن الألمان دخلوا البلاد الفرنسية. وكانت فرنسا آنذاك في عظمتها وقوتها. وعرفت أن هذا السبب في عدم قبول أحاديثي.

صبرت وصبرت، ولا حول ولا قوة إلا باللّه انسدّتْ في وجهي جميع الأبواب. وأنا في قطر من أقطار بلاد العرب كنت فيه في ثورتهم الكبرى ضابطاً متطوعاً في الجيش الذي استولى على هذا القطر، وأنقذه من أيدي الأتراك. يعيش

(١) - نسبة إلى ماجينو، وزير الحرب الفرنسي، وهي تحصينات على امتداد الحدود الشرقية لفرنسة، وفي أيار ١٩٤٠م التفّ الجيش الألماني حول هذه الحصون من جهة بلجيكا واحتل فرنسة وهذا يعني أن تاريخ هذه الرسالة كان قبل شهر أيار ١٩٤٠.

فيه الأجنبي بنعمة، ويتولى مراكز الحكم فيه. أمّا من كانوا عوناً للأتراك من العيون والجواسيس الذين يمشون مع كل دور، أناس لم يسمع العرب باسمهم، كانوا من القابعين في دورهم أيام الثورة لم يحملوا السلاح بل كان أكثرهم من جواسيس الأتراك، فيركبون السيارات ويعيشون بالرفاه، وأنا أقضي العذاب في دار صغيرة لا يعلم إلا الله كيف أقضي بها الحياة مع خادم ساذج لا يعرف الطهي ولا إدارة الدار. أنا الطباخ، أنا أغسل حوائجي بيدي، أنا أكويها بيدي، أنا أرقع جواربي بيدي. لا بأس فلنصبر.

إنّ النصر الذي سجله الجيش العربي للعرب بدماء أبنائه وهمّة شبانه كان من شأنه أن يجعل بلاد العرب من أغنى وأرقى بلاد العالم. وكان جديراً بنا ونحن أصحاب النصر أن ننال قسطاً منه، لا أن نجد أنفسنا عالةً على المجتمع لا يصل إلى يدنا إلا النذر اليسير، الذي لا يعلم إلا الله الجهود التي تبذل لنواله، بدلاً من أن تهيّأ لنا أعمال شريفة نعيش منها كما يجب أن يعيش الرجال الشرفاء. في حين أننا نرى المرتزقة من الأجانب ومساعديهم من حثالات الأقطار العربية يتولون المناصب ويديرون الحكم بشكل جعل القطر الشامي بأجمعه أداة استثمار للأجانب. الشعب يموت جوعاً وهم مع عملائهم الأسافل يعيشون برخاء. لابأس فلنصبر.

أرجعُ وأفكر، لقد تحمّلت في سبيل وطني من الشقاء ما تعجز عنه الجبال، ثلاثون سنة وأنا أجاهد. أقضي أيامي من سجن إلى منفى، ومن حكم إلى براءة. وأخيراً أبقى شريداً أفّاقاً أهيم على وجهي. أرى العالم يتحرك، أرى الأمم تسير وترقى، وأنا عاطل لا أساهم في شيء من الحركة. وأُسمّى بين أبناء وطني الحركة الدائمة. لا بأس فلنصبر.

فكِّر يا حسني بهذا الموقف. فكر بحالتي عندما تثور ثائرتي. فأبقى كالأسد المحصُور في قفص. يضحك مني كلُّ من رآني من أرباب المناصب والمراتب. ينظرون إليّ بخوف، ولكنهمْ يضحكون من بعيد عندما أثور. لابأس لابأس فلنصبر.

روماتيزم، دار صغيرة غرفها لا ترى الشمس، أرضُها دون حصير، الرطوبة تعمل عملها في الجسم. لا بأس فلنصبر.

جاء رمضان. الطعام في المطاعم البسيطة لا يليق بي. ومع هذا كنت أذهب أحياناً إليها. كنت قديماً أدعو الناس إلى مائدتي وأُدعى لأعظم الموائد. مضى رمضان لم أُدْعَ إلا مرتين، وكلاهما صدفة. ورغم تمنُّعي أخذوني عنوة حتى الأمير نسيني، إما عن عمد وإما عن غير قصد، لم يفطن لدعوتي إلا في آخر العشر الأخير. لابأس فلنصبر.

جاء عيد الفطر. أنا الذي كنت أبرّ الفقراء والمساكين، وأرسل لهم ما يجب عليّ إرساله، أعجز عن إعطاء خادمي عيديه تسرُّه. عشرة قروش. أبناء جاري الصغار، إخوان خادمي وأخواته كل واحد قرش أو نصف قرش، المجموع خمسة وعشرون قرشاً للفقراء والمساكين فقط. لابأس فلنصبر.

أخذت كتاباً من والدتي تذكر فيه أن «أصفر وسارة[1]» يطلب المبالغ المستحقة له بذمتنا. وقد نزّل الدار بالمزاد العلَني. دارنا مرهونة لديه مقابل الدَّين كما تعلم. كتبت إلى العراق لبيع الدار إلى الحكومة، لتكون دار معتمدية، لأنها كانت أخذت مصوَّرَها قبل فراري من دمشق. طال الوقت وتأخر الجواب... وسَّطت فوزي القاوقجي[2]. وبعد لأي أخذت الجواب بما لا يُطمئن النفس، فيه وعود بالسعي، ولكن عرفت أن الوعد إرضاء لي. اتّكلت على الله وصبرت. ترمت أمري إليه فلتُبعْ الدار، لا يموت الإنسان إذا بيعت داره. دار البارودي التي كانت دار الأمة، التي تشكلت فيها أول حكومة عربية شكلها فيصل بن الحسين، التي ظهرت فيها الحركات الوطنية من سنة ١٩٢٠ إلى ١٩٣٦، المدرسة الوطنية للشباب تباع في المزاد العلني مقابل ديوني. يا ربي ما هذا الحال. لا بأس فلنصبر.

---

(١) – شركة تجارية أسّسها الاقتصادي السوري خليل سارة، واشترك معه فيها ولداه جورج وألبير.

(٢) – مناضل عربي ولد في طرابلس الشام، وشارك في الثورة السورية الكبرى، ثم التجأ إلى برلين، وفي حرب فلسطين عيّن قائداً لجيش الإنقاذ، ثم اعتزل في بيروت حتى وفاته سنة ١٩٧٧ م عن ٨٧ سنة.

هجم البرد في أواخر الخريف. لم أعد أحتمل الروماتيزم. انتقلت إلى الشونة، إلى الغرفة التي كنت فيها العام السابق. ومن سوء حظي أن الغرفة السفلى كانت مستأجرة من نجار حجازي يدعى حمزة الخضري. اضطررت أن أضع ستارة في غرفتي بيني وبين الطاهي الذي منّ الله به عليّ في هذا العام، وهو من دار القعقاع من اللاذقية. فكانت الغرفة للنوم وللاستقبال والمطبخ. فكر برائحة الطعام والزيت عندما تقلي شيئاً. فكر بالأوساخ التي تحصل في المطبخ وتأثيرها بالنظر قبل أن تزال، مطبخ لا يمكن تنظيفه كل ساعة، وهو يتسخ كل دقيقة. الهواء يضرب الستارة فترتفع ويظهر منها أدوات المطبخ البسيطة أمام الزائرين. فضيحة. لا بأس فلنصبر.

أراحك الله يا أحمد القعقاع في كبرك، لأنك أرحتني. أحمد نجار رأى من الضروري قطع الغرفة إلى شطرين. دبّر الخشب. أحضر شيئاً من القصب، استعار آلة النجارة من عند جاري حمزة، وتمكن من عمل حاجز مرتفع حجز المطبخ عن الغرفة. بالنسبة لي شيء سارّ، منع عن أعيننا منظر المطبخ، ولكنه لم يمنع عن أنوفنا رائحة الزيوت ورائحة الطبخ. لا بأس تقدم في الحياة. فلنصبر. الفرج آت. هكذا نعلّل النفس.

جاء عيد الأضحى. تأخرت الحوالة. ليس لديّ ولا قرش واحد. جاءني النَّور والفقراء. فخري البارودي المشهور. كل عام وأنتم بخير. اقترضنا نصف جنيه، ثم نصف جنيه. فرّقنا القسم الأكبر منه على الفقراء. جاءني ضيوف من عمّان. بعضهم حلّ ضيفاً عندي، والبعض قضى نهاره وعاد إلى عمان. منهم من أحضر معه أدوات السيران، ومنهم من جاءني يصفّق في يديه. السوق ليس فيه لحم، رطل اللحم بأربعين قرشاً. الضيوف زاد عددهم عن الستة عشر. جاءني القائد صدقي القاسم، قائد منطقة البلقاء، فرآني مضطرباً. ما بالك يا فخري؟ لا شيء. الضيوف جاؤوا واللحم مفقود. ذهب وبعد قليل جاءني من عنده فخذ خاروف. وبهمّة أحمد القعقاع وشطارته كفينا الضيوف طعامهم. ومضى العيد وسترها ربنا. لا بأس فلنصبر.

تهرأ سروالي [1] الصوف. أحمد القعقاع يغضب. لا تزعل يا أحمد، طوّل بالك، لكل شيءٍ آخر. يريد رقعة، لا يوجد قطعة صوف في الشونة لرقعة. خذ جراباً قديماً وارقعه فيه. وإن كان اللّون بعيداً غير مطابقٍ لشكله لأنه لا يظهر لأحد، وهو مخفي تحت الثياب. رقْعهُ رقعة جيدة، مَشّي الحَال. ولكن غضب أحمد لا يزول، يشتم الدهر، يقضي ثلاثة أيام وهو عابس. عبثاً أحاول تفريج كربه وهو ساخط حتى إنّه لم يتورَّعْ عن شتم الزمان وأهله. تفيض القريحة، اصبر يا أحمد، الفرج قريب إن شاء الله:

يا أحمد القعقاع مهلاً لا تكن ... بَرِماً ولا تبكي على الأسباب [2]
فالدهر دولابٌ ورزقك قِسْمةٌ ... والصبر يُفتح مُغلَقَ الأبوابِ
إن جاء عيدٌ فاستدنا (ليرةً) ... ورقعتُ سروالي ببعض جرابي
كم مرَّ عيدٌ والدراهم في يدي ... (كالكشك) تأتيني بغيرِ حسابِ
فاصبر فربُّكَ لا يضيِّع أجرنا ... والرزق كالآجال رهن كتابِ
خمسون، عاماً بالخصاصة إن مضتْ ... نطوي على جوع ودون ثيابِ
خيرٌ لنا من أن نعيش بذلةٍ ... نحني الرؤوس لطغمة الأغرابِ
وإذا الحواجز والقصُور نَبَتْ بنا ... فلنا الهنا بمضارب الأعرابِ

هذه الأبيات سرّتْ عن أحمد بعض ما لحقه من الهم. أنا في شوق إلى والدتي العجوز، إلى زوجتي الأمينة المريضة، إلى إخوتي، إلى مسقط رأسي. وهو في شوق إلى أهله، إلى عائلته، إلى ابنته التي هي في الثانية عشرة من عمرها، إلى ولده زكريا البالغ من العمر سنتين ونصف، إلى بلده ومسقط رأسه. لا بأس فلنصبر.

---

(١) - الصواب سراويلي للمفرد، وجمعها سراويلات.
(٢) - القصيدة في: تاريخ يتكلم/ ٢٧.

أنا ودمشق

الأخبار متضاربة: قُتل الشهبندر: الكتلة سقطت، الكتلة استرجعت مجدها. الشهبندريون يتهمونها، الحكومة تطاردها، رؤساؤها فرّوا[1]، الشبان في السجون، عفي عن البعض وبقي البعض، جرت المحاكمة، حُكم على المعتدين بالإعدام، تبرأ رجال الكتلة، رجال الدين قائمون قاعدون يطلبون العفو عن القتَلة، المحامون تشاجروا في المحكمة. هجم رجال الجبهة الشعبية على أوتيل أوريان بالاس وضربوا المحامين الكتلويين، شباب الكتلة انتقموا، شباب الجبهة انتقموا، شباب الجبهة أعادوا الكرة، الأهلون اشمأزوا. كل هذا يجري والأجنبي مرتاح مطمئن البال. أحوال تضحك السفهاء وتبكي العقلاء. الأمم تدافع عن كيانها وتسعى بقوتها لاستعمارنا ونحن نساعدها على ذلك بالاشتغال بأعمال الصغار. لابأس فلنصبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

على هذا قضيت أوقاتي. تمرُّ الساعات والأيام بل الشهور وأنا أنتظر الفرج إلى أن تغيَّر المفوض السامي المسيو (بيو) بالجنرال (دانتز)[2]. ومندوب المفوض

---

(١) - التجأ شكري القوتلي إلى السفارة التركية بدمشق، وفرّ لطفي الحفّار وجميل مردم وسعد الله الجابري إلى العراق، ثم أعلنت المحكمة الفرنسية براءتهم من التهمة. وحكم على القاتل أحمد عصّاصة وشريكيْه: صالح معتوق وأحمد الطرابيشي بالإعدام، ونفذ الحكم يوم ٣ شباط سنة ١٩٤١م، أما الدكتور الشهبندر فقد دُفن في حديقة المدرسة العزيزية بجوار البطل صلاح الدين الأيوبي.

(٢) - ممثّل المارشال بيتان في سُورية ولبنان، وصل دمشق في كانون الأول سنة ١٩٤٠م وأقام حتى حُزيران سنة ١٩٤١م عندما دخل الجنرال كاترو ممثل ماسمي بفرنسة الحرّة.

المسيو (هوتكلوك) بالمسيو (لافاستر). عندها بدأتْ تأتيني الأخبار المتناقصة عن البلاد، والبعض من الشباب طلبني، ومنهم من ألحّ، ولكني لم آخذ كتاباً من أحد الإخوان يُطمئنني عن الحالة، فأعلمُ منه أن بإمكاني العمل إذا وصلت إلى دمشق، واتصلت بالحبيب، الريس نجيب [1]، هاتفياً أسأله عن الحضور، وهل بالإمكان استحصال جواز سفر مع وثيقة من السلطة تشعر بعدم مسؤوليتي، فكان جوابه كما تعلم به من نزق: احضر، يجب الحضور، إنك تأخرت، احضر على مسؤوليتي. أي مسؤولية هذه؟ وجريدته تصدر يومياً، ونصف حقولها بيضاء من شطب المراقبين. وهل قدر أن يحمي نفسه يوم بطشوا فيه. ثم ألا يدري أنه لم يزل قيد الحكم، وأن خروجه من السجن هو تأخير التنفيذ. وأنه نفسه مهدد دائماً بالسجن والنفي. كيف يطلب إليّ الحضور على مسؤوليته. هذا عجيب. مع هذا طلبت إلى شكري بك [2] إبداء رأيه، فلم يصلني جوابه لا مع أحد القادمين إلى عمّان، ولا بواسطة أهلي الذين راجعوه.

وقد تضاربت آراء أهلي. فمرة أظهروا الرغبة في عودتي وعادوا فطلبوا بقائي. بدأتْ بعد ذلك الحوادث، وبدأ الإضراب. وتضاربت الأخبار، لماذا الإضراب؟ من هم الدافعون: الكتلة، العُصبة، الشباب المثقف، أبناء المدارس، حزب الشهبندر، من؟ لا أحد يعلم، وكأني في بلاد واق الواق. لا يكاتبني أحد، ولا أعلم من الحركة شيئاً. غير أن الفوضى ضاربة أطنابها. فهل أعود إلى دمشق، أم أصبر؟

أيام وليال مرت عليّ وفكري باضطراب. ومع أن والدتي، أطال الله بقاءها، كانت مريضة ومرضها شديد، فقد عزمت على الأنتظار إلى أن يذهب

(١) - نجيب الريّس: صحافي وسياسي من حماة، أصدر جريدة القبس سنة ١٩٢٨م، توفي في دمشق سنة ١٩٥٢م عن ٥٤ سنة.

(٢) - شكري القوتلي أول رئيس للجمهورية بعد الاستقلال حكم منذ ١٧ آب سنة ١٩٤٣ حتى ٣٠ آذار سنة ١٩٤٩ م، ثم أعيد سنة ١٩٥٥، وتنازل عن الحكم سنة ١٩٥٨، وتوفي ودفُن في دمشق سنة ١٩٦٧م.

الليل ويطلع النهار لنرى ماذا يمكنني عمله؟ فإذا رأيت أن بإمكاني القيام بخدمة الوطن اليائس عدتُ، وإلا فسأبقى بعيداً عن دمشق إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ذلك لأنني إذا عدت فلا يمكنني السكوت. وإذا قمت بأمر ومدّت السُّلطة يدها إلي، فلست واثقاً أن يساعدني أحد، لاختلاف الأحزاب وتبلبل الآراء وتعدد الدوافع على القيام بالإضراب وتحريك الأصابع الأجنبية ونحن لم نجمع شملنا، ولم ننظّم صفوفنا بعد. وإذا كانت الصفوف قد تنظمت وعادت الأمة إلى سابق ولائها لنا لمَ لمْ يخبرني إخواني القائمين بهذا العمل؟ كل هذا جعلني أنتظر وأتريثُ، إلى أن يبين المستور ويظهر الخفي، عندها تطيب العودة أو يحسن النزوح عن البلاد إلى ما شاء الله، ومما رأيته بعد خروجي من دمشق من انحلال الأخلاق وفساد الشبان وتضارب الأقوال بي، جعلني أكون حذراً من كل شيء. ورحم الله قُريط بن أنيف [1] القائل:

لو كنتُ من مازنٍ لم تستبحْ إبلي ... بنو اللقيطة من ذُهل بن شيبانا
إذن لقام بنصري معشرٌ خشنٌ ... عند الحفيظة إنْ ذو لوثةٍ لانا
قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا
لكنَّ قومي وإن كانوا ذوي عددٍ ... ليسوا من الشرِّ في شيءٍ وإن هانا
يجزون من ظُلْم أهلِ الظلم مغفرةً ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأنَّ ربَّك لم يخلق لخشيته ... سواهمُ من جميع الناس إنسانا
فليتَ لي بهمُ قوماً إذا ركبوا ... شدُّوا الإغارة فرساناً وركبانا

---

(١) – شاعر جاهلي غامض لم تنسب له غير هذه القصيدة التي افتتح بها أبوتمام ديوان الحماسة. وهناك من يقول إن هذه القصيدة ليست لقريطٍ هذا.

إي والله لو كنت من مازن لحموا ظهري. وأي عشيرة من كرام العشائر لم تكن تحمي بنيها في النائبات دون أن يسألوهم برهاناً عندما يندبونهم. والجهل في أمتي رغم هذه الثقافة الزائفة الناقصة يجعلني أتردَّد كثيراً بعد الآن في أي عمل عمومي أقوم به. وماهو ذنبي الذي جنيته حتى رأيت انفضاض قومي عني يوم حلَّت بنا المصيبة بعد ما أيَّدوني ذلك التأييد الذي لم يسمع التاريخ بمثله. فما عدا عمّا بدا لينقلبوا عليَّ هذا الانقلاب؟ وقد أصبح أصغر غلام في دمشق، بل في سورية، يرى نفسه أكبر من أكبر رجلٍ في البلاد. وكم ينطبق عليهم بيت قريط:

كأنَّ ربَّك لم يخلق لخشيته　　　سواهمُ من جميع الناسِ إنسانا

كل جماعة منهم ظنوا بأنفسهم الكفاءة. وكان ما كان من أمرهم معنا فجزوا الإحسان بالإساءة، وسكتوا عن الذين ظلموهم. والذين أغروهم بنا، والذين خدعوهم إلى أن قامت اليوم هذه الضجّة غير المبنية على أساس. فهل يمكنني بعد هذا أن أتورط في عمل جد وأرمي نفسي بالمهالك بعد هذه التجارب على أني لا أقول لقومي كما قال قريط:

فليت لي بهمُ قوماً إذا ركبوا　　　شدوا الإغارة فرساناً وركبانا

لا لا أقول هذا، وسواد قومي مع جهلهم هم من خيرة الأقوام، ولا أبادل بهم أحداً. وإني سأوفر لحومهم، أبني لهم من المجد ما يساعدني عليه زماني، وإن أكلوا لحمي وهدموا مجدي [1].

---

(١) - نهاية الوثيقة ٧ من الملف ٧٩، وبه انتهت رسالته إلى حسني تللو.



البارودي مع بعض أفراد الكتلة الوطنية

١-فخري البارودي ٢-بشير السعداوي ٣-أكرم زعيتر ٦-بشير رمضان ٧-أحمد السمان ٨-أحمد عبد الجواد ٩-فريد زين الدين ١٢-ناظم القدسي ١٣-فؤاد مفرج

كتاب مرسل إلى حضرة الجنرال ويغاند[1]

سيدي الجنرال ويغاند المحترم!

أكتب إليك هذا الكتاب من منفاي الاختياري، وأنا أمين أنه سيقع منك موقع القبول، لأنك رجل عالم عاقل. فأرجوك أن تدقق في كتابي وتتفهمه وإن كان طويلاً.

يا سيدي! إني غادرت دمشق فراراً من تهمة اتهموني بها. وإني أقسم لك بشرفي ووطني أن القضية التي اتُّهِمتُ بها مفتعلة، وليس لها أصل بتاتاً. ولا تظنَّ من كتابي هذا أني أريد الرجوع إلى بلدي وأني أتيت به لتبرئة نفسي أمامك، كلا! فأنا يا سيدي الجنرال لا أعود إلى بلدي ما دام الحرُّ مضطهداً فيها، والسلطة تكيد للوطنيين الصادقين.

إني الآن في أمان الله. ولكنَّ هناك رجلَيْن من خدمي، أحدهما يدعى حسن بن بكري خيتي، والثاني اسمه محمود، وهما من أهالي دوما، للأول عائلة مركبة من ثمانية أشخاص، والثاني من أربعة أشخاص، طرحا بالسجن ظلماً وعدواناً وحكم على كل منهما عامين، بدعوى وجود سلاح حربي في كاراج داري في قرية الجرباء التابعة لقضاء دوما.

(١) - عسكري فرنسي، كان يشغل منصب المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان ١٩٢٣ - ١٩٢٤م بعد الجنرال غورو، ثم عين قائداً أعلى للجيوش الفرنسية سنة ١٩٤٠م، وقد فشلت قواته، واعتقل في ألمانيا ثم حوكم في فرنسة، وتوفي سنة ١٩٦٥ عن ٩٨ عاماً.

هذه القضية يا سيدي لم يكن المقصود منها الحكم على خدمي، بل كنتُ أنا المقصود بالذات. وإذا أجريت تحقيقاً دقيقاً نزيهاً يمكنك معرفة الحقيقة بتمامها. ولهذا أرجوك يا سيدي أن تحضر المُخبِر والخادمة الطبّاخة التي رأت بعينها الجنود الذين وضعوا السلاح، فتسمع شهادة الطبّاخة، وتجبر المخبر ليصدقك القول، عندها يمكنك أن تعرف أن القضية مفتعلة من أساسها. وبعد ذلك أطلبُ إجراء العدل، وإلغاء الحكم الصادر بحق هؤلاء المساكين، عن الجريمة الملصقة بهما لأنهما بريئان.

وأزيد على ذلك أنني لست بالغِرّ لأضع سلاحاً حربياً في داري، وأنا من خصوم الوضع الحاضر. وأعرف قوّة فرنسة والتحشيدات التي كانت تقوم فيها في سوريَّة، في وقت تجهمّت فيه الحوادث، واستلمت فيه السلطة جميع الصلاحيات وسَلبت الأمة جميع ماكان بيدها من الحقوق، في حين أن وضع هذه البنادق العديمة الفائدة ليس فيه أقل نفع لي أو للبلاد. وكانت الحرب على الأبواب ونحن في أضعف حالاتنا وأنتم في أقوى قوتكم.

فإذا كنتُ أعرف هذا، وأعرف أن وجود مثل هذا السلاح في داري سيعرّضني للشقاء والدمار، فلا بُدَّ أنكم متأكدون من أني لا أقدم على مثل هذا العمل الخطير. وأن القضية مفتعلة من أصلها، وقد ذهب ضحيتها هذان المسكينان.

فإذا عفوتَ فلك الأجر، وإذا كنت لاتنال أجرك عاجلاً فلابد من أن تلقاه بآخرتك أجلاً مادمتَ ممَّن يؤمنون بالله.

يا سيدي الجنرال! أنا لايهمني تصريحات رجال سورية من وطنيين أو رجعيين، في الجرائد أو الإذاعات، وتأييدهم للديمقراطيات وحكوماتها مادامت أعمال السلطة في سورية كما نرى، والسجون ملأى بالأحرار المظلومين وهذه الأحكام الجائرة التي لم نسمع بمثلها.

هذا غاندي، أقام الهند فيما مضى وأقعدها على الحكومة الانكليزية. فكانت نتيجة محاكمته أنه حكم بست سنوات، قضى بعضها في السجن، وأعفي من الباقي.

أما الحكم على شبابنا ورجالنا بخمسة عشر عاماً وبعشرين عاماً، ومثلها نفياً بعد الحبس من غير أن يتمكّن المتهم من الدفاع عن نفسه بتوكيل محام في عصرٍ تتبجح به الدول الديمقراطية بالعدل والحرية، فتأييد رجالنا لها هو من قبيل النفاق بل هو النفاق نفسه.

ولذلك فإني أؤكد لكم أن هذه التصريحات هي صادرة عن الألسنة، لا عن القلوب، إما عن رهبة وإما عن رغبة. وهذا ليس له من الأهمية شيء

إن الحكومات الديمقراطية لم تصل إلى قلوب العرب، وعلى الأخص السوريين منهم فتكسبها. إن حكومتكم بعدما عاهدتنا نكلت، وبعدما أمضت المعاهدة وملاحقها عادت واسترجعت ما أعطت. لذلك فكل تصريح بتأييدكم هو كذب ونفاق والشعْب السوري الذي هو في مقدمة الشعوب العربية لا يركنُ إليكم، بعدما حارب في صفوفكم في الحرب العامة، ورأى نتيجة مناصرتكم والاعتماد عليكم.

إن زهالي سورية في الحرب العامة كفّروا أحد أركان النهضة العربية بل أبوها، المرحوم جلالة الملك حسين بن علي، بالفتاوى التي أفتوها. وجرّدوهُ من الوطنية- سواء بالخطابة أو بالجرائد على اختلاف أنواعها- خوفاً من قوة جمال باشا وبطشه. ولكن عندما زالت قوة الأتراك من فوق رؤوس العرب ظهروا على حقيقتهم، ورأيتم بعدها موقفهم من الأتراك بجانب الحسين بن علي. مع أن الأتراك أبناء دينهم قضوا معهم عصُوراً في حكومة واحدة.

أنا لا أقول إن نتيجة تلك الحرب كانت لصالحنا، رغم انتصارنا مع الحلفاء، ولكنني أقول: إن الروح التي سرتْ في الأمة العربية لا يمكن أن تموت بعد اليوم. والقوة مهما فعلت في أمة ضعيفة كأمتنا، فلا بد من يومٍ تزول أو تضعف فيه هذه القوة، عندها يكون ردُّ الفعل عظيماً بل أعظم من القوة التي كانت ترهق الأمة وتسلبها حقها.

فإذا أردتم أن تكون الأمة العربية في جانبكم حقيقة، وتصريحات رجالها صادرة عن قلوبهم، فما عليكم إلا أن تعطوا سورية مطالبها وأنتم في أوج قوتكم وهي في شدة ضعفها، فتجدوا من هذا الشعب الذكي أنصاراً يعاضدهم جميع العرب. يمكنهم أن يساعدوكم في المستقبل والحال، مساعدات لا يستهان بها إذا عرفتم كيف تعلمونهم وتدربّونهم وتقودونهم.

ولا يغرنّكم تفسُّخ الأحزاب وتضارب رجال سورية، والدور الذي جرى في السنة الماضية. فهذا لعبة سلكت على الشعب، وتأثيرها مؤقت. وإذا تحطّم بعض زعماء اليوم ففي الشبيبة الآتية خير إن شاء الله. ومادامت النساء تحمِلُ وتضع، فالبلاد لا تترك حقوقها. وأحسن فرصة لاستجلاب قلوب السوريين هو إعادة المعاهدة بلا ملاحق في هذا اليوم وأنتم في قوتكم. وإذا فعلتم هذا فلا يوجد أحد في الناس يقول: إنكم أعطيتم ذلك مرغمين عن ضعف.

هذا ما أردت أن قوله، ذكرته لكم بكل حريَّة وإخلاص. وأرجو الله أن يلهمكم إلى ما فيه خير العرب والإنسانية ويلقي الرحمة في قلبكم للعفو عن هذين المسجونين خاصة، وبقية المساجين عامَّة من أحرار سوريَّة والعرب عامة. وتفضلوا بقبول احترامات المخلص لوطنه (١).

شونة عمَّان في ١٩/ ١/ ١٩٤٠

فخري البارودي

(١) - هذا الكتاب ردّته إدارة المراقبة في عمان بقولها: لا يُسمَح بإرساله. في حين أن أحد موظفي البريد والبرق في عمان أخبرني أنه أرسل الكتاب هاتفياً، وهو خالد البيّات، مدير البرق والبريد في شرق الأردن آنذاك.



المفتش العام لفرق القمصان الحديدية السيد فخري البارودي

من محمد كرد علي إلى فخري البارودي[1]

أخي العزيز!

أخذت أمس كتابك، وكنت ذكرت كثيراً في هذه الأيام وأذكر حوادثك، وما وقع لنا من النكات التي كنا نروّح بها عن أنفسنا في الأزمات. وحمدتُ الله على صحتك ونشطتك، وأرجو قرب أيام اللّقاء، فقدت اشتاقت الأرواح بعضها للآخر. أردتني أن أزورك لنعيش حياة «دروشة» وتقشُّف، وهل كانت حياتنا غير هذا؟ وهل نتعلم جديداً إذا عشنا هذا العيش الذي يتمنّى خمسة وتسعون في المئة من البشر أن يعيشوه؟

كنتُ كما تعلم أريد أن أخفّ للتشرف بزيارة سمو الأمير، أيده الله، لولا أني تصعب علي الحركة في أيام السلم، فما بالك بها أيام الحرب؟ وقد اعتدتُ في الحروب أن أقبع في داري وأشتغل بنفسي، وكذلك أفعل الآن. على أن صحتي ليست على ما يرام، وقد التزمت البيت هذا الشهر أكثر من عشرين يوماً. وأنا الآن لا أتناول لحماً ولا ملحاً، وأكتفي في تغذيتي بالبقول والفاكهة واللبن لأن معي زلالاً.

والحاصل فإن المرء متى جاوز الستين لا تراه إلا عند الرفّاء أوالسكّاف أو المجبِّر. ومن عمّره الله ستين عاماً فقد أعذر إليه. اتفقت كلمة الأطباء على أن

---

(١) - ملف ٨٤/ ٥٦٦، والبارودي كان في تلك الفترة لاجئاً في الأردن.

أخفّف العمل العلمي، وذلك سأخلق لي في القرية [1] أعمالاً تصرف ذهني عن الكتاب والكتابة ساعات من النهار. ولعلي أوفق إلى ما أريد حتى أقضي الأيام الباقية لي في الحياة بدون أسقام ولا آلام.

سأبلّغ أصهاري سلامك، وصديقنا أبو صالح أديب أفندي شبيب هو الآن في الحج. أعاده الله إلينا سالماً. وابنك طريف عقدنا له على ابنة عمه محمود السيدة اعتماد وابنة عمك. وهو الآن في بيروت مستخدم في شركة أمريكانية، وقد طلّق الطيران طلاقاً ثلاثاً. وقد سُرَّ جميع الناس من هذا القران. أرجو أن يكون سعيداً.

الأخ الأستاذ خليل مردم بك يذكرك معي دائماً، وهو مشتاق إليك، وكذلك كثير من إخوانك وعشاقك يعتبرونني هنا سفيرك لأبلغك سلامهم وأشواقهم. وغاية رجائي ألا تقطع كتبك عني فهي سلوتي.

وأسأل الله أن يعجّل برفع بنود السلام على الأنام.

أرسلت كُتاباً خاصاً لسمو سيدي الأمير المعظم.

دمشق غرة المحرم ١٣٥٩ — محمد كرد علي [2]

---

(١) - قرية جسرين في الغوطة الشرقية.

(٢) - ١٨٧٦ - ١٩٥٣م محمد بن عبد الرزاق كرد علي، مؤسس المجمع العلمي العربي ورئيسه، وصاحب جريدة المقتبس والقبس، ومن أشهر مؤلفاته خطط الشام والمذكرات، وله ترجمة واسعة بقلم صديقه خير الدين الزركلي في الأعلام.

رسالة إلى الضمير الإنكليزي[1]

سيدي صاحب السعادة!

أتشرَّفُ بأن أعرض بأنَّ الإذاعة الفلسطينية أذاعت مساء يوم الثلاثاء الماضي الواقع في ٣/ ٩/ ١٩٤٠ خبراً كأنه يراد منه التلويح لروسيا وتركيا بالانتداب على سورية[2].

والإذاعة تكلمت بصراحة تامة ، كأنها تدلي ببيان عن وجهة النظر البريطانية في القضية السورية بعد استسلام الدولة الافرنسية بقولها لايحق لفرنسا أن تسلّم انتدابها على سورية لأحد، وعليها أن تعيده إلى جمعية الأمم، وهذه إما أن تعطيه إلى تركيا أو إلى روسيا.

ويظهر أنها بذلك تردّد صدى مانشرته جريدة «الإيفنغ ستاندرد» وأمثالها من الجرائد الانكليزية على سبيل إغراء الترك استجداء لمعونتهم، ولو أدى ذلك إلى اقتسام سورية اقتساماً جديداً لسوء حظها.

إنني كنائب سوري، وكمواطن عربي التحق بالثورة العربية الأولى عام ١٩١٦م وساهم بالعمل لنيل الاستقلال العربي، أرى من واجبي أن أوجه نظر

---

(١) - الرسالة موجهة إلى المندوب السّامي البريطاني في فلسطين وهو : «هارولد ماكمايكل» الذي حكم بين سنة ١٩٣٧ و سنة ١٩٤٣م.

(٢) - في تلك السنة، أشيع أن فرنسة تريد التنازل عن انتدابها في سورية إلى إيطاليا أو تركية أو روسيا. فعارضتها بريطانيا، وقالت إن ذلك ليس من حقّها.

سعادتكم إلى أن قيام الدعاية البريطانية بمساومات جديدة على حساب سورية العربية أيضاً ليس من شأنه إلا زيادة تسميم العلاقات البريطانية العربية، والقضاء على البقية الباقية من أمل في حسن نوايا الحكومة البريطانية في الحرب الحاضرة. وإن الهيئات العربية جميعاً تعتقد أن الباعث الحقيقي لمتاعب الحكومة البريطانية في الشرق الأدنى وضع الشعب العربي السوري منذ البدء في سوق المساومات الدولية.

ومن أكبر الأدلة على ذلك سلخ سورية الجنوبية عن سورية الشمالية، ثم سلخ لواء الإسكندرون العربي عنها، وإعطاؤه للترك خلافاً للعدل الدولي وحقوق الشعب. كما بُذلت الجهود لحرمان سورية استقلالها وحريتها المشروعة، فأنتج ذلك وقف مشروع المعاهدة السورية الإفرنسية قبل الحرب الحاضرة. وبالرغم من أن فرنسا هي التي أوقفت مشروع المعاهدة الذي صدقته الحكومة الشرعية آنذاك فإن العرب يعتقدون أن الصهيونية لها اليد العظمى في هذا الموقف، تدعمها الحكومة البريطانية.

لذلك فإنني بدافع من إخلاصي لوطني وللسلام، في الحاضر والمستقبل، أوجه نظر الشعب البريطاني النبيل إلى تجنبُ الوقوع في تجارب جديدة إزاء العرب، وأؤكد لسعادتكم أنه لو أمعنت السياسة البريطانية النظر عند إعلان الحرب العالمية الماضية لكافأت اليهود يومئذ على غير حساب العرب، فمنحتهم إحدى المستعمرات االخالية من السكان في أفريقيا أو غيرها[1]، ولعززت وأيدت استقلال سورية ووحدتها التامة، فأخرجت منها دولة حديثة متحدة مع الدولة العراقية، ومحالفة للحكومات العربية الأخرى تهب بمقدمة الشعوب العربية في أيام الشدة لتقاتل في سبيل القضية العربية معتمدة على جيش عربي منظم يجمع العراقي والسوري وحماة الأقطار العربية الأخرى، يقف في وجه المعتدين على بلاده وقفة على

---

(١) - وكنت في ذلك الوقت أظن أن الإنكليز يساعدون اليهود إرضاء لهم. ولم أكن أعلم أن اليهود هم الذين يرغمون أنف الإنكليز وغيرهم من الدول وقسرهم على تحقيق مايريد اليهود لأنفسهم.

بلاده وقفة جبار عنيد. وتكون لبريطانيا خير حليف تعتمد عليه أيام الشدة مُعترِفاً لها بالجميل.

غير أن ما أنتجه وعد بلفور، وتجزئة سورية وحرمانها الاستقلال والوحدة السياسية، قد كان ومازال باعثاً على ارتياب الكثرين من العرب بنوايا حليفتهم. وهذا الارتياب يزيده مثلُ الإذاعة التي نوّهتُ بها في مطلع كتابي هذا.

كما أنه لاتزيله بعض الخطب المنمقة التي تذاع من محطات الدعاية الإنكليزية ولا المقالات التي تنشر في الصحف العربية التي توجه توجيهاً خاصاً، ذلك لأن ضمير العرب قد استيقظ، وأصبح يدرك تمام الإدراك معنى هذه الدعاية والغاية منها، مقتنعاً بعد تجاريب أليمة أن أساليب الاستعمار العتيقة لم تعد صالحة لاستمالة العرب الذين يعيشون في بلاد هي ملتقى مصالح أمم كثيرة وممرّ عالمي لايستطيع حراسته غير أبنائه وسكانه بمساعدة حلفائهم الصادقين.

فلا الترك ولا الروس ولا الألمان ولا التليان ولا الإفرنسيون ولا الإنكليز ولا الصهيونيون أولى بالوطن العربي من أبنائه وأصحابه الحقيقيين. ولايمكن لأية دولة المحافظة على هذه الأقطار إلا بمساعدة أبنائها. وحبذا لو أن بريطانيا العظمى، وقد انفردت على حدّ قولها بالدفاع عن الأمم الصغيرة وحرية العالم، تعلن تأييدها لاستقلال سورية ووحدتها التامة بحدودها الطبعية، وتتعاون مع الهيئات العربية قبل فوات الوقت والأوان. وعندئذ فقط تجد أن ضمير الأمة العربية الحقيقي إلى جانبها، من خليج فارس حتى المحيط الأطلسي، لابعض الألسنة والأقلام المأجورة، لأن العرب أوفياء في حالة إخلاص السياسة البريطانية لقضيتهم العادلة إخلاصاً حقيقياً مؤكداً بالمواثيق الصحيحية التي ليس فيها لبس ولا إبهام، أو أي تأويل، يجدون في بريطانيا العظمى حليفاً يتعاونون معه في السراء والضراء. (لأن الأنكليز يحتلون قسماً كبيراً من البلاد العربية المحيطة بسورية)[1].

(١) - هذا لأن إنكلترا كانت في ذلك الوقت هي الحاكمة المطلقة في فلسطين وشرق الأردن والعراق ومصر والهند.

يقول المثل العربي: «الصديق عند الضيق»، وهل من ضيق أشد من هذه الحرب الطاحنة التي خاضت إنكلترا غمارها منذ أيلول عام ١٩٣٩ إلى اليوم. فما هي الأعمال التي قام بها العرب حيالها غير تصريحات بعض رجالهم بتأييد الديمقراطيات وإظهار محبتهم للحكومة الإنكليزية بالقول فقط؟ في حين أن في قدرتها أن تأخذ تأييد جميع العرب بكاملهم إذا أرادت ذلك. وهذا التأييد ليس بالقول بل بالفعل. لايوجد بين الأمم محبة وغرام لأجل العيون! إن هنالك مصالح تربط الأمم بعضها ببعض. وكل حلف بين أمتين لابد من أن يرتكز على فوائد مادية ومعنوية لكل منهما حصة بمقدار الجهود والعمل الذي تقوم به. فهل إنكلترا بحاجة إلى حلفائها العرب في هذه الحرب الضروس أم لا؟

أعتقد أنكم تشاركونني الرأي بأنه لأجل اكتساب الحرب يجب أن تكون إنكلترا قوية بالمال والرجال. أما المال فلديها موفور على مانؤكد وتعتقد، وبإمكانها الدوام على الحرب عدة سنوات أخرى. وأما الرجال فمن المستحيل أن تقدر الحكومة البريطانية على الحرب سنوات طويلة إذا لم يكن لها مورد من الرجال لاينضب. وهذا لايتم لها إلا بمصادقة الشعوب التي حالفتها أو التي وقعت تحت إدارتها في الماضي. وهذا يحتاج إلى استجلاب القلوب وإعطاء كل ذي حق حقه. إذا كانت الظروف السابقة لم تسمح لبريطانيا بانتهاج السياسة الرشيدة. وقضى الحال بإضعاف العرب بدلا من تقويتهم في السنين السابقة التي مرت بعد الحرب الماضية (وإن المكافأة التي نالها العرب بعد تلك الحرب لاتتناسب والمعونة التي أسدوها للحلفاء يومئذ، والنتيجة التي انتهى إليها حليفهم المرحوم جلالة الحسين بن علي ملك العرب، لم تزل تحزّ في قلب كل عربي مخلص لعروبته) فمن الضروري تلافي هذا الخطأ والرجوع عن السياسة السابقة وإيجاد طريقة مستعجلة لتنظيم العرب وتوقيتهم للحصول على نتائج فعالة يمكن للطرفين الاستفادة منها.

قال أحد علماء الإنكليز: «إن سبب نجاح الأمة البريطانية هو أنها ذات ضمير قومي حي، وهذا الضمير لايمنعها من أن تقع في الخطأ، ولكنه يمنعها من الاستمرار

في أخطائها بعد أن تقع فيها». إذا على بريطانيا أن تصلح مافات لتحفظ حلفاءها في الآتي.

وإذا رجعتم إلى الإحصاءات الرسمية في قيود الحكومة الإنكليزية وإلى أقوال رجال بريطانيا المسؤولين، وأقوال البارزين من رجال الدول الذين كانوا يحاربونكم حينذاك، ظهرت لكم الحقائق الناصعة، وعرفتم خطأ السياسة البريطانية في ترك العرب بعد قيامهم معكم مدة عشرين سنة يعانون الأمرين في مقاومة السياسة الاستعمارية والتقسيم وتحويل جهودهم من الدوام على التنظيم الى العمل لإحباط الدسائس التي كانت تحاك حولهم في كل ناحية في الداخل والخارج من قبل الدول الصديقة والعدوة، قبل أن يتم نضجهم السياسي، وقبل أن يبلغوا الرشد الكامل. هذا العراق أحسن نموذج للتدليل على صحة كلامي. فإنه وصل إلى الدرجة التي هو فيها بالمساعدة القليلة التي رآها من حكومتكم بالرغم من العراقيل التي كانت توضع في سبيل تقدمه.

إن التاريخ الرسمي الإنكليزي للحرب العامة الماضية يعترف أن المصاريف التي صرفت على الثورة العربية من مال وعتاد وأطعمة وغيرها لاتزيد على عشرة ملايين جنيه. في حين أن الأموال التي صرفت على الجيوش البريطانية في جبهة سيناء وفلسطين بلغت مئات أضعاف هذا المبلغ. مع أن الأعمال الحربية التي قام بها الجيش العربي الفتي الذي تشكل أثناء الثورة، لم تكن تقل عن أعمال الجيوش البريطانية في جبهة سيناء وفلسطين، كما أن الأموال التي صرفتها الحكومة البريطانية لإخماد ثورة العراق بلغت أربعين مليوناً من الجنيهات على مايقال[1].

قال اللورد سيسل، وزير الحصار البريطاني في مجلس اللوردات في الخطاب الذي ألقاه أواخر الحرب الماضية:

(١) – قامت هذه الثورة في حزيران سنة ١٩٢٠، عقب إذاعة بنود اتفاقية سان ريمو، وعمّت العراق كله وسقط فيها آلاف الشهداء والجرحى وذلك بعد أن قمعتها السلطات البريطانية في عهد المندوب السامي البريطاني أرنولد ولسن بمنتهى الوحشية، وحلت الأحزاب وأقفلت الصحف، وانتهت الثورة بمجيء سير بيرسي كوكس في تشرين الأول سنة ١٩٢٠.

«كـان للتـرك عند إعـلان الثـورة العـربيـة في الأقطار الـحـجـازية جـيش نظامي مؤلف من عشرين ألف جندي مزود بالمدفعية المتناسبة، وكل لوازم النقليات والمواد الغـذائيـة والعـتاد عـلاوة على سكة حديد تصل الجيش التركي مع مراكزه الشـمـاليـة . وبـالرغـم من أن العـرب الـذين انضـمـوا تحت لواء الـحـرب لـم يكونـوا منظمين ولا مزودين بالأسلحة الحديثة، فقد تمكنوا في أول الحركة من الاستيلاء على جدة ومكة والطائف وينبع والوجـه والعـقـبـة وتيـمـاء . وعلى أثر ذلك انضم إلى جـانب مـلك الحجاز كثير من القبائل العربية، وتطوع في الجيش العربي كثير من الضباط (الذين كنت أنا أحـدهم)، والجنود العـرب المأسـورين عندنا . فـشكل جـلالتـه قـوة مـتـمـرنة مستدية ليحفظ بها ماستولى عليه ويوسع نطاق الاستقـلال العربي . ولقد كانت نتيجة الجهـود لتي بذلها هذا الجيش القومي تطهير مسافة ٨٠٠ ميل من سواحل البحر الأحمر من الأتراك، والخسائر التي لحقت بالأتراك جسيمة جداً .

ويمكننا أن نقـول بكل اطمـئنان : إن القـوات العـربيـة قـد حـصـرت وأسـرت وشـاغلت ٤٠ ألف جندي تركي . وتمكنت من غنيـمـة أكثـر من مـائة مـدفع . وبالرغم من انهماك الحكومـة الحجازية في الجهاد في سيبل الاستقلال فقد تسنى لها فتح عهد جديد من النظام والترتيب لم تعرفهما الحجاز تحت سلطة الأتراك» .

وجـاء في تـقـرير اللورد اللـنبي الذي أرسله إلى وزارة الـحـربيـة البـريطانيـة سنة ١٩١٨ عن أعمال الجيش العربي ما نصه :

«أشكر لجـلالة الحسين بن علي إخـلاصـه العظيم لقـضـيـة الحلفـاء . ولا أملك نفسي عن توجيه عـاطر الثناء إلى سـمـو الأمير فـيصل لما أبداه من مهـارة في الأعـمال العسكرية التي قام بها الجيش العربي . وقد سـاعد الحلفـاء مساعدة كبيرة على نتائج فاصلة في الحرب» .

أما غير الإنكليز فإليك بعض أقوالهم :

قال الجنرال فون كرايس الألماني، رئيس أركـان حرب الجيش الرابع العثماني، وصاحب كتاب : حروب سيناء :

«لولا الثورة العربية لما استطاع الانكليز دخول فلسطين، لأن الجنود الأتراك الذين كان العرب يشاغلونهم من درعا إلى المدينة كانوا أكثر عدداً من جبهتنا الفلسطينية».

ومن رسالة مطولة أنشأها مدير شعبة الاستخبارات التركية في الجيش الرابع، أحمد رمزي بك، وصف بها أعمال العرب العسكرية ومهاجمتهم الجبهات التركية، قال:

«لولا وجود جيش عربي وقف موقف العداء من الترك في جزيرة العرب وفي ساحة حربية طولها ألف كيلو متر لما تمّ للجيش البريطاني إحراز ما أحرزه من النصر بهذه السرعة العظيمة وبدون كبير عناء. وإلى الجيش العربي يعود الفضل في بلوغ الإنكليز قلب البلاد العربية واحتلال القدس وجناحهم الأيمن مكشوف. ولولا هذا الجيش لكان باستطاعة العثمانيين القيام بحركة التفاف على الجيش البريطاني وإجباره على التقهقر».

هذا بعض ما قاله رجال الإنكليز وغيرهم عن العرب في ثورتهم ضد الأتراك، إخوانهم في الدين، والذين عاشوا معهم في مملكة واحدة أربعمائة عام، فحاربوهم لأجل نيل استقلالهم. لا لأجل أن يقوموا «من تحت الدلف إلى تحت المزراب».

وإذا أمعنتم النظر فيما ذكرته لكم رجعتم إلى عهد الثورة العربية أثناء الحرب العامة سنة ١٩١٦ وما قاموا به من الأعمال الجديرة بالتقدير رغم تأخرهم الثقافي ذلك الحين أركتم قيمة المعاونة التي يقدرون أن يقوموا بها اليوم بعدما أصبح لهم هذه الحكومات شبه المستقلة، وهذا الجيش الجرار من الشبان المثقفين، إذا عرفتم كيف تُقوّونهم وكيف تساعدونهم على إنشاء وطنهم القومي إنشاءً حراً.

إن بريطانيا العظمى لأجل أن تربح الحرب لا بد لها من أنصار، والعرب الذين لا يقل عددهم عن ٧٠ مليون نسمة هم قوة، إذا عرفت بريطانيا كيف تستفيد منها. فما هي الطريق إذاً للاستفادة من هذه القوة العاطلة اليوم؟

أولاً: العمل بسرعة وإخلاص على بناء كيان للعرب ومعاونتهم على تأسيس دولة عربية مستقلة متحدة، وتشكيل جيش نظامي قوي يمكنه الوقوف أمام أي قوة أجنبية تريد اكتساح بلاده، لأن العرب هم في أول الأهداف في هذه الحرب. ولا أدري: هل تتمكن الحكومة البريطانية وحدها من الدفاع عنهم دون مساعدة أهل البلاد أنفسهم؟

ثانياً: تصريح رسمي صريح لا لبس فيه ولا إبهام حاوٍ على المواد الآتية:

١- تعلن إنكلترا على الملأ أنها تعترف باستقلال العرب الحقيقي وتساعد على بقائه، وتوافق على إنشاء دولة عربية تحت راية واحدة، وللعرب الحق المطلق في تعيين شكل حكومتهم العربية.

٢- إن إنكلترا تعترف باستقلال سورية بحدودها الطبيعية، وتترك لأهلها حق تعيين شكل الحكم الذي يريدونه بواسطة مجلس تأسيسي يضع القانون الأساسي لها.

٣- إلغاء وعد بلفور والعدول عن فكرة جعل فلسطين وطناً قومياً للصهيونيين. أما اليهود الموجودون حالياً إذا أرادوا أن يبقوا كمواطنين لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإذا شاؤوا تمنح لهم حقوق الأقليات كغيرهم من العناصر غير المسلمة.

٤- إصدار عفو عن جميع المسجونين السياسيين من أبناء العرب في فلسطين وغيرها من البلدان التي هي تحت النفوذ البريطاني والمبعدين أو الفارين عنها.

٥- المساعدة على عقد مؤتمر عام بالسرعة الممكنة، تشترك فيه حكومات الأقطار العربية المستقلة ورجال الوطنية الأحرار الذين يعملون لتحرير أقطارهم للبحث في الأمور الآتية.

آ- تشكيل جيش عربي نظامي، والبدء في ذلك من تاريخ انفضاض المؤتمر الذي يجب أن يعقد بأسرع ما يمكن من الزمن ليقوم بعد سنة مقام الجيوش الافرنسية

التي كانت تتولى مهمة الدفاع عن الجبهة الشرقية وفي الوقت نفسه تتمكن إنكلترا من سحب ما يلزمها سحبة من الجيوش التي خصصت للدفاع عن هذه الجبهة.

ب- فتح مدارس للضباط وصف الضباط في قطر أو أكثر من الأقطار العربية تكون برامجها واحدة، يقوم على إدارتها وأمر التعليم فيها أقدر الضباط العرب الموجودين الآن، تساعدهم طائفة من أقدر ضباط الإنكليز مساعدة حقيقية، لإخراج ضباط عرب يمكنهم تأسيس جيشٍ فتيٍ على أحداث طراز. على أن تُتخذ الأسباب اللازمة لجعل هذه المدارس كمدارس الإنكليز العسكرية ليمكنها القيام بإخراج العدد المطلوب لهذا الجيش العربي الجديد.

ج- تخصيص المبالغ اللازمة لتشكيل هذا الجيش وشراء السلاح والعتاد، واللوازم المطلوبة له تعطى بصورة قرض الى العرب، على أن يقسّط هذا القرض لمدة عشرين سنة، تبدأ من السنة الخامسة من تاريخ انتهاء الحرب. تدفعها الحكومات العربية المتحدة، كل قطر منها حسب مقدار الجنود التي يقدمها هذا القطر إلى الجيش العام حسبما يقرر المؤتمر.

د- إرسال بعثات عملية في جميع نواحي الحياة بكثرة. خصوصاً النواحي العسكرية منها إلى أمريكا والممتلكات الحرة[1]، لتحصيل العلوم الميكانيكية والطيران وجميع الفنون الحديثة ليستفيد منها الجيش أولا، ثم لإعداد شبيبة مثقفة ذات اختصاص للعمل بتأسيس الحكومات العربية بعد الحرب على طريقة حديثة توصلها إلى الدرجة اللائقة بها بين الدول.

بهذه الطريقة يمكن لبريطانيا العظمى أن تجد حلفاء يقفون بجانبها وقفة المستميت. وعقب انتصارها لاخوف عليها من قوة هذه الجيوش لأن الحكومة التي تنتصر على دولة كدولة الألمان لاتخاف من دولة حليفة كالدولة العربية المتحدة التي

---

(١) - في ذلك التاريخ كانت طيارات الألمان تضرب الجزر البريطانية، وكان من المستحيل الوصول الى تلك الجزر. لهذا طلبت إرسال البعثات إلى أمريكا.

ستكون وليدة الحكومة البريطانية، ولا يعقل أن يثور العرب على الإنكليز مادام هؤلاء يخلصون لهم الود.

والآن فلنبحث الفوائد التي ستجنيها إنكلترا من العرب مقابل هذه المساعدة التي ستكلفها جهوداً عظيمة ومتاعب جمّة وأموالاً طائلة. إنها فوائد جليلة ذات شأن منها:

١- تمكين الصداقة والود بين البريطانيين والعرب. تلك الصداقة التي هم أحوج إليها من أي يوم مضى لضمان مصالحهم المشتركة.

٢- مساعدات عسكرية خطيرة ذات قيمة لا يستهان بها، يقدمها العرب للإنكليز في هذه الظروف العصيبة، مما يكون له أثر كبير في تحقيق انتصارهم المنشود.

٣- تأمين سلامة المواصلات الإمبراطورية.

٤- تخفيف العبء عن كاهل الحكومة البريطانية في الدفاع عن هذه البلاد وحمايتها.

٥- ترجيح رعايا الحكومة البريطانية على غيرها بتأسيس الشركات وإعطائهم الامتيازات في الأعمال اللازمة للبلاد العربية، على أن تختار الحكومة العربية رجال الأعمال لا أن يفرضوا عليها فرضاً.

٦- تأمين المصالح الاقتصادية المتبادلة بين الشعبين الإنكليزي والعربي، فيما إذا ربحت بريطانيا هذه الحرب.

أما إذا خسرتها -لا سمح الله- فليس معنى هذا أن الإنكليز سيمحون من الوجود، ولابد لهم بعد زمن من العودة إلى العراك في هذه الحياة. فتكون بعملها هذا قد وضعت بيد الشعب العربي سلاحين، سلاحاً مادياً وآخر حقوقياً، لهما أهميتهما مهما يكن شأنهما. فلا يصيب العرب ما أصابهم عقيب خروج الجيش العثماني من بلداهم. وبذلك تكون ادخرت لنفسها حلفاء للمستقبل.

هذا ماخطر لي أن أقوله. فأرجو من سعادتكم تقديم هذا الكتاب إلى وزارة خارجيتكم لدرسه، عسى أن يكون منه فائدة للأمتين الصديقتين، وتفضلوا بقبول فائق احترام المخلص لوطنه.

عمان ١٤ أيلول ١٩٤٠

عضو المجلس النيابي السوري

محمد فخري البارودي

وقد أرسل هذا الكتاب إلى فخامة المندوب بواسطة المعتمد البريطاني في شرقي الأردن، المستر كاركبرايت. وقد أخذت منه الجواب الآتي:

الرقم: س/ ٤٩٧/ ٤٠.

٥ أكتوبر ١٩٤٠

سيدي الفاضل

أوعز إليّ فخامةُ المندوب السامي لشرق الأردن بأن أبلغكم أنه تلقى مذكرتكم المؤرخة في ١٤ أيلول سنة ١٩٤٠. وتفضلوا بقبول احترامي

كاركبرايت

المعتمد البريطاني



سعد الله الجابري، رئيس الوزراء في مكتبه ١٩٤٤

مردم بك والحفار
في بغداد

سلاماً واحتراماً وبعد[1]:

وصلني كتابكم الكريم، ولا أدري والله كيف أصفُ لكم حالتي النفسية عند القراءة، وكيف تطورت من سرور لألم، ومن ألم لغبطة. روحكم المعروفة، وكلماتكم اللطيفة، واهتمامكم بنا وعظمة نفسكم قد ولَّدتْ فينا ذلك السرور المفعم بذكريات الماضي، عندما كانت الرؤوس تتطاول، والرجال تتزاحم، والوفود تتقاطر هيبة وإجلالاً لكم.

وحالتكم الآن في عمان، والأخصام الذين أعرفهم وغيرهم، المطبوعون على السوء، همهم في الحياة الحط من كرامة الرجال المخلصين لإشباع أنانيتهم وحسدهم، والمجتمع الفاسد الذي جعل لهؤلاء الناس مقعداً في الحياة ورأياً في الرجال المصلحين، ما ولدّ في نفسي الألم وتلك النقمة الموجهة لهذا النوع من البشر المؤذي.

وعلى كلٍّ، سيدي الكريم، ليست هذه بالمرة الأولى التي تصادفونها في الحياة. فأيامكم مملوءة بمعارضات أمثال هؤلاء العناصر المضرة، والتي ماكنتم لتلتفتون إليها أو تأبهون بها، فالبلاد هي الحكم الفاصل، ولكم من الفخر والعزة مالو وُزِّع على أهل البلاد لكفاهم وطنية وإخلاصاً.

---

(١) – الرسالة موجَّهة إلى فخري البارودي، من إحسان البزرة في بغداد.

وما أجمل قولكم: «نحن في زمن هو أبو العجائب». ومن قوانين الطبيعة منذ القدم وجود نهار لكل ليل، وصيفٍ لكل شتاء، ومدٍّ لكل جزر، ونور من بعد ظلمة تظهر فيه الحقائق، وعندها كما قلتم تحاسب الآن كل رجل على ما كسبت يداه.

سيدي الكريم!

منذ يومين من تاريخه إلى ١٧ تشرين الأول حضر لبغداد حضرة رئيس الوزارة السورية السابقة جميل بك بصحبة لطفي بك. وقد حلّوا بفندق زيا (شارع الرشيد). وكان خروجهم من دمشق بصورة سرية وبدون دراية أحد، وكان التوفيق حليفهم. فاجتازوا الحدود بدون أي حادث أو مشقة، ووصلوا بغداد (٢٨ ساعة). ولا يمكن أن يصف الإنسان تلك القدرة التي أظهرها شوفيرهم في هذه المهمة، لأنه كان دليلهم أيضاً. وقد رافقَهم من دمشق فوزي تللو.

ومنذ وصولهم بغداد والوفود تتقاطر للسلام عليهم، حتى كتابتي هذه الرسالة. ومما يجدر ذكره أن بعض الناس الذين تعرفهم، والذين كانوا يكيلون له ولأصحابه الشتائم والنواقص، ويروون عنه المزريات والمخزيات، ويتفاخرون أمام الناس بأنهم أرفع شأناً وقدراً كانوا أوّل من ذهب لزيارته، ناعتين إياه برجل البلاد ومنقذها... إلى ما هنالك من الألفاظ المخترعة. ولكني أعتقد أنه يعرفهم جيداً ولا يخدع بهم.

والأجمل من هذا أنهم لم يتجاوزوا عتبة غرفته حتى ابتدؤوا بوظيفتهم المعهودة، وهي الدسُّ والشتم. ولكن أكثر الطبقات بطرفنا كانت تقابلهم بأنواع الاشمئزاز والتهكمُّ. قدَّرنا الله على إزالتهم من السلك السياسي وأراح الأمة من لسانهم وضرر أعمالهم.

ويهمنا جداً، سيدي الكريم، أن نطلب من حضرتكم التفكير بالحضور لبغداد بمناسبة مجيء إخوانكم علكم تدرسون هذه الفكرة وتنال بالنهاية موافقتكم. أما نا فلا أعلق على هذه الفكرة إلا بالموافقة لأنها تكون سبباً لسرورنا وسروركم أيضاً.

وإني على استعداد للسير على خدمتكم كولدكم. وليس لي ما أقوله غير هذا لأن مصلحتكم فوق كل شيء.

وبالنهاية أحمل لكم سلام الأخ زكي العجلاني. وهو يدعو لكم ليلاً ونهاراً، ويطلب من الله أن يساعده لخدمتكم، فقد امتلأ أملاً وحياة بجوابكم اللطيف. وهو الآن بانتظار جواب الإذاعة لكم، وأرجو أن تبلغونا إياه سواء كان بالإيجاب أو السلب، لأنه اكتفى باهتمامكم به وتقديركم له، علّ الله أن يلهم الإذاعة لقبوله، وهو لكل شيء قدير.

كلفتُ الأخ صبحي الشماع بطرفكم أن يطلب منكم مساعدته بالبحث عن أحد أقربائنا المسمَّى عبد القادر البزرة. وأنا بانتظار جوابه عنه، لأنه كتُب لي من دمشق أنه حضر لعمَّان واشتغل بطرفكم، ثم انتقل، وهكذا لا أعلم أين مصيره الآن. علّكم تسعفونا بأخباره إن لم يكن مانع من ذلك.

وأنا بانتظار جوابكم، إن أردتم، عن فكرة حضوركم، وعن الإذاعة إن أجابت إن شاء الله، وعن قريبنا عبد القادر. مع إهدائكم سلام الأستاذ فهمي بك وهو جداً وصدقاً مشتاق لكم. مع إهداء سلامي للأخ مصطفى بك حيدر. والسلام عليكم.

بغداد ٢٠/ ١٠/ ١٩٤٠

ولدكم المشتاق

إحسان البرزة[1]

كتُب جوابه في ٩/ ١١/ ١٩٤٠

وكتُب أيضاً كتاب بهذا التاريخ إلى الإذاعة

---

(١) - الملف ٨٤/ وثيقة ٥٨٦.



جميل مردم بك، رئيس الوزراء ١٩٤٨

رجـــــالات
شرق الأردن يطلبون الالتحاق بسورية

أرسل وجهاء شرقي الأردن وزعماء قبائلها أعضاء مجلسها التشريعي إلى الجنرال ده غول البرقية الآتية :

سعادة الجنرال دوغول زعيم فرنسا الحرة!

لقد اطلع زعماء شرق الأردن ومفكروها وأصحاب الرأي ومتموّلوها وملاّكوها على التصريح الذي صدر عن الجنرال كاترو ممثلكم، وقائدا لقوات الفرنسية الحرة، أثناء زحفه على سورية ولبنان مع القوت البريطانية بكل اهتمام، وإنهم جميعاً يشكرون فرنسا الحرة على تصريحها برفع الانتداب عن سورية ولبنان والاعتراف باستقلالهما وسيادتهما، وأن ذلك مكفول منها، وعلى أن فرنسا الحرة ستكون إلى حين انتهاء الحرب مع سورية ولبنان كحليف مع حليفه وكندٍ مع ندِّه.

وإن هذا العمل الباهر وتلك النيَّة العادلة ليسجّلان بلسان الثناء، على أن البلاد الأردنية التي هي الجزء المتمم لسورية ولبنان التي أحرزت مكانة سامية متبعة خطة متّزنة في سيرها المعقول تجاه الانتداب الفرنسي في القسم الشمالي من البلاد، ألا وهو سورية ولبنان، والتي سارت مع الانتداب البريطاني عليها بتعاون كامل، تُعلن لبريطانيا العظمى وفرنسا الحرة بأنها جزء لا يتجزأ من سورية العزيزة مسجلة عدم إشراكها في العمل الذي سيبنى عليه مستقبل البلاد السورية بحزن عميق مؤكدة

عزمها على السير نحو وحدة سوريَّة واستقلالها وسيادتها المعلنة والمضمونة، راغبة مساهمتها في عملية التحرير الحاضرة وبناء مستقبل البلاد وبدون تأخر، وإنها لتعدُّ هذا الطلب مهمة قومية بنيت على أساس متين من الرغبة في الصداقة والتعاون الوثيق مع بريطانيا العظمى وفرنسا الحرة.

عمَّان ٩/ ٦/ ١٩٤١

شيخ مشايخ بني صخر: مثقال الفايز.

شيخ مشايخ البلقا: ماجد العدوان.

عضو المجلس التشريعي ورئيس غرفة تجارة: محمد صبري الطباع.

مفتي عمان: عمر لطفي.

نائب رئيس البلدية: حمدي منكو.

الصيدلي: محمد سليم الصباغ.

عضو المجلس التشريعي: سعود النابلسي.

رسالة إلى الأمير عبد الله بن الحُسين
حـــول سوريّة الكبرى

بأيدي التعظيم، أخذت كتابكم المؤرخ في ٢٣ حزيران ١٩٤١، وتلوته بكل احترام. وقد رأيت أن أعرض للمقام السامي ما خطر لي في صدد ما تفضّلتم به مما يُلائم أوضاعنا الحاضرة ويحقق أماني الجميع. وبهذه المناسبة أبتدر القول بتقديم واجبات احتراماتي الخالصة أولاً، ثم أعرض لمولاي بأننا منذ لبيّنا نداء المغفور له جلالة الملك حُسين عملياً ونحن مؤمنون بمبادىء الوحدة السورية بوجه خاص والوحدة العربية بوجهٍ عام. وهذا واجب قومي مقدس فرض على كل عربي أن يؤمن به، وأن يعمل على تحقيقه لافضل لنا به. وكل من لا يؤمن به فهو إما مُغرض أو جاهل. ولا بدَّ أنَّ مولاي يعلم أنني واضع النشيد الذي كأنه ميثاق الوحدة:

بـــلاد العـــربُ أوطـــانـــي   مـــنَ الشـــامِ لبغـــدانِ
ومـــن نجـــدٍ إلـــى يمَـــنٍ   إلـــى مصـــرَ فتـطـــوانِ

فالذي لا يرضى إلا بتطوان هل يتأخر عن طلب فلسطين وشرق الأردن ولبنان؟ ولكن المهم الوصول عملياً إلى تحقيق هذا المثل الأعلى. ويظهر الآن أن الفرصة قد أصبحت سانحة لتحقيقه من الوجهة العملية. والمسألة موقوفة إلى حدٍّ كبير على حسن التصرُّف في المساعي الخارجية والداخليّة وحُسن نوايا الحلفاء.

وقد مرّت بنا تجارب مهمة سابقة يجب أن نستفيد منها. والعاقل من يتعظ بالماضي لفائدة الحاضر. ولا ريب أن وسائط العمل موفورة لدى سموكم أكثر من أي إنسان، ولا سيما في الظروف الحاضرة.

أولاً: بصفتكم ورثة العهود المقطوعة لجلالة المغفور له والدكم، خاصة بشأن سورية.

ثانياً - بصفتكم حاكماً فعلياً عى جزء مهم من سورية على أساس التحالف مع الحكومة البريطانية التي سبق لها أن وعدتكم عام ١٩٢١، بلسان رئيس وزارتها الحالي المستر تشرشل بتأسيس الكيان السوري العام بزعامتكم.

ثالثاً - بتوفر الأسباب لدى حليفتكم البريطانية في الوقت الحاضر لتحقيق وعودها السابقة بالاتفاق مع حلفائها زعماء فرنسا الحرة والولايات المتحدة ذات الأثر الفعال في السياسة العالمية.

بقي علينا أمر الشعب السوري فهذا نرى أن عودته إلى ميثاقه الأصلي الشرعي كاف في هذا الباب، وهو تبنّي قرار المؤتمر السوري التاريخي الصادر في ٨آذار ١٩٢٠، القائل بوحدة سورية بحدودها الطبيعية في ظل العلم العربي ذي النجمة البيضاء، الذي لا يخفق الآن إلا في شرق الأردن، والذي حاولت بعض الدول بشتى الوسائل طيّة من عالم الوجود، فظلّ منشوراً بمعونة الله وحكمة سموكم، وأرجو الله أن يعود خفّاقاً كما كان في الماضي على جميع الأقاليم السورية مرفرفاً في الوقت نفسه بجانب أخيه العلم العراقي في جو الاتحاد العربي القادم. ونحن نرى أن التشكيلات المنظمة لتحقيق المثل العليا واغتنام الفرصة السانحة أفضلُ من البرقيات والمضابط التي لا يقام لها وزن إلا إذا اقترنت بتوجيه ثابت وعمل منظم.

ولما كان الوقت يمرُّ مرَّ السحاب، ودمشق ما تزال في معزل عن بقية إخوانها من البلدان السورية، فإن دعوة المؤتمر العام في الوقت الحاضر سابقة لأوانها. ولكن من الممكن في حالة إتمام المساعي الخارجية المشروعة حتى لا تُمنى المساعي الداخلية

بالفشل، أخذ البيعة العامة من بلد يتم التحاقة بالوحدة التي يجب أن يعترف بها الخلفاء مقدماً ويعلنوا بياناً رسمياً بشأنها تحقيقاً لعهودهم ووعودهم السابقة لجلالة والدكم المرحوم حسين ولوعودهم الأخيرة التي تزال معلقة للشعب السوري والبلاد العربية بصورةٍ واضحة جلية لا تحتاج إلى تأويل أو نقاش.

هذا ما رأيت أن أعرضه بدافع من إخلاص أكيد ووقوف تام على الأحوال العامة. وإني على كل حال مازلت المخلص لسموكم، والمستعد لتنفيذ أوامركم المحقَّقة لمصلحة البلاد سيدي[1].

٦/ ٧/ ١٩٤١

فخري البارودي

(١) - كانت غالبية الشعب السوري ترفض فكرة «سورية الكبرى» المقترحة تحت رعاية الأمير عبد الله، كما كانت ترفض فكرة الهلال الخصيب، وكان التيار السائد في الأربعينات هو التحالف مع مصر والسعودية ضد الأردن، والعراق والأسرة الهاشمية برمّتها، بعد ما توفّي الملك فيصل، ثم قتل ابنه الملك غازي سنة ١٩٣٩م، وقام حكم الأمير عبد الإله العميل للإنكليز، والذي قضت عليه ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨م.

عريضة مقدمة إلى الجنرال كاترو[1]

فخامة الجنرال كاترو المعظم!

إن البلاد في أشد الحاجة إلى الاستقرار في هذا الظرف. وإن إسناد الحكم إلى الرجال الذين تحقّق الشعب مراراً من عدم التفاتهم إلى مصالحه[2] يُدخل البلاد في أزمة يصعب معرفة نتائجها. إن مرور هذه الإشاعات على أفواه وآذن أبناء البلاد، ومعرفتهم بأن المراجع العليا توشك أن تضع مقدرات البلاد في يد هؤلاء الرجال الذين كانوا شؤماً على مصالح الأمة، قد أحدث ضجة في المحافل الشعبية. وليس في صالح السلطات المسؤولة في هذا الظرف العصيب أن تعود إلى تجارب جديدة ليست إلا دليلاً على الاستمرار في استهانة كرامة الشعب السوري وحقوقه.

وإذا كان في عزم السلطة الشروع في مفاوضات عتيدة لعقد المعاهدة التي ضمنها تصريح الحلفاء، فليست هناك وسيلة صالحة لهذا الغرض إلا استشارة أبناء البلاد عن طريق مجلس نيابي دستوري ينتخب انتخاباً حراً. إنها وسيلة واحدة، وكل وسيلة سواها ليست إلا إثارة للقلاقل والاضطرابات.

وفي الختام تفضلوا بقبول فائق احترامات المخلص لوطنه.

دمشق في ٧/ ٩/ ١٩٤١

فخري البارودي

---

(١) - جورج كاترو ١٨٧٧ -١٩٦٩، جنرال استعماري بارز، انضمّ إلى الجنرال دُوغول بعد انهيار فرنسة سنة ١٩٤٠م. فعينه بمنصب المفوض السامي في سوريةً ولبنان خلفاً للجنرال دانتز.

(٢) - يشير بذلك إلى الشيخ تاج الدين الحسني، الذي فرضه الجنرال كاترو رئيساً على البلاد في أيلول سنة ١٩٤١م، وبقي كذلك حتى وفاته سنة ١٩٤٣م.



الرئيس شكري القوتلي وحكومته ١٩٤٦

برنامج اقتصادي
مقدَّمٌ إلى السلطات البريطانية في سورية

إن المسائل الاقتصادية السورية تنقسم إلى قسمين: عاجل وآجل، ولما كانت البلاد بحاجة إلى الإنتاج في جميع نواحي الحياة الزراعية والصناعية والتجارية، رأيت أن أقدم هذا التقرير عسى أن تدرسه السلطة الإنكليزية[1]. فإذا وجدت فيه فائدة أسرعتْ لتطبيق ما يمكنها تطبيقه من مواده المقترحة وبذلك تكسب قلوب أهل سورية وعطفهم وتقطع ألسنة الدعاة المأجورين، حيث إن الأعمال البارزة تقضي على الأقوال الفارغة. والبرنامج هو:

المسائل العاجلة التي يجب عملُها بالسرعة هي:

١ - تأمين الأمن الداخلي ومنع تعدّي البدو الرحَّل على المزارعين وإيقاف المتنفذين من أنصار الحكومة الذين يستمدون معونتها بالانتساب إلى حزبها عن التعدي على الضعفاء من صغار المزارعين.

٢ - تأسيس مصلحة للإنتاج من رئيس ومعاونين وكتبة بقدر الحاجة لدرس أحوال الزراعة والصناعة والتجارة وتأمين حاجات الأهلين وبعض ما يلزم للجيش لزيادة الإنتاج، وذلك بإعطاء المزارعين ما يلزمهم من بذور المحصولات الصيفية

---

(١) - في حزيران سنة ١٩٤١ دخلت القوات الفرنسية (الحرَّة)، والقوات البريطانية، ومن المرجح أن يكون تاريخ هذا الكتاب سنة ١٩٤٢م، والله أعلم.

كالذرة والسمسم والحمص والبطاطا، وما يلازم للجيش من بذور الخضار التي لا توجد في البلاد، على أن تؤخذ منهم بعد قطف المحاصيل، وأن تعطى البذور عيناً لا ثمناً، وأن يعطى المزارع رأساً ما يلزمه دون واسطة أيٍّ كان، خوفاً من التلاعب واستثمار الوسطاء للمزارع البسيط.

٣- إصلاح مقاسم المياه المشتركة بين القرى وتطهير منابع الأنهر والعيون والقنى الرومانية وتنظيفها.

٤ - النظر بأمر مياه الشرب في البلدان، وتطيهر مياه الأنهر القذرة مثل حماة التي ما زالت منذ سنين تشكو من مرض الديزنتري نظراً لتلويث مياه العاصي بالأقذار التي تنزل عليه من مجاري حمص وحماة.

٥ - تأمين مدينة حلب بمياه الشرب وتخليصها من يد الشركة الحالية التي وضعت يدها على مياه هذه البلدة، ومنعت بواسطة السلطة السابقة نهر قويق من المسيل، وحرمت أهل حلب من مياههم. وهذه قضية يجب درسها درساً دقيقاً. وإذا تمكنت السلطة من تأمين حاجة الأهلين فإنها تكسب قلوب جميع أهل الشمال.

٦ - السماح لأصحاب المحاريث البخارية بجلب القطع الناقصة من فلسطين لأن كثيراً من هذه التراكتورات واقف لفقدان بعض الآلات. وهذا يسبب هبوط أجور الفلاحة بعدما صعدت في هذه المدة صعوداً فاحشاً، حيث أضحى أجرة فلاحة الدونم ثلاث ليرات ونصف ليرة سورية، بعد أن كان يتراوح بين الثمانين غرشاً والمائة غرش.

٧ - جمع جميع المتخرجين من المدارس الزراعية وإعطائهم أراضي من أملاك الدولة، وإقراضهم ما يلزمهم من البذار والآلات والحيوانات الزراعية. وبذلك يفتح للشبان العاطلين من حملة الشهادات أبواب العمل في دوائر الحكومة في الأمكنة التي يشغلها هؤلاء الزارعون.

وتخصيص قسم منهم لتربية الدجاج وللاستحصال على البيض واللحم اللازم للجيش. وهذه الإدارة يجب أن تكون تحت إشراف مدير متخصص قادر لتأتي بالفوائد المطلوبة.

٨ - حفر آبار في الأراضي الشرقية لإرواء البدو ومواشيهم. وبذلك يفتح للبدو الباب للتشريق باكراً، ويخف الضغط عن المزارعين.

٩ - حفر آبار في قرى حوران وغيرها من القرى التي تضطر بالصيف لنقل مياه الشرب من القرى المجاورة. وبذلك يتسنَّى للمزارعين أن ينتقلوا إلى زراعتهم في الوقت الذي ينقلون فيه المياه. ومنهم من يمشي ست ساعات يقضيها بالذهاب والإياب إلى القرى المجاورة لتأمين المياه، وترتاح الماشية والحيوانات الزراعية أيضاً.

١٠ - منعُ المتعهدين غير السوريين من التعهُّد في المنطقة السورية، وحصر التعهُّد في كل منطقة بأهلها، فاللبنانيون في لبنان، والفلسطينيون في فلسطين، والسوريون في سورية، ريثما يتم توحيد هذه الأقطار.

١١ - يجب وضع برنامج لمحطات إذاعات الراديو العائدة للحلفاء لنشر تعليمات زراعية مما يلزم تعليمهُ للزرّاع، وتعيينُ خطباء يتجولون في القرى والمزارع للإرشاد. وتعيين خطيب ديني وآخر زراعي اجتماعي لتحرير خطب الجمعة، على أن توزع الأوقاف هذه الخطب أسبوعياً على جميع المساجد. وإذا أمكن السلطة أن تعطي لكل قرية راديو مثل ما أعطت السلطة الإنكليزية لقرى فلسطين.

أما المسائل الآجلة فهي:

١- البحث في الموسم الشتوي القادم، وما يلزم للزرّاع من البذار: حنطة وشعير، وحثّهم على زيادة المزروعات بحيث يكون قد تم تحضير الأراضي وفلحها.

٢ - إحضار آلات زراعية وإعطائها للمقصرين بالفلاحة مقابل أجرة تؤخذ منهم من المحصول.

٣ - استجلاب موتورات وبيعها لأصحاب الأراضي الواسعة التي ليس فيها مياه تكفيها، وبذلك يمكن استحصال موارد كثيرة، لأن التجارب أثبتت أن الزراع المثرين الذين تمكنوا من شراء هذه الموتورات استفادوا منها وبإمكان إدارة المتوجات بيع هذه الموتورات بأسعار معتدلة مقسطة.

٤ - جلب أوائل صناعية وبيعها للأهلين أصحاب الصناعة، مثل المغازل ومعامل الورق المسامير وما إلى ذلك مما هو مفقود، لتتمكن سورية من إنتاج بعض ما يلزمها مدَّة هذه الحرب، لأن أسعار بعض الحاجيات المفقودة صَعِد عشرة أضعاف ما كان عليه قبل الحرب.

هذه الأعمال وأمثالها تقطع ألسنة الدعاة المأجورين، وتقرّب الأهلين من الحلفاء، وتحبِّبهم فيهم، ولا تعود السلطة بحاجة إلى نشر هذه الإعلانات التي نراها معلّقة في الأسواق والمحلات العامة التي لم تأتِ بأقل فائدة. بل بالعكس إنها تكلف مصارف باهظة بالإمكان صرفها في مسائل نافعة ومتى طُبّق هذا البرنامج تنشر الرسوم اللازمة عنه «فتسدّ حلق» المتبجِّحين من الدعاة.

أما قضية الإعاشة فعلى السلطة تعهُّدُها بوضع مستشارين من أهل الخبرة والضرب على أيدي رجال الحكومة الذين يتداخلون بالإعاشة لمساعدة أنصارهم ممن يمتُّ إلى حزب الحكومة.

هذا ما رأيت أن أقوله الآن. وإذا بدا لي شيء فيما بعد فسأتقدم فيه حالاً. والله الموفق إلى ما فيه الخير العام.

ملاحظـــة:

إن الأعمال التي تقوم بها السلطة بتشغيل العمال هي حريَّة بكل تقدير، والأهلون جميعهم مسرورن منها، ولولاها لكانت الأزمة الاقتصادية تفاقمت في البلاد ولا يعلم إلا الله ماذا كانت تجرُّ وراءها من الويلات.

ملاحظة خاصة:

ولي ملاحظة خاصة، وهي أن بعض الرجال والشبان السوريين المتهمين بتهم سياسية، وهم إلى اليوم يعانون أنواع العذاب في السجون، ذهبوا ضحية وشاية أخصامهم. فإذا كانوا حقيقة مجرمين فيجب أن يحاكموا أمام محاكم عادلة، والحكم الذي يصدر عليهم يُقبل. وأما أن يتركوا بالعذاب أشهراً انتقاماً فهذا مما يسيء إلى سمعة السلطة. وإذا كان هناك خوف من بعضهم، والشبهة تدور حولهم وليس عليهم دليل فبإمكان السلطة وضعهم في مكان خاص تؤمن فيه راحتهم ويعطون مصروفهم اللازم حتى تنجلي الحرب. وبهذا لا يترك للدعاة مجال للعمل.

فخري البارودي

دار رعاية الأيتام
صاحب الدولة وزير الداخلية السورية المعظم(١)

يتشرف مقدمه فخري البارودي بعرض ما يلي:

لقد تأسست في دمشق جمعية تسمى (جمعيةً دار رعاية الأيتام)، وقد أولتني شرف رئاستها وتمثيلها. فلذا أتقدم إلى دولتكم بنظامها الأساسي والداخلي مع استدعائي هذا طالباً التكرم بتصديقه وإعطائنا الرخصة الرسمية حسب الأصول، سيدي.

دمشق في ٨/ ١/ ١٩٤٥

الرئيس

فخري البَارودي(٢)

---

(١) - لطفي الحفّار.

(٢) - الملف ٧٢٨/٨٤.

النظام الداخلي

١ - تؤلف في دمشق جمعية باسم (جمعية دار رعاية الأيتام).

٢ - غاية هذه الجمعية إيواء وإطعام وإكساء الأولاد الأيتام المتشردين وتعليمهم صنعة يدوية حسب استعداد كل منهم وميله.

٣ - مركز هذه الجمعية مدينة دمشق في البناء المعروف بالعمرية الواقع بالقرب من ضريح (الشيخ عبد الغني) بالصالحية.

نظامها الداخلي

١ - تقوم على إدارة هذه الجمعية والإشراف على مؤسستها لجنة تؤلف من اثني عشر شخصاً، تؤلف للمرة الأولى من السادة:

الرئيس: فخري البارودي.

أمين السر: المحامي رياض العابد.

الخازن: عارف اللحام.

مساعد أمين السر: المحامي عبد الهادي الزركلي.

مساعد الخازن: خيري الدالاتي.

نائب الرئيس: السيد رشدي البعلبكي.

ومن السادة الأعضاء: عوض العامري، عبد الرزاق ملص، عزة الطباع، أنور الدسوقي، عبد الرحمن المارديني، ياسين الجابي.

٢- مدة هذه اللجنة ثلاث سنوات عدا الرئيس فتستمر مدة رئاسته خمس سنوات.

٣ - تُنتخب هذه اللجنة من قبل الهيئة العامة للجمعيّة، وهذه الهيئة مؤلفة من كل رجل تبرّع لها أو ساعدها في مهمتها. وهذه الهيئة العامة لا تدعى إلا مرة واحدة في كل سنة، وأعضاؤها مبيَّنة أسماؤهم حسبما ذُكر في سجل الجمعية المالي المحفوظ لدى الخازن.

٤- مورد الجمعية هي التبرعات التي تجود بها أكف المحسنين.

٥- كل ما يدخل إلى صندوق الجمعية يُعطى به وصل يوقع عليه الرئيس والخازن.

٦ - تودع أموال الجمعية في المصرف العربي بدمشق، ولا يجوز أن يبقى بين يدي الجميعة أكثر من ألف ليرة سورية توضع لأمر الرئيس آمر الصرف لدى الخازن.

٧ - تصدر الجمعية في رأس كل سنة بياناً مفصّلاً عن أعمالها ومواردها ونفقاتها يتلوه الرئيس أو أمين السر في اجتماع الهيئة العامة السنوي ثم يطبع وتسلّم إلى كل عضو نسخة عنه.

٨- الرئيس يوقع باسم الجمعية، ويمثّلها في كل ما يقتضيه تمثيلها عند اللزوم باعتبارها شخصاً حكمياً.

٩ - إذا استقال أو توفي أحد من أعضاء الجمعية لا سمع الله فللرئيس الحق بتسمية من يقوم مقامه، على أن يعلم المراجع المختصة بذلك.

١٠ - إذا حُلّت هذه الجمعية بقرار إجماعي من لجنتها، فجميع مخلفاتها تصبح تحت تصرف الرئيس، على أن يهبها هو بدوره إلى الجهة الخيرية التي يراها.

دمشـــق في ٥/ ١/ ١٩٤٥

أمين السر

رياض العـابد

حضرة الفاضل(1)

تحية وسلاما!

وبعد كنت اجتمعت إلى أحد إخوانكم في عاليه، وتذاكرنا بشأن ملجأ الأحداث المشردين، وأنا ساع لإحضار ستين سريراً، مع الفَرْشات ولوازم هذه المؤسسة. وإني إلى الآن قد قمت بجمع قسم كبير من حاجيات المعهد، وبقي علينا أربعون فراشاً، وأربعون لحافاً، وأربعون مخدة.

فأرجو أن تتفضلوا بما تجود به أنفسكم من هذه الكمية.

وقد أتيت بهذا الكتاب راجياً الإسراع بذلك، بحيث أننا نسعى لفتح المؤسسة قبيل عيد الفطر.

والله أرجو أن يجزيكم عن هؤلاء المساكين خير الجزاء.

دمشق ١٣ أيلول ١٩٤٤

المخلص

فخري البارودي

---

(١) - ٨٤/ ٧٢٧.

حضرة الفاضل شبلي بك بشارات حفظه الله[1]!

تحية وسلاماً!

وبعد كنت أخبرتكم يوم اجتماعنا في عاليه أني قائم بتأسيس ملجأ للأحداث المشردين. وأنا ساع لإحضار ستين سريراً مع الفَرْشات ولوازم المؤسسة. وطلبت إليكم التفضُّل بأن تتبرعوا بستين شوكة، وستين ملعقة، وستين سكين، وستين كأس ماء، ومئة وعشرين صحن سُفرة، مع ستين صحن شوربة، من الأنواع التي لا تُكسر إذا وقعت إلى الأرض.

وقد وعدتموني بأنكم ستحضرون ذلك من القدس. وقد أتيت بهذ الكتاب مذكراً إياكم راجياً الإسراع بجلب ما ذُكر بحيث أننا نسعى لفتح المؤسسة قبيل عيد الفطر.

والله أرجو أن يجزيكم عن هؤلاء المساكين خير الجزاء، سيدي.

دمشـــق ١٣ أيلـــول ١٩٤٤

المخلص

فخري البارودي

(١) - ١٤/٧٢٦.

مصير دار رعاية الأيتام[1]

يعلم الشعب الكريم أنني منذ أدركتُ رسالتي في هذه الحياة قد نذرتُ نفسي للنهوض بأمتي وإعلاء شأن وطني، ولعل أكثر عقلاء الأمة ونبلائها لا يزالون يذكرون بشيء من التقدير والاهتمام تلك المشاريع العمرانية التي أنشأتُها أو ساهمت في إنشائها، مدفوعاً بوحي تلك الرسالة المتمكنة في أعماق نفسي. فأفنيت معظم ما لدي من ثروة، وبذلت كل ما أستطيعه من جهد في سبيل هذه الغايات الوطنية العامة الممتازة.

ولعلّ كثيرين من أبناء الوطن لا يزالون يذكرون ذلك المشروع القريب الذي قمت بإنشائه إثر عودتي من منفاي وتشردي[2]، ويتساءلون فيما بينهم وبين أنفسهم عن سبب عدم تحققه وظهوره حتى الآن[3].

وسواء كان السبب في تأخر ظهور هذا المشروع من صنع أناس معدودين أم كان نتيجة من نتائج عدم استعداد الأمة للمساهمة في الأعمال العامة الخيرية، أم كان بتأثير هذين الأمرين معاً فمن حق الأمة عليّ وقد طرأ على سير المشروع ما جعل زمن تحققُه وظهوره قريباً جداً، أن أذيع كلمة في هذا الموضوع أوضح فيها حقيقة غايته المتوخاة وكيفية عملنا لتحقيق هذه الغاية.

عدت من منفاي وفي نفسي رغبة ملحة جارفة، وميل كلي شديد لتعويض الأمة عن بعض ما تراكم لها في عنقي من خدمات خلال هذه المدة التي عشت فيها سعيداً بعيداً عن وطني. وكنت منذ زمن بعيد أفكر في إيجاد وسيلة ما لإنقاذ مئات

---

(١) - ٨٤/ ٥٧٥.

(٢) - يعني التجاءه إلى الأردن بين ١٩٣٩ - و١٩٤١ كما هو معروف.

(٣) - يقصد دار رعاية الأيتام، والرسالة في حدود سنة ١٩٤٤م.

الأطفال المشردين الذين لا عائل لهم ولا نصير. وقد لاحظت عند عودتي عشرات هؤلاء المساكين يطوفون في أزقة المدينة وشوارعها، وفي وجوههم علامات ظاهرة لمرض الزهري المتسلط عليهم. وعلمت أن الشرطة في حيرة شديدة من أمر هؤلاء المساكين. فتضافرت رغبتي في العمل مع عطفي القديم على هؤلاء الأطفال. وساهمت رؤيتي لهم وهم في هذه الحالة البائسة المؤلمة على وضع أسس المشروع الذي أنا الآن في صدد بحثه، ألا وهو مشروع دار رعاية الأيتام.

اتجهت مساعيَّ باديء ذي بدء نحو الحكومة بغية إقناعها بضرورة تبنيّ هذا المشروع وقيامها بإنشائه. ولما وجدت بطء الحكومة وانشغالها في أمور ثانية أخرى، أخذت على عاتقي القيام بهذا العمل معتمداً على جهودي ومالي من جهة، وعلى نيل المحسنين من أغنياء الأمة ورجالاتها الطيبين. وقد استطعت بعد جهد ولأي أن أحصل من الأوقاف على بقايا مدرسة خربة مهدمة[1]، قررتُ إعادة بنائها لتكون الدار التي تأوي أولئك الصبية المرضى المساكين. واعتبرت حصولي عليها فاتحة خير وبشير فرح.

وقد أعلنت الأوقاف عن استعدادها لمشاركتي في إعادة بناء الدار وترميمها. وكانت مساهمتها هذه أيضاً من المقدمات التي دفعتني إلى المضيِّ في مشروعي. فبادرت إلى أهل الإحسان والأغنياء من أبناء الأمة أطلب برَّهم وعطفهم على هؤلاء الأطفال المشردين. فساهم بعضهم وامتنع الآخرون. ولا يزال قسم ثالث منهم يمنُّونا بالوعود ويؤخرونا في الإكثار من المواعيد. وكنا منذ بدأنا في جمع التبرعات قد باشرنا في ترميم الدار وتهيئة لوازمها. فشيَّدنا وأصلحنا من الغرف ما بلغ عدده ٢٢ غرفة. واشترينا من الأغراض واللوازم ما أتى ثمنه مع الأموال التي بذلت على ترميم وإصلاح الدار على كل ما جمعناه من مال المحسنين والأغنياء. وبتنا نترقّب إحسان الآخرين، ونسعى لاستدرار عطفهم بكل ما لدينا من طرق

(١) - هي المدرسة العمرية في الصحالحية، بنيت في عهد نور الدين سنة ٥٥٥ هـ، وتهدمت في مطلع هذا القرن، ويجري حالياً بناؤها من جديد.

ووسائل لإكمال ما بدأناه، حتى داخلنا اليأس من إمكان الحصول على شيء منهم. وبالتالي بتنا نعتقد أن كل ما بذلناه من جهود وتضحيات مهددة بالضياع. وقد لاقينا من بعض الناس محاولات لقتل هذا المشروع ممَّا جعلنا نعتقد اعتقاداً جازماً أن أمتنا لم تتعود بعد أن تقوم بمشاريع جمعية خيرية، وأن الاتكال على أغنياء شعورهم الاجتماعي لا يزال بحاجة إلى كثير من التهذيب لا يساعد أبداً على نجاح مشروع خيري كهذا المشروع.

وخشية توقف المشروع أو القضاء عليه تفاوضت مع مدير شرطة سورية الأستاذ عارف النكدي[1]، وأقنعتهُ بضرورة وضعه تحت رعايته وإشرافه. وقد تمَّ تسليمه البناء واللوازم التي اشتريناها مما جمعناه من مال خلال هذا اليوم المنصرم. ولا أزال على أتم الاستعداد لبذل كل ما يطلب مني، إن في الحال أو الاستقبال في سبيل إنقاذ أولئك الأطفال الأيتام المساكين من غوائل الفقر والمرض والتشرُّد.

وها أنا أثبت للشعب الكريم في ذيل هذه الكلمة قائمتين: الأولى بالمبالغ التي جمعناها وأسماء المتبرعين. والثانية بالمبالغ التي صرفناها والحاجات التي اشتريناها، ليكون الشعب حاكم عدل بيننا وبين كل مغرض أثيم، وليظل هذا العمل درساً وتجربة وعبرة للأجيال الصاعدة. يتعلمون منه كيف يعملون لتهذيب الشعور الإنساني العام في أمتهم. وكيف يجاهدون في سبيل الأمة، ويبذلون من أجلها الغالي والرخيص، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم، والله لا يضيع أجر المحسنين.

(١) - عارف بن أمين النكدي، لبناني المولد والوفاة ومن أعيان الدروز في الشوف، تولى سنة ١٩٤٦ رياسة مجلس الشورى، توفي سنة ١٩٧٥ عن ٨٣ عاماً.



سعد الله الجابري وفخري البارودي، ونصوح بابيل ١٩٤٧

ملحمة ٢٩ أيّـار الخالـدة[1]

لقد ضربت دمشق فبرهنت فرنسا على بربريتها. وقدم الشعب السوري درساً قاسياً للاستعمار في الثبات والشجاعة والتضحية والمروءة. وحيث أنني كنت وقت الضرب في معمان المعركة أرى من واجبي أن أرفع تقريراً لمعاليكم[2] أسرد فيه بعض ما وقع لي في الليلة التاسعة والعشرين من أيار ١٩٤٥ معتذراً عن تأخري لانهماكي بجمع المنهوبات وغيرها من الأمور، راجياً مطالعة تقريري هذا بدقة، ومقترحاً بوجوب مكافأة أولئك الشباب الذين كانوا يخاطرون بأرواحهم لإغاثة الجرحى ونقل القتلى، إلى غير ذلك من الأعمال الإنسانية. ويحق للأمة جمعاء أن تفتخر بمثل هؤلاء الأبطال الذين قدموا أنفسهم رخيصة على مذبح هذا الوطن المفدى. كما يجدر بالحكومة أن تكافىء كل من ساهم في تلك المعركة التاريخية وقدم خدماته الإنسانية كل بحسب عمله ومقامه.

لقد بدأ ضرب القلعة حيث كنت فيها في الساعة السابعة تماماً[3]. وقد كنت أقوم بإدارة إعاشة الجنود. وكان بمساعدتي بعض الشباب المتطوعين في الدرك الذين قاموا كمساعدين لإسعاف الجرحى ونقل القتلى تحت إشراف الدكتور المرحوم الشهيد مسلّم البارودي[4]، الذي لم يفارقني حتى لفظ أنفاسه الأخيرة. وقد بقي

---

(١) - ٨٥/ ٨٥٨.

(٢) - الخطاب موجّه إلى وزير الداخلية لطفي الحفّار.

(٣) - مساءً، مع غروب الشمس.

(٤) - أقيم له نصب في ساحة الحجاز، وأطلق اسمه على شارع المشفى الوطني.

أولئك المتطوعون معي إلى أن وقف الضرب. وكنا نرسل الجرحى إلى المستشفيات. وقد نقلنا ما تبقى منهم - وعددهم سبعة - إلى المستشفى الإنكليزي[1] في حي القصاع. وهناك ظل المتطوعون معي يقومون بخدمة الجرحى وجلب الأدوات الطبيّة حتى الصباح، حيث لم تكتحل عيونهم بالنوم طوال أربع وعشرين ساعة.

وحين وصولي إلى المستشفى الإنكليزي وجدت أسلاك الكهرباء مقطوعة فأرسلت بعض شباب الحي إلى الكنائس حيث أحضروا الشموع. وأجريت جميع العمليات في تلك الليلة على ضوئها. كما أنني أرسلت بعض شباب كشاف القديس جاورجيوس، فأحضروا الأطباء المسرودة أسماؤهم في ذيل هذا التقرير. وقد بقي هؤلاء الأطباء حتى انتهت جميعُ العمليات.

وقد كانت فرقة الكشّاف تساعدني أمام المستشفى لتحول دون دخول الأهلين. ومن ثَمَّ استصرخت حميَّة حي القصاع لفتح مستشفيات لإسعاف الجرحى الذين كانوا يأتون بلا انقطاع من القلعة والسجن والأحياء.

وقد بادر السيد فؤاد الترك، مدير نادي أبولون اليوناني لفتح أبواب النادي وجعله تحت تصرفي، واستصرخت حميَّة الأهلين. فبادرت نساء الحي وفتياته وشبابه وكهوله بنقل الفرش ولوازم المستشفى من دورهم وعلى رؤوسهم. ولم يمض نصف ساعة حتى تهيأ لنا مستشفى يستوعب خمسين جريحاً. ومن ثم حذا النادي الكاثوليكي في حي القصّاع حذو نادي أبولون. وفرشه الأهلون فتحولّ إلى مستشفى. كما أنه تطوعت عشرون فتاة من الحي، وبقين يعملن تحت أيدي الأطباء حتى انتهت جميع العمليات، ونُقل الجرحى، كل إلى منزله أو إلى المستشفيات.

وكان السائق الدركي السيد محمود المدلّل، من حي الشاغور، يقوم بنقل الجرحى. وبينما كنا ننقل ما تبقى منهم، ونحن على جسر الزرابلية، أصيب الدركي المذكور برصاصة في صدره. غير أنه ثابر على السير بنا حتى أوصلنا إلى المستشفى. وهناك أخبرني أنه مُصاب. ومع أني كنت لاحظت خللاً وعدم توازن

(١) - مشفى الزهراوي اليوم، بني سنة ١٨٩٩م وعُرف باسم المشفى الإسكتلندي.

في سير السيارة وسألته عن سبب ذلك، فأجابني بأنه تعب، ولم يخبرني بالإصابة حتى أنهى مهمَّته الإنسانية خوفاً علينا من الاضطراب.

كما أن هناك الدركي السائق إبراهيم الخوري، جرح في اللحظة التي أصيب بها الدكتور البارودي. وهناك سائق سيارة دركي أجهل هويته ترك سيارته في الحال وولَّى هارباً، فتطوع الدركي عدنان النجار واستلم هذه السيارة من تلقاء نفسه ودون أمر سابق. وبقي يعمل معنا حتى نهاية ذلك اليوم. وهناك أشخاص آخرون أبلَوا بلاءً حسناً ربَّان تلك المعركة. ولذلك أرى من واجبي أن أسرد لمعاليكم أسماء الجميع. راجياً التكرم بإعطائي أوسمة لهم تتناسب ودرجة كل منهم حسب مقام الشخص.

السادة الأطباء:

أحمد بك قدري الذي أشرف على الأعمال طوال الليل وحتى انتهاء العمليات.

الشهيد مسلَّم البارودي، الدكتور توماس، طبيب المستشفى الإنكليزي، الدكتورة مرغريت عقيلة الدكتور توماس، الدكتور وليم نخمن، الدكتور يوسف لويس، الدكتور إدوار طرزي، الدكتور حنين سياج، الدكتور إيلي نعمان، الدكتور حنين شنشارة، الدكتور يوسف حاتم، الدكتور أنجلوس كوسا أوغلي، الدكتور قيصر قهوجي، الرئيسة في المستشفى الإنكليزي مودي استيوارت، وكيل المستشفى مرشد علون، كافة ممرضات وممرضي المستشفى الإنكليزي.

من تلامذة معهد الطب:

السادة: إميل لطفي، روفائيل حنا، جورج عبود، عبد اللطيف هنيدي.

المتطوعون:

السادة: مصطفى البارودي، بهجة العلبي، محمَّد دلول، فوزي سكر، خالد الطباع، جورج عبدو، موفق الشرع، عبد الخالق وفيق الحلبي الذي ذهب

تحت النار فدائياً لإنقاذ السجناء، وقام بإطعام المجروحين، ولم يذق طعم النوم مدة أربع وعشرين ساعة.

نائب الزعيم السيد هرانت[1]، الجندي فؤاد البارافي سائق دراجة نارية، الجندي زهر الدين فخر الدين، العريف حسن قصقص.

هذا بعض ما وقع لي وما استلفت أنظاري إبان تلك المعركة التي كانت فحصاً قاسياً لهذه الأمة، فخرجت منها مرفوعة الرأس ناصعة الجبين. وها إنني أختم تقريري هذا راجياً لهذه الأمة نوال ثمرات جهادها كاملة غير منقوصة تحت ظل حكومتنا الرشيدة التي برهنت في أشد الساعات حراجة على صدق عزيمتها وقوة إيمانها وحسن إدارتها. كما أنها سوف لن تنسى كل من أحسن وجاهد. وأنا واثق منْ أنها ستجعلُ من هؤلاء رمزاً للعزة والكرامة ومثالاً يُحتذى في التضحية والإخلاص، ودمتم[2].

دمشق في ١١ رجب ١٣٦٤، الموافق ٢١ حزيران ١٩٤٥.

القائد

محمد فخري البارودي[3]

---

(١) - قائد الدرك السوري.

(٢) - استمرّت المعارك والقصف حتى مساء ٣١ أيار، وكانت مُحصلّتها كما يلي:

- ٦٠٠ قتيل
- ٥٠٠ جراحُهم خطيرة
- ١٠٠٠ جراحهم خفيفة
- ١٢٠ دركي في حكم المفقودين

انظر: نصوح بابيل: صحافة وسياسة صفحة ٢٠٤- ٢١٦.

(٣) - أُصيب البارودي نفسه بشظيّة في رقبته عندما كان في القعلة، وبقي أثرها واضحاً حتى وفاته.

بطل قرية الضمير يوم ٨ حزيران سنة ١٩٤٥م[1]

بطولة غامضة أريد إماطة النقاب عنها بعد مرور أربعة عشر عاماً ونصف.

سيدي هل تعلم من الذي قتل قائد الهجانة الإفرنسي وأعوانه من الإفرنسيين في بلدة الضمير في يوم الجمعة بالساعة السادسة والنصف في الثامن من شهر حزيران عام ١٩٤٥؟

سيدي! كلا لا تعلم. أما الآن فأريد كشف اللثام عن الذي قام بهذا العمل القيم، والذي يفتخر به كل عربي.

سيدي إن الذي قتل ذاك الإفرنسي هو من مواطنيك، وهو عربي الأصل من بلدة لم تدنّس تربتها الطاهرة قدم أي أجنبي، ولم يُخيّم بها أي مستعمر سواء في عهد الأتراك أو الإفرنسيين، ولم يطرأ على عروبتها أية شائبة لهذا التاريخ، ولله الحمد، هي القريتين.

وبعد، إنه من مواليد دمشق ١٩٢٠ ميدان فوقاني- ساحة سخانة.

وقبل انتسابه لسلك الهجانة كان يتعاطى التهريب الشريف، مثل تهريب الجوخ والحرير وحجار القداحات والتنباك العجمي من شرق الأردن إلى دمشق. ولم يتعاط تهريب المخدرات طيلة حياته ولله الحمد.

---

(١) - ملف ٨٤/ ٨٢، والرسالة موجّهة إلى الرئيس شكري القوتلي عن طريق فخري البارودي.

في عام ١٩٤٣ بينما كان مهرباً لثمانية طرود من التنباك العجمي محمَّلة على جملين، آتياً بها من إربد شرق الأردن في الليالي المظلمة، حتى وصل بهما قرب مدينته دمشق ما بين بلدة العادلية وبلدة حجيرة، وإذ بكمين من رجال الدرك والميرة، ما يُنيف عددهم على خمسة عشر مسلحاً شاهرين السلاح ومحتاطين به من كل مكان، وليس له أي منفذ أو مفر، وخاصة من تسليط المصباح الكهربائي الكبير والمتحرك الذي يتغذى من السيارة، عندئذ استسلم للقدر. ثم حُملت هذه البضاعة بالسَّيارة وسيّرت الجمال صحبة اثنين من رجال الدرك إلى قلعة الدرك.

وفي اليوم الثاني سيق هذا المهرب إلى المحكمة الأجنبية في بناية العابد، التي يرأسها السيد إلياس دمر. وعندما تحررت يداه من الجامعة الحديدية فرَّ من المحكمة الأجنبية رغم ما بها من الموظفين، ورغم رجال الدرك. ولم يبق له أثر سوى هويته المدنية التي بقيت مع رجال الدرك. ومن هناك ذهب إلى الحدود السورية الأردنية لتعاطي التجارة الحرة ما بين عشيرة السردية[1]، وبقي حتى أواخر عام ١٩٤٤. وكانت هذه الحياة قاسية بالنسبة له. ثم توسط الشيخ سعود بن فواز رئيس عشيرة السردية، والذي كان نائباً في ذاك الزمن، مع السيد نوري الإيبش الذي كان مديراً للعشائر السورية، وسجَّل له هوية عشائرية وأتى بها دمشق وهو يرتدي الذيّ البداوي حيث إنه يجيد اللغة البداوية.

ثم سأله: هل تريد أن أوظفك بسلك الهجانة، فشكره على جميل صنُعه. فقال له السيد سعود: لا شكر على واجب، أنت مثل الدخيل عندنا، وواجبي أن أخدمك.

ومن ثم لقد طلب مني المستشار (منكرة) أي مستشار دوما، من بعض أفراد عشيرتنا لكي نعيِّنهم في سلك الهجانة. واليوم أنت أصبحت من أفراد عشيرتنا، وأنا أعزك يا فلان ولك عندي منزلة. فشكره وقال له: دعني أفكر في الموضوع.

(١) - تنسب إلى بني صخر في الأردن، وتقسم إلى فرقتين: العون والكليب.

ومن حينها ذهب لعند الشيخ أحمد الحارون[1] الشيخ الجليل، وزاره وشاوره في الموضوع لكونه يعتقد أن الخدمة لدى الأجنبي لا يقرُّها الشرع الإسلامي، علماً بأن هذا الشخص متدين ولكنه مضطر. وقال عزَّ وجل: ﴿فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه﴾[2]. فقال له فضيلة الشيخ: ادخل بهذا السلك واتق الله.

ثم عاد من زيارة فضيلة الشيخ وقال للسيد سعود بن فواز: قررت أن أدخل بهذا السلك وتوكلت على الله، ثم دخل بسلك الهجانة بهوية عشائرية من عشيرة السرديَّة بتاريخ ١١/ ١٢/ ١٩٤٤، ولا أحد يعرف أنه مدني أو حضري، بل يعرفونه بدوياً من عشيرة السردية.

في شهر نيسان عام ١٩٤٥ طلبت الحكومة السورية من الحكومة الإفرنسية تسليمها الجيش. فأبت الحكومة الإفرنسية ذلك. ثم أعلنت الحكومة السورية نداء لأبناء وطنها الموجودين في الجيش ليلتحقوا في صفوف رجال الأمن السوري، وإلاّ فسيحرمون من الجنسية السورية. وكانت النار تتأجج بنفسه لالتحاقه في صفوف إخوانه وأبناء وطنه. ولكنه كان يخشى أن ينكشف أمره لأنه محكوم لدى المحكمة الأجنبية، وكما أنه داخل بسلك الهجَّانة بصورة غير مشروعة.

وفي أواخر شهر أيار ١٩٤٥، عندما اعتدى الإفرنسيون على مدينة دمشق التي هي مسقط رأسه وبها أهله وأقاربه، كاد يختنق من الغيظ، وخاصة لما شاهد ألسنة النار تندلع من دمشق. ولكنه كتم غيظه وسعى بأن يذهب لدمشق لكي يفرَّ من هناك. وفعلاً ذهب بحجة سُخرة لجلب بعض الذخيرة من المزة. وهنا شاهد ما شاهد من المنظر الرهيب الذي تقشعر له الأبدان، كأن دمشق خالية من السكان. ومرَّ على قيادة الهجانة بدمشق التي كانت بجانب المشتل الزراعي، وسمع عن

(١) - الشيخ أحمد بن محمّد الحارون، ولد في الصالحية سنة ١٩٠٠ وعمل بقطع الحجارة، وشارك في الثورة السورية، التحق بعلماء الشام في عصره وطارت شهرته العلمية في الآفاق، وكان يشفي المرضى بإذن الله، وكراماته كثيرة توفي سنة ١٩٦٢ ودفُن بوصيَّة بجوار الشيخ رسلان.

انظر تاريخ علماء دمشق، مُطبع الحافظ ٢/ ٧٥٣ - ٧٦٢.

(٢) - الآية ١٧٣ من سورة البقرة.

اعتداء الإفرنسيين على حرمة البرلمان، وعن نهبهم لمحلات التجارة، وعن اشتراك قائد الهجانة وفئته، وعن نهبهم المشتل الزراعي وسجادة البرلمان. وسمع عن تردُّد صوت بعض السنغال والإفرنسيين عندما مرَّ بجانبهم بقولهم: Vive Morow[1].

وعندما تدخل الإنكليز أتى الجنرال إليفا روجه لعند قائد الهجانة مورو واجتمع به وبالكولونيل علاء الدين. وعندما شاهدهم أراد قتلهم جميعاً بقنبلة يدوية وببندقيته. فمنعه عريف من أهالي القريتين حين شاهد انفعاله. وقال له: ماذا تريد أن تعمل؟ فأجابه: أريد قتل الجميع. فقال له: تريد قتلنا جميعاً؟ يجب أن تصبر وتربط جأشك خوفاً من كارثة عظيمة نقع بها.

ثم ذهب قائد الهجّانة وفئته في مساء ذاك اليوم إلى بلدة الضمير، حيث كانت متمركزة بها سرية البادية الثالثة المؤلفة من ٥٦٠ عنصراً كان تعدادها. وفي الصباح اجتمع العسكريون في الاجتماع الصباحي، وتقدم السلاح إلى قائد الهجانة وألقى خطاباً تحريضياً هاجم به السوريين والإنكليز، وقال: سنحتل سورية من جديد رغماً عن الإنكليز. علماً بأن ألمانيا دخلت باريس في عام ١٩٤٠ وأخرجناهم رغماً. والآن آتٍ إلينا ٣ ديفزيون[2] وسنحتلُّها. وكان المترجم لهذا الخطاب الجندي الأول متعب بنوره، الذي هو الآن برتبة مساعد أول في الجيش الأول بسرية الميرة واللوازم.

ثم أراد جمع قطعات الهجانة الذين كانوا في دير الزور والضمير جميعهم في تدمر، سرية البادية الأولى، لجعلها نقطة انطلاق:

- إن تعداد الهجانة في ذاك الزمن كان ما ينيف على ١٨٠٠ مسلحٍ، وهي مزودة بأحدث الأسلحة، كمثل المدرعة (أي البلاندات)، والشنارات المزودة بالرشاشات، والرشيشيات، والمدافع ٣٧م.

---

(١) - يحيا مورو.

(٢) - Divisions، أي فرِق عسكرية.

ثم أراد بث الفوضى بين رجال العشائر، فكان يجتمع برؤساء العشائر بصورة خفية. وكان الشيخ خلف النعير ساعده الأيمن باجتماعه مع رؤساء العشائر.

أما العسكريون فكانوا بوضع حجز شديد، وممنوع عليهم التجمعات أو الاجتماع بشخص آخر. وكل عسكري يجب أن يكون موجوداً في المكان المعين له، ومتجهاً إلى الجهة المحددة إليه. وعندما يحدث إطلاق نار فكل عسكري يطلق النار على الاتجاه المحدد له.

ويعود حديثنا عن هذا الجندي المجهول. عندما سمع خطاب هذا القائد أخذته عناية إلهية وعزة عربية، وأخذه حال كأنه في حلقة ذكر الله. وفي عصر ذاك النهار اجتمع برجل برتبة رقيب بدون سابق معرفة، وكأنه على موعد به مع القدر ولله الحمد. ثم تعاهدا وتحالفا. فقال للرقيب: هل يمكنك أن تحمي ظهري لكي أنتقم لشعبي وأمتي ووطني من هذا المستعمر الظالم الغاشم؟ فقال له الرقيب: ابشر وافعل ما بدا لك.

وفي مساء يوم الخميس الواقع بتاريخ ٧/ ٦/ ١٩٤٥ حاولا فلم يوفقا، وبقيا ساهرين حتى الصباح وهما يتحدثان عن تنفيذ الخطة. وهما بأثناء الحديث وإذ يمرُّ أحد ضباط الصف من الإفرنسيين. وهنا يتم تنفيذ الخطة بعون الله.

ولما مرَّ هذا الافرنسي بجانبهما ووجَّه إليهما الأسئلة بقوله: ما في مبسوط. قالا له: نو ما في مبسوط. فتوعَّدهما. ولما سمعا توعُّده أطلقا عليه النار فقتل في الحال. ولما سمع رئيس الكتيبة المدعو Sptile صوت الرصاص أراد الاستفهام، فكانا له بالمرصاد فأطلقا عليه الرصاص، فأصيب ودخل على القائد مورو، حيث كانا يقطنان سوية في دار واحدة، والدم ينزف منه، فخرج الكمندان من الدار، ونادى بأعلى صوته ليوتنان فهد، فأجابه: ماذا تريد يا سيدي؟ فقال له: ماذا حصل؟ فقال له: لا أعلم شيئاً يا سيدي.

وفعلاً كان لا يعلم شيئاً. وكان الرجل الشامي له بالمرصاد، وهو لا يبعد عنه أكثر من خمسة عشر متراً.

فصاح به: يا مورو، هل تعلم شيئاً عن ضحايا البرلمان؟ ثم أطلق عليه الرصاص بعد أن استعان عليه بالعليّ الديان. وإذ بالرصاص - والله - يشيله شيلاً إلى الأعلى، ويطرش دمه من أعلى عضادة باب الدار من الجهة اليمنى إلى أسفله ويلقي به إلى الأرض، ويكشف الله عورته. ثم اقترب منه وأطلق عليه طلقتين في صدره من بندقيته الخاصة.

ويعود حديثنا عن ليوتنان فهد الفهد الذي صار يضرب كفاً على كف من شدة الزعل. فقال له هذا الجندي: اذهب وإلا ألحقتك به. أما أنت فهل نسيت دورك في البرلمان؟ وأخذك سجادته؟ والله لو لم تكن عربياً لألحقتك به.

أما العسكريون الموجودون في الثكنة، والذين يطلقون النار على الاتجاه المحدّد لهم، فهم لا يعلمون ما حصل ثَمَّ.

وهنا[1] اجتمعتُ بشقيق الذي تعاهدت وإياه، وسألني عن أخيه، فقلت له: لا تخف ذاك هو، وإذا بليوتنان «قوسا» الذي هو معاون للكومندان مورو يتنقل خلسة من مكان إلى آخر. ولما شاهدناه أطلقنا عليه، فقتل في الحال.

ودُرنا عليهم واحداً بعد الآخر حتى قتلنا خمسةً من الضباط وأربعة من ضباط الصف. وها هي أسماء الضباط باللغة اللاتينية:

Pirbow - Kiny - Fossa - Sptlie - Morow.

أما ليوتنان بيربو فقد قاوم مقاومة كبيرة أكثر من رفاقه، حيث حاصر وصار يرمي علينا بالرشيش وبالقنابل، وقُتِل منا واحد، وجُرِحَ اثنان. فقتل الجندي جاسم النضوة من عشيرة العكيدات من بلدة عدرا، وجرح آخر يدعى الشايش، وجرح الجندي المجهول بشظية قنبلة أتتهُ في موضعين أفقدته شيئاً يُستحى من ذكره. ولم

---

(١) - من هنا يتحدث صاحب البطولة عن نفسه مباشرة.

نتمكن منه حتى أخذنا سيارة مصفحة وهاجمناه من قفا المكان المحاصر به، أي من صوب الوادي، وأطلقنا عليه عدة طلقات بالمدفع ٣٧م فهدمنا عليه الحائط وقتلناه شر قتلة.

أما العسكريون فكانوا يطلقون النار بالاتجاه المعين لهم، ولا يعلمون ماذا حصل، ولو علموا - خاصة البدو - لحصل شيء لا تحمد عقباه. ويعود بذلك الفضل لله. علماً بأن البدو آنذاك لا يعرفون من الوظيفة شيئاً، بل كانوا مأجورين ومرتبطين مباشرة مع الإفرنسيين، ولا يخفى عليكم سيدي.

وبعد انتهاء المعركة، أوفدنا قسماً من النقباء: أمثال الرقيب الأول حسن الكواكي، من بلدة الضمير، وبعض النقباء الأخرين الذين نحن باستغناء عن ذكر أسمائهم للذهاب لدمشق، وللمثول أمام فخامة الرئيس شكري القوتلي، وإعلامه عمّا حدث، ولاستلام الثكنة وما فيها من الأسلحة والذخيرة.

حوالي وقت العصر حضر قائد الدرك، الذي أذكر اسمه، المدعو رفيق العظمة، والذي شاهد على جدران الثكنة الأعلام السورية ترفرف بعد أن أنزلنا علم الذل والاستعمار والاستعباد، ورفعنا موضعه علم الكرامة وعلم التحرر الذي نفتخر به وبرجالات العرب المخلصين، وفّقهم الله، ونسأله عزَّ وجلَّ أن يولّي علينا خيارنا، إنه سميع مجيب.

ومن ثم حضرت الفرقة الإنكليزية، والتي لم تجرؤ على دخول الثكنة حتى أتت بواسطة، وبرفقة بعض رجالات الحكومة السورية. ولما دخلت الثكنة بثت الفوضى وأوعزت إلى بعض النفوس الضعيفة لنهب بعض التجهيزات. حيث والله قبل أن تأتي هذه الفرقة ما في أحد تجرأ على أخذ أي شيء منها.

وفي اليوم الثاني اجتمع العسكريون، وقلبهم مملوء بالفرح والسرور، وإذا بإيعاز بعض المسؤولين بأنكم ستذهبون لمثولكم أمام فخامة الرئيس لتهنئتكم ومكافأة المخلصين منكم.

وبعد الاجتماع وإذ بالدبابات الإنكليزية محيطة بنا من كل جانب، ورجال الفرقة الإنكليزية المؤلفة من رجال الهنود، ومعهم السيد محجم ابن شعلان الذي تآمر قبل أيام مع الإفرنسيين يأخذون السلاح من أيدينا. ثم أوعزوا إلينا بالركوب في السيارات. ونأتي دمشق، ولكن نمرُّ بها مرَّ الكرام متابعين سيرنا على طريق بيروت، والدبابات محيطة بنا من كل جانب وتهدد بصوتها بالمكبِّر، وتتوعَّد كل من يحاول الفرار بأنها ستلقي النار على مجموع السيارات، حتى وصلنا إلى ميسلون. ومررنا بجانب البطل العربي المرحوم يوسف العظمة. ثم تابعنا سيرنا إلى جبل المزار، حيث وضعونا في برآكات إنكليزية ومنسوج حولها الشريط الشائك، ووراء الشريط الحرس الإنكليزي الذي لا يبعد الحرس عن الحرس الأخر أكثر من ١٠ أمتار خوفاً من فرارنا. وفي الليل يوجَّه علينا المصباح الكهربائي من رأس الجبل الذي هو شرقاً عنا، والذي يشبه ضوء الشمس. وكان عددنا يتراوح حول ٤٠٠ رجل.

وبعد خمسة أيام وإذ بالإفرنسيين الذين هرَّبهم وأخفاهم العملاء والأذناب يأتون إلى هناك. ويعرضوننا عليهم واحداً بعد الآخر. حتى جاء دوري. وكان من بينهم ضابط إفرنسي يدعى درويل الذي يعرفني حق المعرفة، والذي كان رئيساً لفصيلي، والذي قال له العملاء: إن فلاناً لو رآك لقتلك ولألحقك بمورو. ولما دخلتُ على هذه اللجنة وشاهدني اليوتنان درويل انصرع وأُغمي عليه.

وخرجت أنا من الباب الثاني، حيث كلما دخل واحد من الباب الأول يخرج من الباب الثاني.

وفي اليوم الثاني أطلقوا سراح العسكريين الموجودين، وأبقوا منا ٣٢ شخصاً. وبعد فترة من الزمن حضر إلينا السيد فخري البارودي والسيد راكان بن مرشد رئيس عشيرة السبعة اللذان نعهد بهما الوطنية الصادقة، وخاصة السيد فخري البارودي، الذي كان من رجالات ذاك الزمن والمخلصين منهم، وهو برتبة عقيد. وامتثلنا أمامه، وأردنا أن يطمئننا عن مصيرنا فقال: تلحسوا ذقني، نحن تمنينا أن تجري بردى ثلاثة أيام دم ونتخلص من الإفرنسيين.

وبقينا هناك مدة من الزمن، وكان يتردد علينا الشيخ راكان بن مرشد ويراجع بعض الدوائر. وفي بعض الأحيان يأتي برفقته السيد وديع تلحوق الذي يعمل لدى المستر لنك. وفي النهاية قال لنا: ما هو طالع بيدي شيء، حيث إن الحكومة الإنكليزية آخذة لها أهمية. وخاصة قائد الجيش الإنكليزي (موركرا).

ثم ذهبوا بنا من جبل المزار إلى المزة (ثكنة فور غورو). فما إن شاهد البعض منا هذه الثكنة حتى كادوا يموّتونا فزعاً. حيث شاهدوا قبل سنوات إعدام بعض السنغال الذين تمردوا على الإفرنسيين.

وفي اليوم الثاني فرَّ منا ثلاثة. وبقينا تسعة وعشرين شخصاً. منهم واحد برتبة وكيل أول من أصل يوناني، كان لدى الإفرنسيين رئيس قلم، وهو متزوج من امرأة عربية وله منها أولاد. وهذا الوكيل الأول يدعى اسمه كوستا قيّومجي. وزوجته بنت الدكتور فرح من دمشق - القصاع. أما هذا الوكيل فقد أودعتهُ السلطات الإفرنسية لدينا لكونه محاسباً، ولديه ما يقارب العشرين ألف ليرة سورية، وليقوم ببعض الشهادات. ولكن خاب فألهم، حيث هذا الرجل كان سلوكه حسناً، وسلّم ما في الصندوق للحكومة. وكان يراعي حرمتنا إكراماً لزوجته وأولاده. وكلما سئل من قبل السلطات الإنكليزية عن الحادث يقول: لا أعلم شيئاً حيث أنا بالمكتب ولا أعرف شيئاً عنه.

ثم شددت الحكومة الإنكليزية علينا بسبب فرار البعض منا. وبقينا على هذا الحال ولا من يسأل عنا سوى الشيخ راكان المذكور أنفاً. ويتردَّد علينا العميل وديع تلحوق، وأخذ منا دراهم بحجة أنه سيساعدنا لإخلاء سبيلنا. وصرنا نعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وذلك من شدة الخوف. ثم صار يتردد علينا بعض طلاب المدارس، الذين يترأسهم السيد جمال الشعراوي من قضاء السلمية. وأخذوا منا دراهم بحجة أنهم سيعملون مظاهرة ويطالبون الحكومة بنا.

وبقينا على هذه الحالة بسجن فور غورو حتى حضور الوفد السوري من سان

فرانسيسكو، والذي كان من بينه الشيخ فواز بن شعلان رئيس عشيرة الرولا[1]. وعند عودته أرسلنا إليه كتاباً مع قصيدة نطلب منه مساعدتنا والتوسُّط إلينا لدى الحكومة الإنكليزية لخلاصنا. حيث كانت الحكومة الإنكليزية لها أهداف تريد تحقيقها عن طريق الشيخ فواز بن شعلان.

وفعلاً حضر الشيخ فواز بعد أن توسط لنا لدى الحكومة المذكورة، وبرفقته قائد الجيش الإنكليزي. وعند وصوله مدخل السجن عزفت الموسيقا التحية. وتقدم الشيخ فواز أمام قائد الجيش الذي أذكر اسمه «موركرا». وردَّ التحية للحرس. ثم سلَّم علينا وقال لنا: ابشروا لقد أتيت لأخذكم من هنا إلى الضمير، وتكونوا تحت المراقبة الإنكليزية. وبعد ذلك يفرجها الله.

ثم ذهبنا بالسيارات برفقته إلى ثكنة الضمير تحت المراقبة الإنكليزية حتى الجلاء.

سيدي! تعلمون حق العلم أن العمل الذي حدث في الضمر كان له أثر كبير على الحكومة الافرنسية، حيث ضعضع معنوية الإفرنسيين، لأنها كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على الهجَّانة، لأن العشائر بأجمعهم كانوا مرتبطين مباشرة مع الإفرنسيين، وليس لهم أدنى علاقة مع الحكومة الوطنية في ذاك الزمن.

ومن جراء هذا الحدث العظيم الذي أعتز به وأفتخر، ولله الحمد، ولهذا احتجَّت الحكومة الإنكليزية على الإفرنسيين بقولها: إن الهجانة الذين تعتمدون عليهم ثاروا عليكم وقتلوكم. فأنا لست بمسؤول إن حدث شيء آخر في بعض القطعات الأخرى كذاك الحادث، وعندئذٍ قام الإفرنسيون في أكثر القطعات وجرَّدوا السوريين من السلاح. أما هذا صحيح سيدي؟

---

(١) – حفيد الأمير النوري الشعلان، انتخب نائباً عن عشائر الرولا لثلاث دورات متوالية، ومثَّل سورية في مؤتمر سان فرانسيسكو سنة ١٩٤٥.

سيدي لا أريد أن أطيل الشرح. وبعد أن استلمتنا حكومتنا الموقرة حضر الشيخ سعود بن فواز إلى الضمير، والذي امتلأ اعتزازاً وافتخاراً بعملي هذا، إلى عند السيد عبد الله الفرا والذي كان آمراً لسريتي، ووجه إليه بعض الأسئلة. ومن جملة الأسئلة قال له: هل كافأتم فلاناً على عمله؟ فكان جوابه: لقد عمل واجبه. سيدي هذه هي المكافأة التي نالها.

سيدي! أردت أن أسرد على مسامعكم هذه القصة، لأن رجال ذلك العهد كانوا مسؤولين عنا أمام الله. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فذكِّر إن نفعت الذكرى﴾[1]. ﴿إن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[2].

وقد يجوز متسائل يتساءل: لماذا لم تعرض أو تسرد هذه القصة في ذاك الزمن.

الجواب: لم أتمكن من سرد هذه القصة لأنني مقيد بأوامر عسكرية، حيث حاولت مرة في عام ١٩٤٨ وتلاشى أنيني قبل أن يصل إليكم، وفرضت عقوبة بحقي ٢٠ يوماً، بمساعي المقدم طالب الداغستاني، والذي هو على علم بهذه القضية.

وسبب هذه العقوبة هم أذناب المستعمرين الذين كانوا آنذاك مسيطرين على رؤساء الأقلام والمصالح أيضاً. وكانوا يتداعون عليَّ لأني قتلت سيدهم: حتى لم يسجلوا لي بسجلّي الذاتي من أعمال الوطنية شيئاً، سوى أنه اعتقل بتاريخ كذا، وسلّم إلى السلطات السورية بتاريخ كذا. وها هو سجلّي موجود للآن وكأنني لا سمح الله مقترف ذنباً.

سيدي! علماً بأن عدم الاكتراث بهذه القضية قد حطّت من معنويات أكثر المواطنين الذين هم على علم بهذه القضية.

وفي الختام، أرجو غض النظر إن حصل في كتابتي بعض الأخطاء سواء في الكتابة أو في المعنى، لأن ثقافتي ابتدائية.

تفضلوا بقبول فائق الاحترام والسلام عليكم.

---

(١) - سورة الأعلى - الآية ٩.

(٢) - سورة الذاريات، الآية ٥٥.

الفوضى في معلولا[1]

في هذا اليوم، الأحد الخامس عشر من شهر تموز عام ١٩٤٥، في الساعة العاشرة والدقيقة الأربعين، حضر الدركي إسماعيل صفوت رقم ٥٠٣٠ من مخفر معلولا، وأخبرنا:

بتاريخ ٣١ أيار، حوالي الساعة الواحدة والنصف، أثناء قيامنا بالخدمة الليلية، أنا والعريف ممدوح رمضان، والدركي يوسف عطان، سمعنا طلقات نارية متعددة، فاتجهنا نحو الصوت وإذ بنا نشاهد ثلاثة أشخاص يحمل الواحد منهم بندقية إفرنسية قصيرة. فأمرناهم بالوقوف، ولكنهم لم يمتثلوا للأمر بل سدّد حامل البندقية المدعو إبراهيم كبوشه الموقوف حالياً في سجن النبك إلى صدر الدركي المذكور، الذي تمكنّ من رفع السبطانة إلى الهواء والالتجاء مع رفاقه وراء صخرة خيفة من الغدر بهم من الأهلين المسلّحين الذين تكاثروا عليهم، وكان برفقة إبراهيم كبوشه: بشارة العيد، ويوسف خليل سركيس، اللذان بدأا يحرّضان الأهالي ضدنا لقتلنا. وقد كان الحارس خليل العلي حاضراً في تلك الأثناء وعرف الأشخاص الثلاثة.

وفي الأيام التالية لهذه الحادثة شعرنا بسوء نية أكثر الأهالي الكاثوليك نحونا، مع العلم بأنهم أصبحوا جميعاً مسلّحين بمساعدة الإفرنسيين الذين أحضروا

---

(١) - ٨٥/ ٨٦٤.

سيارة قبل حوادث ٢٩ أيار بأيام إلى الدير، وفرغوا منها أشياء لم نعلمها، وبواسطة السماسرة. وقد اشتد أزر الأهالي الكاثوليك يوم علموا بحوادث الإفرنسيين بدمشق، حتى بدؤوا يشتمون الحكومة والدرك على مسمعٍ منّا.

وقد أخبرنا قائد الفصيل وقائد السرية بالوضعية هاتفياً، وأرسلنا جدولاً بأسماء الأشخاص الذين بحوزتهم بنادقة حربية، وقد قدرناهم بـ ١٥٠ شخصاً. فخوفاً من وقوع حوادث بين الكاثوليك وبين الروم والإسلام من أهالي معلولا أخبرتكم الكيفية لتقوموا بالإيجاب.

قائمة أسماء الأشخاص الذين بحوزتهم أسلحة حربية في قرية معلولا

١ - أنطون عيسى بندقية قصيرة مشط ٣ مع مسدس نمره ٧.

٢ - نصر الله عيسى أوتوماتيك إنكليزي نمرة ١٢، مع بندقية افرنسية طويلة.

٣ - عطا الله المعلم بندقية إنكليزية سنة ٩٢٧.

٤ - خليل المعلم بندقية افرنسية طويلة، مشط ٣.

٥ - إسطفان المعلم بندقية افرنسية طويلة، مشط ٥.

٦ - مرهج شلهوب (مختار الكاثوليك) بندقية إنكليزية، بندقية إفرنسية طويلة، إفرنسية قصيرة.

٧ - شحادة البركيل بندقية إنكليزية.

٨ - نقولا قلّومه بندقية ألمانية، بندقية إفرنسية.

٩ - سركيس بن طعان الشاعر بندقية إفرنسية مع مسدس إفرنسي.

١٠ - طعان عيسى بندقيتان ألمانيتان.

١١ - إبراهيم طبيب بندقية إنكليزية.

١٢ - غطاس زعرور بندقية عثمانية.

١٣- عطا الزخم أوتوماتيك طلياني، مسدس طلياني، بندقية ألمانية مع ناظور ألماني.

١٤ - ميلاد قلومه بندقية عثمانية، أوتوماتيك طلياني، مسدس طلياني.

١٥ - شحادة الشاعر بندقية إفرنسية، بندقية طليانية، بندقية عثمانية مع ١٠٠ مشط.

١٦ - ابن مخول الواكيم مسدس بوليس إنكليزي قلاب، مع بندقية انكليزية.

٤٥ - جريوس تعلب بندقية ألمانية[1].

٤٦ - سركيس البركيل بندقيتان ألمانيتان.

٤٧ - جريوس الكبوشي بندقية عثمانية.

٤٨ - إبراهيم الكبوشي بندقية افرنسية قصيرة (موقوف في سجن النبك).

٤٩ - سليمان الأملح بندقية إنكليزية.

٥٠ - عبد الله المعلم بندقيتان إنكلزيتان.

٥١ - ميخائيل جبرا بندقية افرنسية قصيرة.

٥٢ - يوسف شنيص بندقية ألمانية، مسدس ألماني نمره ٩.

٥٣ - سليم مخ بندقية افرنسية.

٥٤ - خليل مخ بندقية إنكليزية.

(١) - هكذا الرقم في الأصل، ويجوز أن صفحة قد سقطت.

الإذاعـــة[1]

بلغني أن الحكومة وضعت قانوناً للإذاعة وعو عندك اليوم للتصديق. وبما أنني لم أره أحب أن تتلطف عليَّ وتأمـر من يلزم أن يطلعني عليـه لأبدي لكم ملاحظاتي. وإني أرى أن يكون في القانون مواد تحدّد وظائف رؤساء الدوائر فيه وكبار موظيفه، وإعطاء الصلاحية لرئيس كل دائرة. خصوصاً القسم الموسيقي. وإطلاق يده في تنظيم هذا القسم نظراً لانحطاط أخلاق الموسيقيين في بلادنا، وإذا لم يكن للمدير صلاحية واسعة فإن لا يتمكن من إصلاح شيء في هذه الدائرة البالية.

أما اللجنة التوجيهية فلا تدخل فيها الأصابع. أرى أن يكون عدد أعضائها ثمانية. وأن تحدد علاقتها بالإذاعة. وأن تكون قراراتها الاستشارية خطية، وإن لم تكن هذه القرارات إجبارية يجب أن تكون ملزمة لحسن سيرَ الأعمال والإدارة.

وأتمنّى أن تكون أول لجنة مشكّلة من السادة الآتية أسماؤهم:

مدير الإذاعة، ممثل عن رئاسة الوزارة، ممثّل عن الجامعة، ممثل عن المعارف، ممثل عن الخارجية، ممثل عن الدعاية والأنباء، ثلاثة أعضاء من الأهلين الغواة من الواقفين على الموسيقا.

---

(١) - بدأت الإذاعة في دمشق عام ١٩٤٠ إبان العهد الفرنسي، وكان مقَرها في دار سيد قريش في ساحة النجمة، ثم أغلقت سنة ١٩٤٥. وعند الجلاء أقيمت إذاعة متواضعة في شارع بغداد، مقابل نقابة الفنانين اليوم، لكنها أغلقت بعد عام ونيف.

وفي عام ١٩٤٧ صدر قرار بإحداث الإذاعة من جديد، وكان مذيعها الأمير يحيى الشهابي وبهجت العلبي، ثم نقلت من شارع بغداد إلى مقرها الجديد في شارع النصر، ومنه إلى ساحة الأمويين.

وأرى أن تكون اللجنة الأولى من السادة الآتية أسماؤهم :

عن رئاسة الوزراء : أنور حاتم .

عن الجامعة : قسطنطين زريق .

عن المعارف : جلال زريق .

عن الخارجية : زهير الدالاتي .

عن الدعاية والنشر : ـ

عن الأهلين : فخري البارودي، ميشيل الله ويردي[1]، الدكتور محمد سالم .

وهذا وإني أرى أن توفد الحكومة إلى تركيا مندوبيّن لدرس أحوال الإذاعات في تركيا في أنقرة والآستانة، وهما : فؤاد الشايب، وشفيق شبيب . وأن يؤخر صدور القانون إلى ما بعد عودتهما، والاطلاع على تقريرهما . وإني واثق ومتأكد أنهما سيفيدان الحكومة بهذه البعثة لأن إذاعتنا تسير على البركة إلى الآن . والإذاعة التركية، وهي شرقية، تدار بأحسن ما يمكن من الإدارة .

هذا ما رأيت أن ألاحظه . وإذا تلطفتم بإطلاعي على القانون فربما تمكنت من إبداء بعض الملاحظات اللازمة .

وختاماً أرجوه تعالى أن يوفقنا وإياكم لخدمة هذا الوطن، سيدي[2] .

فخري البارودي

---

(١) - الله ويروي، فارسية تعني : عطيّة الله .

(٢) - ملف ٨٤/ ٦٢٤ .

الجيش السوري
القيادة العامة
المكتب الثاني
رقم ٥١٩/٣[١]

صورة طبق الأصل
أمر إداري

١- يؤسس في الجيش مكتب للدعاية باسم: (مكتب أخبار الجيش) يرتبط بالقيادة العامة عن طريق المكتب الثاني للأركان العامة.

٢- يعهد إلى المقدم فخري البارودي بالإشراف على تأسيس هذا المكتب ووضع ملاكه باختيار الموظفين العسكريين والمدنيين ويتقدم بعرض مقترحاته فيما يتعلق بتنظيم المكتب إلى القيادة العامة للموافقة عليها، ويسعى مدير المكتب إخبار الجيش.

٣- ينتدب المقدم عزة الطباع معاون الصحة مدير الصحة العسكرية للقيام بشؤون أمانة سر هذا المكتب علاوة على وظيفته الحالية.

٤- على رئيس المكتب الأول أن يعين ضابطاً كفؤاً من الناحية العسكرية ليكون ضابط ركن المكتب فيما يتعلق بالشؤون العسكرية.

٥- يقدم مدير المكتب إلى القيادة مقترحاته بانتداب من يعهد فيهم الكفاءة من موظفي ومستخدمي وزارة الدفاع والوزارات الأخرى لانتدابهم أو نقلهم إلى ملاك هذا المكتب.

---

(١) - ٨٦/١٠٨٩.

٦- تربط إدارة مجلة «الجندي» إدارياً، مؤقتاً، بالمكتب المذكور.

٧ - يؤمن المكتب الثاني نفقات ومصارفات «مكتب أخبار الجيش».

دمشق ٢٧/ ٧/ ١٩٤٨

الزعيم حسني الزعيم
القائد العام للجيش والقوى المسلحة[١]

المرسل إليهم:

- المقدم فخري البارودي
- المقدم الطبيب عزة الطباع.
- المقدم جميل رمضان -المكتب الثاني -
- المقدم توفيق نظام الدين - مالية الجيش.
- إدارة مجلة «الجندي».
- المصنف.

---

(١) - كان هذا قبل قيامه بانقلابه بعام تقريباً.

المشاركة في الوزارة

حضرة رئيس الحزب الوطني المحترم(١)

في الاجتماعين الأخيرين اللذين عقدا في داري بتاريخ ١٧ و١٨ تبين منهما اتجاه أفكار الهيئة النيابية للحزب نحو الاشتراك في الحكم. وبما أن البحث لم يدون في هاتين الجلستين رأيت من اللازم أن أدوّن خلاصة ما قلته ليبقى محفوظاً لدى الحزب، ويطلع عليه أعضاء الهيئة المركزية فيعلموا رأيي بهذا الخصوص.

إن الشكوى عامة من الفوضى واختلال الأعمال في جميع الدوائر وانتشار البطالة وسوء الحالة الاقتصادية وجمود الأسواق إلى غير ذلك من الأحوال التي تؤثر على الشعب مباشرة.

ولما كانت الوزارات السابقة لم تُعْنَ بالإصلاح، أو أنها سعت له، ولم تتمكن من إجرائه، جعل الناس ينظرون إلى كل من يتولى الوزارة بغير عين الاحترام التي يجب أن ينظر الشعب فيها إلى الوزير، حتى أصبح اسم الوزارة دائماً مقروناً بالهزء والسخرية.

ولما كان الجهاز الحكومي فاسداً من أساسه أصبح من اللازم إيجاد وزراء مقتدرين يمكنهم الإصلاح. ولذلك بما أن الحزب الوطني سيشارك في الحكم أصبح علينا أن نفكر جدياً في الأمر، ونختار من رجالنا أقدرهم على الإصلاح ووضع

---

(١) ٨٤/ ٦٢٠.

الشروط اللازمة للدخول. ويجب أن تكون هذه الشروط صريحة لآخر درجة الصراحة، حتى إذا ما دخل رجالنا الحكم تمكنوا من العمل بما يرضي الله والشعب. وإلا فإن عكس التأثير يكون قوياً جداً بحيث يضرب الحزب ضربة شديدة، ويفقد الثقة التي نسعى جهدنا لنيلها من الأمة. ومتى فقدت الثقة فلن تقوم للحزب قائمة، لأن الناس عند ذلك يتهموننا بأننا نعمل لأجل الصعود إلى الكراسي لقضاء حاجاتنا الشخصية، والشروط التي أرى تقديمها هي:

أ - إطلاق يد الوزراء في وزاراتهم للإصلاح بمساعدتهم مساعدة أكيدة بتغيير الأنظمة البالية بأنظمة موافقة لروح العصر، تظهر أمتنا بالمظهر اللائق بها.

ب - معالجة قضية المصالح المشتركة معالجة جدية، والحد من شطط لبنان مهما كانت العوامل.

ج - معالجة قضية النقد، ووضع أساس ثابت يخلصنا من هذا التبلبل.

د- معالجة القضية الاقتصادية معالجة جدية، ودرس الحالة درساً دقيقاً مع التجار وأرباب الصناعة والدخول على برنامج واضح يؤمل منه الخير. فإذا ما طبق، فَبِها، وإلا فينسحب وزراء الحزب إذا وضعت العقبات في طريقهم.

هـ - إيجاد حل سريع لقضية البطالة.

هذا ما رأيت أن أقوله، أرجو ضمه إلى مقترحات الإخوان والعمل على تقديم هذه الشروط إلى محلها الإيجابي.

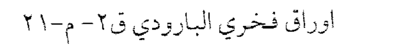
والله أرجو أن يوفقكم إلى ما فيها الخير(١).

فخري البارودي

---

(١) - بالرجوع إلى المصادر، نرجح أن التاريخ المناسب هو أواخر سنة ١٩٤٨.

فارس الخوري والأمير عبد الإله الوصي على عرض العراق ١٩٤٨



من أسرار الهدنة بين سورية وإسرائيل

بعد الانقلاب الذي قام به حسني الزعيم كانت البلاد الشامية في حالة مضطربة لعدم استقرار الحال في فلسطين بعد عقد تلك الهدنة المشؤومة. وقد جرت أشياء بقيت في الكتمان، رأيت من الواجب تدوينها ليطلع عليها الرأي العام العربي.

أرسل حسني الزعيم، رئيس الجمهورية، بطلب أحد موظفي الخارجية السيد صلاح الدين الطرزي، وهو شاب نشيط ذكي مقتدر، من ألمع شبان العرب. وطلب منه أن يذهب سراً إلى تل أبيب للمذاكرة مع الصهيونيين ويتفق معهم على الشروط التي طلبوها من حسني الزعيم ولم يقبلها، وتعديلها بما يريده حسني الزعيم.

والشروط المعروضة هي أن تقبل سورية إسكان اللاجئين الفلسطينيين في جزيرة ابن عمرو مقابل ثلاثمائة مليون دولار: مائة مليون هي خاصة بحسني الزعيم، ومئتا مليون دولار تصرف على اللاجئين وإسكانهم في الجزيرة. والتكليف كان من وزير أمريكا المفوَّض. وقد رفض الزعيم حسني المبلغ وطلب مئتا مليون دولار لنفسه ومئتا مليون دولار لإسكان اللاجئين. وذهب السيد صلاح بصحبة العقيد أركان حرب محمد ناصر.

ولكن اليهود رفضوا الطلب. وجرت المفاوضات بين الطرفين. ولولا أن يقتل حسني الزعيم لتمت الصفقة. ولكن الله أبى ذلك بما قضاه على حسني الزعيم[1].

فخري البارودي

---

(١) - لم يذكر أعداء حسني الزعيم، وهم كثر، شيئاً عن اتفاقٍ كهذا، ولذلك نشك بصحة هذه الوثيقة.

حي على الفلاح

الأمل نشر هذه الكلمة في جريدتكم، ولكم الشكر سلفاً[1].

لقد قرأت البيان الجامع المانع الذي قدمه إلى أمانة جامعة الدول العربية، رئيس الوزراء الدكتور ناظم القدسي، وفهمته حرفاً حرفاً. ومنذ تأسيس هذه الجامعة حتى الآن لم يؤثر على قلبي وروحي وضميري بيان كهذا البيان، الذي خوطبت به الجامعة العربية، لأنه ماصدر إلا عن قلب راسخ الإيمان وعقل ناضج الإدراك.

وأنا منذ الآن أضم صوتي إلى صوته، وأطلب من الشعوب العربية أفراداً وجماعات أن تلبي دعوته التي كانت أدق صيحة دوّى بها نفير دعاء في عصرنا الحاضر. وإني لألفت نظر الشباب خاصة إلى تلبية هذه الصيحة إذ عليهم وحدهم تقوم دعائم الوطن، وهم عُمد مستقبله. وإني لأنتظر منذ لآن الإشارة إليّ بالتحرك وأنا في ثياب الجندية إلى أي بقعة من بقاع التدريب العسكري و أي معسكر من معسكرات الجندية.

ومن رأيي أن يبدأ الجيش السوري منذ اللحظة بتدريب شبابنا وشاباتنا على حمل السلاح استعداداً لتلبية الرصاصة الأولى بالاندفاع إلى حيث نعيد ما فقدناه في هذه المناورة السياسية التي مُثلت فصولها على أرض فلسطين وألا ينتظر جيشنا موافقة بقية الحكومات العربية على هذا الأمر. فليس في الوقت متسع. وإن الزمن ليمضي قدماًغير مبال بكل متخلف.

---

(١) - وزّع هذا البيان على الصحف.

أما كلمتي للأحزاب فهي رجاء صارخ بالتخلي عن جميع الحزازات الشخصية التي لاتجر إلا إلى انهيار ماتبقى من صروح مجدنا، وهي التي ينظر إليها العدو بعين الارتياح، فهي التي ستمكنه -لاقدر الله- من تحقيق بقية مطامعه في أوطاننا وأعراضنا ومعتقداتنا إذا ظللنا سادرين في غفوتنا ساهين في غفلتنا، منقادين إلى أهوائنا ومطامعنا.

وإني لاحذر الأمة العربية من الدعايات الأجنبية، وألفت نظرها إلى أننا أقوياء بالنسبة لعدونا الذي مهما قوي فلن تبلغ قوته مبلغ قوة فرنسا التي جابهنا نارها بالصدور وحديدها بالحجارة، وكنا نحن المنتصرين.

دمشق في ٢٧ كانون الثاني ١٩٥١.

فخري البارودي



حسني الزعيم ومحسن البرازي

التطوع في الجيش[1]

وجهت وكالة الأنباء السورية سؤالاً إلى السيد فخري البارودي، قالت فيه:

علمنا أنك تقدمت إلى رئاسة الأركان بكتاب تبدي فيه رغبتك في التطوع، فهل هذا صحيح؟ فأجاب السيد البارودي:

إني منذ بدء الحوادث والمناورات الجديدة رأيت أن الدافع الوطني يدعوني للتطوع. وكنت نبّهت الشعب السوري في كتاب: (كارثة فلسطين) إلى مطامع ومآرب اليهود في بلادنا. وإني أكرر طلبي من الشعب أن يستعد بكل ما لديه من قوة لمجابهة هذه الأخطار. هذا وقد تلقّت رئاسة الأركان العامة الكتاب التالي:

حضرة رئيس أركان الجيش السوري المحترم!

نظراً للحوادث الأخيرة السيئة التي تنوّه بها الصحف بين حين وآخر عن المناورات التي تقوم بها حكومة إسرائيل، فإني أقدم نفسي متطوعاً خلال تطورات الأمور التي يمكن أن تقع بيننا وبينهم. وإني في مدى أربع وعشرين ساعة مستعد للالتحاق بأية قطعة وبأي عمل ترونه لي. وها أنذا أنذر نفسي لخدمة أمتي. والله أسأل أن يوفقكم لخدمة هذا الوطن والسلام.

دمشق في ٢٠/ ٣/ ١٩٥١

العقيد

فخري البارودي

---

(١)-٨٦/ ١٠٩٠.

وقد أجابت الأركان بما يأتي:

لحضرة العقيد فخري بك البارودي المحترم!

لقد وصلنا كتابكم المؤرخ في ٣٠/ ٣/ ١٩٥١، الذي تبينون فيه استعدادكم للالتحاق بأية قطعة من قطعات الجيش، بغية المساهمة في الدفاع عن الوطن. فلم نستغرب هذه البادرة لما لكم من خدمات جُلّى ومساهمة فعّالة خلال تاريخكم الحافل بالجهاد في سبيل إعلاء كلمة سورية والأمة العربية جمعاء. وسوف لن نتأخر عن طلب مساهمتكم مع الجيش الذي هو جيشكم الذي آلى على نفسه أن يحمي أراحني هذا الوطن من الاعتداءات والمؤامرات الخارجية.

وبالختام تفضلوا بقبول فائق شكرنا وتقديرنا، ولازلتم ذخراً للوطن والسلام.

دمشق في ٨/ ٤/ ١٩٥١

الزعيم أنور بنود

رئيس الأركان العامة

الرئيس فوزي سلو والعقيد أديب الشيشكلي ١٩٥٣

رسالة من علي ماهر إلى البارودي
حـول مؤتمر الشعوب العربية بالقاهرة[1]

بعد صادق التحية – حيث إن الظروف التي تجتازها البلاد العربية في هذه الأيام تتطلب بذل الجهود، والعمل لمؤازرة العرب بعضهم لبعض. رأى الاتحاد العربي أن يستشير مفكري العرب في عقد مؤتمر للشعوب العربية تبحث فيه القضايا العربية الهامة، وترسم فيه خطة سياسية عربية شعبية موحدة. لذلك اتصل الاتحاد بحضرات أصحاب السعادة ممثلي المملكتين العربية السعودية والمتوكلية اليمنية بالقاهرة، لرجائهما الاتصال بالرياض وصنعاء للسماح لمن يريد من رجال بلادها الاشتراك في المؤتمر والحضور إلى مصر. كما أوفد حضرتي السيدين الأستاذ موريس أرقش، من أعضاء مجلس إدارته إلى لبنان، والدكتور محمد أسعد سلهب، الأمين العام للاتحاد العربي، إلى سورية والعراق والأردن حيث اتصلا بالهيئات والأحزاب والشخصيات المعروفة في هذه البلاد، وعرضا عليها فكرة المؤتمر فوجدا إجماعاً على تجنيدها والاستعداد للاشتراك في هذا المشروع القومي العربي.

وقد اقترح بعضٌ من حضراتهم درْج بعض الموضوعات الهامة في جدول أعمال المؤتمر لبحثها. وبعد أن عاد المندوبان إلى القاهرة واطلع مجلس إدارة الاتحاد

---

(1) – ٨٤/ ٥٧٧.

على الآراء والاقتراحات التي أبديت من رجال العرب وموافقته على هذه الاقتراحات، قرر الدعوة لعقد (المؤتمر الأول للشعوب العربية بالقاهرة) في بداية سنة ١٩٥٢ متى تيسير ذلك، ليبحث فيه :

١- درس الوسائل العملية التي تؤدي إلى تقوية الروابط السياسية بين الشعوب العربية .

٢- قضية (مصر والسودان) .

٣- مقترحات الدفاع المشترك عن الشرق الأوسط .

٤- المعاهدات غير المتكافئة .

٥- قضية فلسطين ومشكلة اللاجئين .

وكان بودّ الاتحاد أن يُعقد هذا المؤتمر بأسرع مايمكن لولا ظروف بعض الشعوب العربية التي اضطرته الآن أن يترك تحديد يوم انعقاد المؤتمر لبعد وصول الردود. ونرجو أن يتم عقده في مارس (آذار) القادم .

وقد شكل الاتحاد لجاناً لتحضير الأبحاث والمستندات الخاصة بالخمسة مواد السابقة الذكر والمراد بحثها في المؤتمر. وانتخب بعضاً من أعضائه لعضوية هذه للجان المقرر تأليفها من مندوبي مختلف الأقطار العربية .

فالرجاء من حضرتكم التفضل بتبليغ الاتحاد العربي بالقاهرة عما تختارون بحثه من الموضوعات المعروضة لتحويلها إلى اللجنة المختصة .

وللاتحاد عظيم الأمل أن يصله في أقرب وقت خطاب من حضرتكم معلناً اشتراككم في المؤتمر، وإفادتنا عن اللجان التي ترغبون الانضمام إليها والعمل فيها، مع بيان أسماء حضرات من ينوبون عن هيئتكم الموقرة، تمهيداً لإرسال الدعوة والبرنامج بعدما يقرر نهائياً موعد انعقاد المؤتمر .

وسيتخذ الاتحاد العربي، بصفته اللجنة التحضيرية للمؤتمر، الإجراءات اللازمة لتسهيل انتقال حضرات المشتركين إلى القاهرة، كما سيتصل بشركات النقل والفنادق لتخفيض الأجور والإقامة.

والاتحاد العربي بمصر يرحب بكل اقتراح يتقدم به رجال العرب لدرسه في اللجنة المختصة قبل انعقاد المؤتمر، وفي حالة الموافقة يدرج بجدول الأعمال.

وتفضلوا مع جزيل الشكر بقبول أصدق التحيات وأطيب التمنيات.

رئيس الاتحاد العربي بمصر

علي ماهر[1]

وقد ردّ البارودي عليه بتاريخ ٢٦/ ٣/ ١٩٥٢ بما يلي:

---

(١) - علي بن محمد ماهر باشا. سياسي مصري متحرر، وقانوني رفيع المستوى، تولى رئاسة الديوان الملكي مراراً، وكذلك رياسة الوزراء، وشكل أول حكومة بعد الثورة، وتوفي سنة ١٩٦٠ عن ٧٨ عاماً.

صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا[1]

تحيتي واحترامي وبعد،

فإني حريص على حضور هذا المؤتمر الذي تبذلون لانعقاده حميد المساعي. أما وقد يحول تقدم سني أو توعك صحتي دون تحقيق رغبتني فإني أبدي لكم رأيي مختصراً في القضية العربية آملاً أن تفسح له الأيام القريبة سبل التنفيذ.

نحن في عصر الذرة والرادار. ولم يبق للعرب من عذر في تخلفهم عن موكب الحضارة، فأعداؤنا أقوياء أشداء كثر، وعجلة الأيام دائبة في جريانها لاتضرّ ولاتني ولاتعود إلى الوراء ولاتعبأ بمتخلّف.

وسياسيونا يخبطون في دياجير الجهالة خبط عشواء، غير آبهين بما يحدق بنا من أهوال، ولا ملتفتين إلى مايحيق بهم من مكاره. وهم مستكينون إلى هذه العصابة الصفيقة السوداء التي عصب بها الأجنبي وأعوانه وأذنابه أبصارنا، فبعُد عهدنا برؤية النور. وضللنا طريق الهداية. وكدنا نتردى في هوة سحيقة غير ذات قرار، نحن منها الآن على شفا جرف من الهلاك. فإن شئنا أن نتجنب هذا الشوط الوشيك، وإن عزمنا على فك ما أحكم وثاقه على أبصارنا، فما على هذا المؤتمر إلا أن يسرع بتنبيه الشعوب العربية إلى ضرورة الضغط على حكوماتها لتتحد سياسياً فيكون تمثيلها الخارجي واحداً، وتتحد عسكرياً فيكون جيشها واحداً. ولكل حكومة بعد هذا الاتحاد أن تتصرف بأمورها الداخلية كيف شائت كالولايات المتحدة الأمريكية، ولو ساءت هذه مثلاً.

---

(١) - ٥٧٩/٨٤.

وعلى هذه الدولة العربية الموحدة أن تسرع بإعلان التدريب العسكري العام . على أن يسلك في التدريب كل عربي، مسيحياً كان أم مسلماً، من سن السادسة عشرة إلى الستين. ولإعداد المدربين أرى أن يُدعى حملة الشهادات الابتدائية والمتوسطى والعالية لإخراج رتباء، ووكلاء ضباط، وضباط. ليساعدوا الدولة العربية الموحدة على تدريب الشعب بكامله، نساء ورجالاً تدريباً عسكرياً تاماً منظماً على أحدث سلاح .

وأرى أن يطلب من هذه الحكومة العربية الموحدة تعليم اللغة العبرية لطائفة من الشباب من حملة البكالوريات تعليماً كاملاً ليطلع العرب على كل مايكتب في اللغة العبرية لاتقاء شر نوايا بني إسرائيل. كما أرجو التوسط لدى الجامعة بتأسيس مكتب دراسات لفلسطين على الطريقة العلمية الحديثة لنعرف كل مايلزم معرفته من أحوال هذه البقعة البائسة وليكون العرب على علم تام بأحوال هذا القسم من الوطن العربي الكبير .

على هذه الدولة الموحدة أن تفرض على كل عربي قرشاً ذهبياً واحداً يجمع شهرياً ويدفع دون إعنات أو إرهاق أو تذمر، ومن هذه الأموال يُفتتح مكتب للدعاية العربية يتولاه منا علماء اختصاصيون يعرفون كيف يوصلون صوتنا نبرة حق وصيحة يقين إلى مسامع المعمورة التي جعلت الصهيونية فيها وقراً فصمّت عن سماع قضيتنا .

وإذا ظلت الحكومات العربية على ماهي عليه الآن من التنابذ والتنافر والفرقة فسيأتي يوم «بَعُدَ أو قرب» ترغم فيه الشعوب العربية، هذه الحكومات التي شاء لها الأجنبي ان تتعدد، وكلها ينتمي إلى أصل واحد ويعيش في وطن واحد، ويتكلم لغة واحدة، على تحقيق ما أرى ولا أرى في غير ما أسلفتُ من ضرورة الاتحاد السريع دواءً شافياً لدائنا الذي تأصلت جذوره وتشابكت فروعه .

هذا بالإضافة إلى ضرورة التشدد بمقاطعة هذه الوليدة الشوهاء التي تمخض عنها ضمير الغرب والمعروفة بحكومة إسرائيل المقامة في عقر وطننا العربي مستندة إلى رماح الغرب الذي لايضمر للعرب إلا الشر.

وتصل رفعتكم نسخة من كتابي «كارثة فلسطين العظمى» آمل أن يتوفر لكم الوقت لدراستها دراسة وافية كافية، فتقفوا منها على الخطط الأساسية التي انتهجها خصومنا الصهيونيون في تأسيس حكومة صهيون اليهودية.

وختاما تفضلوا بقبول فائق الاحترام.

دمشق ٢٦/ ٣/ ١٩٥٢

فخري البارودي

رسالة إلى
اللواء فوزي سلو

سيادة اللواء!

تحية واحتراماً وبعد،

أكتب إليكم بصورة خاصة هذا الكتاب الأخوي المملوء بالعتاب، ولو لم يكن بيننا قديماً محبّة خالصة مملوءة بالصفاء الخالي عن المداهنة والرياء ماحمّلتُ نفسي شيئاً من العناء.

ياأخي إنك تعلم علماً أكيداً أنني وقفتُ نفسي لخدمة أمتي منذ نعومة أظفاري. وهذي خمس وأربعون سنة مضت عليّ وأنا أجاهد في جميع الميادين في سبيل رفع شأن الأمة، متحملاً من الأتراك والافرنسيين ماتحملتُه من البلاء والضرر غير طالب أجراً، ولا منتظراً شكراً.

كما أنكم تعلمون أنني لم أخدم شخصاً بعينه ولا فئة معيّنة، بل كنت أعمل مع كل من كنتُ أظن به الخير وخلوص النيّة، حتى رأيت بحمد الله استقلال بلادي بأم عيني. وأرجوه تعالى أن يحفظه لنا ويديمه علينا.

ياسيدي كنتُ قدمت لكم قبل شهرين كتاباً فيه اقتراح يفيد الجيش بمبلغ لايقل عن خمسة ملايين ليرة سورية على أقل تقدير يؤخذ من المزارعين دون أقل تعب أو ضجة. وطلبت في الكتاب تعيين وقت لمقابلتكم للبحث بهذا الاقتراح ولتقديم

الشكر لحكومتكم على ماقامت به من العمل الطيب في منطقة مرج عذراء. فضربت بكتابي عرض الحائط. فلم آخذ جوابه، كما أنه لم يعين لي وقت للمقابلة. وقد أعدت الطلب تلفونياً عدة مرات طالباً من المرافق الرئيس داوودي أخذ موعد للمقابلة فكان يعللني بالأوعاد كأني طالب وظيفة أو راجٍ إحساناً.

وبالرغم من عدم إجابة طلبي بالمقابلة التي ليس لي منها أي نفع خاص. ورغم أنه لم يلتفت إلى اقتراحي فيؤخذ بعين الاهتمام تجاوزت عن كل هذا ولم أحفل بما لقيته من المعاملة الجافة التي لاتليق بي والتي لم أرها من الأخصام فضلاً عن الأصدقاء، واستغربت صدورها عن صديق قديم محب كالزعيم فوزي سلو الذي عُرف باللطف والدماثة وحسن الأخلاق. وبالرغم من العوامل التي قامت بنفسي، والعراك الذي قام بين الإباء والواجب، أعود لتقديم الاقتراحات المربوطة بهذا الكتاب التي أظن فيها بعض الخير لهذا الوطن البائس. وإنني آمل أن لايكون نصيبها كنصيب اقتراحي السابق، الإهمال أو النسيان، راجياً أن تحوز منكم بعض الاهتمام متمثلاً بقول الشاعر:

وإنّ الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلف جدا

فإن أكلوا لحمي وفرتُ لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وختاماً لايسعني إلا أن أدعو لكم بالتوفيق وأرجوه تعالى أن يقدركم على خدمة هذا الوطن، ويساعدكم على النهوض به، لايصاله إلى الدرجة اللائقة به، وقبول تحياتي واحترامي سيدي.

١٩٥٢/٧/٧

فخري البارودي



فوزي سلو رئيس الدولة والملك سعود بن عبد العزيز ١٩٥١

رسالة إلـــى اللواء محمد نجيب[1]

إلى رئيس وزراء وادي النيل، بطل الإصلاح المحبوب!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

لقد شعرتم أنه لم يبق عربي أو مسلم في سائر أنحاء المعمور إلا بارك عملكم المجيد الذي كنا ننتظره من إخوان الكنانة منذ عهد بعيد، وقد أتمه المولى تعالى على أيديكم. فنعم مااختار المولى تعالى من عباده لصالح عباده. والخلق عيال الله، أحبهم إليه أنفعهم لعباده. أدام المولى توفيقكم وأحاطكم بعنايته وأبعد عنكم قرناء السوء والاستسلام للغرور.

أما بعد،

فتعلمون ياسيدي الرئيس أن من يتولى شوؤن الناس مهما كان على ثبات في عقيدته وإخلاصه، يتأثر بمن حوله من القرناء والحواشي والمرجفين الذين لايخلو منهم عهد، ولا يسلم منهم ذو سلطة. وإن مايأتينا به الزمن من الأحداث لهو أبلغ ماينبغي لنا من العبر.

ليس حادث فاروق أول حادث في التاريخ. وربما كان من خيرة المصلحين لو أراد الله أن يمتعه بطائفة مخلصة يتخذها بطانة وموضع مشورة. ومثله من سبقه،

---

(١) - اللواء محمد نجيب، من ضباط ثورة ٢٣ تموز سنة ١٩٥٢م، اختير رئيساً لمجلس الثورة. وباسمه أذيع بيان الثورة، وترأس الوزارة من ٧ ايلول سنة ١٩٥٢ وحتى ١٨ حزيران سنة ١٩٥٣م حيث أصبح رئيساً للجمهورية، وبعد سلسلة من المشكلات مع الضباط الأحرار، أعفي من جميع مناصبه في تشرين الثاني سنة ١٩٥٤ وتولى عبد الناصر شؤون البلاد. توفي اللواء محمد نجيب بالقاهرة سنة ١٩٨٤ م عن ٨٣ عاماً، وله مذكرات سياسية من وجهة نظره. ونحن نرجح أن تاريخ رسالة البارودي هذه في أواخر سنة ١٩٥٢م.

وذو السلطة بحاشيته، إن كان مصلحاً وإن فاسداً، فهي التي تسوقه للخير إن حاول الفساد وكانت مخلصة، وهي تقوده للشر إن كان صالحاً وكانت هي الفاسدة. وهذا ما تعلمناه جميعاً من عبر التاريخ. وهذا الذي أقوله يعرفه أصغر تلاميذك، فلستُ معلماً ولكني مُذكِّر.

لقد منّ الله جلّت قدرته على العرب، إذ أنقذ أرض الكنانة من مهاوي شتى شأرفت على الانهيار فيها، لولا لطف الله بنا - معشر العرب والمسلمين - فجعل خلاصها على يد أخلص أبنائها وهو أنتم، فأنا لكم توفيقاً بكرمه يضنُ الزمن أن يأتي بأمثاله، فاجلعوا شكر الله على هذا التوفيق التغاضي عن أقوال المرجفين، والاستمساك بمبدئكم الصافي النقي.

ياسيدي الزميل!

ان حرية الصحافة مبدأ قبلته الأمم كافة، وعلى الأخصْ رجال الإصلاح فينا إلا أن هذه الحرية تختلف كثيراً بين أمة وأمة، وشعب وشعب، بالنسبة لاعتبارات كثيرة لاتخفى عنكم. وإن من الكثيرين الذين أمدهم المولى بقوة الحجة والعارضة، وسحر البيان، يغتنمون تلك الحرية فيسيئون فهمها عمداً ويفسرونها لغير ما وضعُت، معتمدين في ذلك على ظواهر البيان من الألفاظ ساترين ماوراءها. يكتبون أفظع الأهداف وأسوأ المعاني. هؤلاء ينبغي الحذر منهم.

إن واحب الصحافة تنبيه الناس وإرشادهم إلى مسالك الإصلاح وتوجيههم إلى مناهج الخير. أما الاستدامة على التعريض بالرجال ونشر الفضائح تحت ستائر الإخلاص ونشر الحقائق، فهذا لايدخل في نطاق حرية الصحافة، وبالتالي لا يكون توجيهاً للخير والموعظة الحسنة.

إنا نقرأ صحف القاهرة، وبقدر مايسرنا مبلغ قوتها في استقصاء الأخبار والحوادث وماتحمل من عبارات بليغة سهلة شيقة، نستاء من أساليب التوجيه فيها. حتى أصبحنا نعتقد بأن أولئك الكتاب ماسلكوا سبل الصحافة إلا للمتاجرة، بالأذى والإساءة للوطن وأبنائه، ونشر الفضائح بداعي الإخلاص والإرشاد.

ان التشهير بالفضائح، حقاً كانت أم باطلاً، لايعود على المقصود منها وحده، بل يشمل أبناء ذلك الوطن، ويجعلهم في أنظار العالم في درجة قصوى من الخمول والمهانة، فالمثابرة على الطعن بالشخص في مناسبة أو غير مناسبة والتشهير به بأفظع الألقاب والسمات والصور الكاريكاتورية يُمكن أن نعده منبعثاً عن إخلاص أو حسن نية، إنما هو التشهير والتشفي، إذ لافائدة للمصلحة العامة منه، فضلاً عن أن الإكثار من الحملات على نمط واحد يفسر للمصلحة الخاصة، دون العامة. وإننا نعطي الأعداء ممسكاً علينا، ونفتح لهم باباً واسعاً لاحتقار شعبنا والحط من كرامتنا.

فهل هذا هو الذي ينبغي لنا معشر العرب أن نفهمه من حرية الصحافة ياسيدي؟ إن «آخر لحظة» و «آخر ساعة»[1] و «أخبار اليوم» و «الأخبار الجديدة»[2] مافترت لحظة قبل حركة القطر الشقيق الأخيرة وحتى الآن من توجيه أشنع التهم وأحط الأساليب للنيل من رجالات الوادي البارزين. حتى إنهم لم يكونوا ليكتفوا بالرجال، بل رأيناهم يُشهّرون بالنساء أيضاً بأشكال كاريكاتورية، الأمر الذي لايحتمل. ولقد رأينا من رجحان العقل والصبر مايدعو لإكبار وإجلال ضحية ذلك التشهير، وهو في إبان مقدرته إذ كان رئيساً للوزراء. وكل ذلك يعدونه في سبيل الإصلاح ومن حرية الصحافة، فهل ذلك كذلك؟

ياسيدي!

إنك مدين بالشكر لله تعلى على حسن توفيقك لعمل ماسبقك أحد إليه في الوادي بهذا الشكل المكلّل بعناية الله. فهل لك أن تجعل من شكر المولى عليك أن

---

(١) - أصدرها محمد التابعي سنة ١٩٣٤ م بعدما ترك رياسة تحرير روز اليوسف، وكان من أكثر الصحفيين شعبية في مصر، وكانت كتاباته السياسية كفيلة بإسقاط الوزارة. توفي في القاهرة سنة ١٩٧٧ م، عن (٨١ سنة).

(٢) - أسسها مصطفى وعلي أمين سنة ١٩٤٤، وكانت مع آخر ساعة، تؤيد الملك وتهاجم الوفد منذ اليوم الأول، ولذلك لم يكن مستغرباً أن تهاجمه بعد الثورة.

أما الأخوان التوءم علي ومصطفى أمين فقد ولدا سنة ١٩١٠ م وتوفي علي أمين فجأة في مكتبه بدار الأخبار سنة ١٩٧٦، وتوفي أخوه مصطفى العام الماضي ١٩٩٧ وشيع من دار الأخبار.

تنعم بالنظر في ثلاثة عندكم لا أدب لهم إلا نشر الفضائح التي بها يُسيئون للوطن وأبنائه. فعندكم محمد التابعي ومصطفى أمين وأخوه علي أمين. وإني أتتبّع مايكتبون منذ زمن بعيد، وأقسم بالله -وأنا غير حانث بيميني على اعتقادي - بأني مارأيت في كل ماكتبوا أو يكتبون شيئاً يفيد المصلحة العامة إلا الازدراء بالوطن والتنكيل بأشهر أبنائه، والتلذُّذ بنشر الفضائح التي فيها تشويه سمعة الوطن وأبنائه في أعين الأجانب، وإفساح المجال لهم ليتكلموا بما يؤاتي آمالهم ونواياهم الاستعمارية.

أرجو أن لاينصرف قولي إلى التنويه بفاروق[1]، فهذا شاب مغترٌ أفسدته حاشيته فاستغرق في حمأة الدنايا. والناس جميعاً يعرفون عنه ذلك، إن في الوادي أو في غيره من الأقطار الأخرى. ولاتثريب إذا ماكتب عنه كل ماينبغي الإطلاع عليه بمقدار لايتجاوز المسّ بكرامة أبناء الكنانة. فيقال عنهم -كما قال أحد الإفرنسيين خطاباً إلى محمد التابعي (وقد قرأت ذلك في إحدى كتاباته بالذات) حيث قال له مانصه بالحرف على ماأذكر: «إن مثل هذا الملك فاروق لو كان بيننا ماتحمّلناه شهراً واحداً»، أو ألفاظ أخرى هذه فحواها.

أظن بأن محمد التابعي لم يشأ أن يفطن إلى قول هذا الإفرنسي، ومايراد منه، ولا إلى الهدف الذي أصابه. بينما كان محمد التابعي نفسه وأبناء قومه وبلاده ضحية تصريح ذلك الإفرنسي. وإنّ كلاً من محمد التابعي وصاحبيه مصطفى أمين وعلي أمين وأتباعهم لم ينكروا على صاحب التصريح، ولم يلتفتوا إلى الهدف، إنما سجلوا عبارة التصريح بالفخر وجعلوها على زعمهم من البراهين، فهل أساؤوا لغير الوطن وأبنائه؟ وهل خدموا إلا مصلحة الاستعمار؟ وليس بذلك فحسب بل بكل مايعملون وهم بجميع ذلك عالمون.

(١) - الملك فاروق بن فؤاد بن الخديوي اسماعيل، ملك مصر والسودان، تولى الحكم سنة ١٩٣٦ إثر وفاة أبيه، وأجبر على مغادرة مصر يوم ٢٦ تموز سنة ١٩٥٢، فعاش في أوربا وتوفي فيها سنة ١٩٦٥ عن (٤٥)عاما.

ثم لنأتِ ياسيدي إلى شخصية مصطفى النحاس[1]. إنّ سائر أرباب الاستطلاع في الشعوب فضلاً عن ذوي المصالح القومية بأرض الوادي خاصة والعالم بأسره لايعرفون رمزاً يمثل بلاد الوادي تمثيلاً حقيقياً غير النحاس. كما يعرفون بأن لأبناء وطنه اعتماداً قوياً عليه وثقة مُثلى بإخلاصه لوطنه. وإن أرباب المصالح الاستعمارية يعدونه العدوّ الأكبر رقم واحد لهم، والسور الأعظم الحائل دون رغباتهم منذ أكثر من عشرين عاماً. فهل يجوز لنا الآن أن نجعل هذا الرجل موضع الشبهة والازدراء بأعينهم. فإذا رضينا بذلك فبأية عين ينظرون إلينا بعد تجربة الرجل في مواقف شتى خلال هذا الزمن الطويل؟

أنا لا أريد أن أطيل عليك ياسيدي. وإنني لأعلم كثرة أعمالكم في هذا الظرف، إنما أرى أن ماذكرته لك الآن هو في طليعة ماينبغي أن نوليه من الاهتمام ونصرف في سبيل إصلاحه من الوقت. فلا تركن ياسيدي لأولئك المتحمسين المرجفين. إنما يعملون تجاراً بارعين في التشويش لاعمّالاً مصلحين مرشدين للوطن.

وإذا كنتم بدأتم بتطهير أرض الكنانة، فأرى كوطني مُسلم، أن تبدؤوا بتطهير الصحافة من تجار البيان قبل تطهيرها من بقية الأدران. وإن الأحزاب إن لم تُطهّر نفسها فإن الشعب يُطهرها عند الانتخاب، ولاسبيل إلى ذلك غير الشعب الواعي.

أخذ الله بيدكم إلى كل خير ورعاكم بعنايته. وأرجو أن لاتعدُّوا ذلك فضولاً، أو تقولوا كما قال التابعي: رب البيت أدرى بالذي فيه، فإنني من أهل ذلك البيت. وكل عربي أو مسلم، إناثاً أو ذكوراً، هم كذلك، وإن من كان بعيداً خارج المعركة يلمّ بما يدور فيها ويحيط بها جميعها أكثر ممن هو فيها.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[2].

فخري البارودي

---

(١) – مصطفى النحاس باشا ١٨٧٦ – ١٩٦٥، سياسي مصري خلف سعد زغلول في رياسة حزب الوفد المصري، وترأس الوزارة مرات عديدة، واعتزل في داره بعد قيام الثورة، وكان واحداً من كبار الخطباء في مصر، وهو يضاهي الدكتور عبد الرحمن الشهبندر من وجوه كثيرة.

(٢) – ملف ٨٤/ ٦٠٥.

من فخري البارودي إلى الزعيم أديب الشيشكلي(1)
«حول مشروع الدستور الجديد»

أخي الزعيم أديب الشيكشلي المعظم(2)!

حيا الله مابكم من شمم سوري وإباء عربي.

والساعة فإني أكتبت إليكم ورائدي مصلحة هذا الوطن المفدى الذي تجرّدْت في سبيله عن أي مطمع أو مطمح.

أكتب إليكم وقبلتي التي أتوجه إليها بقلبي قبل وجهي منفعة هذه الأمة التي مازالت مُشرئبّة أعناقها شاخصة أبصارها إلى يد نبيلة المقصد عفيفة المرمى، تحمل مشعل هدايتها في سبيل العلم الذي ينضج أفكارها وينير أفهامها ويقودها إلى معارج الرقي والتقدم في مضمار الحضارة، والعمل الذي يرفعها من الوهدة العميقة السحيقة التي حفرتها لها معاول المستعمرين وأيدي عبيدهم المستأجرين، والوحدة التي تجعل من أبنائها صخوراً صُمّاً في طود مرصوص، بناؤه يشدّ بعضه بعضاً تحت حلم موحد الألوان يخفق كريماً عزيزاً من مشارف سواد العراق إلى مطارح الأمواج من شواطىء بحر الظلمات.

---

(1) - ٨٤/ ٦٠٨ وقد نشرت في جريدة الفيحاء بتاريخ ٢٨/ ٦/ ١٩٥٣م.

(2) - ولد في حماة سنة ١٩٠٩ وشارك في انقلاب الزعيم سنة ١٩٤٩ م، ثم قام بانقلاب على الحناوي سنة ١٩٤٩، وأصبح بعد ذلك رجل الجيش الأول.

وفي سنة ١٩٥١ دفع باللواء فوزي سلو إلى الواجهة، ثم عزله وحل محله بعد انتخابات سنة ١٩٥٣، وغادر البلاد في شباط سنة ١٩٥٤ إلى السعودية ومنها إلى البرازيل، وهناك اغتيل سنة ١٩٦٤م.

أكتب إليكم وأنا كما تعلمون قد قاربتُ السبعين من عمري، فلم يبق لي في حياتي من أمل غير أن تبلغ العروبة ذروة مجدها. ولم يترك لي تقدم السنّ ووهن الشيخوخة من القوة ما أستطيع معها أن أصول أو أجول في أية معركة انتخابية.

أخي العزيز!

تعرفون أنني قد أمضيت من عمري ما أربى على خمسين سنة وأنا أعمل في الحقل الوطني دون أن أهدف إلى أية منفعة خاصة. وما كان ولن يكون هدفي في يوم من الأيام السعي لدعم شخص أو هدم آخر. فأنا أعلم علم اليقين بأن الدول تزول، والأشخاص تزول، أما هذا الوطن فهو وحده الأزلي الذي لايفنى.

لا أريد أن أذكر الأعمال التي قدمتها لوطني وأمتي، فللدهر قلم وللتاريخ سجل، وهذان الرقيبان العتيدان لايغادران من أعمال المرء، حسنت أم ساءت صغيرة ولاكبيرة، إلا ويرقمانها بمداد لا تمحوه الأيام ولاتطمسه الليالي ليوم حساب قريب أو بعيد، ولكنه آتٍ على كل حال.

كنت أفضل البقاء منزوياً في العزلة التي اخترتها لنفسي بعيداً عن السياسة صابراً صامتاً، ولا أبدي ولا أعيد، عملاً بقول ابن زريق البغدادي:

علماً بأن اصطباري معقبٌ فرجاً   وأضيق الأمر لو فكرت أوسعه

أما اليوم وقد رأيت دستور أمتي، وأنا الذي بذلت لمنفعتها ورفعتها طارفي وتليدي وأفنيت لكرامتها وعزتها شبابي وكهولتي. وماهذه الأيام القلائل البواقي من هرمي وشيخوختي بعزيزة عليّ أو أثيرة لديّ حتى أضنّ بها عليها، وأنا المنشد قول طرفة:

لعمرك إنّ الموتَ ما أخطأ الفتى   لكا لطَوَلِ المرُخى وثنياهُ باليدَ

أما اليوم وقد رأيت دستور أمتي يطرح للاستفتاء دون الأخذ برأي أحدٍ من علماء الأمة أو خبرائها، فإني أتقدم وقد طلبتم من أفراد الأمة إبداء آرائهم في

دستورهم بهذا الكتاب راجياً من أخوتكم التمعّن في قراءة صفحاته والتدبر في تنفيذ مقترحاته وإلا فسبقى لقوابل الأجيال عبرة وذكرى :

إن المتعارف عليه أن دستور أية أمه لايمكن أن يوكل أمر وضعه إلى فئة مجهولة غير معلومة ، أو أن يضطلع بحمل أعبائه رجل ما بمفرده ، ولو كان هذا الرجل عالماً من علماء التشريع ، أو فذاً من أفذاذ القانون ، أو فنداً من أفناد الدساتير .

ولقد جرت عادة الأمم على« انتخاب مجلس تأسيسي لوضع دستور حكيم تسير على هدية البلاد .

ودستور أمة مالايصلح لأمة غيرها ، لاسيما إذا ترجم إلى لغة أمة تختلف نزعاتها ومشاربها وتربية أبنائها وأهدافها القومية ومراميها الوطنية عن الأمة التي وضع لها الدستور أصلاً . لأن الشرائع هي عادات ، ولكل أمة عادات ، ولكل أمة عاداتها الخاصة بها وظروفها التي يجب ان تُصاغ مواد قوانينها في قوالب شعبية وطنية تستلهم من صميم حياتها .

وأما الاستفتاء الشعبي بكلمة نعم أولا ، وسواد الشعب لايفقه مرامي الدستور ولايفهم حتى كلمة الدستور ذاتها ، فلا يعني أن الأمة قد اشتركت بوضع دستورها ، وهو عمل غير قانوني لأن أكثرية الشعب جاهليون أميون ، وجلهم فضلاً عن ذلك لايملكون أمام الحاكم غير كلمة «نعم سيدي» .

وماقيمة الأدلاء بالآراء ، ومناقشة مواد الدستور المطروحة إذا لم يكن هناك من يُعدل مواده وفقراته في حالة تقدم أحد العلماء برأي صائب . والذي يبدو أن كل ماسيعطى عن الدستور وماسيدلى به من آراء سيذهب أدراج الرياح ، ويصدق هذا الدستور آخر الأمر .

لقد كنتُ في العام الماضي متفائلاً في أنكم ستسيرون بسورية سيراً حثيثاً إلى أهدافها المثلى . وكنت قد حبّذت أعمال الشدة التي ضربتم بها على أيدي الميوعة الحزبية لإيقافها عند حدها .

وكنت آمل أن تمضوا بسورية في ركاب الحضارة حتى تتبوأ مكانها اللائق بها بين الأمم معتمدين بذلك على أخلص النوايا وأطهر الأيدي وأعفّ الضمائر وأنضج العقول وأقوم الآراء السديدة الرشيدة الحرة. فتقدمت إليكم وإلى فخامة رئيس الدولة[1] بمذكرتين، اقترحت عليكم فيهما بعض الإصلاحات التي تؤول على الشعب على ظني باليُمن والخير، وتؤوب منها الحكومة بالنفع المادي.

ولما لم أتلقَّ من أحدكما على مذكرتي جواباً طلبت من المقربين منكم تعيين موعدٍ أقابلكما فيه لأشرح لكما وجهات نظري وأطلعكما على ما أرى فيه النفع والخير للبلاد وأهلها، فكان الصمت منكما جوابي. فأخذت أُبدي بصراحة واضحة متنزهة عن كل غرض رأيي إلى أقرب المقربين منكما، عسى ان ينقل إليكما منه شيء يكون فيه بعض الفائدة للوطن.

ومن أهم ما افترضته قبل بضعة أشهر هو أن تؤخر الانتخابات النيابية لمدة أربع أو خمس سنوات تشكل خلالها لجان لجميع دوائر الحكومة تحت رئاسة علماء موثوق بقدرتهم وخبراء مطمأن إلى إخلاصهم ونزاهتهم لدرس قوانين الدولة دراسة كافية، وبحثها بحثاً دقيقاً عميقاً ووضعها بشكل يُوائم روح الأمة ويلائم عاداتها وظروفها ويتمشى مع قويم أخلاقها وسليم عقولها وموروث أمجادها، على أن يكون رئيس كل لجنة معلماً مدرباً للأعضاء الذين لايصح أن يسلكوا في عدادها مالم يكونوا من حملة شهادات الدراسة الجامعية العليا ليسلك هذا الرئيس الخبير بأعضاء لجنته أقرب المسالك وأدناها من تأهيلهم إلى أن يؤدوا أعمالهم خير أداء بصورة تتمشى وطبيعة العصر الذي نعيش فيه.

ولابأس في أن يكون بعض رؤساء اللجان من الخبراء غير العرب الذين ليس لهم أي هدف أو مطمع سياسي موجه من حكوماتهم، إن وجد إلى هؤلاء من سبيل، وذلك لإعداد رجال دولة يمكنهم حمل الأعباء التي ستلقى على كواهلهم في

(١) - اللواء فوزي سلو، الذي أُعفِيَ من مناصبه سنة ١٩٥٣، وتوفي سنة ١٩٧٢ م.

إدارة دفة الحكم في البلاد بحنكة وحكمة ودراية، والسير بالسفينة إلى شاطىء الأمان. ولكن رأيي هذا لم يُعتد به ولم يُلتفت إليه، ووضع دستورنا بشكل ترك الباب مفتوحاً على مصراعيه لطعن الطاعنين بواضعيه المجهولين.

ولاشك أن هذه الأمة وسوادها كما أسفلت ستقبل به على عجره وبجره، وسيفوز برأي أكثرية غير دارية بالعواقب التي ستؤول إليها البلاد. ومهما مالَقَتْ أقلام الكتاب، العهد الذي وضع به هذا الدستور، ومهما مالأت رجال العهد الذي أُنشى فيه هذا الدستور فإني أرى أنه دستور غير شرعي ولا قانوني.

وأعود قبل الاختتام إلى نصح أخي أديب الشيشكلي أن يكون وضع دستورنا من قبل جمعية تأسيسية، أعضاؤها من حملة الشهادات العالية ذات الاختصاص، يُصار إلى انتخابهم انتخاباً حراً. ويعطى إليهم هذا الدستور ليدرسوه ويُقروه أو يعدلوه. وبعد إقراره يصار إلى انتخاب المجلس النيابي. وبهذا لايترك الزعيم منفذاً للوم ولا مدخلاً لشك، ولا ثملة لهامزٍ ولامزٍ في جليل أعماله التي يقوم بها لرفع شأن الوطن وإعلاء كلمته!

وإني لا أجد بين يدي نصحي مايكون مسك الختام لهذا الكتاب أسمى وأجلّ من قول الله عزّ وجل: ﴿كتاب أنزل إليك فلايكن في صدرك حرج منه ولتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾[1].

دمشق في ٢٧/ ٦/ ١٩٥٣[2].

المخلص

فخري البارودي

(١) - الآية الثانية من صورة الأعراف.

(٢) - جرى الاستفتاء على الدستور يوم ١٠ تموز ١٩٥٣، وأذيع رسمياً أن (١٥٢ر٨٦١) من أصل (٤٢٥ر٨٦٤) ناخباً قد وافقوا على الدستور وعلى انتخاب الشيشكلي رئيسا للجمهورية -السياسة السورية والعسكريون/ ٢٣٨.



شكري القوتلي وفارس الخوري ١٩٥٦

سُليمان القصّار
أبو عبدو

سُليمان أبو عبده القصار. ومن لايعرف القصّار اليوم في دمشق؟ هذا الوطني الصامت الذي لم يفاخر بعمل أتاه، ولم يتبجّج بوطنية وفاها حقها من التضحية والإقدام.

توفي، رحمه الله، عام ١٩٥٣ بعد أن قضى أكثر من خمسين سنة وهو يعمل في الحقل الوطني دون ضجة ولا رغبة في الظهور. كان من الذين تشبعوا بالروح الوطنية في العهد العثماني. وقد تشرب هذه الروح من تلامذة أستاذنا الشيخ طاهر المغربي الجزائري. فكان إذا سمع حادثاً مثيراً للشعور الوطني يتأثر ويناصر المظلومين، ويقف في وجه الظالمين من رجال الحكومة العثمانية. ولم يترك أحداً من الشرطة أو الموظفين يعتدي على أحد من الأهلين.

وكان شقيق المرحوم الشيخ عبد الرحمن القصار[1]، الشاعر المشهور الذي سيُكتبُ له فصل خاص في مذكراتي، سلّط اللسان بالهجاء، يخافه الحكام وكبار «الذوات» فكان هذا مساعداً لأبي عبده بالدفاع عن الناس، وقد عاش حتى قارب

(١) - عبد الرحمن بن عبد الحميد القصار، من أشهر شعراء الشام في أواخر العصر العثماني، ولد سنة ١٨٦٨، وتولى نظارة جامع التيروزي، ونظم مئات القصائد الوطنية، تُوفي سنة ١٩٢٩م ودُفن في مقبرة عاتكة. أعلام الأدب والفن ١/ ٢٣٣.

التسعين من عمره، وسُجن في قلعة دمشق أيام الثورة، وسوف يأتي ذكر ذلك في وقته.

أول مادفعه للظهور في مقاومة الأجانب، مظاهر ةوعد بلفور التي خرجت من المسجد الأموي. ولما وصلت المظاهرة، التي زاد عدد المشاركين فيها عن الخمسمائة شاب، إلى أمام سوق البورصة صاح أحد الشبان، وأظنه الدكتور الشهبندر، بصوت عال:

«لعينيك ياأبو عبده جميع هؤلاء الشبان فداء الوطن». فاختلط أبو عبده بالشبان وسار أمامهم يهزج ويصيح. ويبدأ منذ ذلك اليوم إلى يوم الجلاء يعمل في أول صفوف المتظاهرين. وكان عماد الوطنيين في سوق الحميدية. وكل إغلاق للأسواق يجري يكون هو من اللجنة العاملة فيه. وكان لايترك صديقه الوطني الصامت المرحوم حسن أفندي الخياط. وسأفرد له فصلاً خاصاً إن شاء الله. ومن المشرّف أن لاسم القصار معاملاته التجارية الخالية من أي غش. فكان رحمه الله في معاملاته التجارية مثال النزاهة والصدق. حتى إنه كان عمدة في فك اختلافات التجار التي تقع بينهم. كما أنه كان من عمدة الوطنيين في الميدان يقيم الحي ويقعده كلما وقعت حادثة من الحوادث المسيئة.

والميدان كان ولم يزل معقل الوطنية الحقة. وسيأتي شيء عن مواقف أهله المشرفة أمام الحوادث والانتخابات.

رحمك الله أبا عبده، وأسكنك فسيح جنانه، وكافأك على قدر خدمتك لأمتك ووطنك.

فخري البارودي

حَذار من الصُّلح مع إسرائيل

حضرات رئيس وأعضاء اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية المحترمين[1]

بيروت

لقد انتهزت فرصة انعقاد لجنتكم في بيروت لبحث مشكلة مسألة صلح العرب مع اليهود، وأرسلتُ إلى كل فرد منكم كتابي (كارثة فلسطين)، كما أرسلته من قبل إلى كل عضو من أعضاء المؤتمرات التي عقدت في سبيل فلسطين ليقرأ قراءة التبصر والاعتبار ويعلم منه مدى مايبيته اليهود للشعب العربي والبلاد العربية من ضغائن وأحقاد لايشفي غليلها الظامىء إلى شرب دمائنا إلا أن يمحى ذكر آخر عربي من سجل الوجود.

وإني لأحذِّركم اليوم، إذا امتدّت أكفكم إلى إسرائيل بالصلح، من سخط الله وغضب العرب، ونشوب ثورة جائحة جامحة سوف لاتُبقي ولا تذر إذا استمرت نيرانها وانفجرت براكينها. ولن يعلم أحد غير الله مدى امتداد ألسنة لهيبها.

فلقد تيقظت الأمة العربية يقظة حذرة واعية، وأصبح يومها غير أمسها، ولم تعد تهاويل الاجتماعات، وأباطيل التصاريح، وأضاليل الخطب لتنطلي عليها. . فاسمعوا وعوا وقدّروا لأرجلكم قبل الخطو موضعها. . واحذروا ألاعيب الغرب الذي يسعى جاهداً لجعلنا عبيداً أذلاء خانعين خاضعين لنيره ونير اليهود.

---

(١)- ٨٤/ ٥٦٩.

فلا تصموا سجل تاريخ العروبة، بتوقيعكم على وثيقة الصلح كما وصم من قبل بالخزي والعار يوم وقّعت اتفاقيات الهدنة التي أقيمت بيننا بين شرذمة من سفّاح ولغوا في دماء الأبرياء من الرضّع واليتامى والأيامى والعجزة القاصرين . . فرضينا بذلك أن نجعل من هؤلاء أنداداً لنا يقفون في مصافّنا بين يدي التاريخ .

إياكم والرضا بالصلح . .

واحذروا ثورة الأمة العربية . .

«واتّقوا فتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة» .

وختاماً قد أعذر من أنذر . . وإني لكم لمن الناصحين .

دمشق في ٢٨/ ١٢/ ١٩٥٣

المخلص

فخري البارودي

برنامج للإصلاح والتحرير[1]

أيها السادة!

كأن الأقدار التي شاءت لهذه الدار أن تقف خمسين سنة في وجه الأجانب، تدفع عن وطننا الحبيب كيد الكائدين وجور الجائرين، لم تشأ أن أغادرها إلى غيرها قبل أن تُسجّل لها في سجلات ذكرياتها صفحة تكون أسماؤكم الكريمة موضوع آخرِ اجتماع سياسي يعقد فيها. فأهلاً بكم وسهلاً، ولينقل التاريخ عن اجتماعكم هذا ماستتخذونه من مقررات تنفع الوطن وتعلي شأن الصحافة.

إنكم ياسادتي لاتجهلون ما للصحافة العالمية من أثر عميق في توجيه الرأي العالمي، ومالها من قوة فعالة في بث الدعاية بين أمم الأرض.

وإنكم لتعلمون أن الخطر محدق بسورية، وإننا إذا لم نتدارك هذا الخطر بكل ماوسعنا من جهد، وبكل مااستطعنا من سرعة، غُلبنا على أمرنا، وقرعنا سنّ الندم حين لاينفع الندم.

وإني أرى أن الدعاية للعدو بتضخيم أعماله وتجسيم قوته مُضرة بالوطن، ومسيئة لسمعتنا. وعلى هذا فإن من الواجب على كل فرد منا أن يحول دون هذه الدعــاية التي تبثُّ الرعب في قلوب ضــعــاف الإيمان الذين لايؤمنون بأن لنا يومــاً سنسحق فيه عدونا سحقاً ونجتثّه من الأرض التي بنى قصور خوادع أوهامه عليها، ونكشف الستار الصفيق الذي يخبىء وراءه حقيقة أمره الواهية المضعضعة.

---

(١) - ٨٤/ ٥٦٣ والرسالة موجهة إلى الصحفيين.

ولقد رأيت أن الواجب يدعوني لدعوة حضراتكم لهذا الاجتماع حتى نبحث في الأمور التالية:

١- الدعاية الدائمة لتهيئة الأمة العربية لليوم الموعود الذي سنستخلص فيه وطننا الجنوبي «فلسطين» من أيدي شذاذ الآفاق الذين يضللون الرأي العالمي بأباطيلهم وأكاذيبهم الملفقة الخادعة.

٢- توجيه حملات صحفية منظمة، تشترك فيها جميع الصحف، تطلب من دوائر الحكومة، دائرة فدائرة، الإصلاح بالتوجيه العلمي في كل ناحية من النواحي. والدوائر التي أرى وجوب الاهتمام بها هي:

أ- وزارة الزراعة، فليس في هذه الوزارة من الفائدة الزراعية للبلاد غير الاسم، إذ ليس فيها معلم أو موظف عملي. في حين أنها تعج بالموظفين والمعلمين النظريين. وبلادنا كما هو معلوم زراعية قبل كل شيء. فإما أن تصلح هذه الوزارة إصلاحاً تاماً حتى تستطيع أن تؤدي واجبها المفروض عليها، وإما إن تلغى.

ب- وزارة الصحة، فهي في حاجة ماسة إلى إرشادها والأخذ بيدها في الطريق الذي إن اتَّبعته أدت ما عليها للبلاد من الخدمة الصحية. فمستشفياتها ومستوصفاتها ومصحاتها مازالت بعيدة جداً عن الغاية التي وُجدت من أجلها، وماتزال هذه المستشفيات والعيادات الصحية تقل كثيراً عن حاجة البلاد. .

ج- وزارة المعارف، التي عليها من الأعباء مالا يحسن السكوت عنه في تقصيرها بالتوجيه العلمي الصحيح. فكأني بها لم تعدُ كونها معهداً يخرِّج الموظفين فحسب، كأن كل جهدها لم ينحصر إلا في تخريج هؤلاء الموظفين الذين زادوا كثيراً على حاجة البلاد. فعل هذه الوزارة أن تغير مناهج تعليمها الحالية إلى مناهج يضعها مختصون بشؤون العلم والتعليم حتى تخرج إلى حيز الوجود التعليم الزراعي والصناعي والاقتصادي وما إلى غير هذه من التعليم الصحيح الذي ينشىء لنا أجيالاً تكون في الوطن عماداً للعلم والعمل.

د- الإلحاح الدائم على الدولة، كائنة ماكانت الحكومة التي تتولى إدارة دفة الحكم في البلاد، لإسناد المناصب العليا لأهل الاختصاص والخبرة، ثم مطالبة الحكومة بإصرار وتصميم لتدريب الشعب بأجمعه تدريباً عسكرياً حتى نكون صغيرنا وكبيرنا، رجلنا وامرأتنا، على أهبة الاستعداد لأي خطر قد يدهم حدودنا، كما يفعل أعداؤنا وراء الحدود.

هـ- اجتماع صحفي يعقده أصحاب الصحف، ولو كل شهر مرة، للمداولة فيما يجب على الصحافة ان تقوم به لخير الأمة ومصلحة الوطن.

وقبل اعملوا فسيرى الله عملكم والمؤمنون.

دمشق في ١٦ أيلول ١٩٥٤

فخري البارودي

رسالة إلى الرئيس شكري القوتلي

سيدي صاحب الفخامة، رئيس الجمهورية المعظّم(١)

تحية من الله طيبة زكية مباركة، وبعد:

فهذه هي المرة الأولى التي أكتب فيها لفخامتكم عن قضية شخصية، وما كنت أريد، ولا كان يجول بخاطري يوماً، أن أشغل بالكم الكريم، ولاسيما في مثل هذه الظروف الدقيقة الحرجة بمثل هذه القضية الشخصية، ولكن الزمن وغيوبه في علم العليم الخبير، قد اضطرني وأحوجني لأكتب لفخامتكم في موضوع يخصني ولايتعداني. ولو لم تصلنا تلك ا لحقوق الوطنية الراسخة ولو لم تربطنا هاتيك الأواصر القومية الوثقى، لما تجرأت على مفاتحتكم بمثل هذا الأمر الذاتي.

تعلمون ياسيدي أني قد فرزت حصتي في قرية الجرباء بعد تقسيمها بيني وبين ورثتها، منذ سنوات. ولقد وقفت غاية جهودي على إدارتها إدارة صحيحة، آملاً أن تدرّ عليّ مايسدّ حاجتي. فحفرتُ بها أربع آبار، وجهزتها بمضخات ومحركات ألمانية حديثة. وقد كلفني ذلك مبلغاً كان فوق طاقتي، مما اضطرني لاستدانة بعض المال من بنك سورية ولبنان، والبعض من المرابين الدائنين، أو أصدقائنا من التجار الأكرمين.

ولقد مضت هذه السنون الثلاث، وأنا انتظر فرج الله، والفوائد تتراكم، ولكن ياللأسف كانت سنين عجافاً أجدبت أيامها وأمحلت مواسمها، فخرجتُ منها جميعاً بخفي حنين، مما زادني خسارة على خسارة، وأوقعني تحت عبءٍ من الديون

(١) - ٨٤/٦١٢.

كانت وطأته فوق طاقتي . . ومافيّ إلا طاقة الإنسان. كما أنها اضطرتني لصرف قسم كبير من واردي من شركة الأسمنت على هذا المشروع الفاشل، لعجزي عن إدارته بنفسي وأخلاق العمال.

ولما لم يعد بإمكاني الدوام على العمل عزمتُ على بيع حصتي من قرية الجرباء لسدّ الديون وشراء بناية أحصل من إيجارها على مصروف داري اللازم الضروري. ولكن لسوء الحظ أوقفت الظروف الحاضرة البيع والشراء كما تعملون. وقد وقفت موقفاً يُعجزني عن إيجاد مايسدد الدين، وأزيد على ذلك أنه يكاد يعجزني عن إيجاد مصروفي الخاص الذي أعيش به في داري عيشة الكفاف، وهذا المآل العصيب الذي آلت إليه حالتي، والموقف الحرج الذي «لبكني» وأوقفني حائراً وأنا على مفترق طرق الحياة هو الذي ألجأني مرغماً إلى تكليف فخامتكم بمساعدتي في قضية تنقذني من الحاجة وتقيني من أن أريق ماء وجهي وأنا أمدُّ طلب العون والمساعدة إلى غير الله عزّ وعلا، وإلى غير فخامتكم.

وطلبي هو أن تسعوا فخامتكم لدى الحكومة المصرية لتسمح لي باستيراد كمية من الرز المصري يدفع ثمنها في القاهرة جنيهات مصرية من حساب تاجر مقيم أو صاحب أملاك ممن أتمكن من إقناعه من أصدقائي السوريين الذين لهم أموال في القاهرة مقابل رهن جميع ما أملكه في الجرباء مع داري التي أسكنها، والمبلغ المطلوب شراء الأرز به هو خمسون ألف جنيه، أعيدها لأصحابها في مدة ثلاث سنوات.

وإذا أخذ الله بيدكم وساعدتموني بهذا الأمر تنقذوني من هذه الهوة وتسترون وجهي وتُسدون إليّ يداً جليلة أحفظ بها الذكرى الحسنة مدى حياتي.

وحاشا أن يلقي شيخ مثلي تقدَّمتْ به السنون عُسر عيش في عهدكم الميمون. أدامكم الله ذخراً للوطن وعماداً للأمة وسنداً لإخوانكم في الجهادين: جهاد في مسالك الحياة، وجهاد في سبيل الله والوطن.

دمشق في ٧/ ١٢/ ١٩٥٦

فخري البارودي

رسالة إلى
الرئيس جمال عبد الناصر(1)

سيادة الرئيس!

لاشك أن كلمة توجهونها سيادتكم، أثناء أسبوع الجزائر، إلى العالمين العربي والإسلامي لمقاطعة فرنسا مقاطعة كلية ستوقف فرنسا الباغية الطاغية عند حدها، ثم تردُّها عن هذه المجازر التي أغرقت أرض الجزائر في بحور من الدماء والدموع.

ونحن على يقين من أن استعمار فرنسا الذي مازالت جذوره الخبيثة تمتدُّ وتعمق وتتأصل منذ عام ١٨٣٠ إلى يومنا هذا، سيستأصل بالمقاطعة الكاملة الشاملة التي تعم أقطار العالم العربي والإسلامي وأقطار الدول المحبة للسلام، والمناضلة من أجل الحرية، ولاسيما الدول التي اشتركت في مؤتمر باندونغ الذي انعقد في إندونيسيا، وفي مؤتمر تضامن الشعوب الآسيوية والإفريقية الذي عقد موخراً في القاهرة.

وإذا ما أحكمت مقاطعتنا لفرنسا المستعمرة اهتزت أسواقها التجارية وتقلقل ميزانها الاقتصادي، وزادت مشاغلها، وتعقدت مشاكلها، وأجبرت على إعادة

---

(١) - الملف ٨٤/ الوثيقة ٥٥٩.

النظر في قضية الجزائر ، فحاولت أن تتجه اتجاهاً جديداً معاكساً لكل ما تقدمت به من حلول شوهاء، كانت بعيدة كل البعد عن الحق والواقع .

والله سبحانه وتعالى يحقق كل ماتهدفون إليه ، ياسيادة الرئيس الجليل ، من خير وعزة لهذا الوطن العربي الحبيب الكبير .

دمشق في ٣٠/ ٣/ ١٩٥٨

المخلص

فخري البارودي



الرئيس جمال عبد الناصر والملك سعود بن عبد العزيز ١٩٥٩

لقاء مع المشير عبد الحكيم عامر[1]

في الساعة الواحدة من يوم السبت الاقع في ١٩٥٨/٨/٩ طلبني المشير عبد الحكيم عامر، بناء على تكليف اللواء أركان حرب جمال فيصل، للبحث معي في شؤون مكتب الدعاية للمقاومة الشعبية. فدخلت واستقبلني بلطفه المعهود نظراً لكثرة أشغاله. قلت له بأني سأتكلم بموضوعي تلغرافياً.

إن المقاومة الشعبية في دمشق بحاجة للعناية. وإني أشكو من قلة الضباط والرتباء. فالجيش الذي يتراوح عددهُ بين ١٠٠ و ٢٠٠ ألف له دوائر عديدة ومكاتب ومحاسبة، ونحن نجند الأمة ببضع ضباط، وهذا لايجوز. فأرجو إصدار الأمر بمساعدتنا لإعطائنا بعض الضباط والرتباء لسد حاجتنا.

أما بالنسبة للدعاية فإن الجيش ليس لديه المال الكافي لإعطائنا إياه، والدعاية لازمة. وقد أسست هذا المكتب وفكرت أن يكون مكتب دعاية للدولة لا للمقاومة فقط. وقد أخذت على عاتقي تمويل هذا المكتب بأخذ عشرة قروش سورية -لامصرية- من كل فرد، فساعدوني عسى أن يوفقني الله لخدمة هذه الأمة. والله يوفقكم لما فيه الخير.

فأجابني: بأن الدعاية لازمة وواجبة. وإن كانت الدعاية للأمة تكون أحسن من حصرها بفرع واحد، وهو موافق على هذا المكتب. وقرأ التعهد الذي وضعناه

---

(١) - ملف ٤/ الوثيقة ٦٣١.

للمكتب، ووافق عليه. وقال: يجب أن يُعمل به في مصر أيضاً. فقلت: إن شاء الله بعد تأسيس مكتبنا ستجدون منه فائدة، وتطبقون هذه الأصول في القاهرة.

وعندي فكرة ثانية، وهي أن نستفيد من أبناء الفن، الذين يؤخذون للجيش بتشكيل فرق تكون جاهزة للمسارح العسكرية التي ستؤسس في المستقبل. وإني مستعد للإشراف على هذا العمل والقيام به. فوافق على الفكرة بكل رضا، وقال عسى أن تطبق أيضاً في مصر. ووعدته بتقديم برنامج مفصل للعمل، ووعدته وأنا أدعو لهذه الدولة بالتوفيق والنجاح.



في دار البارودي في ساحة الأمويين

رسالة إلى الرئيس جمال عبد الناصر

سيادة الرئيس!

لما فتح العراق من قبل جيوش الفتح الإسلامي جاءت هند بنت النعمان إلى الأمير، وطلبت منه إعطاءها قرية غامرة تقوم بإصلاحها وتقوى بها على متاعب الحياة. فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بذلك، فأمره بإعطائها ما طلبت. وبعد التحري لم توجد قرية غامرة في جميع العراق. فكتب إلى الخليفة يعلمه بذلك. فأمر أن تُعطى قرية عامرة. فأجابت إنني شاكرة للخليفة هذا العطاء، ومعتذرة عن عدم قبوله لأنني أملك والحمد لله مايكفيني.

وها أنتم أولاء تسلمتم البلاد عامرة ومافيها قرية غامرة، فأرجو أن تبقى في ظل رعايتكم الحسنة على ماهي من عمرانها وأن تزيد.

سقت هذه الحكاية بمناسبة قيام الوحدة بين سورية ومصر، وصدور قانون الإصلاح الزراعي الذي رأيت فيه مجالاً للقول. مع العلم بأنني غير مشمول بأحكامه.

ياسيادة الرئيس!

إن تربة الأراضي في الإقليم الشمالي تختلف عن تربة الأراضي في الإقليم الجنوبي تماماً من حيث تعدد أنواعها وغزارة الأمطار في بعض أقسامها وضآلتها في البعض الآخر، وانحباس الأمطار عن بعضها، وجفاف التربة في غيرها. كما أن

الأراضي السقي تختلف عن بعضها من حيث قربها من العمران وبعدها عنه فهي في الأولى مرتفعة أثمانها، وفي الثانية منخفضة الأثمان.

ولأضرب لذلك مثلاً: لقد خصص لكل مالك كبير ثمانون هكتاراً[1] من الأراضي السقي. وهذه الثمانون هكتاراً تبلغ قيمتها في غوطة دمشق مليونين ومائة ألف ليرة سورية، بينما تساوي في أراضي الجزيرة مايقرب من سبعين إلى مائة ألف ليرة سورية. ومن هذه المقارنة يتضح الفرق الكبير في قيم الأراضي السقي بين كل من أراضي الغوطة والجزيرة وأمثال هذا الفرق كثيرة في مدن حمص وحماة وحلب واللاذقية ودير الزور وغيرها، . حيث تختلف الأسعار باختلاف الأقطار.

أما الأراضي البعلية فهي تختلف أيضاً اختلافاً كبيراً لايتصوره العقل، من حيث إختلاف مواقعها. فالأراضي البعلية الموجودة بالقرب من دمشق لاتنتج أي محصول إذا لم يصبها مطر غزير في الشتاء. مع أن غيرها من الأراضي لاتنتج المحاصيل إلا إذا كانت كمية الأمطار فيها غير غزيرة. وهذا ماثلٌ للعيان تماماً في أراضي حوران والزوية. أمافي منطقتي القلمون والقريتين فقد جرت العادة أن لايأتي هاتين المنطقتين موسمٌ جيد إلا كل عُشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة تقريباً. وتسمى هذه الأراضي بـ(الأراضي العشرية)، أي أن مستثمري هاتين المنطقتين يقلمون أراضيهم ويزرعونها في كل عام فلا يجنون إلا النذر اليسير منها أو لايجنون شيئاً. ومن مقارنة هذه الأراضي بأراضي حوران البعلية يتضح البون الشاسع بينهما. وقد أطلق على كلا المنطقتين تعبير الأراضي البعلية.

لذلك كان من المستحسن أن تراعى في التوزيع قيم الأراضي لا مساحتها، حتى تتحقق العدالة بين الجميع بالسواء. أي أن تخمّن قيمة الدونم أو الفدان في أجود أرض مروية وبعلية، ونحسب حصة الملاكين بالنسبة للمساحة الواردة في القانون وبالقيمة التي يحصل عليها في الأرض الجيدة يعطى الملاكون الموجودون في

(١) – الهكتار يساوي ١٠٠٠٠ م٢، والثمانون أكثر من ٨٥٠ دونماً بلغة اليوم، وهي مساحة شاسعة جداً.

بقية المناطق مساحة من الأراضي السقي أو البعل تعادل في القيمة قيمة الأرض الجيدة.

ثم إن القانون تضمن مفعولا رجعياً مدته ثماني سنوات، فهل من العدل والإنصاف ان يطالب بإلغاء بيع جرى قبل تاريخ القانون إما عن حاجة، وإما عن ضرورة، وإما بسبب عوامل أخرى؟ إنّ هذا أمر خطير الشأن يحسن إعادة النظر فيه والرجوع عنه. ولنلقِ الآن نظرة إجمالية على مشروع القانون برمّته ولنتحقق إذا كان ضرورياً تطبيقه أم غير ضروري. إنّ في سورية أراضي شاسعة داخلة في أملاك الدولة، وأولى بالدولة أن توزّع هذه الأراضي الشاسعة بين الفلاحين بالدرجة الأولى. حتى إذا ماقصّرت عن حاجة الفلاحين عمدت إلى توزيع أراضي المالكين الأفراد.

ياسيادة الرئيس!

إن كثيراً من أصحاب الأراضي الكبيرة أفنوا حياتهم وأموالهم في استصلاحها واستثمارها، وقاموا بمشاريع فردية للزراعة الواسعة تعجز عنها دولة، حتى بلغ الدخل القومي مابلغ في السنوات الأخيرة من الوفرة، ولايجوز بوجهٍ من الوجوه أن يقضى على تلك الجهود والأموال والمشاريع مع وجود أملاك الدولة التي تسدّ الحاجة وتزيد.

إنّ الجهود الفردية في سورية كثيرة جداً. وقانون الإصلاح قضى على هذه الجهود، وأثخن حياة أصحابها وأوهن قواهم. وسيكون من شأنه تقلّص نسبة الدخل القومي ونقصان الإنتاج وليست هذه النتيجة هي التي هدفتْ إليها الغاية من إصدار القانون. إن الدولة عندنا مازالت في حاجة إلى تضافر جهود الأفراد مع جهود الدولة لبناء مستقبلنا الاقتصادي وكياننا السياسي. ولابد للدولة من حماية الفرد أيا كان شأنه حتى تستطيع الإفادة منه كعنصرٍ فعّال في حياة الأمة. وواقعنا لم يصل بعد إلى المستوى الذي يجعلنا في غنى عن الجهود الفردية.

ياسيادة الرئيس!

اسمحوا لي وأنا الشيخ الذي جرّب الحياة في هذا الأقليم، وأفنى مراحل عمره في التجربة والاختبار ومقاومة الاستعمار ونشدان الحياة الحرة الكريمة أن أنصح بتأخير تنفيذ هذا القانون مؤقتاً، والبدء بأراضي أملاك الدولة كتجربة حتى إذا مانجحت عمد إلى تطبيق القانون على الملاكين والمزارعين، هذا إذا بقيت هناك ضرورة أو حاجة لتنفيذه. ذلك أن هذا القانون سينزل الكثير من الكوارث بأسر كريمة ساهمت في بناء اقتصاديات البلاد، بالإضافة إلى مساهمتها في مقاومة الاستعمار ونيل الحرية والاستقلال. وليس في مصلحة الدولة أن يعيش الألوف من أبنائها في حالة بؤس وضنك، وفي معزل عن المشاركة في بناء المستقبل والوطن للجميع. وشعار الدولة حماية الجميع لا التمهيد للقضاء على هذه الحماية.

واليوم، لقد وقفت جميع الأعمال الزراعية وفتحت هوة كبيرة بين الفلاح والمالك سترون نتائجها قريباً. لقد توقف كثير من المزارعين عن دفع الديون، وسيتوقف ألوف المزارعين قريباً عن دفع ديونهم، كثيرة كانت أم قليلة، حسب الأراضي التي يمتلكونها. ولذلك أرجو الانتباه إلى هذا الأمر وتلافي الأخطار قبل وقوعها.

ياسيدي الرئيس!

إن لهذا القانون محاذير جمة، مادية ومعنوية، والأمل كبير أن تأمروا سيادتكم بإجراء دراسة عميقة له من قبل لجنة حيادية ذات خبرة واختصاص وتجرد، قبل الشروع في تنفيذه وظهور المآسي الاجتماعية والنتائج الاقتصادية التي لانراها بوجه من الوجوه في مصلحة الجمهورية العربية المتحدة.

سدّد الله خُطاكم، وزاد في توفيقكم، ولا توّه لكم رأياً، والسلام.

٤/ ١١/ ١٩٥٨

فخري البارودي

ملاحظة: قدمت من هذه النسخة صورة إلى السيد عزة عبد الوهاب، وكيل وزارة الإصلاح الزراعي في سورية ورئيس البعثة.

رسالة إلى الدكتور نور الدين كحّالة

سيادة الدكتور نور الدين كحالة رئيس المجلس التنفيذي للإقليم الشمالي:

يسرني كمواطن عربي في الجمهورية العربية المتحدة. أن أبدي رأيي وما أعتقده في قانون هام صدر منذ وقت قريب.

ذلك أن قانون الإصلاح الزراعي من القوانين ذات الأثر الخطير في حياة الإقليم واقتصاده، ومما يترتب عليه نتائج ذات بال بالنسبة لفريق كبير من أبناء الإقليم، سواء من مزارعيه أو فلاحيه أو كل من يتصل أمرهم به من قريب أو بعيد.

وكان بودي أن أرفع تقريري المرفق لكتابي هذا مباشرة إلى سيادة الرئيس جمال عبد الناصر. غير أنني آثرت أن أعرض الموضوع عليكم وعلى رئيس بعثة الإصلاح الزراعي إلى الإقليم الشمالي السيدة عزة عبد الوهاب، قبل ذلك. ففعلت وقدمت له نسخة عن التقرير. ثم تحدثت إليه طالباً تأخير تطبيق القانون مؤقتاً ضمن المدة المحددة فيه، وهي خمس سنوات. على أن يكون البدء بأراضي أملاك الدولة كتجربة إذا مانجحت عمد إلى تطبيق القانون على الملاكين والمزارعين. هذا إذا بقيت هناك ضرورة أو حاجة لذلك.

وأنا لاأشك بعد في أن نيَّة الحكومة الموقّرة حسنة، وغايتها من هذا القانون هي إصلاح الزراعة. والآخذ بيدها نحو الأفضل. ولكن الأمر في رأيي وأرجو أن يخيب الله ظني، أن هذا القانون سيكون شؤماً على البلاد.

إني أرجو رفع تقريري المرفق الى سيادة الرئيس المحبوب، عسى أن يكون من وراء ذلك فائدة للبلاد، والسلام.

دمشق في ٥ تشرين الثاني ١٩٥٨[1]

فخري البارودي

(١) - نُشر الردُّ مفصلاً على لسان سيد مرعي وزير الإصلاح الزراعي في عدد المصور ١٢/١٢/١٩٥٨ م.

رسالة إلى المشير عبد الحكيم عامر

بسم الله الرحمن الرحيم

سيادة المشير!

من نعم الله -جلت قدرته- عليّ أن أمدّ لي في عمري حتى رأيت بأم عيني ماكنت أتمناه، منذ نشأتي الأولى، هذه الوحدة تتحقق بين مصر وسورية، كخطوة أولى في سبيل الوحدة العربية الكبرى. وأن أسعد بقوة الاتحاد تنمو شيئاً فشيئاً، حتى أصبح العالم يحسب لهذه القوة حساباً، ولم يكن ليقيم لها أي وزن.

واعتماداً على تأييدي المطلق لهذا العهد، وبوادر النجاح والفلاح مازالت تتأرجح رأيت من واجبي كجندي قديم في موكب القومية العربية أن أريح ضميري فأستلهمه بعض الملاحظات التي أعتبرها واجباً حتمياً على كل مواطن.

كما سمعت رئيسنا المحبوب يخطب، أو يتحدث، أو يصرّح، أو رأيته يعمل، ازددت قناعة بأنه الزعيم العربي الوحيد الذي جعل همه الأكبر رفع شأن العرب وتوحيد صفوفهم ودعم أهدافهم القومية عن عقيدة وإيمان راسخين.

جاء في الأمثال أنه قيل لعنترة بن شداد: كيف تستطيع أن تضرب ألفاً من الرجال؟ فأجاب حين يكون ورائي ألف رجل.

والرئيس -مد الله في عمره- في حاجة إلى أن يكون جميع معاونيه مضافاً إليهم جميع رجال الدولة، على غراره يعملون ضمن اختصاصهم وخبرتهم، بعون من إخلاصهم على تنفيذ رغباته وتحقيق أهدافه وتطبيق برامجه.

إن تغيير الحكومات بالانقلابات أو بغيرها لايكفي إنقاذ الأمة من الروؤس الفاسدة في الإدارات إذا مابقي سائر الأعضاء في ركودهم وتقاعسهم عن أداء الواجب. فإذا ظل الأمر بين رئيس يأمر، وموظفين لاينفذون أوامر رئيسهم، انتشرت الفوضى* في البلاد. وكم من عضو فاسد في جهاز الدولة غير مجرى التاريخ.

الديمقراطية كلمة محببة إلى الشعوب. ولكنا مع الأسف أصبحنا نشاهد كثيراً من الدول التي تدّعيها على غير حقيقتها تتخبّط في مآزق حرجة لايعلم إلا الله مدى ماستحدث من أضرار. فالعبرة في تطبيق النظم والمذاهب الاجتماعية لا في طريقة تشريعها ووضع برامجها.

ياسيادة المشير!

نحن اليوم على أبواب مرحلة جديدة، في تأسيس كياننا الدولي. وغداً سيفتتح مجلس الأمة. ولست أدري مقدار تفهم أعضائه لنظام الاتحاد القومي بروحه وبجوهره. ولست وحدي في حيرة من الأمر، مهما حاولت فهم الشروح والتفسيرات التي تصدر كل يوم عن شخص مسؤول أو أشخاص غير مسؤولين. وقد اجتمعت إلى كثير من أعضاء الاتحاد وسألتهم فأجابوا أنهم لايعرفون شيئاً عما سيفعلون. وغالباً ماتكون قيمة الأعمال الباهرة على حسب تفهم رجال هذه الأعمال، لقدسية الواجبات الملقاة على عواتقهم بنصّها وروحها.

إن الدعايات المضلّلة التي توجه ضدنا كثيرة واسعة الانتشار. وإن أخصامنا كثيرون، وهم مفرطون في الغنى، ولهم مدارس خاصة ينشئون فيها دُعاتهم ويرسلونهم إلى جميع أقطار الدنيا لتشويه أعمالنا الصالحة. فما بالك بالأعمال غير الناضجة. ونحن مع الأسف لن ندرك حتى الآن مدى مايفعل سلاح الدعاية. فأهملنا هذا السلاح، ولم نعدّ له الأجهزة الكافية لردّ الدعايات بدعاياتنا المضادة.

إن الدولة الناشئة عادة لاتخلو سياستها الإنشائية من أخطاء وإنما تظهر قوة الدولة في تحري أخطائها، وابتكار الأساليب لتصحيح هذه الأخطاء. وإني أرى بعين

مجردة مخلصة ونظرة بريئة من كل غرض، أن من جملة أخطائنا الإنشائية، ولعل من أكبر هذه الأخطاء، قانون الإصلاح الزراعي. هذا القانون الذي كنت قدمت تقريراً عنه في حينه. وكان تقريراً أجملتُ فيه مارأيت من معايب ومواقع الضعف. وسهوت عن فظاعة المادة الثانية التي تحرم أولاد صاحب الأرض إرثهم مهما كان عددهم. وتحصر ذلك بزوجته وثلاثة من أولاده فقط. وكم يحزنني أن أقول إن اهتمام أخصامنا بذلك التقرير وبما جاء فيه كان أكثر من اهتمامنا نحن. فأخذوا يستغلون بعض ماجاء فيه عن حقٍّ وعن غير حق.

وفي يقيني أن الواجب يقضي إزالة الممنوع بعد أن زال المانع. ، ذلك لأن النتائج السيئة التي نشأت عن تطبيق هذا القانون كانت أعظم مما نتصورّ. ولايطيق الشعب الكادح المناضل أن يتحمل سوء هذه النتائج أمداً طويلاً لأن في ذلك إرهاقاً جسيماً له وقتلاً لكل نشاط، وقضاء على كل أملٍ له في مستقبل باسم.

إنّ الحالة الاقتصادية في البلاد تدعو إلى التفكير العميق. فالمواسم الشتوية جاءت سيئة ثلاث سنوات متتالية. وبدأ الفقر ينيخ بكلكله على بعض المناطق. وفي الوقت نفسه تسرّب الخوف إلى نفوس الناس، سواء من نتائج بعض القوانين، كقانون إنشاء المؤسسة الاقتصادية، وقانون تأميم بنك مصر، وقانو ن العمل الموحد، وقانون النقل. . وغير ذلك. أو من نتائج الإشاعات التي تلتها والتي تنتشر انتشار النار في الحطب. فهذا يقول إن دولتنا اشتراكية ولن تبقى فيها ملكية صناعية أو زراعية أو عقارية لأي مواطن. وذلك يدعي بأنه سمع بأشكال وأنواع من استيلاء الدولة على أموال الناس، مما يشابه البلاد الاشتراكية المتطرفة كيوغوسلافيا.

فهذه الإشاعات سببت القلق والخوف في نفوس أصحاب المشاريع والأموال. فمنهم من يكتم قلقه إلى حين وقد هرب كثير من المواطنين قسماً كبير من أموالهم. ومنهم من أخذ يهُرب أمواله إلى بلد قريب أو أطلق الحرية والربح إلى مالانهاية، وتطرف في ذلك حتى طبق سرية الحسابات في المصارف وإعفاء فوائد الودائع من الضرائب. وبدأ يبحث في إلغاء ضريبة الدخل. وبين القلق والتخوُّف

وعدم الطمأنينة؛ وبين هذه المغريات من كل نوع يقف أصحاب المشاريع ورؤوس الأموال في معركة لن تكون نتائجها لخير الاقتصاديات بلدنا. وقد تزول الثقة من النفوس. وإذا فقدت الثقة فالخطر واقع لاسمح الله. وفي ذلك تهديد لبرامج التصنيع والتنمية الاقتصادية ولنقدنا ولمستوى معيشة شعبنا، وبالخلاصة تهديد لكياننا.

والحل سهل وبسيط، وقد جربتموه ياسيادة المشير بأنفسكم يوم جئتم أول مرة في مهمتكم السامية. فقد أعطيتم بعض التصريحات المطمئنة التي أزالت كل قلق وخوف. وأصدرتم التشريعات المشجّعة، وأفهمتم الناس أن الدولة لاتريد أن تحلّ محل الأفراد في الشركات، وأنها تشجّع رأس المال الخاص، فانطلق الناس في مشاريعهم بعد ركود. وكانت نهضة، وكانت انطلاقة، نستطيع أن نفخر بها اليوم، فطمئنوا الناس، وأرسلوا لجنة من علماء اختصاصيين في هذه الأمور، حياديين بعيدين عن النزعة الحزبية، يعرفون حالة الإقليم معرفة دقيقة، ومطلعين على روح الأهلين في هذا البلد. وأعطوا هذه اللجنة الصلاحيات اللازمة لبيان كل مايتراءى لها من أخطاء أو صواب كي تضع المقترحات المجدية والحلول اللازمة لتوقيف مالايمكن تطبيقه من القوانين الصادرة، خصوصاً قانون الإصلاح الزراعي وقانون العمل الموحد، وتعديلهما بما يتفق والمصلحة العامة. وقد سبق أن عُدّل قانون الإصلاح الزراعي في الإقليم الجنوبي مرات عديدة.

ياسيادة المشير!

إن الرجوع عن الخطأ خير من التمادي فيه. وفّقكم الله إلى مافيه الخير والصلاح، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فخري البارودي

تمت المذكرات

إلى روح المرحوم فخري البارودي

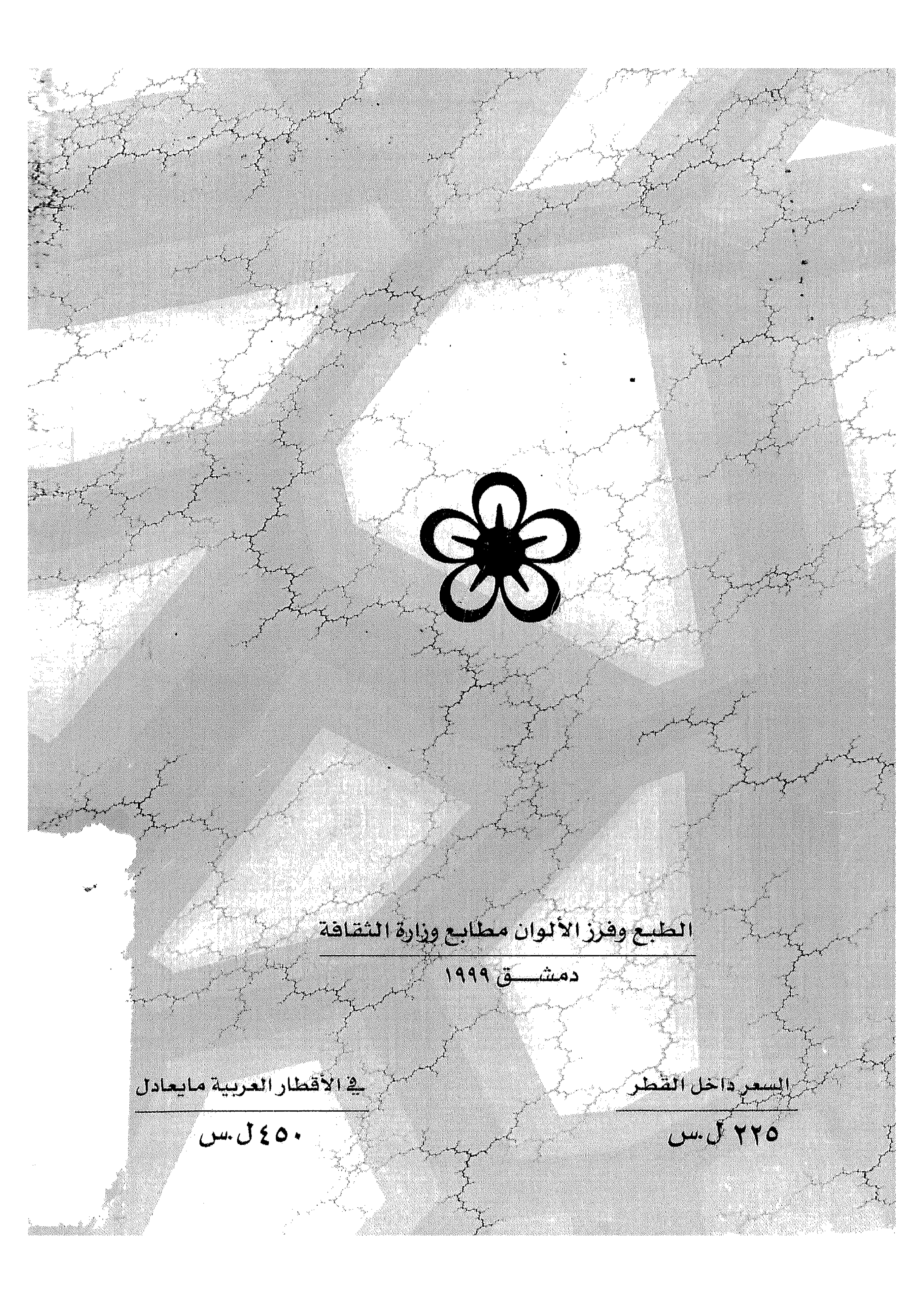
مات وجه دمشق، مات كرم دمشق، مات أناقة دمشق، مات وفاء دمشق، مات ظُرف دمشق، مات انسانية دمشق، مات مضافة دمشق، مات المساهم الأكبر في استقلال سورية والمساهم في استقلال البلاد العربية، مات قائل بلاد العرب أوطاني، مات شاعر دمشق بأعماله وروحه وحديثه، مات المتفقد للمعوزين والمستورين في دمشق، مات العطف واللطف في دمشق، مات عنوان دمشق، مات هالة دمشق، مات زعيم دمشق، مات نادي دمشق، مات محبوب دمشق، مات زهرة دمشق، مات فخر دمشق، مات من لا تجد بديلا عنه دمشق، ماتت ذكريات دمشق الجميلة، امّحت آخر صورة لدمشق القديمة، مات كعبة الظرفاء، مات محجة الفنانين، مات مقصد الأدباء، مات مقصد الوفود، مات صديق الجميع، مات محبوب الجميع، مات الموحد بين الارستقراطية والديمقراطية، مات حبيب الأكابر والصعاليك، مات حبيب الشعب، مات زعيم الشعب، مات من لا تموت ذكرياته، مات من لا ينتهي الكلام عن مزاياه، مات من لا تكفي الدموع لبكاه، مات من شخصه مطبوع في القلوب، مات زين دمشق، مات شباب دمشق، مات عطر دمشق، مات خمر دمشق، مات مجد دمشق، مات فخري البارودي.

بيروت ٥١/ ٥/ ١٩٦٦

أحمد الصافي النجفي

فهرس القسم الثاني

٣٠٠٠ ط١/١٠/١٩٩٩



الطبع وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشـــق ١٩٩٩

السعر داخل القطر

٢٢٥ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل

٤٥٠ ل.س